

رواية
المُهاجر

جميع الحقوق
محفوظة وسجلة

الطبعة ١٤٣٨ م
الأولى ٢٠١٧ م

www.alhatali.com

رؤى

أطلبه من:

مكتبة فاطمة الزهراء - هاتف: 25434480

تنفيذ طباعي

دار القارئ للطباعة والنشر والتوزيع

هاتف: ١٣٢٥٦ / ٠٣ - بيروت لبنان

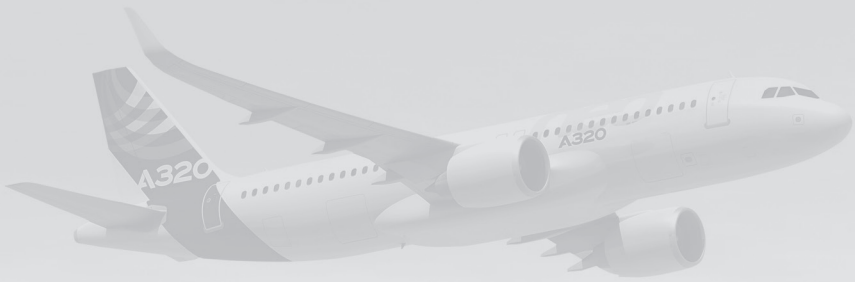
dar.alkari2012@gmail.com

د. صالح بن مطر الهطالي

رواية المهاجر

روى





فهرس الكتاب

| | |
|-----|------------------------------------|
| 9 | شكر وعرهان |
| 11 | الفصل الأول: المحضن الدافع |
| 15 | الفصل الثاني: تقليد أوسمة المجد |
| 27 | الفصل الثالث: بذور النجاح |
| 35 | الفصل الرابع: جنبي الغراس |
| 45 | الفصل الخامس: على طرفي نقيض |
| 53 | الفصل السادس: الإغراءات |
| 63 | الفصل السابع: آلام الفراق |
| 85 | الفصل الثامن: بلد الأحلام |
| 107 | الفصل التاسع: الصراع النفسي |
| 137 | الفصل العاشر: بداية الحصاد |
| 157 | الفصل الحادي عشر: وعاد سالم |
| 171 | الفصل الثاني عشر: دراسة ميدانية |
| 185 | الفصل الثالث عشر: الغوص في الأعماق |
| 207 | الفصل الرابع عشر: أبو خالد والوزير |
| 235 | الفصل الخامس عشر: حيل ماهرة |
| 251 | الفصل السادس عشر: المرافق الخاص |
| 267 | الفصل السابع عشر: تصفية حسابات |

| | |
|-----|---|
| 281 | الفصل الثامن عشر: القرار الأخير |
| 293 | الفصل التاسع عشر: توهُّمات مزعومة |
| 305 | الفصل العشرون: اللحظات الأخيرة |
| 325 | الفصل الحادي والعشرون: حبٌّ مؤبَّد |
| 333 | الفصل الثاني والعشرون: تحرّيات أمنية |
| 349 | الفصل الثالث والعشرون: حماية درجة أولى |
| 359 | الفصل الرابع والعشرون: وعادت المياه إلى مجاريها |
| 385 | الفصل الخامس والعشرون: صراعات استخباراتية |
| 409 | الفصل السادس والعشرون: انتصارٌ ساحق |
| 431 | الفصل السابع والعشرون: مؤتمر صحفي |
| 443 | الفصل الثامن والعشرون: بداية الاستقرار |
| 449 | الفصل التاسع والعشرون: مفاجآت سارّة |
| 461 | الفصل الثلاثون: زواج ميمون |
| 487 | الفصل الحادي والثلاثون: شيماء الداعية |
| 499 | الفصل الثاني والثلاثون: البدلة العجيبة |

شكر و عرفان

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، وأصلي وأسلم على المبعوث
رحمة للعالمين وسراجًا للمتقين.

أما بعد،،

فإنه لا يسعني وقد اكتمل هذا العمل المتواضع بعد سنين طويلة من الجهد المتواصل إلا أن أطأطئ رأسي شكرًا لله على منّهِ وفضله وكرمه وتوفيقه، وأسأله- سبحانه- أن يجعله خالصًا لوجهه الكريم، وأن ينفع به المسلمين أينما كانوا، وأن يجعله سببًا لتحفيز شباب وفتيات الإسلام ليشبّوا قادة لهذه الأمة، لا يداهنون في دينهم، ولا يرضون الدنيا في أعمالهم، وأن يُخرج من أصلابهم مَنْ يحملون مشعل الهداية للبشرية، ويكونون سببًا لنصرة الحق وردع الباطل أينما وجدوا.

كما لا يفوتني في هذا المقام أن ألهجّ بالشناء والشكر على مَنْ قدّموا لي يد العون والتوجيه طيلة السنوات التي قضيتها في هذا العمل، وأخصّ منهم الأديب الألمعي والشاعر الذي لا يُشَقُّ له غبار الأستاذ أحمد بن هلال بن محمد العبري الذي كان له الفضل- بعد الله سبحانه وتعالى- في إخراج هذا العمل بهذه الصورة البهية. كذلك، فلا أنسى أستاذ اللغة العربية وفارس ميدانها خالد بن هلال بن ناصر العبري وأستاذ اللغة العربية مروان بن محسن

بن سالم الذهلي والأستاذة الدكتورة سناء الباروني من جمعية جربة التواصل،
وغيرهم كثير، فلهم مني عظيم الامتنان، وأسأل الله أن يُجزل لهم في العطاء،
ويغدق عليهم أحسن الثواب.

وصلِّ اللهم وسلِّم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن تبعهم إلى يوم
الدين، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

الفصل الأول: المحضن الدافئ

استيقظ في الرابعة قبل الفجر، فاستحم، ثم أيقظ أخويه، ثم توجه إلى المسجد، فوجد والده قد سبقه. أدى صلاة الفجر مع الجماعة، تصافحوا بعد الصلاة، ثم عاد مع إخوته إلى البيت فوجدوا أمهم قد أعدت الإفطار، وما إن رأتهم حتى بادرتهم قائلة:

- ما شاء الله عليكم يا أولادي، يبدو عليكم نشاطٌ زائدٌ هذا اليوم.
- توجّهوا نحو أمهم وصافحوها وقبلوا يدها، ثم قال لها وهو يبتسم:
- إنه العام الدراسي الجديد يا أمي.

محمد شابٌ نحيلٌ ومتوسط الطول، في بداية السادسة عشرة من عمره، وسيّم الوجه، تبدو عليه سيماء الرجولة، له وجه دائري يميل إلى الطول قليلاً وعينان سوداوان، وشعرٌ فاحم السواد طويلٌ، يبدو بثوبه وسرواله وطاقيته البيضاء في أبهى حُلّة. كثير الشبه بوالدته خديجة، حتى إنها كثيراً ما تقول لإخوته مداعبة له: هذا أبي، وذلك لتشابه ملامحه بأبيها محمد. تربط أباها صلة قرابة بزوجها علي، وعملا في شركة واحدة لأكثر من عشر سنوات، فزوّجها إياه، فأحبته حباً مفرطاً. ولما رزقت بمولودها الأول محمد زاد حبها لزوجها، وصارت تهيم في حبهما معاً.

لم يكن عليٌّ بتلك الوسامة المفرطة؛ فقد أنهكته السنين، وأكلت منه الأيام، ومع ذلك لم يكن بذي قبح، متوسط الطول، متوسط البنية، عيناه وشعره سوداوان كبقية أهل القرية. صارت أخلاقه النبيلة وكرمه المفرط حديث المجالس في القرية، حظي بالحب والتقدير من والد خديجة وأهلها ما جعلهم يوافقون مباشرة عندما جاء لخطبة ابنتهم الوحيدة المدلّلة، ولم تردّد هي في الموافقة لما اعتادت سماعه من أبويها عن خصاله الحميدة والنبيلة.

رزق عليٌّ بخمسة أطفال: ثلاثة بنين وابتنتين؛ وهم على الترتيب: محمد ثم سمية ثم خالد ثم يوسف ثم أروى الصغيرة في ربيعها الثالث. أما خالد فيصغر سمية بعامين، وله من الوسامة وملامح الوجه ما لمحمد، غير أن جسمه أكثر قصرًا وامتلاءً. يعتبر خالد الابن الأكثر ذكاءً في الأسرة، ولولا الأخلاق الحميدة التي يتمتع بها محمد لطغى حب أبويه لخالد على حبهما له. وأما يوسف، الذي ما زال في صفه الرابع، فهو قصير القامة، يميل إلى الشبه بأبيه، حتى في عرجته الخفيفة.

وأما البنت المدلّلة سمية التي دخلت عامها الخامس عشر، واستأثرت بحب الأثني في الأسرة لأكثر من عشر سنين، فهي تشبه أباهما ليس فقط في هيأته وجِدّة صوته وقصر أصابع يديه، وإنما تَمَمَّصت شخصيته، فكأنما هي نسخة مطبوعة من أخلاقه ولطافته، ولذا فهي لعلِّيُّ وأولاده الأم الثانية في البيت؛ فعندما تغيب أمها أثناء زيارتها لوالدتها وإخوتها وتقضي النهار معهم لا يفقد عليٌّ وأولاده شيئًا من العناية والاهتمام، فضلًا عن الاهتمام بنظافة المنزل وترتيبه، وطبخ وجبة الأرز المكبوس التي تعلمتها من أمها. تألّق نجم سمية في المدرسة منذ أن بدأت عامها الأول؛ فقد كان ذكاؤها العالي وحماسها الزائد مفتاحًا لقلوب معلماتها، فكانت - وما زالت - تستقر في المراكز الأولى في الصف.

المحضن الدافئ

وأما أروى فهي كثيرة الحركة، وخاصة عندما يجتمع إخوتها في البيت؛ فتراها تنتقل من حضن لآخر، يتقاذفها إخوتها وهي ترميهم بضحكاتها القصيرة وكلماتها المتعثرة. بعد قدومها إلى البيت منذ ثلاثة أعوام صارت النعمة المهداة لأمها التي كانت قبل مجيئها تستوحش تلك السويغات التي يقضيها أولادها في المدرسة وزوجها في الوظيفة. وبعد مجيئها صار على خديجة أن تنظم أوقاتها وتبذل أضعاف جهدها السابق لإنجاز متطلبات المنزل مع رعايتها لطفلتها.

التحق عليٌّ بعمله في البلدية- كمفتش صحي- منذ أكثر من ثلاثين سنة، وإلى يومنا هذا فهو يُجهد نفسه ليقوم بعمله خير قيام، ولذا صار يعود إلى البيت منهكاً من كثرة تنقلاته وطبيعة عمله، فيغمره حنان خديجة وضحكات أروى وهي تركض إليه لتحتضنه، فيغسلان عنه ما جاء محملاً به من أرق العمل وامتهان المسؤولين له، وما يحمله في قلبه من هموم الأسرة والديون المتراكمة عليه. لم يكن راتبه يفي باحتياجات أسرته التي كبرت مع مرور الأيام. لكن عليّاً ما كان يذكر شيئاً من ذلك لأحد إلا ما تلمسه خديجة أحياناً من شرود ذهنه، فتواسيه قائلة:

- لا عليك يا أبا محمد، سيكبر الأولاد ويكونون- بإذن الله- ساعدك الأيمن.

فلا يزيد علي أن يتسم لها.

عاشت هذه الأسرة المتواضعة في البيت الذي ورثه عليٌّ من أبيه، ثم قام- على مرور السنوات- بإدخال بعض الإصلاحات والإضافات عليه. وعندما افتتحت المدرسة الابتدائية الأولى في القرية عام ١٩٧٥م لم يجد عليٌّ بُدّاً

الفصل الأول

من الالتحاق ببرنامج تعليم الكبار؛ حيث كان في الصباح مشغولاً بعمله في البلدية. استطاع مواصلة الدراسة إلى الصف السادس، ثم بعد أن تزوج ورزق بمحمد في عام ١٩٨٢م ترك الدراسة لتزاحم الأعمال عليه.

لم يكن ترك الدراسة عائقاً بالنسبة له عن تربية أولاده على الصلاح والتقوى؛ فقد تلقى العلم الديني في المسجد القريب من بيته على يد الشيخ إدريس، الذي لم يكن إماماً للصلاة فقط، وإنما كان معلماً ومرتباً، وكان يحمل هموم الأمة مما أهله لتربية عدد لا بأس به من أبناء القرية الذين حملوا عنه ذلك الهم، ثم جسّدوه في واقع حياتهم؛ إذ كان منهم المعلمون والأطباء والمهندسون.

أما خديجة فقد تربّت على الصلاح والفضيلة في بيت أبيها الذي يُعدُّ من شيوخ القرية. تعلمت القراءة والكتابة عند المعلمة أم عبد الرحمن التي نذرت نفسها لتعليم بنات القرية في بيتها حتى بعد افتتاح مدرسة الإناث في عام ١٩٧٩م. التحقت خديجة ببرنامج تعليم الكبار لستين فقط، ثم تركته عندما حملت بمحمد.

وإذا كان محمد وإخوته قد امتنَّ الله عليهم بأبوين مُدركين لأمانة التربية ومعانيها، فإن غالبية الأسر تعيش بعيدة عن تعاليم هذا الدين، ويعيش أبناؤها في ضياع وخواء عقدي وفكري؛ فغالبيتهم يقضون أوقاتهم أمام شاشات التلفاز ينتقلون من قناة لأخرى بحثاً عن أفلام الكرتون والمباريات وحلقات المصارعة الحرة والمسلسلات. ومن سلّم منهم من هذه وتلك فلن يسلم من مجلات الكرتون التي تربيهم على قيم ومبادئ الانحلال والميوعة، وأفكار التيارات الفكرية الهدامة التي تعجُّ بها مجتمعاتنا.

الفصل الثاني: تقليد أوسمة المجد

كان ينتظر بداية العام الدراسي بفارغ الصبر لأنه يعلم أنه سيبدأ حياة جديدة؛ فمدرسة خالد بن الوليد الثانوية غير مدرسة النهضة المتوسطة. كذلك، ففي هذه المدرسة سيلتقي بطلاب جُدد من مدارس متوسطة مختلفة. ومن أهم الأشياء التي كانت تُفرِّحه هو أنه سيلتقي بطاقم تدريسي جديد؛ فمعلمو الثانوية يختلفون عن معلمي المراحل الأخرى، وهم على مستوى أعلى من العلم والكياسة، وهذا ما يتمناه.

مر بجوار بيت صديقه العزيز وزميل دراسته ورفيق طفولته سالم. وجده ينتظره، فتصاحبا إلى موقف الحافلة. وفي الطريق بدءا يتجادبان الحديث عن المدرسة وعمّا يُخطّطان له، وكيف أنهما سعيدان جدًّا بهذا اليوم.

سالم ذو عينين كحليتين، وشعرٌ فاحمٌ ينسدل على عاتقه، كثير المزاح، لا تكاد الابتسامة أن تفارقه، له من الطول ورشاقة الجسم ما لمحمد ولكثيرٍ من أقرانهم في هذا السن. وحيث إنه الابن الوحيد لوالديه بالإضافة إلى ابنتين يكبران سنًّا وشيماء التي تصغره بسنة، فقد صار مدللًا بين أبويه وأخواته، وصار ينفق على نفسه من أنواع المرفهات ما جلب عليه الكثير من نظرات الغيرة من قِبَل زملائه، وكان محمد كثيرًا ما يعاتبه على ذلك.

منذ ولادتهما في مايو ١٩٨٢م تربا الشبان كتوأمين لا يكادان ينفصلان عن بعضهما؛ فساعةً في بيت محمد وأخرى في بيت سالم. ولما بدءا الذهاب إلى المدرسة كانت مذاكرتهما كثيرًا ما تكون في بيت سالم؛ فمحمد يطرب للجلوس مع أخواته لما يولينه من اهتمام، وخاصة شيماء، فهي لا تذاكر إلا معهما. وعندما بدأ دخول سن المراهقة، وبدأت مشاعر الإحساس بالأثني تزوره بين حين وآخر، كانت صورة شيماء لا تفارقه، وقد لاحظت أمه ذلك من كثرة ما يتكلم عنها، حتى إنها كانت تداعبه بقولها: يبدو أنك متعلقٌ بها وتريد الزواج منها.

لم تكن شيماء مجرد فتاة الأحلام لمحمد، وإنما كانت أيضًا صديقة حميمة لأخته سمية، وخاصة عندما تأتي إلى بيتهم. توطدت هذه العلاقة بين الأطفال فتوطدت - على إثرها - العلاقة بين الأستين؛ فصارت خديجة وعفراء - أم سالم - تتصاحبان لزيارة الجيران أو عند الذهاب إلى المستشفى، وكان عليٌّ يُكنُّ احترامًا كبيرًا لسعيد - والد سالم - ويستشيرُه - أحيانًا - في بعض القضايا المتعلقة بالعمل والأسرة لكونه الوحيد من الكبار في القرية الذي أنهى الثانوية.

لم تكن العلاقة الوطيدة التي نشأت بين خديجة وعفراء، والأوقات الطويلة التي يقضيانها سوياً، لِيُتورث لديهما شيئاً مفيداً غير تضييع الأوقات في القيل والقال، والحديث عن فلانة وفلان، واحتساء القهوة والشاي، كما تفعل كثيرٌ من نساء المملكة. كانت غالبية النساء في ضياع وتيهٍ وبعُدٍ عن تعاليم الإسلام وقيمه، وقلَّما تجد بينهنَّ امرأة متعلمة أو متديّنة. ومع ضياع الأمهات ضاع الأولاد وضاعت الأُسُر.

ولم يكن الرجال بأفضل حالٍ؛ فغالبيتهم يقضون سحابة نهارهم بحثًا عن

تقليد أوسمة المجد

لقمة العيش، وما إن يأتي المساء حتى يتقاطرون على الديوانيات يحتسون القهوة والشاي، ويُدخّنون السجائر والتبغ. لذا، صارت المساجد شبه مهجورة، ونادراً ما يزيد عدد المصلين في الجماعة على عدد الأصابع.

لم تتبدل أيام الثانوية ونظامها التعليمي منذ زمن علي وسعيد؛ فما إن وصل محمد وسالم إلى المدرسة حتى طُلبَ منهما - كغيرهما من الطلاب - أن يصطفوا في طوابير، ثم عُزف النشيد الوطني مصحوباً بأنغام الآلات الموسيقية. كان على جميع الطلاب أن يُردّدوا هذا النشيد، ويا ويل مَنْ لا يقيم بذلك. ورغم أن غالبية الطلاب لا يُركّزون على عبارات النشيد - التي في غالبيتها تمجيد للملك والوطن - إلا أنها - بلا شك - ترمج عقولهم ليشبّوا على حبهم وولائهم للوطن والملك.

بعد النشيد الوطني ألقى مدير المدرسة كلمة ترحيبية بهم، ثم قام المعلمون بتوزيع الطلاب على الفصول المختلفة، ولحسن حظهما فقد تم اختيارهما ليكونا في الفصل نفسه.

كانت طاوولات الفصل مصفوفة في أسطر - حسب الطراز التقليدي - وتتوسط الجدار الأمامي سبورة سوداء كبيرة بأسفلها رفٌ صغيرٌ به طباشير عدة ومساحة سوداء ناحلة. تعوداً من السنين الماضية أن يجلسا في وسط الصف الأمامي، فهما لا يريدان أن يُفوّتا أية معلومة يحصلان عليها من المعلمين، ويريدان أيضاً ألا ينشغلا بأمور أخرى عندما يكونان في نهاية الصف.

كانت أول مادة في ذلك اليوم هي مادة التربية الإسلامية، وهي المادة المفضلة عندهما. عندما دخل المعلم وسلّم على الطلاب، ردّ الطلاب بصوتٍ واحدٍ: وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته. حينها التفت محمد إلى سالم وهو

الفصل الثاني

مبتسم، وقال- وكأنه مسرور بأن يحصل على مثل هذا المعلم:-

- يبدو أنه معلمٌ رائعٌ.

ردَّ سالم- وهو أيضًا لا يُخفي سروره:-

- أظن ذلك.

كان المعلم الشاب أسامة ملتحمًا، تبدو عليه سيما التدين والتواضع والوقار. بدأ حديثه قائلاً:

- يا أبنائي الأعزاء، أريد أولاً أن أهنئكم من قلبي لوصولكم إلى هذه المرحلة المهمة في حياتكم؛ فهي مرحلة الحيوية والعطاء، ومرحلة الجد والاجتهاد. كان الطلاب يستمعون إليه باهتمام بالغ، فقد كان أسلوبه في الحديث ممتعاً، وبدأ يسوق لهم الحكيم والعبر والمواعظ، ويحفزهم على الاجتهاد في الدراسة، ثم قال لهم:

- ربما تتذكرون قول الله- سبحانه وتعالى:- [وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ].

- ماذا عساه يريد أن يقول؟

خاطب محمد نفسه، وسبح بفكره فيما يفهمه من معاني الآية الكريمة، ثم استيقظ من شروده عندما سمع الأستاذ يصرخ بصوت عالٍ سمعه من في الصفوف المجاورة:

- إنها السبب، إنها السبب، لقد اختارت لنفسها المذلة والمهانة والاستكانة بدلاً من أن يكون لها العلو والسمو، كما أرادها الله- سبحانه وتعالى-، ولذا فقد صارت فريسة لأعدائها. شرد محمد بفكره مرة أخرى وهو يخاطب نفسه

وقد فاتته المقدمة التي سردها المعلم عن أحوال الأمة:

- ومن هذه يا ترى؟

لم يَدُم طويلاً حتى سمع الأستاذ أسامة يقول:

- يا أبنائي، إن أمتكم تنتظركم أن تعيدوا إليها مجدها وعزها وسؤدها.

ما إن سمع هذه الكلمات حتى كاد يطير من الفرح؛ فهو لم يعتد سماع هذا الكلام من معلميه السابقين، وإنما كان والده دوماً يُذكِّره بهذا ويقول له:

- يا ولدي، أنت ما خُلِقْتَ للهو واللعب، وإنما لتكون خليفة الله في أرضه.

رمق سالمًا بنظراتٍ تُعبِّرُ بجلاء عما يشعر به في داخله من ابتهاج واعتزاز،

ثم انتبه حين ألقى المعلم عليهم المفاجأة الكبرى:

- أريد أن أخبركم بسرٍّ مهم، أتدرون ما هو؟

صمت الطلاب وهم يفتشون في أذهانهم عن هذا السر الذي يقصده

المعلم الحاذق. كان سالم يتابع بإصغاء حديث الأستاذ أسامة، وغاص هو

الآخر بفكره في محاولة اكتشاف هذا السر، ثم استدار فجأة إلى محمد وكأنه

استطاع فك طلاسم ذلك اللغز. لكن محمدًا كان يسبح في عالم بعيد. كان

كثيرًا ما يتصور انهيار أمريكا كما حدث للاتحاد السوفيتي منذ بضع سنوات.

كانت تداعب خياله نشوة النصر وهو يسمع والده يقصُّ عليه قصص الفاتحين،

ويقول له معلقًا:

- لقد بات أوان النصر وشيكًا يا ولدي، وإني لأرجو الله أن تكون أنت

الفاتح الرباني لهذه الأمة.

واصل المعلم كلامه، وقال:

- إن السر الذي أتكلم عنه هو أنتم.

نعم، لقد صدق كلام والده؛ فهذا هو أستاذ التربية الإسلامية يؤكد له أنه سيكون- بإذن الله- الفاتح الرباني لهذه الأمة، وإلا فلماذا يسمي ذلك سرًا؟
خاطب نفسه، وقلبه يرتجف من شدة ما يشعر به من حماس وفخر:
- ما قال الأستاذ هذه الكلمات جزافًا. لا بُدَّ أنه يقصدني. لا بُدَّ أنه لمح عندي شيئًا من خصال الفاتحين.

هكذا استنتج، وهو يتابع حديث أستاذه. واصل الأستاذ حديثه:

- أنتم يا أحبائي سرُّ عزة هذه الأمة، أنتم سرُّ الرفعة والتمكين والريادة لها، وابتداؤكم اليوم في هذه المرحلة هو بداية المشوار للمجد القادم الذي سيرفع- بإذن الله- راية هذه الأمة ويُعلي لواءها.
كانت هذه الكلمات تنزل على محمد وسالم كالرذاذ البارد، تبعث فيهم روح الشوَّة والحماسة والاعتزاز بالنفس.

تبادل الاثنان نظرات ملؤها الابتهاج، ثم غاص كلُّ منهما في عالمٍ من الخيالات. لقد رأى سالم نفسه متربِّعًا على كرسي ضخم فخم يدور به يمنة ويسرة وأمامه طاولة ضخمة أنيقة، ويمتدُّ بصره في أرجاء مكتب واسع مليء بالأرائك، وتتوسط جداره الجانبي مكتبة ضخمة جميلة، ويسمع مدير مكتبه وهو يناديه:

- يا سيادة المدير، هل تأمرني بشيء؟

أما محمد فقد رأى نفسه في بدلة طيار تتناثر على منكبیه نياشين ونجوم وأشرطة، ويرى نفسه وهو يُطلُّ من نافذة مكوك الفضاء والأرض تُطوى من

تحتة بسرعة البرق، ويسمع والده وهو يناديه من خلال سماعة المكوك:

- لا تنسى يا ولدي أن تتصل بنا عندما تصل إلى القمر.

ثم يسمع أمه تقول له:

- حفظك الله يا ولدي، عُد إلينا منتصرًا فأمتك في انتظارك.

لم يفق الشابان من عالمهما إلا على صوت الأستاذ أسامة وهو يطلب من الطلاب الهدوء بعد الضجة التي عمّت الفصل من جراء تلك الكلمات الرائعة التي قذفها في قلوبهم. طلب منهم أن يُعرّف كل واحد بنفسه، وأن يذكر بعض طموحاته وأحلامه.

قام الطلاب الواحد منهم تلو الآخر يُعرّفون بأنفسهم. كان بعض الطلاب لا يُخفي ما يطمح لتحقيقه من أمور في غاية النبل والسمو، وكان بعضهم يذكر أحلامًا وطموحاتٍ بسيطة، لا تليق بما سمعوه من كلام محفّزٍ ومُعَلِّمٍ للهمة من هذا المعلم الحاذق.

بدأ محمد يسبح بخيالاته. ماذا عساه أن يقول؟ هل يُفصح بكل ما يجول بخاطره؟ هل يخبرهم بما قاله يوماً لوالدته عندما رأته مشغول البال وهو يمسك بجريدة «المسلمون»، فسألته:

- فيما تفكر يا حبيبي؟

أجابها ببراءة الطفولة:

- هل يمكنني أن أحرّر العالم يا أمي؟

كادت أمه أن تقع من هول ما سمعت، فلم تتمالك نفسها حتى احتظنته طويلاً والدموع تتساقط من عينيها.

ماذا عساها أن تقول له؟ هل تخدعه بالأمانى الكاذبة والوعود غير المعقولة، أم تُحطِّم هذا الطموح المُتَّقَد في داخله؟ قالت له بعد عناق طويل:

- نعم يا ولدي، ولكن تريث كيما تكبر ويقوى عودك!!

لا، لا يمكنه أن يخبرهم بهذا؛ فقد وعد أمه أن يجعل هذا سرًّا بينها وبينه حتى ينتهي من الثانوية. إذن، بماذا عساه أن يخبرهم؟

هل يخبرهم بتلك الرؤيا التي رآها منذ سنة تقريبًا وأخبر بها أباه:

- لقد رأيتُ كأنني أمتطي أسدًا وهو يطير بي في غابة كثيفة، وأنا أتقلد سيفًا مُدَّهَبًا فلا أمرُّ على شجرة ميتة إلا قطعتها، ولا ضبع أو حية أو خنزير إلا أطرتُ رأسه، حتى استقرَّ بي الحال في ساحة واسعة تتوسطها صخرة ضخمة، فاعتلى بي الأسد تلك الصخرة، ثم أنزلني عليها. حينها، شاهدتُ جيوش الحيوانات وهي تجشو على ركبها ساجدة لي، ثم ضربتُ على تلك الصخرة بسيفي، فأحدثتُ صوتًا مثل الرعد، وظهر منها نورٌ خاطفٌ أضاء تلك الغابة بأكملها.

لقد شاهدتُ والدي يرتجف من الخوف، فأخذني وقبَّلني، ثم قال لي:

- اكنتم هذه الرؤيا يا ولدي.

قرر أن يقول كلامًا عامًا، والحر تكفيه الإشارة.

عندما اقترب دوره بدأ وجيف قلبه وهو يُرْتَّب في ذهنه الكلمات التي سيقولها. عرَّف بنفسه أولاً، ثم قال:

- أيها الأستاذ الكريم، ويا إخواني الأعزاء، إنني قد لا أختلف عنكم في كوني بشرًا مثلكم، أتشابه معكم في طول قامتي، وفي هيئتي ووزني، غير أنني أقول لكم إن ما سمعته من معلمنا الكريم قد جعلني أشعر بأنني لست كغيري من

تقليد أوسمة المجد

الناس، وإنما أنا شخص اختاره الله - سبحانه وتعالى - لمهمة عظيمة وسامية؛ ألا وهي رفع مكانة هذه الأمة وانتشالها من الذل والهوان الذي تعيش فيه، كما سمعتم من معلمنا العزيز.

كان الأستاذ أسامة يستمع لهذه الكلمات وهو لا يكاد يصدق نفسه؛ فهذا أول أيام السنة الدراسية، ولم يكن يتوقع أن يوفقه الله للحصول على مثل هذا الطالب النبیه، والذي يبدو أنه متّقد الفكر، عظيم الطموحات. كذلك، فكان الطلاب - وخاصة الذين يلتقون بمحمد لأول مرة - معجبين بأسلوب حديثه، وفصاحة لسانه.

واصل محمد حديثه:

- إنني أيتها الأستاذ الكريم أريد فعلاً أن أكون الشخص الذي وصفته في حديثك، ولكني - كما تعلم - طالب بسيط وضعيف، وليس عندي من العلم والفهم ما يُمكنني من أن أصل إلى تلك المرتبة، ولذلك أسألك أيها الأستاذ الفاضل لي ولإخواني هنا أن تهتم بنا، وأن تساعدنا لأن نصل إلى المستوى الذي يريده ربنا لنا، وإنني أعاهدك أن أبذل قصارى جهدي لأن أصل إلى تلك المكانة.

انتهى من حديثه، وبدأ خفقان قلبه يسكن قليلاً، فهو لم يُبِح بتلك الآمال العظيمة، وفي الوقت نفسه أشعرَ أستاذه برغبته العارمة في الارتقاء بذاته وتطوير نفسه. لم يتمالك الأستاذ نفسه حتى قال له بابتسامة حملت معاني كثيرة في نفس محمد:

- بارك الله فيك يا محمد وفي أمثالك، وأسأل الله - سبحانه وتعالى - أن

الفصل الثاني

يعيننا جميعاً لتعاون للوصول إلى المكانة والمرتبة التي يريدها لنا رب العزة
جل وعلا.

سكن قلب محمد وهذا ضميره، وتجلت من محيّه ابتسامة عريضة وهو
يسمع كلمات أستاذه، ثم التفت إلى سالم وصار يُحدّق فيه والابتسامة لم
تفارق ثغره، وبدأ سالم يلقي خطبة أمام أستاذه التي لم يسمع منها محمد إلا
بعض الكلمات. لقد هام مرة أخرى في خيالات عريضة، ورأى نفسه وهو
يتقلّد مراتب المجد، ويطير بجناحيّ الإيمان والعلم إلى آفاق تحمل لأمته
بشائر النصر، وترتقي بها لتصبح أمة القيادة والريادة لهذا العالم. أتكون تلك
الرؤيا حقيقة؟ أيكون ذلك الأسد هو هذا الأستاذ؟ هكذا صبّ على نفسه سيلاً
من الأسئلة التي لم يجد لها جواباً، ولكنه كان يجيب نفسه بنبرة تأكيد: بإذن
الله.

- إني ومحمد سواء.

بهذه الكلمات التي سمعها من سالم انتبه من عالمه الآخر. واصل سالم
حديثه:

- وستجدنا- بإذن الله- معك يدًا واحدة، ونرجو أن تأخذ بأيدينا إلى
النجاح والفلاح بإذن الله تعالى.

أعجب الأستاذ أسامة أيضًا برده، فقال له:

- بارك الله فيك يا سالم، وإني محظوظ هذا العام أن أحظى بطلاب من
أمثالكم.

انتهت الحصة فقاما مسرعين ليُسَلِّما على الأستاذ أسامة.

تقليد أوسمة المجد

– يا أستاذي: هذه يدي، أعاهدك وأعدك أن أكون معك، ولكن عليك أن لا تنسنا من توجيهك ونصحك، وأن تهتم بنا، فنحن في تلهّفٍ وشوقٍ لخدمة ديننا وأمتنا.

بهذه الكلمات المعبرة توجّ محمد بداية مرحلة ذهبية من حياته: صداقة مؤطرة بالإيمان والإخاء، وعمَلٌ دؤبٌ يضع اللبنة تلو الأخرى في بناء مجدٍ سامقٍ لهذه الأمة. ابتسم له الأستاذ أسامة، ثم قال:
– يا ذن الله ستكون بيننا لقاءات متكررة.

الفصل الثالث: بذور النجاح

قضى محمد وسالم أيام الثانوية وهما يتمنيان أن لا تنقضي؛ فمن ناحية صارا يترددان على معلم التربية الإسلامية، الذي ما ادخر جهداً وهو يشحذ هممهما، ويشجعهما على الارتقاء بذواتيهما علمياً وفكرياً، وأحياناً يهدي إليهما الكتب الفكرية. ومن ناحية أخرى، وجدا منهج الثانوية أغزر مادة وأكثر تحفيزاً فبدلاً قصارى جهدهما في مذاكرة الدروس وقراءة الكتب. كذلك، صار الأستاذ أسامة يزورهما في بيتيهما، وأحياناً يصطحبهما لزيارة بعض أصدقائه من معلمين وموظفين ممن لديهم اهتمامات بالدعوة والفكر.

زارا مرة الدكتور إياد محفوظ- رئيس جامعة البيان الأهلية- في منزله. دُهِل محمد وسالم من روعة التصميم المعماري في منزل- أو قصر- الدكتور إياد، ولم تبرح عينا سالم وهما يتجولان بين الاسطوانات المزخرفة بأجمل النقوش التركية، والقبة الفسيحة المزينة بالآيات القرآنية، والسجاد الإيراني الذي تمتزج روعة الألوان بين الأشكال الهندسية المنقوشة عليه.

أما محمد فسرعان ما تحوّل بصره إلى الدكتور إياد الذي بعث في نفسه الهيبة والجلال، ووجد فيه شخصية عظيمة تجمع بين العلم والتواضع. لقد كان واضحاً أن محمداً لن يترك هذه المناسبة لتمرّ دون أن يرتشف من معينها.

- هل تفكر في دخول الجامعة؟

سأله الدكتور إياد كجواب على سؤاله حول شروط القبول في جامعة البيان. لم يُرد أن يستأثر بالحديث تأدّباً فأعطاه ردّاً مقتضباً:

- هذا يعتمد على النسبة التي سأحصل عليها.

لكن محمداً ألقى قبلة أذهلت جميع الحاضرين.

- أيهما أفضل: الدراسة في جامعة البيان أم في أمريكا؟

هكذا قذف سؤاله، فأحدث ضجة بين الشخصيات العديدة الذين كانوا يحضرون ذلك المجلس، حتى إن الدكتور إياد تلعثم في الإجابة، فردّ عليه:

- طبعاً أمريكا.

لم يتمالك الأستاذ أسامة نفسه حتى خفض وجهه حياءً مما يمكن أن يكون قد سببه سؤال محمد في نفس الدكتور إياد. تدارك الدكتور الموقف فأردف قائلاً بدبلوماسية:

- رغم أنهم - أي الأمريكان - قد سبقونا في مضمار العلم غير أن جامعاتنا أصبحت تنافس جامعاتهم.

بقي محمد وسالم يتكلمان عن هذه الزيارة والوجوه التي تشرّفا بالتعرف عليها لأكثر من شهر، وعرف والداهما تفاصيل تلك الزيارة بحذافيرها، حتى كيف اهتزت يد الدكتور إياد وهي تمسك بكوب الشاي عندما فاجأه محمد بسؤاله.

بدأ عود محمد العلمي والفكري يشدد ويقوى، ولاحظ والداه عليه ذلك التغيّر، وخاصة في جلساته الحوارية المتكررة مع إخوته. قال له أبوه يوماً:

- ما شاء الله، لقد أصبحت معلِّماً ومربيّاً يا ولدي.

أما أمه فقد رأت ملامح الرجولة تنضج فيه يوماً بعد يوم فكانت تداعبه

بقولها:

- يا حظ من ستزوجك يا حبيبي.

نكّس رأسه حياءً، فعلّقت سمية:

- يا حظ شيماء.

فوكزها بيده.

منذ أن بدأت ملامح الرجولة تظهر عليه، وعَلِمَ من حديث أقرانه أنها بداية مرحلة المراهقة، من حينها بدأ يخفف من زيارته لبيت شيماء خشية أن يشكّ سالم في أمره، فقد كان شديد الغيرة على أخواته. لم يُطِق الصبر على فراقها والحديث عنها؛ فقد كان لا يبارح بيتها إلا نادراً.

استغلّ ملاحظة أخته لاهتمامه بها، فجعلها بريده إلى قلب شيماء. كانت سمية شديدة الذكاء، قوية الملاحظة، وساعده ذلك في بداية الأمر كي يقضي معها أوقاتاً جميلة يُعبّر فيها عن المشاعر العاطفية التي بدأت تكبُر بداخله، ثم ما لبث أن وصل إلى اتفاق معها لتنقل له أخبار شيماء.

منذ أن دخل الثانوية لم يرها إلا مرة واحدة. ذهب مرة لزيارة سالم، وكانت تنتظر زيارة إحدى زميلاتهما، فما إن رنّ جرس المنزل حتى أسرعت لفتح الباب. كانت ترتدي ثوباً وردياً فضفاضاً طويلاً يتدلى إلى أسفل قدميها، ويعلوه غطاء رأس خفيف بنفسجي اللون. رفعت بصرها قليلاً، ورمقته بعينين دافئتين. لقد كان قلباهما يرجفان. سلّمت عليه، فلم يستطع أن يزيد إلا:

- وعليكم السلام.

بقيا لوهلة ينظر كل منهما للآخر، ثم أدارت ظهرها ودخلت لتنادي أخاها، فغاص في عالم من البهجة والنشوة العارمة.

كان المعلم يشجعهما على البذل والعطاء، وأسس معهما جماعة العمل التطوعي، واستطاعا أن يقنعا عددًا كبيرًا من الطلاب للانضمام إليها. كل هذا جرَّ عليهما- وخاصة محمد- بعض المشاكل مع الطلاب، وحتى مع بعض المعلمين.

كان حال مدرسة خالد بن الوليد الثانوية لا يختلف عن بقية مدارس المملكة؛ فكما أن الطلاب يُنشئون على الحبِّ والولاء للوطن والملك منذ نعومة أظفارهم، فإن الحكومة لا تألو جهدًا أيضًا في تنشئتهم على الميوعة والعزف والأغاني والرقص؛ حتى إنه لا تكاد تقام فعالية معينة برعاية جهة حكومية إلا ويُجلب لها الأطفال الصغار- وخاصة البنات- ليرقصوا ويُغنوا أمام الحضور.

ولتعيدهم على ذلك صارت مادة الموسيقى إلزامية في كل المدارس. لذلك، لا يُستغرب أن يَكِنَّ معلمو الموسيقى الكراهية للأساتذة والطلاب الذين تبدو عليهم سيماء الصلاح، أو أنهم يدعون إلى الصلاح والخير. من هنا سأل أستاذ الموسيقى يومًا سالمًا بسخرية:

- هل تبيتا في بيت الأستاذ أسامة؟

فهم سالم مغزاه فأراد أن يغيظه، فردَّ عليه:

- فقط عندما نريد قيام الليل سويًا.

بذور النجاح

ومع غرس بذور الميوعة والانحلال من قبَل أساتذة الموسيقى وأشباههم تكوّنت جماعات من الطلاب المنحرفين الذين لا همّ لهم إلا إفساد بعضهم بعضًا والتندُّر بالأساتذة والطلاب الصالحين، وأحيانًا حتى الاعتداء عليهم.

كان خُلُود- كما يناديه زملاؤه المشاغبون- يتزعم واحدة من هذه الجماعات الفاسدة، وكان لا يفتأ هو وشلته يلاحقون محمدًا وسالمًا ويضايقونهم بالكلام البذيء والتعليقات الساخرة. جاء يومًا إلى محمد وقال له متهكمًا:

- أريد أن انضم إلى جماعتكم!!

فما كان من محمد إلا أن ابتسم له ورحب به، وفعلاً انضم خُلُود وشلته إلى جماعة العمل التطوعي.

قامت الجماعة بأنشطة مختلفة موجهة لخدمة الطلاب في المدارس والمجتمع بشكل عام، وركّزت على تحفيز الطلاب على الاهتمام بالدراسة والارتقاء بالمعرفة والسلوكيات، والبذل والعطاء من خلال القيام بمشاريع مختلفة لخدمة المجتمع، ووضعت من ضمن برامجها إقامة الرحلات والمعسكرات، مما شجّع كثيرًا من الطلاب على الانضمام إليها، وتكريس الجهود لخدمتها.

لم يكن الأستاذ أسامة المعلم الوحيد الفاعل في هذه الجماعة، وإنما شاركه أيضًا معلم التاريخ، الذي يرتاح الطلاب إليه كثيرًا لعلمه وأسلوبه؛ فهو لا يجلس مجلسًا إلا ويسرد لهم الحكايات والوقائع والقصص التاريخية، ويستنبط لهم من خلالها العبر والعظات، ويربط كل ذلك بأمتهم وواقعهم، ويحفزهم على أن يصلوا إلى المراتب التي وصلت إليها شخصيات تلك القصص.

أحسَّ من في المدرسة أن واقع ثانويتهم قد تغير، وأدرك أولياء الأمور ذلك أيضًا؛ فقد تحسَّن المستوى الدراسي لمعظم الطلاب، وبدأت الأنشطة الثقافية والعلمية والرياضية والرحلات والمعسكرات تتزايد، وبدأ التفاعل الكبير بين المدرسة والمجتمع.

لم تُلهِ هذه الأنشطة والاهتمامات محمدًا وسالمًا ولا غيرهما من الطلاب عن دراستهم؛ فقد جعلت جماعة العمل التطوعي من ضمن برنامجها أن يتساعد الطلاب جميعهم في مذاكرة الدروس وتفهمها لبعضهم بعضًا، وقامت بإعداد بعض دروس التقوية التي قدمها بعض المتطوعين من المعلمين والطلاب وغيرهم من أفراد المجتمع، الذين أحسُّوا هم أيضًا بمكانة هذه الجماعة وأهميتها ودورها الرائد الذي تقوم به في المدرسة والمجتمع بشكل عام.

لقد أصبح مألوفًا لدى الناس أن لا تأتي مناسبة دينية أو وطنية إلا وتقدم الجماعة فيها احتفالًا يليق بتلك المناسبة، وجعلت من ضروريات عضويتها مشاركة الطلاب في تقديم فقرات هذه الاحتفالات. ورغم أن محمدًا وسالمًا لم يظهرا كثيرًا في تقديم الفقرات، غير أن غالبية المعلمين وبعض أفراد المجتمع كانوا يدركون أنهم وراء نجاح تلك الفعاليات.

من جميل ما صنع محمد أيضًا أن نقل بعض تلك الأنشطة إلى حيز أسرته، وأحيانًا يُشرك معهم أسرة سالم. لقد هدف من ذلك تطوير مهارات أفراد أسرته وقدراتهم، بما فيهم أبويه.

أرادت خديجة أن تعتذر له عندما طلب منها مرة أن تقدم كلمة في احتفالية الأسرة بالمولد النبوي، فقالت له:

- لا أدري يا ولدي ماذا أقول.

لكن سرعان ما تشجّعت الأم، وصارت تشارك في كل مناسبة. وأما عليّ فقد أعجبتته فكرة توزيع الجوائز على المشاركين من أفراد أسرته، وتطوّع بأن تكون تكاليف الجوائز على نفقته.

وفي بيت سالم أعجبت أخواته بفكرة تقديم المسرحيات والكلمات في بعض الاحتفالات التي يقترح سالم عليهم إقامتها. لكن تفاعل والديه لم يكن بذاك القدر، وإنما اكتفيا بالحضور وتحمل نفقات الحفل. وعندما تشترك الأسرتان في حفل واحد تصبح مهابة الوالدين أكثر تجلياً؛ فغالباً ما يعتذرا عن المشاركة في تقديم الفقرات، وإنما يشاركان بالحضور فقط.

ورغم سعادته بتفاعل أسرته مع الدروس والفعاليات التي يقيمها في بيته، غير أن محمداً كان ينظر إلى المجتمع حوله فلا يرى للجانب النسائي أيّ أثر، وخاصة في مجال الدعوة. لذلك، ركّز اهتمامه على سمية؛ فكان يهديها الكتيبات والأشرطة الدينية والدعوية، ثم تدريجياً وجّهها لتقييم حلقات علمية ودعوية مع شيماء وغيرها من الفتيات الصالحات.

تزايد اهتمام الجماعة بالنواحي التعليمية والدراسية، وخاصة عندما وصل الطلاب إلى السنة الأخيرة في المرحلة الثانوية، فهم يعلمون أن ما سيحصل عليه الطلاب في هذا العام سيحدّد مصيرهم الدراسي - والوظيفي فيما بعد -، وسيحدّد أيضاً مكانتهم في المجتمع. واجتهد معلم التربية الإسلامية ومعلم التاريخ وغيرهما من المعلمين وأفراد المجتمع الشيطيين في غرس فكر البناء والعطاء في أذهان الطلاب من خلال التميّز الدراسي، وصار الطلاب يقضون الساعات الطوال في مذاكرة دروسهم، وفي مساعدة بعضهم بعضاً، وحاول

المعلمون وغيرهم من نشطاء المجتمع أن يبعثوا في نفوس الطلاب مفهوم المنافسة الشريفة دون حسد أو حقد على بعضهم البعض.

خصَّص محمد غرفة في البيت للمذاكرة، واستطاع أن يقنع إخوته بالبقاء فيها لمذاكرة دروسهم، مع مراعاة الهدوء. تفاعلت الأسرة مع هذا الجو، وقلَّت خديجة من زياراتها لجاراتها وصديقاتها، وتحوَّل اهتمامها إلى الجلوس مع أولادها، ولسانها لا يفتر عن التمتمة بالدعاء لهم، وتعوَّدت أن تفاجئهم بين الحين والآخر بوجبة خفيفة يحبونها أو كعكة تزيغ أعينهم عند رؤيتها. ورغم أن عليًّا كان يعود من عمله منهك القوام، غير أنه خصَّص فترة ما بعد صلاة المغرب أيضًا للجلوس معهم، وقلَّل متابعة أخبار الثامنة وبرنامج «حصاد اليوم» الذي تعوَّد ألا ينام دون مشاهدته.

استطاع المعلمون أن يغرسوا في أذهان طلابهم أن تفوقهم الدراسي لن يتأتى لهم إلا بما يقدمونه لزملائهم الطلاب من مساعدات في مذاكرة دروسهم، وصار الحديث النبوي « إن الله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه » لا يكاد يفارق شفاه الطلاب. ورغم المنافسات الحميمة التي قوي أوارها - وخاصة بين المتفوقين - غير أنهم لم ينسوا واجبهم تجاه زملائهم الذين هم دونهم في التحصيل الدراسي؛ فصاروا يُرتَّبون الجلسات الطويلة لتفهمهم دروسهم، مما أعانهم أنفسهم على مذاكرة الدروس وحل المسائل أولاً بأول. وصار المعلمون معهم يدًا واحدة، يُبسِّطون لهم ما يصعب عليهم فهمه من مسائل، ويشرحون لهم ما يستعصي عليهم حله.

الفصل الرابع: جَنِّي الغراس

بدا واضحًا من نتائج نصف العام أن معظم مراكز الأوائل على مستوى المملكة سيكتسحها طلاب ثانوية خالد بن الوليد، وكان المعلمون لا يشكّون أن محمدًا وسالمًا سيحرزان مركزين متقدّمين. عندما بدأ الفصل الثاني زاد اهتمامهما بالدراسة، ولكنهما - في الوقت نفسه - لم يغفلا عن دورهما الريادي في جماعة العمل التطوعي. وضع محمد برنامجًا لمذاكرته يبدأ بعد صلاة العصر؛ فكان يبقى في المسجد إلى صلاة العشاء، ثم يعود إلى البيت ويتناول عشاءه مع أسرته، ثم يبقى في غرفة المذاكرة إلى قرب منتصف الليل. أما إخوته فغالبًا ما ينامون مباشرة بعد صلاة العشاء.

وعندما رأى عليٌّ وخديجة الساعات الطويلة التي يقضيها ولدهم في المذاكرة تضامنا معه؛ فصارا يقضيان ساعات أول الليل في الصالة، يتحدثان أحيانًا عن نتائج الثانوية وما بعد التناجح، وأحيانًا يشاهدان نشرة الأخبار وصوت التلفاز لا يكاد يخرج من حيز الصالة، وعندما يغلب النوم عليًا يتوجه إلى سريره أو ينام على الكنبه. أما خديجة فتأخذ بين الحين والآخر كوب عصير أو شاي وبعض البسكويت إلى غرفة المذاكرة، وتضعها على منضدة ابنها، وترمقه بعينها الحانيتين وابتسامتها الرقيقة، فيرفع رأسه ويرد بكلمات مقتضبة: شكرًا، بارك الله فيك، أحبك يا أمي.

وعندما اقترب العام من نهايته لم يفارق سالم غرفة محمد، وباتت أصوات الحوارات والمجادلات وتسميع المحفوظات شيئاً مألوفاً في بيت علي، وأحياناً يتفاجأ علي وخديجة بزيارة سعيد وعفراء وهما يتفقدان ولدهما. امتدت ساعات المذاكرة في الإجازات الأسبوعية إلى الفجر، فيتوجهان إلى المسجد، وبعد الصلاة يعود كل منهما إلى غرفته. وما إن يستيقظا عند العاشرة حتى يتناولوا إفطارهما بسرعة خاطفة، ثم ينغمسان بين الكتب. لقد بدا أن التوتُّر والقلق لم يكن قرين الشائِبين فقط في هذه الفترة وإنما الأبوين أيضاً، وإن كان لدرجة أقل في أسرة سعيد نظراً لتوفر المادة لديه وعدم قلقه كثيراً على مستقبل ابنه.

جاءت امتحانات الثانوية العامة، ودخلاها وهما منشرحا الصدر، واثقان من أنفسهما لمعرفة ما بذلاه من جدِّ واجتهاد طول أيام السنة. قلَّ محمد من مذاكرته، وصار لا يرجع إلى الكتب إلا نادراً، وكل مراجعته من الدفاتر التي حرص على تلخيص المواد فيها، وشرح المبهم منها، ودعمها بالأمثلة والتمارين. أما السهر فصار شبه معدوم؛ فمذاكرتهما هي فقط من صلاة العصر إلى صلاة العشاء، وأراد أن يجعلها في المسجد لولا ازدحامه بالطلاب في هذه الفترة. بات منظر الصفوف الطويلة في الصلوات مألوفاً لدى الأهالي؛ فمعظم الطلاب يحرصون على المذاكرة في المسجد وأداء الصلوات في الجماعة، وحرص بعضهم على النوافل والدعاء والذكر، وما إن تبدأ الامتحانات حتى تبدأ الصفوف في التناقص. لم تكن رغبة محمد وسالم في المذاكرة في المنزل لتحاشي الضوضاء التي يحدثها الطلاب في المسجد فقط، ولكن أيضاً لتفادي تضييع وقتيهما من كثرة رجوع الطلاب إليهما لاستيضاح المسائل والإجابة على الأسئلة.

جَنَيْ الفِرَاس

قبل أكثر من نصف ساعة من أخبار العاشرة من مساء الجمعة، الخامس والعشرين من يونيو من عام ١٩٩٩م، كانت الأُسْر في غالبية بيوت القرية- بل وفي معظم بيوت المملكة- تتجمهر أمام التلفاز، ولا تكاد تسمع شيئاً من الضوضاء وتعالى الأصوات بين أفرادها وهم يعبرون لبعضهم بعضاً عن هذه المناسبة، وما يتوقعونه من نتائج أولادهم وأولاد جيرانهم وأقربائهم، ومَنْ سيكون من الأوائل على المملكة، وأحياناً يتطرق الحديث حول صعوبة الامتحانات ومحاولات بعض الطلبة الغش فيها.

كان قلبا محمد وسالم- كغيرهما من الطلاب- لها وجيف يكاد أن يُسْمَع، وكان اضطرابهما وقلقهما بادياً.

- ليس الآن.

هكذا صرف محمد أخته أروى عندما جاءته لِيُشْغَل لها لعبتها. نظر عليٌّ إليه بابتسامة تعبر عن تضامنه مع ما يشعر بداخله من اضطراب.

- هل يأتري سنكون من الأوائل على المملكة، أم إن الدرجات التي نحصل عليها في مدرستنا مضخمة ولا تُعبر عن مستوانا الحقيقي بين طلاب المملكة؟ وجه سؤاله هذا الصباح لسالم، ولكن سالمًا كان هو الآخر في قلق.

لم يكن ما يُقلق سالمًا بذاك الذي يجعل محمداً مضطرباً. كان فكر سالم ينحصر في الحصول على وظيفة مرموقة، وبدون الدرجات العالية لن يتأتى له ذلك، وقد تضيع الكثير من أحلامه إن اضطّر للعمل في وظيفة لا تناسبه. أما محمد فقال لصديقه مرة:

- إن الجامعات المرموقة في أمريكا لا تقبل إلا الحاصلين على درجات

الامتياز في الثانوية.

- لا بأس، فكلها جامعات أمريكية.

نظر إليه بشّرر وقال له:

- مكانة الجامعة وسمعتها تعني مستقبلي.

لقد كان ينظر إلى ما بعد التخرُّج في الجامعة.

عندما بدأ المذيع يسرد أسماء الطلاب الذين حصلوا على المراكز الأولى على مستوى المملكة لم يصدق معلمو ثانوية خالد بن الوليد ولا طلابها ما سمعوه. لقد اكتسح محمد وسالم وطالب آخر من المدرسة نفسها المراكز الثلاثة الأولى على مستوى المملكة، وحصل بعض زملائهم على مراكز أخرى في العشرة الأوائل.

ما إن سمع محمد اسمه حتى قفز واحتضن أخاه خالدًا الذي كان يجلس بجانبه ويحمل من مشاعر القلق ما عند أخيه، ثم ما لبثت أن قامت خديجة واحتظنتهما وهي تُلقي على ابنها كلمات التهنئة مقرونة بحمد الله، والدموع تهطل من عينيها. أما عليٌّ فقد بقي ينتظر دوره، ثم ضم ابنه إلى صدره، وظلا قرابة الدقيقة وهما متعانقَيْن. قامت سمية ويوسف وصافحا أخاهما وهنّاه. سادت حالة من البهجة والحركة داخل البيت، ولم يصغوا إلى بقية الأسماء، حتى إن محمدًا انتبه وسأل:

- ماذا جرى لسالم؟

لم يكن الجو الأسري في بيت سعيد وعفراء بمثيله في بيت محمد. كان الأبوان لا يشكان أن ابنهما سيُحرز المركز الأول على المملكة، رغم قناعة

جَنَيْ الفِرَاس

سالم بأنه دون محمد في الفهم والذكاء. وعندما أُعْلِن اسم محمد تغيّرت مشاعر الأبوين، حتى إن سالمًا عندما سمع اسمه لم يجد إلا احتضان أخواته. وبعد فترة من الزمن تُعَدُّ بالثواني ولكنها عنده كسِنين، جاء سعيد وعفراء بتثاقل واحتضناه وهنّاه. عبّرت عفراء عما يجيش بداخلها قائلة:

- توقعت أن تحصل على المركز الأول.

- هو يستحق ذلك أكثر مني!!

عقّب أبوه بحزن:

- ولكنك بذلت جهدًا أكثر منه.

- الحمد لله أن حصلت على المركز الثاني على المملكة، وهذا يكفي شرفًا وفخرًا.

أسكت أبويه بهذه الكلمات، فعقّبا بامتعاض:

- الحمد لله.

قضت الأسرتان - كغيرهما من الأسر - تلك الليلة في احتفالات قُدِّمَتْ فيها العصائر والكعك وألوان الفاكهة. كذلك، تبادلت الأسر المكالمات الهاتفية وهي تهنيئ بنجاح أبناء وبنات ذويها وجيرانها ومن تربطهم بهم صداقات حميمة. بعد إعلان النتائج بدقائق اتصل الأستاذ أسامة والأستاذ عماد فهنّأ محمّدًا، ثم تحدّثا مع والده فهنّاه، وكذلك فعل مدير المدرسة، وقاموا بمثل ذلك مع سالم وأبيه وبقية الطلاب المتفوقين.

احتفال كثير من الأسر في هذه الليلة صحبته الأغاني المعبرة عن الفرحة والبهجة والمنبئة من مسجلات الناشيونال والسانيو. وأما خديجة فقد انتقت

الفصل الرابع

شريطاً به بعض الأناشيد الإسلامية عن مثل هذه المناسبة.

لم تقضِ أسرة سالم ليلتها بمثل ما كان عليه الحال في أسرة محمد؛ فبعد أن تناول الوالدان كوب عصير وقطعة كعك دخلا فوراً إلى غرفتهما، ومشاعر الحزن عندهما بدت واضحة لسالم وأخواته. الشخص الوحيد الذي بقي في نشوة غامرة منذ إعلان اسم محمد هي شيماء؛ فما إن سمعت اسمه في التلفاز حتى قفزت واقفة وصرخت بلا شعور: «هيه»، فرمقها والداها بنظرتين حادّتين، فجلست ولكنها بقيت لا تكاد تسمع شيئاً مما يجري حولها؛ فقد كان قلبها يفكر بعيداً.

طابت نفس محمد تلك الليلة، ودخل إلى غرفته منهكاً؛ فهو لم يَمَ منذ أن استيقظ لصلاة الفجر في الرابعة. لكن مشاعر الحب قد هاجت لوعتها عندما أراد أن يُسلم نفسه للنوم. خاطب نفسه:

– ماذا عساها فعلت عندما سمعتُ اسمي؟ هل يا تُرى سُرّرت بحصولي على المركز الأول أم إنها كانت ترجو ذلك لأخيها؟

أراد أن يذهب إليها فيحصل منها على إجابات ولكن منعه الحياء؛ فالساعة قد قاربت من الثانية عشرة، فلا بُدَّ أنها قد نامت. لكن شيماء بقيت إلى ما بعد منتصف الليل وهي تتململ في فراشها، وأحياناً تختلس نظرات خاطفة نحو أختيها اللتين يشاركانها الغرفة خشية أن يَشْكُكُنَّ في أمرها فيوفا بذلك لأمهها، ولكن لحسن حظها لم يحدث شيء من ذلك.

في اليوم التالي لم يأتِ سالم لصلاة الفجر، وما إن عاد محمد إلى بيته حتى اتصل به ليطمئن عليه ويهنئه. رنَّ الهاتف فأسرعتُ إليه وكأنها عرفت المتصل.

جَنِّي الفِرَاس

بصوتٍ خافتٍ سلَّمتُ شيماءَ خشيةً أن يسمعها أبوها. عرف صوتها، وسرعان ما تعالت نبضات قلبه، وكادت سماعه الهاتف أن تسقط من يده. ردَّ عليها السلام بصوتٍ خافتٍ خشيةً أن يتبه أحد إخوته لحديثه، وكان قلبه يرقص بداخله طربًا. ما إن سمعت صوته حتى عرفته فلم تمالك نفسها من الفرحه، ونسيت من حولها، فقالت له:

- مرحبًا محمد، مبارك عليك.

همس في أذنها بصوتٍ خافتٍ يكاد لا يُسمع:

- الله يبارك في حياتك، وعقبى لك ياذن الله.

أرادت أن تسترسل في الحديث معه ولكنها خافت أن يسمعها أحد، فردَّت عليه:

- لحظة.

تركت السماعه، وتصنَّعت وكأنها لم تعرفه، فنادت أختها:

- شخصٌ يريدك.

هنأه محمد، ثم قال له:

- أرغب في زيارتك.

ردَّ سالم بسرعة، وكأنه يريد تفريج همومه مع من تربي معه معظم حياته:
- تفضل.

أسرع إلى بيت سالم، أو بالأحرى بيت شيماء، وصوتها وصورتها لا يفارقان خياله، لقد كان في عالمٍ آخر؛ حتى إنه نسي أن يخبر أحدًا من أهله بخروجه من البيت. عندما فتح له الباب عرف محمد من نظراته ونبرة صوته

الفصل الرابع

أنه ليس على الحال التي ينبغي. اعتنقه صديقه وهنأه، ثم أدخله مباشرة إلى مجلس الرجال خشية أن يعرف والداه بقدمه فيُعبراً له بشيء مما يجول في صدريهما. لكن سعيداً كان حاذقاً لبيباً، ورغم أن مشاعره ما زالت متأثرة إلا أنه لما علم بمقدم محمد دخل المجلس وسلم عليه وهنأه وجلس معهم قليلاً، ثم استأذن بالانصراف.

- كانت أمنيتهما أن أحصل على المركز الأول.

فاجأه سالم بهذا التعليق، فنكس رأسه تضامناً مع مشاعر صديقه، وقبل أن يعلق بشيء طُرق الباب طرْقاً خفيفاً. قام سالم ليرى من الباب، وتبعه ببصره وهو يتمتم بدخله: عسى أن تكون شيماء. نعم هي، لقد سمع تمتتها. لقد جاءت بكوبي عصير برتقال.

خاص في عالم جميل من الأحلام، وتمنى لو تتواصل تلك المشاعر لساعات، ولكن خاف أن يتبه سالم لذلك، فتدارك الأمر قائلاً:

- وماذا عنك؟ أراك متأثراً كثيراً.

- مشاعر بسيطة ثم تنجلي.

- وماذا ستفعل بعد أن ظهرت النتائج؟

تأوه قليلاً، ثم قال:

- يريداني أن أواصل الدراسة.

- وما رأيك أنت؟

هز منكبیه، ثم قال:

- كرهت الدراسة.

- وماذا عن طموحاتك؟ وماذا عن أمتنا؟ وماذا سيقول الأستاذ أسامة؟

أمطره محمد بسيلٍ من الأسئلة، فعلق قائلاً:

- لا أرى الدراسة ستحقق لي ما أريد.

ثم أتبع:

- وأنت؟

نظر محمد إليه باستغراب:

- أنت تعلم أنني لن أفرط في أحلامي لحظة واحدة.

تعكّر مزاج محمد، فساد هدوء أذهب عنه ما كان يجده من مشاعر عاطفية.

شرب كوب العصير، ثم استأذن بالانصراف، وكأنه تأثر من سرعة تغيير صديقه.

- مسكينة!!

انتبه من سرحانه، ثم قال وكلماته لا تكاد تخرج من فيه:

- من؟

ردّت سمية:

- شيماء. ما إن سمعتُ البارحة اسمك حتى صرخت.

ردّ بخبث والنشوة بداخله لا توصف:

- يبدو أنها تحترمني.

- بل تحبك!!

نكس رأسه وهو يتسّم، فأردفت أخته:

- وتحبك كثيراً.

في اليوم التالي لإعلان النتائج رتب معلما التربية الإسلامية والتاريخ حفل تكريم لطلاب الجماعة، ودعيا إليه كثيرا من أولياء الأمور ليشاركوا أبناءهم هذه الفرحة، وكان من بين المدعوين والدا محمد وسالم. لقد كان ذلك الحفل جديرا بأن يقام، واستمتع الطلاب فيه بنشوة التفوق، وبالتهاني والتبريكات التي كانت تنصبُّ عليهم من معلمهم وزملائهم.

قدّم مدير المدرسة ثم الأستاذ أسامة كلمات عبّرا فيها عن فرحتهما الغامرة بتفوق طلابهم، وهنأ الطلاب وأولياء الأمور بهذه المناسبة التي ستبقى محفورة في ذاكرة هذا الجيل لسنين طويلة. بعد ذلك، تناولوا عشاءً فاخرا رتب له مدير المدرسة، وقضى الجميع قسطاً كبيراً من تلك الليلة في الاستمتاع بالحفل.

كان من عادة عليّ وخديجة أن يقيما في نهاية كل عام دراسي حفلاً عائلياً لتكريم أولادهم بعد أن يستلموا شهاداتهم. وفي هذا العام تم تأجيل ذلك الحفل لحين ظهور نتائج محمد. وفي اليوم الثالث بعد ظهور نتائج الثانوية أقامت الأسرة حفلها المنتظر. في هذا الحفل قدّم عليّ لولده هدية غير متوقعة؛ إنها جهاز حاسوب محمول. لم تكن أجهزة الحواسيب المكتبية والمحمولة تُذكر إلا عند القلة من الناس.

الفصل الخامس: على طرفي نقيض

بات الشغل الشاغل لمحمد بعد ظهور النتائج هو تحقيق حلمه الذي بدأ ينمو منذ أن التحق بالثانوية. لقد رسخ في ذهنه أن لا سبيل لإعزاز الأمة ورفعة لوائها وانتشالها من الضياع والهوان الذي تعيش فيه إلا من خلال التفوق والتميز، وها هو قد حقق المرحلة الأولى في تحقيق حلمه الكبير، وهو أن يكون من مشاهير العالم في علوم الفضاء.

لعب أستاذ التربية الإسلامية والفيزياء دورًا كبيرًا في تحفيزه على اختيار هذا التخصص. قال له الأستاذ أسامة يومًا:

– إنني أرى فيك قدرات وإمكانات امتنَّ بها المولى – عزَّ وجلَّ – عليك، واختصَّك بها دون سائر أقرانك، وعليك أن تستخدمها فيما يرضي الله – سبحانه وتعالى – وفيما يحقق لهذه الأمة المجد والسُّؤدد.

لم يُبِح بهذا السرِّ لأحد، حتى سالم لم يعرف عن ذلك إلا عندما رآه مرة وقد اشترى خمسة كتب تتكلم عن علوم الفضاء، فقال له:

– يبدو أنك تريد أن تكون عالم فضاء.
اكتفى محمد بالابتسامة.

ومرة تناقش مع الأستاذ أسامة فيما يمكن أن يفعله في أيام دراسته في الثانوية وبعد الثانوية، فكان من توصياته له:

- يا ولدي: إن العالم قد أصبح يتنافس في علوم كثيرة، والأمة الإسلامية لا تعي من تلك العلوم إلا مسمياتها. أما التطبيق والواقع فإنه بعيد جداً عما هو عليه في الأمم الأخرى، ولذلك فإن النبوغ والتَّميُّز في مجالٍ من المجالات التي يمكن أن ترفع من شأن الأمة وعزتها لهو من أوجب الواجبات.

صارت هذه الكلمات ترفع من معنوياته، وتحفزه على تكريس المذاكرة وزيادة تلهفه وشوقه لمعرفة كل ما هو جديد. لم يكتفِ بقراءة الكتب التي يشتريها من المعارض والمكتبات، وإنما أكثر من ارتياد مكتبة المدرسة، وأحياناً يصطحبه الأستاذ أسامة إلى مكتبة جامعة البيان، ويستعير له بعض الكتب الموجودة بوفرة هناك. كذلك، أخذ يتردد على معلميه ويكثر من الحديث معهم حول تخصصاتهم.

مما أثار اهتمامه كثيراً ما أخبره به معلم الفيزياء من التقدم الهائل الذي تم تحقيقه في العصور المتأخرة في علوم الفضاء. سأله مرة عن نماذج من الأمة الإسلامية، سواءً من العلماء أو المشاريع أو الدراسات التي تَنصَبُ في علم الفضاء. رفع الأستاذ عارف حاجبيه، وصمت قليلاً وهو يتسمم، ثم قال:

- يا ابني، أنت تسأل عن أمور ليس لها وجود في عالمنا الإسلامي؛ فحصيلتنا من علوم الشرق والغرب لا تَسْرُ، وإنما هي محاولات بسيطة ومتواضعة لبعض المخلصين من أبناء هذه الأمة.

صمت قليلاً، ثم أردف بتأوّه:

- إن حال الأمة الإسلامية في علوم الفضاء ليندى له الجين؛ فنادرًا ما تجد اهتمامات فردية أو حكومية، ولكن هذا لا يمنع يا ولدي أن يبرز من أبناء

الأمة من أمثالكم من يَقلِب موازين الواقع، ويجعل للأمة نصيباً بين الأمم في علم الفضاء والعلوم الأخرى. ولا تنس أن العديد من أبناء الأمة قد ألمهم واقع أمتهم، وأحرق أكبادهم ما يشاهدونه ويسمعونه من أحوال الأمة وجهلها وتخلفها، ولذلك لم يَرَوْا بُدّاً من هجر أوطانهم والفرار إلى مراتع العلم والحضارة، فلعلمهم يحققوا شيئاً، ولو كان لأنفسهم فقط.

كان يستمع إلى هذه الكلمات وهو يجول بفكره في مستقبله الذي يراه منيراً براقاً، وجعلته كلمات معلميه المحفزة يطير بجناحي شوق وتلهف إلى ما بعد الثانوية، فهو يريد فعلاً أن يبدأ حياةً تختلف عن حياة غالبية أبناء أمته.

وعندما استشار معلميه عن البلد الذي يمكن أن يقضي فيه دراسته الجامعية تفاوتت نصائحهم له. اقترح عليه بعضهم أن يدرس داخل المملكة، وإن أحب البعد قليلاً فلتكن دولة عربية أو إسلامية، ولم يشجعه هؤلاء على الدراسة في الدول الأجنبية لما فيها من منكرات، ولصعوبة العيش فيها والتغرّب عن الأوطان، وأيضاً لاحتمالية قيام تلك الدول باستغلال العقول المتميزة فيما يخدم مصالحها.

أما الأستاذ أسامة والأستاذ عارف فقد شجّعا على الحصول على بعثة دراسية إلى أمريكا، وأن يدرس في واحدة من أشهر جامعاتها، وقاما بمساعدته على استخدام الشبكة العالمية التي لم تكن متاحة إلا لبعض المتخصّصين، ومن خلالها استطاع الحصول على معلومات عن جامعات أمريكا الشهيرة، وخاصة في علوم الفضاء. وقام- بتوجيه من الأستاذ أسامة- بمراسلة بعض المراكز الإسلامية في أمريكا، وتعرّف على واقع المسلمين هنالك، والصعوبات والتحديات التي قد تواجه الطلاب الذين يفتدون إلى أمريكا، وخاصة من الدول العربية.

كذلك، استطاع - بمساعدة الأستاذ أسامة - أن يتعرّف على بعض الدعاة والعاملين في الحقل الإسلامي من الأصول العربية، الذين استقروا في أمريكا واتخذوا الدعوة والاهتمام بشؤون المسلمين حرفة لهم. تشكّلت لديه خطة واضحة لما يريد أن يحققه بعد الثانوية.

لم يعتدّ كتمان أسراره عن أسرته إلا في القليل النادر، ولذا صار يفتح أبويه بما يقوم به مع أساتذته من البحث عن الجامعات والتواصل مع المراكز الإسلامية والدعاة. ما أقلق والدته كثيرًا هو ما أخبرها به عن البعد الشاسع الذي يفصل بين المملكة وأمريكا، وأنه سيقضي العام بطوله هناك قبل زيارتهم في الإجازة الصيفية. كانت أحيانًا تذرف بعض الدمعات، فيواسيها بأن التواصل معهم بات يسيرًا من خلال الهاتف والإنترنت.

أما والده فأقلقه ما يسمع عن أمريكا من فساد أخلاقي وانتشار للردائل. قال له يومًا:

- يا ولدي، نحن هنا - بحمد الله - في نعمة عظيمة؛ فالواحد منا يستطيع أن يمارس شعائر دينه دون خوف أو تحفُّظ، وأخشى عليك إن ذهبت هناك أن لا تجد من يشدُّ أزرك ويعينك على التمسك بدينك.

ردّ عليه بنبرة الواثق من نفسه:

- لا تخش يا أبي، فهناك من المسلمين من يفوقنا عددًا وتمسُّكًا بالإسلام.

بهذه الكلمات المطمئنة استطاع أن يجعل والداه يقفان بجانبه نحو تحقيق أحلامه وطموحاته. لكن الأحوال المعيشية لأسرته كانت تؤرقه كثيرًا، وخاصة بعد أن كبر الأولاد وزاد عددهم. صارح يومًا أمه وهما يتذاكران ما يقوم به

على طرفي نقيض

والده من جهد في وظيفته الصباحية، وفي عمله الإضافي في فترة المساء الذي اضطر للحصول عليه بعد أن تزايدت ضغوطات المعيشة على الأسرة.
- سأقوم- بإذن الله- بالاحتفاظ بجزء من المنحة المالية التي تدفعها الوزارة لنا لمساعدة والدي.

- لا تفكر في هذا يا ولدي؛ فأبوك إن سمع شيئاً من هذا فلن يعجبه ذلك.
كان والداه لا يدعان له مجالاً للتفكير في الظروف المعيشية التي تمر بها الأسرة، ويقولان له بأنه- سبحانه- قد تكفل برعايتهم وتوفير احتياجاتهم طول السنين الماضية، وأنهما يوقنان- بدون أيّ ريب- بأن الله- سبحانه وتعالى- لن يتخلى عنهم ما داموا يجتهدون في طاعته ويعملون بمقتضى شريعته.
أمرٌ مهمٌ كان يشغل باله وهو ابتعاده عن شيماء؛ فقد توطدت مشاعر الحب بينهما، وصار ذكرها لا يكاد يفارق قلبه، ولكنه شديد الخشية من الله، فكان حذراً من أن يقوم بفعلٍ يُسخط الله، فيُحرّم التوفيق والهداية، فاقصر في علاقته بها بما تنقله له سمية من أخبارها.

لقد كان اهتمام أساتذته به وتحفيزهم له، ووقوف والديه بجانبه سبباً في تفوقه الدراسي، وها هو ينتظر بقلب متلهف ظهور نتائج الترشيحات في البعثات الخارجية. عندما ملأ استمارة التخصصات قبيل الامتحانات النهائية جعل اختياره الأول دراسة علم الفضاء، واختار جامعة هارفارد العريقة بالنسبة للمكان. وأما البدائل الأخرى التي وضعها فتمثل في دراسة الفيزياء النووية أو علم الجينات.

وأما بالنسبة لسالم فلم تكن فكرة النهوض بالأمة والارتقاء بها بتلك القوة التي عند محمد، وكثيراً ما خالطت الجوانب المادية فكره وخيالاته وطموحاته.

ورغم أن الظروف المعيشية لأسرته كانت جيدة، لكنه يطمح كثيرًا ليحقق لأسرته مستوىً معيشيًا مرموقًا، يجعل لها مكانتها وقيمتها في المجتمع. هكذا برّر موقفه لمحمد عندما عاتبه مرة على عدم جدّيته في اختيار التخصصات والجامعات الشهيرة.

لم يأت توجّه سالم إلى حب الوظيفة والتباهي بالماديات من فراغ؛ فحديث أسرته عندما تجتمع ينصبّ - في معظم الأحيان - حول الأحوال المادية التي تعيشها ويعيشها المجتمع. وعندما يأتي إلى والديه بأخبار سارة عن تفوقه الدراسي، أو عما يحققه الشرق والغرب من تطور - كما يسمعه من معلميه - لا يفتآن يدكرّ أنه أن بمقدوره أن يحقق ما حققه الآخرون، وأن يُبدّل أحوال الأسرة وظروفها إلى ما هو أفضل، ويغرسان في فكره أهمية المادة، والمكانة التي يتمتع بها الأثرياء في المجتمع.

لقد شاهد كيف تتغيّر أحوال الناس من الفقر إلى الغنى، وخاصة بعد ظهور البنوك الربوية، ولجوء الكثير من الناس للاقتراض منها من أجل بناء القصور وشراء السيارات الفارهة. ورغم علمه بحرمة مثل هذه المعاملات، وعلمه أيضًا بكرهة الإسلام انغماس المسلم في التباهي بالماديات، لكنه شاهد أيضًا أن الترف والبذخ قد أوصل هؤلاء ليكونوا من أصحاب الوجاهة والشأن في المجتمع، وهو ما تطمح إليه نفسه.

لكل هذا، لم تنصبّ اهتماماته بعد الثانوية في الحصول على بعثة دراسية وإنما في الحصول على وظيفة. حاول محمد أن يشينه عن هذا التوجّه، وذكره بما يقوله معلموهم من ضرورة تفوقهم العلمي ونبوغهم وتمييزهم، وأن لا ينظروا إلى تحقيق الأحلام والطموحات التي تعود عليهم بمنافع شخصية بقدر

على طرفي نقيض

ما يهتمون بتحقيق ما يخدم الأمة بأكملها. حاول مرة أن يُسكِت عتاب صديقه له، فقال له:

- إن والدي يكُدُّ ويتعب كثيراً من أجلي أنا وأمي وإخوتي، وأريد أن أريحه من هذا العناء.

فردَّ عليه محمد ناصحاً:

- لكن التحاقك بالجامعة وحصولك على شهادة جامعية ستؤهلك للحصول على وظيفة مرموقة وراتب أفضل.

- إن الدراسة الجامعية تستغرق وقتاً طويلاً، وأنا لا أريد أن أبقى أسرتي في عذابٍ وشظفٍ من العيش طيلة تلك السنين.

تضايق محمد من سماع هذه الكلمات، فأراد أن يُلقِّنه درساً في معاني الإيمان والتوكل على الله، فقال:

- عليك أن تعلم أنه لم يكن لك إلى هذه المرحلة أيُّ دور في إعالة أسرتك، أو حتى في مساعدتها مادياً. إن الذي تكفل برعايتك وأسرتك هو الله - سبحانه وتعالى -، وهو قادرٌ على أن يتكفل بك وبأسرتك أيام دراستك.

وبالرغم من أن سالمًا قد ارتاح لهذه الكلمات، وأدرك أن الأمر يتعلق بعقيدة وليس بمجرد أفكار، غير أن تلَهُفه للحصول على وظيفة مناسبة بقي قرين قلبه.

الفصل السادس: الإجراءات

لم تطل الأيام كثيرًا بعد ظهور نتائج الثانوية حتى تلقى محمد وسالم اتصالات عديدة من جهات مختلفة في المملكة، منها هيئات حكومية ومنها مؤسسات خاصة، وكانا يلتقيان ويتناقشان حول تلك الاتصالات والعروض التي يحصلان عليها. اختلفت ردود فعلهما؛ فمحمد لم يُعِرْها أيَّ اهتمام، رغم محاولات سالم لإقناعه بالذهاب إلى المؤسسات التي تتصل به ليتعرّف على رغباتهم والعروض التي يُقدّمونها. كان كل ما يشغل تفكيره هو اليوم الذي يحصل فيه على البعثة الدراسية التي يتمناها.

أما سالم فصار لا يتلقى اتصالًا من مؤسسة إلا ويذهب إليها، ويقابل مسؤوليها، وكثيرًا ما يعود بخيبة أمل. لقد وجد أن ما تعرضه تلك المؤسسات من وظائف لا تتناسب مع رغباته وطموحه في الحصول على وظيفة مرموقة وراتب جيد، بالإضافة إلى تأمين صحيٍّ له ولأسرته، وربما سيارة ينتقل بها حيث شاء.

قدّمت إحدى شركات النفط له واحدًا من أفضل العروض المغربية؛ فقد عرضت عليه بعثة دراسية كاملة بالإضافة إلى تأمين عمله عندها بعد انتهاء دراسته. لم يناسبه هذا العرض؛ إذ إنه سيتم ابتعاثه على أنه طالب وليس

الفصل السادس

موظفًا، وهذا يعني أن ما سيحصل عليه من مستحقات مالية أثناء الدراسة لن تفي بأكثر من متطلبات إقامته ومعيشته، فضلاً عن أنه سيتم ابتعائه إلى إحدى الدول الغربية، وهو لا يرغب في ذلك أيضًا.

أما محمد فبعد عشرة أيام من ظهور نتائج الثانوية تلقى اتصالاً من الديوان الملكي يطلب منه الحضور لمقابلة، وعلم من سالم أنه تلقى نفس الاتصال، وأنه متشجع كثيرًا لحضور المقابلة.

- أما أنا فلن أذهب.

صدمه محمد بهذا الرد، فاشتاط سالم غضبًا من تفويته لهذه الفرصة النادرة، كما يراها، فعلق محمد:

- أنا لا أريد لأحد أن يتدخل فيثني عن الحصول على بعثة، ثم إن الديوان الملكي له نفوذ كبير في تسيير الأمور في المملكة، وأخاف إن رفضت العروض التي سيقدمونها لي أن يقوموا بعرقلة بعثتي الدراسية، فأخسر الجانبين.

حاول سالم أن يقنعه بأنه يستطيع أن يُصرَّ على رأيه بعدم قبول العروض التي لا تناسبه، ولكن محمدًا أصرَّ على موقفه بعدم الذهاب.

في جلسة العشاء أخبر والديه باتصال الديوان الملكي. بدت ملامح السرور على وجه والده، فعقب محمد قائلاً:

- ولكنني لن أذهب!!

تغيَّرت مشاعر علي، فردَّ بسرعة:

- ولماذا؟

صمت برهة وكأنه يبحث عن جواب مقنع لوالده، أو إنه استاء من فرح والده بهذا العرض، فقال:

- عاهدتُ نفسي أن لا ألتحق بوظيفة قبل أن أكمل دراستي الجامعية.
- ولكنهم قد يوفروا لك بعثة مجانية، ويضمنوا لك العمل بعد تخرجك،
كما نسمعه عن كثير من الناس الذين يحصلون على مثل هذه الفرص.

لم يشأ أن يدخل في جدال مع والده، فقال:

- سأستخير الله ثم أقرر.

فرحت خديجة بموقفه هذا، فعلقت بلسان المؤمنة الواثقة بربها:

- نعم، جميل أن تلجأ إلى الله، فهو لن يُضيعك.

وفعلًا، صار لا يصلي نافلة إلا ويستخير الله بعدها. لم تزد صلاة الاستخارة
إلا ثباتًا على قراره واطمئنانًا له.

في اليوم التالي ذهب سالم للمقابلة في الديوان الملكي، وعندما عاد توجه
أولًا إلى منزل صديقه، وما إن رآه حتى بادره:

- بارك لي، فقد تحقق حلمي.

رأى محمد البشر على وجه صديقه فلم يشأ أن يُعكّر عليه مشاعره، فردّ وهو
يبتسم:

- بشر، ماذا جرى؟

- لقد عرضوا عليّ وظيفة وراتبًا فوق ما كنتُ أحلم به.

كان سالم يتكلم بسرعة توحى إلى السعادة التي يشعر بها، ثم تابع:

- هذا بالإضافة إلى الامتيازات الأخرى التي قدّموها لي مثل السكن

المجاني في العاصمة وسيارة خاصة أستطيع أن أستخدمها في أوقات العمل
وخارجها.

أراد محمد أن يعلّق ولكن سالمًا قاطعه:

- لم أكن أعلم أن الديوان الملكي بتلك الأبهة؛ لقد رأيتُ شيئًا عظيمًا، وما قدّموه لي من كرم الاستقبال والضيافة فاق تصوّري.

نكّس محمد رأسه، وكأنه آلمه ضعف صديقه أمام هذه الإغراءات، ولكنه لم يعلّق بشيء. ظن سالم أن محمدًا نادمٌ على تفويته فرصة الحصول على وظيفة في الديوان الملكي، فشجّعه قائلاً:

- لا تُفوّت هذه الفرصة الذهبية؛ فهي لا تُعطى إلا للمتميّزين من أمثالك.

- لن أذهب.

صدمه بهذه الإجابة القاطعة فخجل سالم من موقفه ونكّس رأسه، فتابع محمد:

- لم تبقَ إلا أيام قلائل، وستظهر نتائج الترشيحات للبعثات الدراسية، وإن لم أحصل على بغيتي فسأفكر في الذهاب.

لم ييأس سالم من محاولة إقناعه، فقال له:

- إنك تعلم أنه قد تخرّج من الثانوية هذا العام آلاف الطلاب، وأن غالبيتهم سيبحثون عن عمل، والكثير منهم يعلم العروض المغربية التي يقدمها الديوان الملكي، ولو انتظرت أيامًا لتذهب إليهم فقد تفوتك الفرصة.

أراد محمد أن يقطع هذا الحوار، فقال:

- حتى وإن حدث ذلك فإن أمامي فرصًا أخرى - بإذن الله - وعليّ ألا أتعجل.

ما إن عاد إلى المنزل حتى استقبله والداه وأخواته وهم يسألونه عن المقابلة،

الإغراءات

فأخذ يشرح لهم ما رآه وحصل عليه بنبرة ملؤها الفخر والابتهاج. سُرَّ الجميع بذلك وهنؤوه وباركوا له. قال له أبوه بنبرة ملؤها السعادة والاعتزاز:

- نحن فخورون بك يا ولدي.

- عسى أن أكون عند حسن ظنكم يا أبي.

ما إن سمعت سمية ذلك من شيماء حتى تمنَّت لو يحصل أخوها على مثل ذلك. استغلت فرصة الحديث معه عن شيماء فتحت موضوع وظيفة الديوان الملكي. نصحته بالذهاب للمقابلة، وحاولت إقناعه، ولكنه أصرَّ على موقفه بعدم الذهاب. حاولت استمالة بحجة القرب من شيماء، ولكنه أخبرها بأن البعثة الدراسية لن تغيَّر من حبه لها شيئاً. عندها، لجأت إلى حيلة ذكية.

- اكتبي له رسالة.

فوجئت شيماء بهذا، فردَّت:

- مَن؟

- محمد. وحاولي أن تقنعيه بعدم تفويت هذه الفرصة.

خافت أن تقوم بذلك فيسخط عليها، ولكن سمية طمأنتها.

عندما دفعت الرسالة إلى أخيها، عرف أنها من شيماء، ولم يخنه حدسه من أن سمية هي مَن دفعها للكتابة إليه، لكنه لم يتوقع أن تكون حول وظيفة الديوان الملكي. شعر بسعادة لا توصف، فشكر أخته، ثم أدخلها في جيبه. وعندما آوى إلى فراشه، وتأكد من أن أخويه نائمان بدأ قراءتها. لقد خيَّبت آمال أخته؛ فلم تذكر في رسالتها شيئاً عن الوظيفة أو مقابلة الديوان الملكي، وإنما كانت - رغم طولها - عبارات تُثبِّت حبيبها عن التراجع عن آماله وأمنيته،

وتشفع كل ذلك بدعوات إلى الله تبثها من القلب ليحفظه وييسر أمره. قبلها ثم ضمها إلى صدره.

شعر باعتزاز عظيم لوجودها في صفه. إنها تضحي بكل مشاعرها من أجل أن يذهب ويحقق آماله وطموحاته. ساورته نفسه لأن يرد عليها، ولكن خاف من أن يكون ذلك من حبال الشيطان. صدمت سمية عندما طلب منها أن تشكرها على رسالتها، فقالت له بنبرة توحى عن حسرتها بفشل خطتها:

- وماذا عن الوظيفة؟

ردَّ عليها مبتسمًا:

- ستأتي في حينها.

استغل الاجتماع الذي عقدته جماعة العمل التطوعي ليطلع أساتذته بالمستجدات التي حدثت له ولسالم بعد إعلان النتائج. تعجّب الجميع من موقف سالم، وكيف تغير بتلك السرعة. خاطب الأستاذ أسامة الأستاذ عارف، فقال:

- يا أخي، مغريات الحياة لا يسلم منها إلا من امتنَّ الله عليه بإيمان راسخ وبصيرة ثابتة.

أيد الأستاذ عماد - أستاذ التاريخ - ما قاله زميله، وقال:

- ولا تنسَ خبث الديوان الملكي في تصيّد الشباب المتفوّقين، ومحاولة صرفهم عن الارتقاء في سلّم النجاح لئلا يكون لهم شأن كبير في المستقبل فيفسدوا الناس عليهم، كما يعتقدون.

هزَّ الأستاذ عارف رأسه موافقًا، ثم أضاف:

- ولكن ما أعلمه أن الأحوال المادية لأسرة سالم جيّدة.

ردّ محمد:

- نعم؛ فهم يُعدُّون من الأثرياء مقارنة بغيرهم من أسر القرية.

علّق الأستاذ أسامة:

- ولكن الثروة- في أحيانٍ كثيرة- تُفسد همَمَ الناس لنيل معالي الأمور.

لم يطلّ انتظاره كثيرًا، فبعد يومين تم إعلان الترشيحات للبعثات الدراسية في الجريدة الحكومية الوحيدة بالمملكة، وتصدّر اسمه قائمة البعثات إلى أمريكا، وحصل على بعثة لدراسة علوم الفضاء في جامعة هارفارد، كما كان يحلم. عمّت الفرحة هو وأسرته بظهور هذه النتيجة، وهنّؤوه على توفيق الله له لتحقيق أمنيته. اتصلت شيماء بأخته وهنأتها على ما حصل عليه، فردّت عليها ممازحة:

- لا بدّ أن الله استجاب دعوتك.

أما سالم فرغم أن اسمه قد ظهر في الترشيحات، وحُقّق له طلبه الأول، إلا أنه أخبر محمدًا بأنه لا يرغب في البعثة، وإنما سيلتحق بالوظيفة، فخاطبه محمد:

- يا عزيزي، هذه فرصتك لتبني مجدًا لك ولأسرتك.

- فؤادي لا يميل إلى ذلك مطلقًا.

- يمكنك أن تذهب إلى مديرية البعثات وتخبرهم برغبتك في تغييرها إلى بلد آخر أو تخصص آخر تُفضّله.

حاول أن يقنعه ولكنه أصرّ على عدم قبول أيّ بعثة دراسية، وعلى رغبته في

الوظيفة. في الأسبوع التالي توجه سالم لإنهاء إجراءات التوظيف، وصاحبه محمد إلى مديرية البعثات لإنهاء إجراءات بعثته.

كانت خطته بعد أن تأكد من الوجهة التي سيذهب إليها والتخصص الذي سيدرسه أن يتواصل مع المسؤولين في جامعة هارفارد، وقسم علوم الفضاء بالذات. قرأ الكثير عنهم من خلال موقعهم الإلكتروني، وتواصل مع بعض المسؤولين والأساتذة والطلاب. كانت هذه فرصة كبيرة له ليتعلم الكثير عن استخدامات الحاسوب والشبكة العنكبوتية، وعندما تواجهه مشكلة فنية كان يلجأ إلى أخصائي مصادر التعلم بثانوية خالد بن الوليد.

بعد حوالي أسبوعين اتصل الديوان الملكي بسالم ليخبره بأن إجراءات التوظيف قد اكتملت، وأنه يمكنه مباشرة العمل ابتداءً من الأسبوع القادم. في اليوم المحدد توجه إلى الديوان الملكي، واستلم وظيفته، واستلم أيضًا مفاتيح سيارته وشقته. لم ينتظر حتى نهاية الأسبوع ليخبر صديقه بما حصل عليه، وإنما اتصل به في مساء ذلك اليوم، وأخبره بالحفاوة والتقدير التي لقيها من المسؤولين في الديوان الملكي، وأخبره بأنهم قد سلموه مفاتيح شقته وسيارته. لم يزد محمد على تهنئته بما حصل عليه، فهو يعلم في قرارة نفسه أن تلك الإغراءات هي ما تخوّف هو منها من قبل؛ فهي ستصرفه مبدئيًا عن تحقيق حلمه في الحصول على بعثة دراسية، ثم سيكون من شأنها فيما بعد أن تصرفه عن تحقيق أحلامه وطموحاته البعيدة في خدمة هذه الأمة. لم يشأ أن يفتح هذه المواضيع في الهاتف، وأيضًا لعلمه بميول سالم ورغباته، وأنه بات لا يكثر كثيرًا بتلك الطموحات.

الإجراءات

حدّدت مديرية البعثات موعد سفره بالأُسبوع الثاني من شهر أغسطس، مما يعني أنه ما زال عنده متّسع من الوقت، فقضاه في إنهاء متطلبات السفر من الحصول على التأشيرة، وشراء الحقائب والمستلزمات الأخرى، وصار يتردّد على أساتذته، وخاصة معلم التربية الإسلامية، واهتم بموضوع العمل التطوّعي.

حاول أن يُقنع معلميه بتوسعة دائرة جماعة العمل التطوّعي لتخرج من حيز المدرسة لتقوم بخدمة المجتمع. لاقى هذا الاقتراح قبولاً وترحيباً من قبل الأستاذ أسامة وبعض المعلمين الآخرين، رغم أنهم يعلمون أن إمكانياتهم قليلة، وأن تجاوب الناس معهم سيكون محدوداً، ولكنهم رأوا أن فتح هذا المجال أمام أفراد المجتمع قد يكشف لهم عن كوادر مغمورة يمكنها أن تكون ذات دور فعال في خدمة المجتمع وتنميته.

بدأت الجماعة تخطط لبعض الأنشطة الصيفية، وقضى محمد ما تبقى من الإجازة وهو يتردّد على أساتذته، ويحضر اجتماعات الجماعة، ويشارك في تنفيذ تلك الأنشطة. ومما رفع من همته ومعنوياته وقوف والديه بجانبه، ودعمهما له؛ فكان والده كثيراً ما يشارك في تلك الفعاليات، وخاصة عندما تقام في عطلة نهاية الأسبوع. أما والدته فحرصت على أن تجهز له بعض الكعك ودلة الشاي والقهوة ليصطحبها معه عندما يحضر اجتماعات الجماعة أو يذهب إلى رحلة أو فعالية تستغرق وقتاً طويلاً، وكان لا يبخل عليهما بالثناء والشكر على ما يقومان به.

حاول أن يُشرك سالمًا في بعض الفعاليات الصيفية التي تقام في عطلة نهاية الأسبوع، ولكن صديقه صار في كل مرة يأتي بأعذار مختلفة؛ كرهبته في البقاء

الفصل السادس

مع أسرته، أو الذهاب لزيارة أصدقائه، أو بأنه أحضر معه بعض الأعمال التي تخصّ وظيفته ويريد الانتهاء منها قبل ذهابه إلى العمل. أحسّ محمد بأن همة سالم ورغباته وطموحاته قد بدأت تضعف وتبذل، وأنه صارت له اهتمامات من نوع آخر؛ فكان يلتقي بزملاء دراسته الذين التحقوا هم أيضًا بوظائف، وأحيانًا يخرجون إلى رحلات خلوية للصيد أو الشواء أو مجرد الاستجمام.

الفصل السابع:

آلام الفراق

في بداية شهر أغسطس بدأ يتجهّز للسفر، ولم يتركه أبوه يُجهّز أمور سفره بنفسه، وإنما أخذ الأسبوع بأكمله إجازة. أخذه أبوه إلى بعض المحلات الكبرى في العاصمة، وطلب منه أن ينتقي أجود أنواع الحقائق والملابس ومستلزمات السفر، وكثيراً ما تشاجر مع والده من أنه ليس بحاجة لأغراض باهظة الثمن، وإنما تكفيه الأغراض البسيطة والرخيصة. خاطب والده مرة:

– لستُ بحاجة لأن أظهر من الأثرياء، وشرائي لهذه الأغراض الباهظة ستزيد من ديونك، وتحمّلك مزيداً من الأعباء.

لم يُعجب والده هذا الكلام، فردّ عليه:

– أمور الأسرة سيدبرها الله الذي تكفّل برعايتنا منذ أن ولدنا، وأنت لا بُدَّ أن تظهر بما يليق بمقامك كأول طالب من المملكة يدرس في جامعة هارفارد وفي أهم التخصصات.

– ليس مقام الإنسان بمظهره، ولكن بمقدار تفوقه العلمي والعملية.

علّق أبوه مماًزحاً:

– لا تقلق، سنُدوّن ما نصرفه عليك الآن، وعليك تسديد هذه المبالغ عندما

تتخرج وتتوظف.

كان أبوه في كل تلك الرحلات يُقدِّم له النصائح؛ إما بصريح العبارة أو عن طريق ذكر القصص والأحداث التاريخية وسيرة بعض الشخصيات.

بعد أن علمتُ بقرب ذهابه إلى أمريكا، خافت شيماء أن يغادر ولا يتواصل معها، فقررت مراسلته. فكرت أولاً في الكتابة إليه، ثم توصلت رسالتها إليه عن طريق سمية، ولكنها خافت أن ترفض سمية ذلك، وخاصة بعد ما شاهدته عليها من الاستقامة والالتزام.

لجأت إلى حيلة أكثر أماناً لها ولمحمد، وهي التواصل عبر البريد الإلكتروني؛ حيث سمعت مرة من أخيها ما يقوم به محمد من استخدام الإنترنت في التواصل مع الجامعات الأمريكية. تحايلت على أخيها يوماً كي يسمح لها باستخدام حاسوبه المحمول الذي حصل عليه من العمل، فلم يمانع. كذلك، تحايلت على سمية حتى عرفت بريد محمد.

صُدمت عندما رأيتُ في بريده رسالة بعنوان «هل ستسافر بدوني؟» في أول الأمر، خاف من فتح الرسالة لما يسمعه من استخدام البريد الإلكتروني في الغزل والمجون وتبادل الصور الفاضحة. لكن الشيطان سَوَّل له، ودعته فضوليته ليعرف المُرسِل وفحوى الرسالة، فهو لم يتوقع أن تكون الرسالة من شيماء. فتح الرسالة ولكنه لم يقرأ شيئاً منها، وإنما أسرع مباشرة إلى التوقيع في أسفلها، فإذا مكتوب فيه: «حبيبتيك شيماء».

خاف من هذه الخطوة الجريئة - بل والمتهورّة في نظره - التي أقدمت عليها. بدأت الشكوك تخالجه حول نزاهة مشاعرها. تذكر صورتها عندما رآها بتلك الملابس الزاهية، وتذكر كونيّ العصير اللذين أحضرتهما عندما زار أخاها بعد ظهور النتائج. حاول أن يدفع وساوس الشيطان عنه، ثم خاطب نفسه:

– صحيح أنني لم أجرب الغرام مع فتاة غيرها، ولكن مهما كان القصد فهذا لا يُرضي الله.

قرر أن يقرأ الرسالة ليعرف فحواها. قرأها، فوجد فيها من كلمات الحب وآهاته التي سطرها شيماء بأسلوب لا يعرفه إلا من التظى بأوار العشق. ورغم كل ذلك لم يردّ عليها مخافة أن تكون خديعة من سالم لشكه في علاقة بينهما، وأيضاً لوجود وازع الاستقامة الذي كان يؤثبه من الانسياق في مثل هذه الطرق. عاتب نفسه قائلاً:

– هذا اختبار من الله ولما حذرني منه أبي، ولئن رسبتُ في هذا الامتحان البسيط فكيف فيما يمكن أن يواجهني في أمريكا؟

مرّ يومان وهو يفكر في تلك الرسالة، وفجأة جاءه أخوه يوسف يخبره بأن شخصاً يريد في الهاتف. ما إن سلّم على المتصل حتى سمع كلمات خافتة تردّ السلام، وتقول له:

– انتظرتك لتردّ على رسالتي.

ثم أغلقت الهاتف. عرف أنها شيماء، وتيقن أن الرسالة من عندها.

هاجت مشاعره العاطفية من جراء تلك المكالمة الخاطفة. عاد إلى الرسالة من جديد، وقرأها عدة مرات، ومع ذلك لم يجرؤ على الردّ عليها. صار يعاني من صراعٍ نفسي أليم؛ نوازع شيطانية تزين له هذا العالم الجميل البرئ الذي تطيب فيه النفس، وتتواصل فيه مع من تحب دون حواجز ولا رقابات ولا روادع إيمانية تؤثب الضمير على ما يريد الإقدام عليه، وضميره الإيماني الذي يُذكره برقابة الله.

خاطب نفسه مرة:

- ماذا لو عرف والديّ وأساتذتي هذا؟ أتراهم يرضون عني؟ أليس نفاقاً أن أحرص على صلاة الجماعة وتلاوة كتاب الله ثم أنغمس في عالم الغراميات والمجون؟

قرر مرة أخرى أن لا يردّ على الرسالة. جاءته رسالة ثانية ثم ثالثة ثم رابعة، وفي كل مرة كان يفتحها بتلّهف، ويقرأها بتمعّن، ولكن ترتجف أنامله عندما يحاول الردّ على إحداها.

فكّر أن يفتح الأستاذ أسامة بذلك؛ فطالما شكى له ما يمرُّ به - أحياناً - من أحوال نفسية، ووجد فيه طبيباً حاذقاً وأباً حنوناً. لكن: هل يا تُرى سيتفهّم أستاذه ما يجري في عالمه؟ تلاشت هذه الفكرة، فجاءته أخرى ليخبر والدته، ولكنه خاف من أن تحملها عاطفتها فتخبر والده، وعندها ستتدهور العلاقات، ففضّل أن لا يفعل شيئاً.

أثّر موقفه هذا نفسياً على شيماء؛ فلم تجد فيه ذلك الشاب الذي يمكن أن يُشبع حياتها حبّاً وأنساً، أو هكذا وسوّست لها نفسها. وعندما انقطعت عن مراسلته عرف أنها غير راضية، فلجأ إلى أخته التي تعرف أسرارها وخباياها. أخبرها بكل ما جرى. لاحظ أنها تأثرت من قيام شيماء بمثل هذا الفعل؛ فهو أمرٌ مستنكر في المجتمع، حتى وإن لم تكن أسرة شيماء على درجة عالية من التدين.

ورغم تأثرها بما جرى إلا أنها أدركت أيضاً عمق المشاعر بين أخيها وشيماء، فقررت أن تكلمها، ففاتحتها قائلة:

- جئتُ لأعتذر لكِ عن عدم ردّه على رسائلِك.

صُعِقتُ شيماءَ من هول ما سمعت. لم يدُرْ بخلدها لحظةً أن أحدًا يعلم بما تقوم به. احمرّت وجهها، ونكّست رأسها حتى لا يكاد وجهها أن يُرى. في تلك الرُبُكة لم تدرِ هل ستعتذر هي الأخرى أم تبقى صامته.

مرت دقائقٌ وسمية تجول بعينها فيها، وهي منكّسة رأسها. لم تُطق سمية الصمت فتابعت:

- إنه لم يردّ على رسائلِك خوفًا عليكِ.

سكتت قليلًا لترى أثر تلك الكلمات عليها. لم تقل شيئًا، وإنما ظلت منكّسة رأسها، لكنها فرحت بهذه الكلمات؛ فهو يخاف عليها، وهذا يدلُّ على حبه لها. تابعت سمية كلامها وهي تنظر إليها ورأسها ما زال منكّسًا:

- إنه يُعزّك ويحترمك.

كانت شيماء ترمقها بين الفينة والأخرى بنظرة خاطفة. تابعت سمية:

- ويحبُّك أيضًا.

طأطأت رأسها بشدة، وقلبها يكاد أن ينفطر من سرعة خفقانه، ولم تتركها سمية لتهدأ مشاعرها، فصدمتها بقولها:

- والآن، ما رأيك؟

لقد كاد أن يُعشى عليها، فلم تستحضر بخاطرها ولو كلمة واحدة تُسكّيت طلب سمية، فظلت صامته، وسمية تنظر إليها. وبعد صمّتٍ طويلٍ نظّقت:

- أنا آسفة أيضًا.

سُرّت سمية بردّها؛ فهو يوحي أنها نادمة على ما قامت به. تابعت شيماء:

- أعترف بخطأ ما قمتُ به.

ثم أردفت:

- أرجو أن تسامحاني.

سُرَّ محمد كثيرًا بما سمع، فشكر أخته على ما بذلته.

لم تكتفِ خديجة بتجهيز الملابس والأمتعة لولدها، وإنما أعدت له بعض المأكولات الشعبية والحلويات التي يمكنه حملها معه في السفر، وكان عليٌّ يُذكرها دومًا بأنه لا يُسمح له بحمل أكثر من ثلاثين كيلو جرامًا في الطائرة، وأن بعض المأكولات غير مسموح بحملها.

في يوم سفره جاء بعض الأهل والأصدقاء لتوديعه، ولم يفته أن يجلس مع سمية ليُحفظها على الدراسة، ويُبين لها دور المسلم في خدمة دينه وأمه، وأن الاستقامة هي الدعامة الأساسية لتمكين الإنسان في الأرض. طلب منها أن تبقى على تواصل مع شيماء، وأن تنقل له أخبارها أولاً بأول.

بعد صلاة العصر، وبينما هو يوجه إخوته لتحميل الحقائب وترتيبها في سيارة والده البيكب، كانت المفاجأة عندما شاهد سالمًا قادمًا بسيارته، مع أنها يوم الاثنين. بادره قائلاً:

- ما كان ينبغي أن تشقَّ على نفسك. لقد حملتَ نفسك عناء السفر، وكان

يكفي أن تتصل.

ابتسم وقال:

- نعم، لو أن غيرك من سيسافر.

تحدثنا لفترة، وسأله عن التجهيزات للسفر فأخبره بأن كل شيء على ما

يُرام.

أراد محمد أن يُودَّعه فقطعه:

- سأوصلك إلى المطار بنفسى.

ابتسم محمد، وقال:

- هذا لا يمكن، فأنت لم تسترح من عناء الطريق بعد، ثم إن الأسرة بأكملها

تنتظرنى لتأتى معى.

أصرَّ أن يذهب معه إلى المطار حتى وإن كانت الأسرة ستذهب معه

بسيارتهم. لم يستطع إقناعه، فأخبر والديه بمجيء سالم معهم، فحاول والده

أن يثنيه عن ذلك فأبى.

استقلَّ محمد ووالديه وإخوته سيارتهم، بينما تبعهم سالم بسيارته. ركب

خديجة في الكرسي الخلفى، وأجلست أروى على فخذيها، وجلست سمية

وخالد بجانبها. وفي الكرسي الأمامي جلس محمد بجانب النافذة، وأجلس

يوسف بجانبه. عندما تحرَّكت السيارة، بادر محمد بدعاء السفر، وأبواه وإخوته

يؤمُّنون على دعائه. بعد أن فرغ من الدعاء، سأله أبوه:

- هل حملت معك جميع أغراضك؟

- أظن ذلك، وإذا تذكَّرتُ شيئاً فيمكنكم أن ترسلوه لي بالبريد.

قضى مسافة الطريق مع والديه في الحديث عن القلق الذي يشعران به،

وكان يطمئنهما بأن الأمور ستسير - بإذن الله - بسهولة ويسر. أما الأولاد فقد

انشغلوا جزءاً من الطريق في قراءة بعض القصص والكتيبات التي حملوها

معهم، وكانوا - أحياناً - يشاركون في الحديث بالاستفسار عن البلدان التي

يمرُّون عليها أو عن أحوال أمريكا. سأله أبوه:

- هل أعلمتَ أحدًا في أمريكا بقدمك؟

أخبرهم بأن معلميه قاموا بجهود مشكورة في ترتيب الأمور له في أمريكا، وأنه تعرّف على بعض الأشخاص ممن يعيشون في نفس المنطقة التي سيذهب إليها.

كانت خديجة في قمة الغبطة والسرور، لما سمعه من لباقة ابنها بما قام به من ترتيبات. خاطبته بنبرة تنم عن سرور وإعجاب:

- ما شاء الله عليك يا ولدي.

ثم تابعت مداعبة ابنها:

- ودَدْتُ لو آتي معك فأرى بعيني ما ستحظى به هناك من حفاوةٍ وتكريم.

ردَّ عليها مداعبًا:

- والله هذه فكرة جميلة، ما رأيك أن نشترى لك تذكرة من المطار،

وتسافرين معي؟

نطق يوسف، فقال بضحكة:

- أنا أذهب معك يا أمي.

قاطعها خالد:

- بل أنا أذهب معكما!!

ردَّت سمية بابتسامة:

- الأولاد يذهبون مع أبيهم، والبنات مع أمهم. سنذهب أنا وأروى معك

يا أمي.

علّق عليّ وهو يبتسم:

- لا تستطرد يا محمد فتحسب أمك وإخوتك أن الأمر جدّ، فيوافقوا عليّ
السفر معك، ويتركوني وحيداً!!

قال محمد وعلامات السرور بادية عليه لما يراه من انشراح صدريّ والديه:
- يبدو يا أمي أن هناك من لا يطيق فراقك أكثر مني.
ضحك الجميع.

كانت خديجة قد جهّزت بعض الكعك والبسكويت للطريق، وحملوا معهم
دلة شاي. بدأت الأم تُخرج بعض الحلويات والكعك وتضعها في صحنٍ
صغير، ثم ناولتها محمداً. أخذ الصحن ومدّ يده نحو والده، فأخذ الوالد بعضاً
من المكسرت في يده. قال محمد:

- ستتعبون كثيراً هذه الليلة؛ فنحن سنحتاج إلى حوالي ساعتين للوصول
للمطار، ثم ستحتاجون إلى مثل ذلك الوقت للرجوع إلى البيت.
ردّت خديجة:

- نحن سنتعب في الطريق قليلاً، ثم نصل إلى البيت وننام. أما أنتَ فستتعب
كثيراً؛ فالرحلة إلى أمريكا تستغرق أكثر من خمسة عشر ساعة، كما أخبرتني.
- هذا صحيح، ولكننا سنقضي معظمها في النوم.

علّق خالد بابتسامة:

- الرحلة فرصة له للانقضاض على الوجبات الشهية التي سيقدّمونها له.

دافعت أمه عنه بقولها:

- هكذا أنت، لا تفكر إلا في الوجبات.

علّق محمد:

- صحيح أن الوجبات ستكون - بلا شك - لذيذة، ولكنني لا أشعر باشتهاء الطعام.

مازحه خالد:

- خذني معك، وأنا سأقوم بالواجب.

علّق يوسف بضحكته المعهودة:

- وجبات الطائفة تحتاج إلى مهارة، فخذني أنا وسأقضي على كل شيء.

ضحك الجميع.

كانت مشاعر الحزن - أحياناً - تطغى على خديجة، فتدخل في صمتٍ طويل، حتى إن محمدًا سألها مرة:

- ماذا بك يا أمي؟ أراك لا تتكلمي.

- لا شيء يا ولدي، ولكن أحاول أن أصبر نفسي على ما ستحمله الساعات والأيام القادمة.

لم يكن عليٌّ بأحسن حالٍ من زوجته، وإن بدا يشارك في الحديث. ردًّا عليها محاولاً مواساتها:

- لحظات الفراق دومًا صعبة يا أم محمد، ولكن ابنك صار رجلًا عاقلًا فلا تخشني عليه.

أما محمد فلم تكن مشاعره بأقل مما هي عند والديه، ولكنه - كعادته - يخفي ما بداخله، حتى إنه من الصعب معرفة ذلك من ملامح وجهه أو نبرات

آلام الفراق

صوته. شابٌّ في الثامنة عشرة من عمره لم يخرج من بلده طيلة حياته، ثم يفارق أهله عامًا كاملًا، ويذهب إلى بلدٍ مجهول يختلف عن بلاده من كل النواحي. صارت هذه المشاعر لا تفارقه منذ أن ظهرت نتائج الترشيحات.

استمرت الرحلة إلى المطار، والأسرة تتجاذب أطراف الحديث، والذي كان أكثره يدور حول محمد ورحلته إلى أمريكا. حاول- في بعض الأحيان- صرف الحديث إلى أمورٍ أخرى، كأحوال الأسرة وأخبار بلده وغير ذلك. توقفوا في الطريق لصلاة المغرب والعشاء، ثم تابعوا المسير. وما إن بقي حوالي نصف ساعة للوصول إلى المطار، حتى بدأ الحديث يدور حول المطار ومكان الوصول وأين سيوقفون السيارة.

كان رأي محمد أن يُنزلوه عند صالة المغادرة، ويودّعهم هناك، ثم يعودون إلى البلد مباشرة كي لا يتأخرون في الوصول إلى البيت. لكن والديه عارضوا ذلك بشدة، حتى إن أمه قالت له:

- لن أبرح المطار حتى أشاهد طائرتك وهي تُحلّق في الجو!!

استقرَّ رأيُ الجميع على أن يوصلهم عليٌّ إلى صالة المغادرة، وينزلوا الحقائب، ثم يأخذ هو السيارة إلى الموقف.

عندما وصلوا عند صالة المغادرة، كان رجال الأمن لا يُمهّلون السيارات في المكوث طويلًا، فأسرع محمد وخالد وأنزلا الحقائب، وركض يوسف ليُحضر عربة، بينما نزلت خديجة وابنتيها، وأنزلت معها كيس الحلويات والكعك. بعد ذلك تحرّك عليٌّ مباشرة إلى مواقف السيارات. أثناء ذلك عاد سالم بعد أن أوقف سيارته في مواقف المطار، وأخذ الحقائب إلى داخل

الفصل السابع

الصالة، في حين اهتم محمد بشرح أقسام المطار لوالدته وإخوته، وشرح لهم أيضًا بعض إجراءات السفر التي على كل المسافرين القيام بها قبل المغادرة، كما عرفها من خلال أسئلته لمعلميه، ثم انشغل بتخليص إجراءات السفر.

كانت ملامح الحزن بادية على وجه سالم، فلما اقترب من محمد خاطبه مواسيًا له:

- لم يكن من داعٍ لأن تكلف نفسك بالحضور.

- إنك - بلا شك - ستترك فراغًا كبيرًا في حياتي، رغم أنني أعتزف بأنني قد ابتعدتُ عنك كثيرًا بعد حصولي على الوظيفة.

- لا عليك، مهما حدث فإننا سنبقى - بإذن الله - أصدقاء.

ما إن أكمل إجراءات السفر، حتى توجَّهوا إلى بعض الكراسي الفارغة، وبقوا ينتظرون وصول عليّ. بعد هنيهة جاء ووجدهم جالسين، فظنَّ أن ثمة مشكلة، فبادر يسأل:

- خيرًا إن شاء الله؟ ماذا جرى؟

قال محمد:

- خير والحمد لله، لقد أنهينا إجراءات السفر.

ردَّ الأب مستغربًا:

- ما شاء الله، بهذه السرعة؟

- ألم أقل لك إن عندنا الكثير من الوقت؟

قالت الأم بإعجاب:

- ما شاء الله، ما إن وصل عندهم، وبدأ يرطُن معهم بالإنجليزية، حتى تسابق الموظفون لتخليص أموره.

ردَّ محمد مبتسمًا:

- هم يقومون بذلك لكل الناس، وليس لي أنا فقط.

أردفت أمه:

- أظنهم يعرفون مَنْ يستحق معاملة خاصة ومَنْ لا يستحق.

علَّق أبوه بابتسامة:

- يبدو أن أمك تفسِّر الآن كل شيء على أنه خدمة خاصة لك.

قال محمد مداعبًا أمه:

- أما سمعتَ بالمثل الذي يقول: القرد في عين أمه غزال!!.

ردَّ أبوه:

- لا يا محمد، ليس إلى هذا الحدِّ.

علَّقت أمه باستياء:

- دعه يا أبا محمد. العتب عليَّ أي مولعة بحبِّه.

أحسَّ أن أمه قد تأثرت بمقولته، فأخذ يدها فقبلها، ثم قال:

- آسف يا أمي، لقد كنتُ فقط أمزح معك.

ردَّت خديجة بابتسامة:

- وهل تظنُّني غاضبة عليك؟

سأله أبوه:

– هل أخبروك متى ستقلع الطائرة ومتى عليكم دخول بوابة المغادرة؟
– الإقلاع – بإذن الله – في العاشرة، وسيعلنون عن فتح بوابة المغادرة بعد قليل.

أُعلن عن الرحلة، وطلب من المسافرين التوجه إلى بوابة المغادرة. عانق والديه، وقبل يديهما، وطلب منهما الصبح عنه، وأن لا ينسياه من الدعاء، ثم سلم على إخوته. لم يخفِ الوالدان ما يشعران به من ألم الفراق، وقد رأى الدموع تنزل على وجنتيهما فلم يتمالك نفسه حتى تدرجت من عينيه دمعة مسحها بطرف ثوبه. خاطبته أمه وهي تناوله الكيس الذي أحضرته معها من السيارة:

– خذ هذا ففيه بعض الحلويات التي يمكن أن تتسلى بها في الطائرة.

ابتسم وقال لها، وملامح الحزن بادية على وجهه:

– جزاك الله خيرًا يا أمي.

بعدها، توجه صوب سالم، وعانقه وطلب منه أن يسامحه عما بدر منه من أخطاء، ووعدته بأن يتواصل معه باستمرار. أدخل سالم في جيبه صرة من نقود، وهو يقول له:

– هذه ألف دولار لتستعين بها في رحلتك.

– أرجوك يا سالم، فعندي من النقود ما يكفيني وزيادة.

أراد أن يردّها إليه فأصرّ سالم عليه أن يأخذها، فقبلها وشكره عليها. تكرر النداء للتوجّه إلى بوابة المغادرة، فقال للجميع وهو يبتسم:

– يبدو أنهم أكثر عجلة مني. عليّ أن أذهب الآن.

أخذ جوازه وحقيبة اليد من سالم، ثم توجه صوب بوابة المغادرة، وهو

يُلَوِّح بيده على أسرته وصديقه.

في طريقه إلى الطائرة كان يلتفت يمنة ويسرة، وهو يريد أن يستكشف كل شيء. وصل إلى بوابة المغادرة، وبقي في صالة الانتظار حوالي ربع ساعة. بعدها، فُتِحَت البوابة، وبدأ في صعود الطائرة، ونبضات قلبه في تصاعد. أحسَّ بامتزاج مشاعره؛ فهو من ناحية سيفارق أهله وأصدقاءه وزملاءه، وحتماً سيشتاق إليهم كثيراً، ومن ناحية أخرى فإنه سيذهب إلى عالم آخر يسمع عنه بأنه عالم الحضارة والتقدم والعلم، ولكن لا يدري ما حقيقته.

امتزجت تلك المشاعر بين حنايا نفسه، ثم بدأت تدريجياً في الفتور عندما دخل الطائرة، ورأى الناس تأخذ أماكنها. لحسن حظه أنه جلس بجانب النافذة. أطلَّ منها فرأى أضواء العاصمة وهي تلوح من بعيد. غاص في أحاسيس حزينته، وبدأ شريط الذكريات يمرُّ أمام عينيه، وكأنه سيفارق بلده بلا عودة. فكَّر في والديه وكيف يمكنهما تحمُّل فراقه، وماذا ستكون أحوال إخوته؟ إنهم - بلا شك - سيحزنون لفراقه، ويشتاقون إليه. حتى إنه فكَّر في أروى وكيف ستبدو له بعد عودته بعد عام من الآن.

بعدها، حلَّق في عالم أثار في داخله كثيراً من المواجه، إنه عالم الحب، عالم شيماء. لقد كاد أن ينفجر باكياً لولا حياؤه ممن يجلسون بجانبه. خاطب نفسه، ودمعتان حارتان تنسالان من عينيه:

- أتراها ستتحمّل هذا الفراق؟ ماذا لو رأها أبواها أو أخوها وهي غارقة في الحزن؟ إنهم - لا ريب - سيربطون ذلك بسفري، وقد تتعرَّض لمضايقات. ثم كيف تستطيع - وأنا بعيد عنها - أن تُكرِّس عقلها وقلبها ومشاعرها للمذاكرة طيلة هذه السنة؟

استمرت هذه المشاعر الهائجة تنصبُّ عليه كالسيل العارم، ولم ينقذه منها إلا صوت المضيف وهو يتلو دعاء السفر إيداناً بتحريك الطائرة.

قامت اثنتان من المضيفات بشرح كيفية ربط وفك الحزام وإرشادات السلامة في الطائرة. كان واضحاً من ملامحهما أنهما من جنوب شرق آسيا، فقال في نفسه:

– حتى الضيافة في الطائرة لا تقدر عليها؟

عندما بدأت الطائرة في التحرك قرأ دعاء السفر، ثم أغمض عينيه، وصار يناجي ربه أن يحفظه ويحفظ أبويه وإخوته وشيماء، وأخذ يعدد أهله وجيرانه وأصدقاءه. تزايدت مشاعر القلق وهو يرى الطائرة تسرع في مدرجها، ثم ترتفع مقدمتها إيداناً بالصعود إلى السماء.

نظر إلى الأضواء في الأسفل وهي تخفت رويداً رويداً، ومع تزايد الصعود جاءت الأفكار من كل صوب. فكَّر في الموت، فقال لنفسه:

– ماذا لو هَوَت الطائرة؟ ماذا لو متُّ؟ هل سيكون ربي راضياً عني؟

بدأ يفكر في ذنوبه وتقصيره في ربه وأهله والناس. فكَّر في صلواته وما يغشاه خلالها من غفلة وعدم حضور قلب. فكَّر في بعض نزوات الشباب والمراهقين التي زارته أحياناً فحاول التخلص منها ولكنها أردته صريعاً. فكَّر في شيماء، ثم تساءل:

– هل سيغفر الله لنا ما يدور بيننا؟

في تلك اللحظات القصيرة انتابته من المشاعر الهائجة ما كادت أن تجعله ينهار لولا رحمة ربه وشفقته عليه.

آلام الفراق

بدأ طاقم الطائرة في تقديم المشروبات، فانتبه من ذلك الكابوس المخيف على صوت المضيفة وهي تخاطبه باللغة الإنجليزية: ماذا تريد أن تشرب؟ قُدمت العصائر والمكسرات، ثم بعد فترة أحضروا وجبة العشاء. كان الطعام لذيذًا، ورغم ذلك كاد أن يغوص مرة أخرى في عالم الأفكار لولا تدخل الرجل الذي يجلس بجانبه. بادره الرجل:

– أراك مستغرقًا في صمتٍ عميقٍ، هل بدأت بك الأشواق من الآن؟

ابتسم له، ثم قال:

– هكذا يبدو.

– هل هذه أول مرة تسافر فيها إلى أمريكا؟

– نعم، وأنت؟

رمقه الرجل بنظرة تخفي وراءها الكثير من الكلام، ثم قال:

– تعوّدتُ على الأسفار.

كان الرجل الطويل أبيض البشرة، يرتدي بنطالًا أسودَ وقميصًا أزرق. حمّن

محمد من ملامح وجهه ولهجته أنه من بلاد الشام، فسأله:

– هل أنت فلسطيني؟

– نعم.

– وهل أنت مقيمٌ في أمريكا، أم لديك وظيفة تسافر من أجلها؟

– لا هذه ولا تلك. أنا أعمل في التجارة، وأتردد كثيرًا إلى أمريكا لعقد

صفقات تجارية.

تذكّر قضية فلسطين، وكيف تخلّى عنها أبناؤها من الفلسطينيين وغيرهم من المسلمين. لقد شعر في نفسه بشيءٍ من الازدراء لهذا الرجل الذي باع قضيته من أجل متاع الدنيا وجمع حطامها. لم يتمالك نفسه فنظر إلى الرجل بشزّر، ثم قال له:

– أليس الأولى أن تُرَكِّز ما حباك الله – سبحانه وتعالى – به من علمٍ ومالٍ في نصرّة قضية فلسطين بدلاً من الانهماك في التجارة؟!
شعر الرجل بغيرة محمد على القضية الفلسطينية فلم يعبّ على ما قاله، وإنما ردّ عليه بتأوّه:

– يا أخي، هناك أمور كثيرة تبدو خافية عليك!!

قاطععه محمد بنبرة نائرة:

– مثل ماذا؟!!

– هل تعلم أن المملكة – كسائر بلدان الخليج – كانت وما زالت مستعمرة من قبل أمريكا؟! وهل تعلم أن أمريكا صارت المستعمِر الأكبر إن لم يكن الأُوحد للعالم، وخاصة لبلدان المسلمين؟!!

لم يفهم الرابط بين هذا الكلام وقضية فلسطين، فقاطعته قائلاً:

– وما دخل هذا بقضية فلسطين؟!!

بدأ الرجل يسرد له الحقائق والأرقام عن حقيقة ما يجري في العالم، والتي يسمّعها محمد لأول مرة، ورويداً ورويداً بدأ هذا الرجل يعظّم في نفسه، وتحوّل ازدرأؤه له إلى ازدرء وكرامية للطواغيت وأصحاب النفوذ الذين يُتاجرون في القضية الفلسطينية من أجل البقاء على عروشهم والهيمنة على شعوبهم، والذين لا يُبالون أن تمتصّ أمريكا وغيرها من الدول خيرات بلدانهم وثرواتها.

آلام الفراق

كان هذا الرجل بمثابة رسول من الله ليفرّج عنه همومه، ويواسيه في مشاعره، ويؤنسه في هذه الرحلة الطويلة التي ستستغرق قرابة الست عشرة ساعة. عبّر عن امتنانه بما أخبره به هذا الرجل، فقال له:

- اعذرني يا أخي فقد أسأتُ الظن فيك في البداية، ولكنني أدركتُ الآن أنني وغيري من المسلمين نتحمّل القسط الأوفر من بيع قضية فلسطين، وأن السبب الأول والأخير في ذلك هو بعدنا عن تمسّكنا بتعاليم ديننا، وعدم اعتزازنا بهويتنا الإسلامية.

- صدقتَ يا أخي؛ فلو أن المسلمين تمسّكوا بدينهم لما رضوا أن يتخلّوا عن شبر واحد من أرض أمتهم الإسلامية، ولكن يصدّق علينا قول الفاروق - رضي الله عنه -: نحن قومٌ أعزنا الله بالإسلام، فمهما ابتغينا العزة في غيره أذلنا الله.

بعد أن فرغ الناس من تناول وجبة العشاء تم عرض فيلم أجنبي استمتع بمشاهدته. يحكي الفيلم قصة نبيلة عن شاب فقير من الأفارقة، ضاقت الأحوال المعيشية بأسرته وبلده، فتاقت نفسه لتغييرها وتحسينها، لكنه لم يستطع، فقرّر أن يهتم أولاً بنفسه، وأن ينمي مواهبه وقدراته. وعندما فعل ذلك وجد الفرص تنفتح أمامه، حتى استطاع أن يحصل على عرض في شركة أجنبية في بلاده.

اجتهد الشاب في عمله وأخلص، فقامت الشركة بإرساله إلى دورات تدريبية في أمريكا، وبدأت مهاراته وقدراته تتعاظم، وبدأ مسؤولوه يكتشفون هذه القدرات والإمكانات، فأولّوه ثقة كبيرة، وأسندوا إليه مهمات جديدة إلى أن أصبح المدير العام للشركة في بلاده، ثم تحقق حلمه في السفر إلى المقر الرئيسي للشركة في أمريكا، وهناك التقى برئيسها. وكم كانت فرحته عندما

طلب منه الرئيس ألا يغادر أمريكا، لأن الشركة بحاجة إلى قدراته وخبراته هنالك أكثر من الحاجة إليها في بلاده. تم منحه إقامة دائمة في أمريكا، وأعطيت له مناصب عليا في الشركة.

وجد محمد أن الأقدار قد ساقته له هذا الفيلم لتُسليهِ مما يجد من مشاعر وأحاسيس، ولطمأنته بأن رغباته وطموحاته - لا شك بإذن الله - ستتحقق، ولكن لا بُدَّ له من الاجتهاد والمثابرة. لقد أعاد إليه الفيلم الثقة للقرار الذي اتخذته حول مواصلة الدراسة، وعدم الانسياق وراء إغراءات الوظيفة والمنصب، التي كثيرًا ما تصرف الشباب عن تحقيق أحلامهم وطموحاتهم. وجد هذا الفيلم بمثابة المحرِّك والمحفِّز له لمواصلة مشواره الذي اختطَّه لنفسه ليصل إلى آفاق عليا من النجاح.

وصلت الأسرة إلى البيت بُعيد منتصف الليل، ولم يكن الإرهاق الذي أصابهم أثناء الرحلة الطويلة هو الوحيد الذي كان يُنهك أجسادهم، ولكن مشاعر الحزن لم تفارق عليًا وخديجة؛ حتى إنهما بقيا صامتين طيلة الطريق، باستثناء الكلمات القليلة التي يجيبان فيها على تساؤلات الأولاد. لم تذق خديجة في تلك الليلة طعم النوم، وأما عليٌّ فقد غلبه النوم من شدة الإعياء.

لم تكن شيماء بأفضل حالٍ منهم؛ فدخلت غرفتها، واستلقت على سريرها. رأتها أختها الكبيرة، فسألته عن حالها. إنها لا تريد الحديث مع أحد، ولكنها لو لم تُجيبها فلربما شكَّت في أمرها، فأخبرتها بأنها تشعر بالضيق قليلًا. كانت هذه الإجابة كافية لتستنتج أختها ما جرى؛ فهي قد علمت أيضًا بسفر محمد. لزمت غرفتها طيلة تلك الليلة ونهار الغد، ولم تشارك أسرتها في وجبات الطعام.

آلام الفراق

بعد انتهاء الفيلم، تم عرض أفلام وثائقية عن أمريكا، واستمتع محمد بمشاهدتها كثيرًا، وخاصة ما فيها من مناظر طبيعية خلابة، كالسحب الركامية التي تعانق قمم الجبال وكأنها عمائم، والبحار الزرقاء الممتدة، والجبال الشاهقة الخضراء، والسهول المنبسطة التي تزينها البحيرات ومجاري الأنهار. بعثت تلك المناظر في نفسه الهدوء والطمأنينة، وكان طاقم الضيافة على درجة عالية من الخلق واللطافة، مما أسسه في رحلته وسأله عن فقدان أهله وأصدقائه. أسلم نفسه للنوم، ولكنه بين فينة وأخرى يستيقظ ويُطلُّ من النافذة خوفًا من أن تفوته صلاة الفجر. وعندما رأى خيوط الضياء قد بدأت تعانق الأفق، أيقظ الرجل الفلسطيني الذي يجلس بجانبه، ثم ذهب إلى دورة المياه فتوضأ، ثم صلى في كرسيه جالسًا. وبعدها، بقي يتلو أذكار الصباح، ثم قرأ حزبًا من محفوظه، ثم أسلم نفسه مرة أخرى للنوم إلى أن أيقظه الفلسطيني ليتناول وجبة الإفطار. بعد الإفطار تناول قلمه، وبدأ يكتب مذكراته التي صارت من لوازم حياته، ثم أمسك بكتاب «أمريكا من الداخل» لسيد قطب، فاستمتع بقراءته. وكان - أحيانًا - يغوص في مشاعر عاطفية فياضة يطوف خلالها بين أهله وأحبابه وأصدقائه، وأحيانًا يسبح بخيالاته في عالمه الجديد الذي ينتظره.

منذ دخوله الثانوية، صار مغرمًا بقراءة كتب الدعوة والفكر، وخاصة كتب سيد قطب ومحمد الغزالي وأبي الأعلى المودودي. لم يكن تلذُّذ بقراءة هذه الكتب وعشقه لها لينبع من فراغ، ولكنه وجد فيها ضالته؛ فما إن بدأت مداركه تتفتح، وقلبه وعقله يستشعران الواقع الذي يعيشه الناس، سواءً في المملكة أو في غيرها، حتى وجد كتابات هؤلاء المفكرين تُشخص الواقع بكل صدق وموضوعية، وتحاول جادة وضع أطروحات عملية لتغيير هذا الواقع من خلال ما عُرف بأسلمة المجتمع.

إنه ليصعب - أحياناً - حتى على محمد معرفة ما إذا كان يستهويه في هذه الكتب إكباره لمؤلفيها ذوي النفوس العظيمة التي عشقت دين الله وتفانت في خدمته، أم كانت تستهويه تلك التحليلات الصادقة للمجتمع بعيداً عن عبارات النفاق والتزُّف للحكام والمسؤولين التي لا يكاد يخلو مقال أو كتاب منها، والتي تُداري وراءها آهات المجتمع وعيوبه.

في اليوم التالي ذهب عليٌّ إلى عمله منهكاً من آثار السفر، ووجهه شاحبٌ من آلام الفراق. أما خديجة فمرَّ عليها النهار ولا يشكُّ من يراها أنها فقدت عزيزاً عليها، وكانت لا تبرح مكان الهاتف إلا نادراً انتظاراً لاتصال محمد. أما هو فقضى ساعات الرحلة الطويلة بين القراءة في الكتب، والحديث مع الرجل الفلسطيني، والنوم إلى أن قاربت الطائرة على الوصول.

الفصل الثامن: بلد الأحلام

عندما بدأت الطائرة في الهبوط ألصق وجهه بنافذة الطائرة، وهو ينظر إلى بلد الأحلام بعماراتها الشاهقة، وخضرتها الممتدة، تتخللها الأنهار الطويلة. كانت تغمره نشوة عارمة بتحقيق حلمه والوصول إلى أمريكا التي كثيراً ما شغلت فكره ومشاعره، وتتتابه - أحياناً - مشاعر قلقٌ ممزوجة بفضول الشباب لاستكشاف المجهول الذي ينتظره بعد لحظات.

تصوّر نفسه يخرج من الطائرة ويرى حشوداً من الناس تجمهرت أمام بوابتها لترى هذا الشاب المتميز الذي جاء ليصبح أشهر عالم في علم الفضاء. ثم تصوّر نفسه وحشودٌ من العرب والمسلمين جاءت لاستقباله، وكل واحدٍ منهم يرفرف بعلم بلاده، وكلهم ينتظرون خروج هذا الفاتح العظيم الذي سينتشل أمته من الضياع والجهل والتخلف، ويجعلها الأمة التي تقود العالم في العلم والحضارة.

وفي نشوة تلك الأفكار والخيالات كانت - أحياناً - تراوده صورة والديه وشيماء، فتختلط مشاعره بين الحزن لفراقهم، والتفكير فيما قد يشعرون به الآن بعد ذهابه عنهم، وبين تصوّرهم وهم يخبرون الأهل والجيران بزهوٍ وفخر بذهابه إلى أمريكا. وكلما اقتربت الطائرة من ملامسة الأرض زادت نبضات

الفصل الثامن

قلبه، وتضاربت الخيالات في داخله، ثم بدأت تتلاشى تدريجيًا وهو يتمتم بحمد الله على سلامة وصوله، ويدعو الله أن ييسر أموره، ويوفقه فيما جاء لأجله.

وصلت الطائرة إلى مطار واشنطن في السادسة صباحًا، فجهَّز حقيبة اليد التي أخذها معه، وودَّع الرجل الفلسطيني، وشكره على ما أمتعه به طول الرحلة من أحاديث مسلية ومفيدة. عرض عليه الرجل أن يقضي هذا اليوم معه، ووعده بأنه سيساعده في تدبير أموره، فشكره محمد، وأخبره بأنه سيواصل رحلته إلى بوسطن.

خرج من الطائرة، وسار حيث يسير الناس، واصطففت الطوابير وهي تُنهي إجراءات الدخول، ومشاعر القلق تتزايد بداخله؛ فهو لم يشاهد أحدًا يعرفه، حتى الشخص الذي كان يجلس بجانبه في الطائرة اختفى. أنهى الإجراءات، ثم أخذ حقائبه وجرَّ عربته نحو بوابة المطار، وما إن خرج حتى رأى حشودًا من البشر تصطف وكأنها جاءت لاستقباله، وكم كانت فرحته وهو يرى شخصًا يحمل لافتة مكتوب عليها اسمه باللغة العربية وبخط واضح.

اتجه صوبه وسلَّم عليه. ردَّ الرجل السلام، ثم سأله:

– أنت محمد علي؟

ابتسم ونفسه قد بدأت تهدأ قليلًا، ثم أجاب:

– نعم، وأنت؟

– أنا موظف في سفارة المملكة في واشنطن، وجئت لاستقبالك.

استبشر بهذا الرجل، وأحسَّ للحظات بزهو بداخله وهو يرى شخصًا بهذه

الأناقة ومن سفارة المملكة جاء خصيصًا لاستقباله.

هنا على سلامة الوصول، ثم أخذه إلى فندق قريب من السفارة. كان الرجل مصري الجنسية، وأخبره أن وظيفته هي استقبال طلاب المملكة الجُدد، وتسهيل أمور إقامتهم، وتعريفهم على موظفي السفارة بشكل خاص، وواشنطن بشكل عام. استغل مسافة الطريق إلى الفندق ليتعرف قليلًا على واشنطن. وعندما وصلا الفندق رتب له إقامته فيه، ثم أخبره بأنه سيأتي إليه في الغد ليأخذه ليتعرف على أعضاء السفارة، وأخبره أيضًا بأن إقامته في الفندق تشمل جميع الوجبات، وقبل أن يتركه سأله محمد عن اتجاه القبة في واشنطن وعن مواعيد الصلاة.

– ما شاء الله.

عبر بهذه الكلمات عن إعجابه بغرفته الواسعة ذات السرير العريض والكراسي والمناضد الفخمة، وأكثر ما شدد إعجابه بالبلونة الواسعة المطلية على منظر البحيرة الزرقاء والورود الجميلة. كلما مرّت عليه لحظات الزمان ازداد إحساسًا بداخله أنه مهمٌّ وذو مكانة عالية.

استراح قليلًا، ثم توجه إلى صالة الاستقبال، وتعرف على المطاعم الموجودة في الفندق، ومواعيد الوجبات، وغير ذلك من الخدمات التي تُقدّم فيه. كان همه الأول طمأنة والديه وشيماء بوضوئه. سأل موظف الفندق عن كيفية الاتصال ببلده، وإمكانية استخدام الإنترنت. أُرشد الموظف إلى طريقة إجراء مكالمات دولية من الهاتف الموجود في غرفته. كذلك، أوضح له كيفية التوصيل بالإنترنت. شكر الموظف، ثم عاد إلى غرفته، وأخذ معه بعض النشرات عن الأماكن السياحية في واشنطن والمناطق المجاورة لها.

كانت الساعة الثانية بعد الظهر. اجتمعت الأسرة للغداء، وابتدأ عليُّ سؤاله عن محمد. بنبرة حزينة رَدَّت خديجة:

– لم يتصل إلي الآن، وأنا قلقة عليه. لماذا لا تتصل يا أبا محمد لتسأل عنه؟
أجابها بنبرة متقطعة يمتزج فيها الإرهاق والحزن:

– بمن أتصل يا أم محمد؟ لو كنتُ أعرف شخصًا يعلم أين هو الآن لا اتصلتُ به.

– اتصلُ بسالم، فربما يعرف عنه شيئًا.

كان سالم وشيماء أيضًا في قلق، فقد مرَّت أكثر من ست عشر ساعة منذ إقلاع طائرته، وإلى الآن لا يعرفون عنه شيئًا. قرر عليُّ وخديجة أن ينتظرا إلى ما بعد صلاة العصر، ثم يحاول عليُّ الاتصال بسالم. دخلا غرفتهما، ونام عليُّ من شدة الإرهاق، وبقيت خديجة تذرِف الدموع، وتسوق الدعوات، وفجأة رنَّ الهاتف.

قفزت من سريرها، وهرولت إلى الهاتف المعلق في الممر.

– السلام عليكم.

قالتها بصوتٍ مسموع وبنبرة سريعة توحى إلى تلهفها لتعرف المتصل. ردَّ محمد:

– وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته.

كان يلقي الكلمات بنبرة متقطعة تمتزج معها البهجة.

– كيف حالك يا أمي؟ أنا محمد.

ردَّت عليه بصوتٍ خائق وهي تبكي:

- محمد؟ لماذا لم تتصل يا ولدي؟ لقد خشيتُ أن يكون قد وقع لك مكروه. أين أنت الآن؟ هل أنت بخير؟
أمطرت عليه وابلًا من الأسئلة بسرعة منعه من الردّ عليها، ولما فرغت قالت له:

- لماذا لا تتكلم يا محمد؟ ماذا بك يا حبيبي؟
كان في نشوة عارمة، وكان يسمع أسئلة أمه وقلقها عليه وهو يبتسم، ثم خاطبها:

- اطمئني يا أمي، أنا الآن في فندق المريديان.

- أين؟

صرخت عليه، فابتسم وقال:

- فندق يا أمي، هذا مكان مثل القصر، وأنا أسكن فيه الآن، وأتصل بكم منه. بدأ يشرح لها ملخص ما حصل له منذ أن تركهم في المطار وإلى هذا الوقت، وأمه لا تنفك تلقي عليه أسئلة تنبئ عما بداخلها من قلق وحزن.

استمر حديثها معه لأكثر من ربع ساعة، وقبل أن يغلق السماعة سألتها عن أبيه وإخوته. كان حديث خديجة الممزوج بالبكاء يصل إلى الغرف مما جعل عليّ يستيقظ من نومه. التفتت إليه، ثم قالت لمحمد:

- ها هو أبوك بجانبني.

كان حديث عليّ مع ولده فيه من الثبات ورباطة الجأش، وخاصة بعدما طمأنه محمد على نفسه. لم يشأ أن يُطيل على ولده فشكره وطلب منهم أن يتصل بهم حال استقراره في شقته.

ارتاح ضميره بعد أن طمأن والديه على أحواله. بقي أن يُطمئن شيماء وسالم. فتح حاسوبه المحمول، وأوصله بالإنترنت - كما شرح له الموظف-. كان قد لمح رسالة من أخته، ولكنه فضل البدء بالكتابة إلى سالم خشية أن تخبره سمية من أحوال شيماء وحزنها على فراقه ما يجعل مشاعره تتحوّل من بهجة إلى حزن.

لكن رسالة سمية كانت فيها من عبارات المرح والأنس والطمأنة على شيماء ما جعلت مشاعره العاطفية تشتعل، وتُحسّسه وكأنه يراها أمامه وهي تتحدث بوجه يملؤه البشر، وتغرّ لا تفارقه الابتسامة. شرح لها تفاصيل رحلته منذ مغادرته المملكة وإلى ذلك الحين، وطلب منها أن تنقل ذلك إلى شيماء. ما إن أخبرتها سمية بأحواله واستقراره حتى غمرها من البهجة والأنس ما جعلها تبقى تتقلب في فراشها إلى قرابة الفجر.

رأى أنه ما زال عنده متسع من الوقت للتعرف على واشنطن. أخرج دليل الهاتف، وبدأ يتصفح ويبحث عن المراكز الإسلامية، وتذكّر المعلومات التي ساعده الأستاذ أسامة في الحصول عليها حول المراكز الإسلامية والمؤسسات المهمة في واشنطن.

اتصل ببعض المراكز الإسلامية، وسألهم عن عناوينهم وبُعدهم عن فندق المريديان. كذلك، سألهم عن الأنشطة التي يقومون بها، فأخبروه بأنه تقام في كل مركز إسلامي الفرائض الخمس وصلاة الجمعة، بالإضافة إلى بعض الدروس الدينية، وبعضها توجد بها مدارس لأبناء الجاليات الإسلامية.

قرر أن يذهب بعد الظهر لزيارة بعض الأماكن الشهيرة في واشنطن. أخذ قسطاً من الراحة، ثم خرج من الفندق وتجوّل في المناطق القريبة منه، ثم عاد وتناول غداءه، ثم صلى الظهر والعصر جمعاً.

بلد الأحلام

طلب من موظف الاستقبال أن يطلب له سيارة أجرة، وأخبره بأنه يريد التجوّل في واشنطن. استغرقت جولته العصر كلها إلى قرابة المغرب، وفي طريق عودته طلب من سائق سيارة الأجرة أن يوصله إلى أحد المراكز الإسلامية القريبة من الفندق الذي يسكن فيه. عندما وصل إلى المركز الإسلامي توجّأ وصلى المغرب. وبعد الصلاة ذهب إلى إمام المركز، وعرفّه بنفسه.

لم يُخفِ الإمام علي أحمد، وهو من فلسطين، سروره به، فبادره قائلاً:

- أنا سعيدٌ بالتعرّف عليك يا ولدي. وددتُ لو تبقى معنا في واشنطن، ولكن ما زالت أمامك رحلة طويلة إلى ماساتشوستس، وأهنتك من قلبي بقبولك في جامعة هارفارد؛ فهي لا تستقطب إلا القلة النادرة من أبناء المسلمين.

رأى الإمام البشّر على وجه محمد فأراد أن يُسدي له نصيحة، فقال:

- يا ولدي، ليس المهم القبول في تلك الجامعة العريقة بقدر ما تبذله من جدّ ومثابرة لتصبح من طلابها المتميّزين، فلعلّ الله أن ينفع بك هذه الأمة.

سُرّ بهذه النصيحة وشكر الإمام عليها.

بقي في المركز إلى صلاة العشاء، واستغلّ هذه الفترة ليتعرف على الخدمات التي يُقدّمها المركز، وخاصة في خدمة الجاليات المسلمة. تعرّف على بعض الأشخاص من جنسيات عربية وغير عربية، وكانت لغته الإنجليزية كافية ليتفاهم مع غير العرب. كان يُركّز في حديثه مع هؤلاء عن الظروف التي يمرون بها في أمريكا، وأحوال بلدانهم. عرف أن غالبية هؤلاء مهاجرون، وأن الظروف المعيشية كانت السبب الرئيسي لهجرتهم، وأحياناً كانت الحروب الأهلية في بلدانهم، واعتداءات الدول الكبرى سبباً لتشرّدهم، ثم هجرتهم إلى أمريكا.

وجد أن غالبية المهاجرين يُكنّون لأمریکا الاحترام لما حصلوا عليه من تسهيلات، وخاصة فيما يتعلق بإقامتهم وحصولهم على وظائف مناسبة. لكن بعضهم كان لا يُخفي المضايقات والإهانات التي يتعرضون لها بين حينٍ وآخر، سواءً أكانت من المسؤولين أو عامة الناس.

بدأت تتشكل في ذهنه صورة عن واقع المسلمين في أمريكا، وبقدر ما كان يشعر به من تعاطف معهم بقدر ما يزيده حماساً للدور الذي عليه أن يقوم به لمساعدة إخوانه، سواءً أكانوا في أمريكا أو بعيداً عنها. ودّ لو تجمّعت لديه معلومات أكثر، أو أنه يصبح أقدر على فهم أحوال المسلمين والتفاعل معهم، ولكنه ذكّر نفسه بأن الله ما ساقه إلى هذه البلاد إلا ليكتسب من العلوم والقدرات والمهارات ما يجعله قادراً على التفاعل مع ما يجري حوله بشكل مؤثّر وفعّال.

بعد صلاة العشاء توجّه إليه إمام المركز، وأخبره بأنه سيوصله إلى الفندق بنفسه، وألحّ على ذلك. بعد خروجهما من المركز، توجّه الإمام أولاً إلى بيته، وعندما وصلا أخبره بأنهما سيتناولان العشاء أولاً، ثم يوصله إلى فندقه. لم يجد بُدّاً من الموافقة. ذاق وجبة المنسف الشهيرة في فلسطين والأردن، كما شرح الإمام علي ذلك أثناء تناولهم العشاء.

شكر الإمام علي ما قدّمه له من حسن الضيافة وطيب المعاملة. وفي الطريق سأله عن الحياة في ماساتشوستس بشكل عام، وجامعة هارفارد بشكل خاص. أوضح الإمام له الكثير من النقاط، وأهداه الكثير من النصائح التي تعينه على التمسك بدينه والتفوق في دراسته. كذلك، لم ينس أن يزوده بعناوين وهواتف بعض المراكز الإسلامية القريبة من جامعة هارفارد.

بعد أن رجع إلى غرفته كتب رسالة إلى أخته، وشرح لها تفاصيل ما حصل له في ذلك اليوم. لم يكن هدفه من الكتابة إليها مجرد التواصل، وإنما أراد أن يبني فيها وفي شيماء الفكر الدعوي، وخاصة الاهتمام بأحوال الأمة. مما كتبه لها:

- وجدتُ المسلمين هنا يعيشون كغرباء، وما ينبغي للمسلم أن يكون كذلك؛ فهو خليفة الله في أرضه، ولذا فهذه أرضهم، وغير المسلمين هم الغرباء.

لم تكن هذه الكلمات لتزيين شخصيته لأخته وشيماء، وإنما كانت نابعة من قلبه المكلم بحال المسلمين، والذي يتلهف لليوم الذي تسنح له فيه الفرصة لبدأ في التغيير.

في صباح اليوم التالي جاءه مندوب السفارة، وأخبره بأنهم على موعد لمقابلة السفير وبقية الموظفين في السفارة. بعد خروجهما من الفندق أخذ المندوب في جولة في بعض شوارع واشنطن، وعرفه على المراكز التجارية والأماكن السياحية الشهيرة، ومقرات بعض دوائر الحكومة.

في السفارة، التقى بسفير المملكة الذي رحّب به كثيرًا، وقال له:

- إنه شرف لي أن ألتقي بأول طالب من المملكة يدرس في جامعة هارفارد، وفي تخصص فريد هو علوم الفضاء. ومما لا شك فيه أن الحصول على فرصة للدراسة في هذه الجامعة العريقة لهو فخر ليس لك وحدك، وإنما للمملكة بأسرها.

كأن يطير فرحًا وهو يستمع إلى هذه الكلمات؛ فشكر السفير على ما قاله، ثم تجاذبا الحديث حول أحوال أسرته، والدراسة في أيام الثانوية.

استغل دمائه خلق السفير وطيب معاملته، وما يبدو عليه من علم وفهم، فطلب منه أن يعطيه نبذة عن جامعة هارفارد، وعن الحياة هناك. أخبره بأنها من أعرق الجامعات في أمريكا، بل في العالم بأسره. وأخبره كذلك بأنها لا تستقطب إلا عباقرة العالم، ولذلك فإن الدراسة فيها تحتاج إلى جهد ومثابرة. أما عن موقعها، فإنها في ولاية ماساتشوستس، وهي تبعد عن واشنطن حوالي ساعة بالطائرة، أو بضع ساعات بالسيارة.

كان هذا اللقاء بالنسبة له مفيداً ومحفزاً، واستبشر خيراً بما سيأتي. عرّفه المندوب ببعض موظفي السفارة، ومنهم الملحق الثقافي والملحق الصحي والمسؤول عن الشؤون المالية، وأخبره هؤلاء بأنه يمكنه الاتصال بهم في أي وقت يشاء بدون سابق موعد. وأخيراً، أخذ المندوب في جولة في أقسام السفارة، وأعطاه بعض الكتيبات والنشرات التي قد تساعده على العيش في أمريكا.

بعد انتهاء الزيارة أوصله المندوب إلى الفندق، واستراح قليلاً في غرفته، ثم خرج لتناول الغداء في أحد مطاعم الفندق. بعد الغداء، عاد إلى غرفته، وصلى الظهر، ثم تصفح الأوراق الموجودة في الغرفة، وتلك التي أعطاها إياه مندوب السفارة، ثم أخذ قسطاً من الراحة إلى وقت صلاة العصر.

بعد الصلاة طلب سيارة أجرة، وتجوّل في أماكن أخرى في واشنطن لم يذهب إليها البارحة إلى أن قرب وقت صلاة المغرب، ثم أوصله السائق إلى المركز الإسلامي. بقي هناك إلى صلاة العشاء، ثم أوصله أحد الشبان الخليجين إلى الفندق.

في الثامنة من صباح اليوم التالي أوصلته سيارة الفندق إلى مطار رونالد ريجان الداخلي، واستقلّ طائرة تبدو أصغر بكثير من تلك التي جاء فيها من

المملكة. وصل إلى مطار بوسطن في ماساتشوستس في حوالي الحادية عشرة، فاستقلَّ سيارة أجرة إلى فندق قريب من جامعة هارفارد كان قد أخبره عنه الإمام علي أحمد.

استراح في غرفته قليلاً، ثم أراد أن لا يُضَيِّع أوقاته، فاتصل بأحد الأشخاص الذين زوّده بأرقامهم الإمام علي أحمد. عرّفه بنفسه، وأنه جاء من طرف الإمام علي، وأخبره برغبته في زيارة المركز الإسلامي. سَعِد الشخص بذلك، وأخبره بأنه سيتصل به لاحقاً.

بقي في الغرفة إلى وقت الغداء، وانشغل بإكمال قراءة كتاب «أمريكا من الداخل». بعد الغداء عاد إلى غرفته، وصلى الظهر، ثم قرأ شيئاً من القرآن، ثم نام إلى صلاة العصر. وبعد الصلاة واصل قراءة الكتاب إلى قبيل المغرب. اتصل به الشخص من المركز الإسلامي، وأخبره بأنه سيمرُّ عليه ليذهباً سويّاً إلى المركز الإسلامي القريب من الجامعة ليُصَلِّياً المغرب فيه.

رحّب بذلك، وأعطاه عنوان الفندق الذي يقيم فيه. انتظره في صالة الاستقبال، وبعد حوالي عشر دقائق دخل شابٌ ملتح في بداية الثلاثينات من عمره. توجّه نحوه، ثم بادره بالسلام. عرف أن الشيخ عبدالله أحمد من فلسطين، وأنه قد هاجر مع والده منذ أكثر من عشرين عاماً.

في الطريق إلى المسجد أخبره الشيخ ببعض أحوال المسلمين في أمريكا بشكل عام، وفي ماساتشوستس بشكل خاص، وما تقدمه المراكز الإسلامية من خدمات للمسلمين. سأله عن المناطق التي ينصحها بالحصول على شقة فيها، فأخبره بأن إيجارات غالبية الأماكن في بوسطن باهظة الثمن، رغم أن بعضها ليست حديثة البناء، وأن المناطق القريبة من الجامعة قد تكون الأنسب بالنسبة للطلاب، رغم أنها - في كثيرٍ من الأحيان - ليست بالأرخص.

من الأمور التي كانت تشغل باله هي ما يمكن أن يقوم به الطالب في أمريكا لخدمة دينه، فأخبره الشيخ بأن هناك العديد من المنظمات الطلابية التي توجه أنشطتها واهتماماتها للمسلمين القادمين من الدول الإسلامية، وأنه توجد لها مكاتب في كثير من الجامعات، وتقام لها - في بعض الأحيان - ملتقيات ومؤتمرات. وأخبره كذلك باتحاد الطلبة المسلمين، وأن له فرعاً في جامعة هارفارد.

بعد صلاة المغرب أخذ الشيخ في جولة في أرجاء المركز الإسلامي، وعرفه على إمام المسجد وبعض الأشخاص من المقيمين والوافدين، وتعرف على بعض الطلاب الذين أتوا من دول إسلامية مختلفة، ومنهم من يدرس في جامعة هارفارد، ومنهم في جامعات وكليات أخرى. استمتع كثيراً بهذه الزيارة، وأحس أن الأبواب لخدمة الأمة قد باتت مفتحة أمامه على مصاريعها، وما عليه إلا أن يستغل فترة دراسته للقيام بما يعين المسلمين على التمسك بدينهم والنهوض بأمتهم. بعد صلاة العشاء أوصله الشيخ عبدالله إلى الفندق، وأخبره بأنه سيمرُّ عليه قبيل كل صلاة ليُصلياً في ذلك المركز.

في فترة إقامته في الفندق ساعده الشيخ عبدالله ليحصل على شقة قريبة من المركز الإسلامي. مما لاحظته محمد هو أن الكهرباء والماء والهاتف كانت موجودة في الشقة حال انتقاله، وقد أخبرته مديرة المجمع السكني بأن عليه الاتصال بالشركات المزودة لتلك الخدمات، وتقديم بياناته الشخصية لهم.

طلبت شركتي الكهرباء والماء منه دفع مقدّم بمقدار مئتي دولار كضمان، وأخبروه بأنه سيسترجع المبلغ بعد قطع تلك الخدمات، وكان أيضاً قد دفع ستمئة دولار كضمان للشقة التي استأجرها وثمانمئة دولار أخرى لإيجار

الشهر الأول؛ حيث أخبروه بأن النظام عندهم أن يدفع المستأجر إيجار كل شهرٍ مقدّمًا.

أوضح له الشيخ عبدالله بأن هذه الإجراءات تسري على الجميع، وخاصة الطلاب الجُدد. قال له:

- إن القانون الأمريكي لا يُجيز التمييز بين الناس على أساس عِرقي أو ديني أو بسبب اللغة أو اللون أو الجنس، ولكن تحدث أحياناً تجاوزات لذلك من قِبَل بعض الأفراد.

كان مندوب سفارة المملكة قد أخبره بأن السفارة ستحمّل تكاليف الفندق الذي سيبقى فيه لحين حصوله على سكن، إلا أن عليه أن يدفع ذلك بنفسه، ثم يرسل الفواتير للسفارة لتعويضه. لاحظ كثرة المبالغ التي عليه أن ينفقها، فسأله نفسه:

- ماذا لو لم يعطني والدي ألفي دولار وسالم ألف دولار؟ هل سيكون بإمكانني تأمين إقامتي في هذه البلاد؟

أحسّ بالنعمة العظيمة التي يتفيؤها هو وأمثاله من الشباب عندما يكونون بين والديهم؛ فهم لا يهتمون بمصاريف سكن أو طعام أو شراب أو خدمات، واستشعر الدور الكبير الذي يقوم به والده لتوفير جميع احتياجاتهم.

عندما كتب لأخته ذلك المساء، وبعد أن فصّل لها ما قام به في ذلك اليوم، قال لها:

- الحياة المعيشية هنا لا تطاق، وقد أحسستُ الآن بالدور العظيم الذي يقوم به أبائنا في تأمين حياة سعيدة لنا، دون أن نبذل نحن شيئاً مقابل ذلك.

علّقت سمية في ردّها عليه:

- لا تنس أن حالك هو خيرٌ من كثير من الطلاب المبتعثين أو المهاجرين إلى أمريكا، وأقترح أن توجدوا وسائل لإعانة هؤلاء. وافقها محمد على ذلك.

عرّفه الشيخ عبدالله كذلك على بعض الطلاب الذين يدرسون في جامعة هارفارد، والذين لهم نشاط متميّز في اتحاد الطلبة المسلمين. قام هؤلاء بمساعدته في إنهاء إجراءات التسجيل في الجامعة، وعرّفوه على بعض الأماكن المهمة فيها، وأخذوه إلى مقر اتحاد الطلبة المسلمين، وتعرّف على بعض الأنشطة التي يقوم بها.

أحسّ أن عليه أن يُطمئن الأستاذ أسامة بأحواله، ويخبره بما وجدته في أمريكا؛ فهو صاحب أفضال كثيرة عليه. أرسل له رسالة على بريده الإلكتروني شرح له فيها ملخص ما جرى له منذ وصوله إلى أمريكا. لكنه لم يتعوّد أن يسرد مجرد الأحداث، وإنما كان يُعلّق عليها بما يربطها بواقع أمته، والدور الذي عليه أن يقوم به. مما كتبه له:

- وجدتُ يا أستاذي أن المقولة الشهيرة «في بلاد الغرب إسلام بلا مسلمين، وفي بلادنا مسلمين بلا إسلام» ليست صحيحة.

ثم شرح له قائلاً:

- يوجد هنا ملايين المسلمين، والقلة النادرة منهم من يُجسّد الإسلام في حياته، وأما الباقون فهم تائهون غيرهم من المسلمين، وأكثرهم إما غارق في تحصيل المادة أو في إشباع نزواته.

ثم أردف:

- إن الجهد الذي علينا القيام به تجاه هؤلاء عظيم، وأسأل الله أن يعينني على القيام ولو بشيءٍ يسيرٍ من ذلك.

سُرَّ الأستاذ أسامة برسالته كثيرًا؛ حيث جعلته كلماته يشعر بتعاطف الدور الذي عليه أن يقوم به لتخريج شباب من أمثال محمد؛ ففي نظره - كما في ردّه له - أن الشاب الذي يصل إلى المرحلة الثانوية ولا يبدأ في خدمة مجتمعه وأتمته، يكون من الصعب التعويل عليه للقيام بشيءٍ من ذلك فيما بعد. شعر الأستاذ كذلك بأن التربية الإيمانية أساس لا يمكن التفريط فيه، ثم تتبعها التربية الفكرية، ثم العلمية والثقافية. لقد فتحت رسالة محمد له آفاقًا جديدة من وسائل التربية التي عليه أن يُكرّس نفسه لها، ويحفّز غيره من المعلمين على القيام بها.

صارت طموحات محمد وأحلامه ومعنوياته تملو كل يوم؛ نظرًا لما يراه من الفرص التي تتسابق أمام عينيه. لقد وجد مناخًا مناسبًا للتمسك بدينه والارتباط بإخوانه المسلمين، ووجد بيئة خصبة للمشاركة في الخدمات والأنشطة التي تقام لخدمة المسلمين، ورأى في اتحاد الطلبة المسلمين فرصة للاهتمام بإخوانه الطلاب الذين يدرسون في الجامعة، وأيضًا لمدّ خيوط التواصل مع المنظمات الطلابية الأخرى، وتفعيل دعوة غير المسلمين في الجامعة.

ورغم أن لغته الإنجليزية كانت جيدة عندما أنهى الثانوية، إلا أنه يُدرك أن نجاحه في دراسته مرهونٌ بتمكّنه منها. لذا، كان من أوائل ما قام به هو شراء تلفاز، استفاد منه كثيرًا في تقوية لغته من خلال متابعته لشنرات الأخبار في السي.أن. أن والبي.بي.سي، وغيرها من القنوات. وكان أيضًا مولعًا بمتابعة

برنامج «نايت لاين» الذي يُقدِّمه الإعلامي الشهير تدُّ كأبل. لكن ما أثاره في هذه القنوات تحيُّزهم الفاضح ضد المسلمين؛ فكانوا لا يتورَّعون في تشويه سمعة الإسلام والمسلمين حتى في الدعايات الإعلامية.

قضى الفصل الأول في تقوية لغته في معهد اللغة الإنجليزية بالجامعة، وكانت فترة دراسة اللغة فرصة له ليستكشف المجتمع الأمريكي، ويبني علاقات مع إخوانه في المركز الإسلامي واتحاد الطلبة. كذلك، كان له دورٌ فعال في بناء صداقات مع إخوانه من المملكة الذين يدرسون في أمريكا. كان بعض هؤلاء يدرسون في بوسطن، وبعضهم في ولايات أخرى، وكان همه تحفيزهم على الدراسة، وقيامه بواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ إذ إنه وجد أن العديد منهم قد اغتر بالحياة في أمريكا، وانساق وراء ملذاتها وشهواتها، فغرق في أحوالها وأهمل الدراسة.

أحسَّ العاملون في المركز الإسلامي بتفانيه وإخلاصه في الدعوة وخدمة الإسلام فأولَّوه عناية خاصة؛ فصاروا يدعونه للمشاركة في الاجتماعات والمؤتمرات واللقاءات وغيرها من الفعاليات التي تقام في ذلك المركز أو في غيره من المراكز الأخرى في مدينة بوسطن، وفي بعض الأحيان في مناطق أخرى. وعندما يزور أمريكا أحد المشائخ أو الدعاة المسلمين، فإنه كان يُدعى للالتقاء بهم والتعرُّف عليهم.

أما اتحاد الطلبة المسلمين، فقد صار يتردد عليه كل يوم، واجتهد أن لا يفوته شيء من الفعاليات أو الأنشطة التي يقيمها. تعرَّف على الأساليب المتبَّعة فيه للاهتمام بدعوة الطلاب المسلمين وغير المسلمين، وتناقش مع النشطاء فيه حول ابتكار وسائل جديدة للدعوة. أثارت تلك المناقشات والاقتراحات اهتمام هؤلاء، وعكفوا على دراستها، وبدؤوا في تطبيق بعضها.

بلد الأحلام

بدأت تتشكل أمام ناظرَيْه أحلامٌ براقّة، وأفكار سامية لم يتركها لخياله فقط، وإنما بدأ يضع خططاً وتصوّرات لتحقيقها. من ضمن ذلك تعاونه مع مسؤولي الاتحاد في إصدار أول مجلة طلابية تخدم المسلمين في الجامعة، وسمّوها «صوت الطلاب المسلمين»، وكانت تصدر باللغتين العربية والإنجليزية، واستغل قدراته ومواهبه وأسلوبه الرفيع في كتابة المقالات والأخبار في هذه المجلة.

لم ينس التواصل مع أهله بشكل أسبوعي، وكان يرسل لهم بين حينٍ وآخر بعض الصور التي يلتقطها لنفسه في المناسبات والفعاليات التي يحضرها، وأيضاً صوراً تنقل لهم لمحات عن المجتمع الأمريكي. في هذه الفترة بدأت سمية وشيماء ستتهدما الأخيرة في الثانوية، وبقي متواصلاً مع أخته عبر البريد الإلكتروني، يحفّزها على الدراسة، ويبعث فيها روح الجد والمثابرة، ويبنى فيها همّ الدعوة والاستقامة على دين الله، وكان لا ينسى أن يدكّرها بنقل ذلك إلى شيماء.

لقد أدرك من خلال احتكاكه بالعديد من الشباب المسلمين في أمريكا أن بناء الشخصية المسلمة التي تُجسّد الإسلام واقعاً في حياتها لا يأتي بين يومٍ وليلة، وإنما بمداومة التذكير والتوجيه، وكان يجد في خالد ويوسف وسمية خاماتٍ مناسبة لغرس أفكاره ومبادئه. لذا، كان يستغل حديثه معهم في تعميق الفكر الإسلامي في نفوسهم، وغرس معاني الإيمان والعقيدة الصحيحة في قلوبهم.

زاد ابتهاجه عندما أخبرته أخته بأن شيماء قد غيّرت مشاعرها من الحزن على فراقه إلى الفخر والاعتزاز به. سرّ كثيراً أيضاً عندما علم أن حال شيماء قد

تبدّل؛ فصارت لا تخرج من البيت إلا بجلباب وعليها خمار الوجه، وصارت لا تنفك عن تلاوة القرآن وقراءة الكتب الدينية.

لم تلته اهتماماته وأنشطته الدعوية عن الدراسة، فإنه يدرك أن تميزه العلمي هو المفتاح للوصول إلى الأهداف التي حملها معه يوم جاء إلى أمريكا، ثم تعمّقت وأتضح بعد ذلك. كذلك، كرّس معظم أوقات النهار لدراسته، ثم ساعدته أنشطته الدعوية التي يمارسها في فترة المساء، وكذلك حرصه على مخالطة غير الناطقين بالعربية على تقوية لغته الكلامية.

في نهاية الفصل الأول حصل على أكثر من ستمئة درجة في امتحان التوفل، والذي كان المتطلب الأساسي للدراسة في الجامعة لغير الناطقين باللغة الإنجليزية. لقد أتاح له ذلك الشروع في دراسة تخصصه بدءاً من فصل الربيع. عندما بدأت إجازة ما بين الفصلين، اشتغل الأمريكيان باحتفالات عيد الميلاد ودخول السنة الميلادية، وفي الوقت نفسه نشطت المنظمات الإسلامية في إقامة مؤتمراتها السنوية، وكان أشهرها المؤتمر الذي تقيمه رابطة الشباب المسلم العربي. ربّ مع مجموعة من شباب المركز الإسلامي واتحاد الطلبة لحضور هذا المؤتمر، الذي - لحسن حظه - يقام هذا العام في أقصى الغرب في مدينة لوس أنجلوس بولاية كاليفورنيا.

كانت الرحلة إلى هذا المؤتمر سياحة مهمة له ليطلّع على العديد من مدن الولايات المتحدة ومناخاتها، ولأول مرة في حياته يرى ذلك التجمّع الهائل للمسلمين، والذين كان أغلبهم من المهتمين بشؤون الدعوة. تاقت نفسه لأن يرى مثل تلك المؤتمرات والتجمّعات في بلدان المسلمين، ولكن أنّى لذلك أن يحدث وحكوماتها تحكّم قبضتها على كل نشاط ديني. ومع ذلك لم يفقد

الأمل؛ فالله قادرٌ على أن يُغيِّر الأحوال متى شاء، وتذكَّر قوله - سبحانه -: [**إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ**]، وعاهد نفسه على أن يبذل قصارى جهده لتغيير نفسه وتغيير بلده.

استطاع في فترة المؤتمر أن يتعرَّف على كثير من إخوانه المسلمين الذين جاؤوا من مختلف بلدان العالم العربي، وركَّز على المحاضرين الذين جاء أغلبهم من خارج أمريكا، وأيضًا على الدعاة النشيطين الذين قدموا من مختلف ولايات أمريكا.

لم يكتفِ بحضور محاضرات المؤتمر وإنما استغل أوقات الصلوات والراحة في محاوره العديدين ممن توسَّم فيهم المهمة والحماس لخدمة هذه الأمة، وتشكَّلت لديه العديد من الأفكار لمشاريع دعوية مستقبلية، سواءً أكانت في أمريكا أو في المملكة.

ما إن بدأ فصل الربيع حتى كرَّس أوقاته لدراسته، واجتهد فيها؛ فهذا هو الفصل الأول في تخصصه، وهو ملئٌ بالتحديات؛ سواءً أكان في جانب اللغة، أم في التخصص نفسه. أدرك معلمه نجابته، وعرف زملاؤه الطلاب نبوغه، وصاروا يأتون إليه عندما تصعب عليهم بعض المسائل. استطاع أن يحرز درجات الامتياز بجدية وجدارة في معظم المواد، وحصل في نهاية الفصل على معدل تراكمي تجاوز ٣٩ من ٤، فأهَّله ذلك لتصدُّر قائمة لوحة الشرف الأولى.

وما إن ظهرت نتائج الفصل حتى طارت الأخبار إلى سفارة المملكة في واشنطن، وتلقى اتصالاً هاتفيًا من الملحق الثقافي هنَّاه على التميُّز الدراسي الذي أحرزه. كذلك تلقى رسائل من بعض المنظمات الطلابية العلمية وغير

العلمية تهنته على ما حققه من مستوى متميز في دراسته، وعرضت عليه بعضها الانضمام إليها كعضو.

كان يسمع كثيراً عن المنظمات الطلابية والعلمية الشهيرة، ويعلم حساسية الانضمام إليها، ولذلك صار يأخذ ما تعرضه عليه تلك المنظمات إلى إخوانه في اتحاد الطلبة المسلمين لاستشارتهم حولها، وعلم منهم أن بعضها لها أهداف بعيدة عن توجهاته، ولبعضها تاريخ عدائي نحو الإسلام والمسلمين. قرر أن ينظم إلى بعضها التي اطمأن إليها قلبه، وشجعه على الانضمام إليها بعض إخوانه. وقد وجد في تلك المنظمات بيئة خصبة لنبوغه وتميُّزه في مجالات مختلفة.

ممارس في قرارة نفسه أن نجاحه وتفوقه ليس من كسب يده، وإنما هي مَنَّة من خالقه، ولذلك كان كثير الالتجاء إلى الله، وخاصة عندما تعنُّ له مشكلة، أو يداهمه خطب. لم يترك صلاة الجماعة منذ أن استقرَّ في شقته، والتزم بتلاوة ورده اليومي من كتاب الله، وحافظ على قيام الليل وساعات الذكر.

ومنذ أن بزغت شعيرات لحيته وهو في الصف الحادي عشر لم يمَّسها بحلقٍ ولا تقصير؛ فاللحية بالنسبة له شعار المؤمن، وهو يعتز بإسلامه حتى إنه عندما يُقدَّم عرضاً في المحاضرات الدراسية كان يفتح بالبسملة باللغة العربية، ثم يترجمها إلى اللغة الإنجليزية. وصارت طاقة رأسه تلازمه في كل الأحوال، ولذلك عندما ترى هياته وما عليه من وقار وتواضع تحسب أنه أحد مشائخ العلم.

حرص على العلم الشرعي والتفقه في دينه من خلال الكتب التي أحضرها معه، والدروس التي لا يُفترط في حضورها في المركز الإسلامي. كذلك، وجد



بلد الأحلام

ضالته في الكتب الإسلامية في المكتبة الضخمة لجامعة هارفارد، وأحياناً
ينسّق مع الإمام علي أحمد في واشنطن ليستعير له بعض الكتب من مكتبة
الكونجرس ويرسلها إليه.

الفصل التاسع: الصراع النفسي

لم يشأ أن يقطع حبل تواصله مع نشاطاته الدعوية في المملكة، فقرر أن يبقى فصل الصيف بأكمله فيها. لقد كان في شوق كبير لرؤية أهله بعد غياب امتد لأكثر من عشرة أشهر. كانت أمه تعدُّ الأيام عدًّا، وصارت لا يأتيها اتصالٌ منه إلا وتسأله عن موعد عودته، وهو يجيبها بأنه سيعود في نهاية الفصل. وكم فرحت عندما حدّد لها في اتصاله الأخير موعد قدومه.

أما هو فقد كانت الأشواق لرؤية أحبائه لا توصف. كتب مرة لأخته:

– لقد بدأ تركيزي في المحاضرات يقلُّ؛ وصار ذهني يسبح لأدنى سبب في أحلام جميلة أعيش فيها بينكم، تغمرني النظرات الحانية والابتسامات البريئة فأشعرُ بحالة لا توصف من الابتهاج والسرور، حتى إن أحد زملائي كان يراقبني فلاحظني مرة وأنا أبتسم دون أن يكون هناك داعٍ لذلك، فشرحتُ له ما أمرُّ به من خيالات.

في هذه المرة راعى ظروف العمل عند والده؛ فجعل وصوله إلى المملكة في يوم الخميس لكي لا يضطرَّ والده لأخذ إجازة. جاءت العائلة بأكملها لاستقباله، وكم كانت نشوة الجميع وهم يرونه يخرج من باب المطار. أما هو فمذ الإعلان عن هبوط الطائرة صار يمرُّ أمام ناظريه حفل الاستقبال الرهيب

الذي صنعه خياله، ويتصوّر فيه أسرته وسالم وشيماء وأساتذته وزملاءه وقد جاؤوا جميعًا لاستقباله.

وما إن توجه صوب باب الخروج وهو يجرُّ عربة حقائبه حتى تعالت نبضات قلبه، وما إن شاهد والديه وإخوته مصطفىين أمام الباب حتى ترك العربة وطار لأمه واحتظنها، وسالت الدموع لأكثر من دقيقة، ثم عندما أحسّت بهدوء نفسها وسكون قلبها أرخت قبضتها، فقبّل يدها ثم رأسها، ثم اتجه إلى والده وإخوته، وعانقهم الواحد تلو الآخر، ثم صافح سمية، وحمل أروى على صدره، بينما انطلق خالد ويوسف وهما يتصارعان على جرّ العربة.

كان يتوقع أن يرى سالمًا، ولكن خابت مشاعره، فقال في نفسه:

- ربما وجد صعوبة للمجيء إلى العاصمة ثم العودة إليها مرة أخرى يوم غد. قضت الأسرة ساعتين في الطريق، ومحمد يقصُّ عليهم أخباره المشيرة، ويصوّر لهم المشاهد والأحداث التي مرت به، ولم يتذكر أن يسألهم عن أحوالهم إلا قرب وصولهم القرية.

وصلوا البيت في حوالي التاسعة مساءً فبادر بالاتصال بسالم، وكان يأمل من وراء ذلك أن يُطمئن شيماء على وصوله. لحسن حظها أن أخواها لم يكن في البيت، وكانت تعلم من سمية بمقدم محمد، وخمّنت بوقت وصولهم إلى البيت، وانتظرت اتصال سمية بفارغ الصبر. وما إن رنَّ الهاتف حتى أسرعته إليه. سلّمت بصوتٍ خافت، وما إن سمع صوتها حتى عرفها، وكاد أن يُغشى عليه من الفرحة.

عرفت هي صوته أيضًا، ولكنها لم تستطع أن تنطق بكلمة، وصار قلبها يخفق، والفرحة والحياة يمتزجان بداخلها. ظلّا لفترة صامتتين، لا يديران ما

يقولان لبعض، ثم تحامل فسألها بحشجة:

- هل سالم في البيت؟

ردَّت عليه:

- لا.

ثم أغلقت الهاتف. كانت تلك اللحظات القصيرة كافية لأن تأجج عندهما المشاعر العاطفية، حتى إن محمداً صار يتقلب في فراشه إلى ما بعد منتصف الليل، رغم أنه عاد من سفره منهكاً.

أما شيماء فظلت تنتظر عودة أخيها إلى قرابة الحادية عشرة، وما إن دخل حتى أسرعت إليه، وقالت بنبرة تنبئ عن السعادة التي بداخلها:

- لقد وصل.

تصنَّع أنه لا يعرف، فردَّ:

- مَنْ؟

- محمد. ألم يُخبرِكَ بذلك؟

اخترق لها عذراً فقال:

- نعم، لقد أخبرني بأنه سيصل اليوم، ولكنني كنتُ قد ربَّبتُ مسبقاً لزيارة بعض زملائي.

ما لم تدريه شيماء هو أن مشاعر أخيها تجاه حبيبها قد بدأت في التحوُّل، وخاصة بعد أن صار يصاحب زملاء عمله، وانصرفت اهتماماتهم وأحاديثهم للتجارة والرحلات، بل إنه كانت تراوده أحياناً أفكار لتزويجها لصديقه الجديد طلال، الذي صار - من خلال زمالته في العمل - البديل الأفضل لمحمد، وكان

الفصل التاسع

ينوي من وراء ذلك التقرب إلى أخته هيام، التي لمحتها عدة مرات عندما كان يزوره في بيته.

– متى ستذهب لزيارته؟

فاجأته بسؤالها، فقد كان ينوي الاقتصار على الاتصال به في الهاتف خشية أن يعود محمد إلى عاداته القديمة في معاتبته وانتقاده على أحواله وما يقوم به. ردّ ببرود:

– ربما أمرٌ عليه في الغد.

ثم تابع:

– وما دخلك أنت به؟ أراك مهتمة به كثيرًا.

انصدمت من هذا الردّ، وتغيّرت ملامح وجهها، فأدرك أنه ما كان ينبغي أن يواجهها بهذا الأسلوب، فتابع:

– أقصد، لقد صرت بنتًا كبيرة، ولو سمع أبي أو أمي ذكرك له لربما شكّا في علاقة مُشينة بينكما.

لم تكن تتوقع أن تسمع منه مثل هذا الكلام، فلم تقل شيئًا، وإنما أسرعت مثقلة بهمومها إلى غرفتها. ارتمت على السرير وهي تبكي، ثم خشيت أن تراها أختها فالتحفت ببطانيتها، وغرقت في دموعها وأفكارها. سألت نفسها:

– ما الذي غيرّه نحوي؟ لا بُدَّ أنه وقع أمرٌ بينه وبين محمد، ولكن ما دخلي أنا؟

ثم استدركت فقالت:

– صحيح أنه لو علم والداي باهتمامي به لشكّا في أمرنا.

حاولت أن تُبرّر موقف أخيها وتبحث له عن أعذار.

انتظر محمد فترة الصباح وهو يرتقب قدوم صديقه العزيز، ولكن ذلك لم يحدث، فأمل نفسه في ملاقاته في صلاة الجمعة، ولكنه لم يحضر، أو ربما حضر ولم ينتظر لحين خروجه هو. بدأت الظنون تدبُّ إلى خاطره، وحاول أن يبحث له عن مُبرّرات، ثم بعد صلاة العصر أطلَّ سالم. تعانقا، ومحمد لا تسعه الأرض بمقدمه، ولكن سالمًا قابله ببرود.

قضى محمد عدة دقائق وهو يتكلم عن أحواله في أمريكا، وكأنه يحاول أن ينقل إليه الصورة البراقة التي رآها هناك عن الجوانب العلمية وأمور الدعوة وأحوال المسلمين وغيرها. أما سالم فبالرغم من أنه كان يعيره أذنًا مصغية، إلا أنه - فيما يبدو من ردّه - لم يكن متلهفًا لسماع مثل ذلك الحديث. كلّمه بعبارات عابرة، شعر محمد من خلالها أنه لا يريد الحديث عن نفسه ولا عن محمد، فقال ببرود:

- وفقك الله.

ثم سأله:

- وهل ما زلت مصرًّا على مواصلة الدراسة؟!

تعجّب محمد من هذا السؤال، وقال مندهشًا:

- ماذا؟ أتسألني عن مواصلة الدراسة وقد رأيتُ هناك أحلامي تتحقق الواحدة تلو الأخرى؟ إني لو لم أوفق إلى ما وُفِّقت إليه لما انثيتُ عن دراستي.

ثم أراد أن يُلقّن صديقه درسًا، فواصل:

- إني كنتُ متيقنًا في الماضي، وأصبحتُ الآن أعتقد اعتقادًا جازمًا بأن لا

حياة لفردٍ ولا أمة إلا بالعلم.

سمع سالم هذه الكلمات، ولكنها لم تدغدغ شغاف قلبه، فردَّ عليه ببرود:
- أسأل الله لك المزيد.

بقي معه لدقائق، ثم استأذن للانصراف لارتباط مسيقٍ معه، حسبما قال له.
لم يصدِّق أن الذي زاره هو سالم. لقد كان يرقب زيارته بفارغ الصبر.
خاطب نفسه:

- ما الذي جرى؟ هل أغضبه شيءٌ مني؟

حاول أن يسترجع ما يكتبه في رسائله إليه، فرأى أن سالمًا ما كان يبادر
بالكتابة إليه، وإنما كان فقط يرُدُّ على ما يرسله إليه، وتذكَّر أن تلك الردود كانت
قصيرة وفاترة، وكأنه كتبها عن غير رغبة. ثم انتبه إلى علاقته بشيما. أثاره
يعرف شيئًا عن علاقته بها من خلال ما تنقله له أخته من أخبارها، وما تنقله لها
من أحواله؟

بقي في دوامة من الأفكار، لا يدري ما الذي حدث. لكنه أحسَّ بأن أحوال
صديقه قد تحولت إلى تحقيق أحلام وطموحات شخصية ومادية، كما يبدو من
هياته وسيارته وهاتفه، بدلًا من أن تكون في تحقيق أهداف نبيلة وطموحات
سامية يخدم بها مجتمعه وأمته.

كان الحلُّ الوحيد للخروج من تلك الدوامة هو أن يجلس مع سمية. قال
لها:

- لقد زارني سالم ولا حظتُ عليه تغييرًا في حديثه معي، فهل أخبرتك شيما
عن شيءٍ من ذلك؟

- لم تخبرني بشيء، ولكنني سأستوضح الأمر منها.

الصراع النفسي

بقيا يتحادثان لفترة طويلة حول امتحانات الثانوية والنتائج المرتقبة بعد أسبوع، ثم صارحها بأمرٍ، وما إن سمعته حتى طارت بها إلى شيماء. ما إن سمعت شيماء ذلك منها، حتى كادت تطير فرحًا، ولكنها قالت:

- كما تعلمين، فليس الأمر بيدي، وأخاف أن يعترض والديّ على الزواج منه، وأكثر ما يخوفني أن يقوم سالم بشيهما عن الموافقة.

- وهل ستذهبين معه إلى أمريكا؟

فاجأتها سمية بهذا السؤال، ولم تدرِ ما تقول؛ فمن ناحيتها لن تهناً بالحياة بعيداً عنه، ومع ذلك فهي تخشى أن يتعنّت والداها فيمنعاها من ذلك. وبعد حديث طويل اتفقتا أن يتقدّم محمد لخطبتها، ثم يتناقشا فيما لو حدث شيء يخشيانه.

كان لا يريد أن يفعل أمرًا دون توجيهٍ من ربه، فعزم أن يستخير الله أولاً، ثم إن وجد قلبه لا يزال مع أمر الزواج، فعندها سيبدأ خطواته التالية. وفعلاً، استخار الله عدة أيام، وكان كلما جاء يومٌ زاد حُبّه لها، وزاد تلهّفه للزواج. وفعلت شيماء الأمر نفسه، فلم يزلها ذلك إلا رغبة فيه، وعندها اطمأنتا إلى ما اختاره الله.

صارت الخطوة التالية أن يقنع محمد والديه، فبدأ بوالدته لعلمه بأنها ستسّر كثيراً بذلك. بدأ بمقدمات فهمت خديجة المغزى من ورائها، فقاطعته والبهجة تملأ صدرها:

- فقط دُلني عليها، وأنا أتكفل بالباقي.

- إنها شيماء!!

قالها وقلبه في اضطراب لا يوصف خشية أن ترفضها أمه. لكنها ما إن سمعت اسمها حتى ابتسمت وقالت:

- نعم البنت، ونعمت الأسرة. اطمئن يا حبيبي، فلا أظن أن هناك مَنْ سيرفض زواجك بها.

احتضنها، ثم قال مداعبًا:

- كنت واثقًا من أنك لن تمانعي.

ما إن عرفت سمية الخبر حتى أسرعَت إلى حاسوبها لتبشِّر شيماء:
- لقد وافقت أُمي.

كادت أن تطير فرحًا؛ حتى إن أمها - عندما كانت تساعدها في إعداد الغداء - رأتها تبتسم وهي صامتة، وكأنها في عالمٍ آخر، فخاطبتها:

- لا حُرِّمنا منك هذه الابتسامة يا ابنتي، ففيم تفكرين؟

انتبهت لسؤال أمها، فأرادت أن تُداري، فقالت:

- النتائج على الأبواب يا أُمي.

ابتسمت لها، وقالت:

- كنتُ أظنك تفكرين في شيءٍ آخر.

فهمت مقصدها، فنكَّست رأسها، ثم قالت:

- أُمي!!

أما محمد، فبالرغم من انشغال قلبه بموضوع سالم والزواج من شيماء، غير أنه حاول أن يتصرَّف بشيءٍ طبيعي. قصَّ على أهله وأصدقائه أحوال المسلمين

الصراع النفسي

في أمريكا، والأنشطة التي يقومون بها، وكان يُحفّزهم على التمسك بدينهم، وتفعيل قدراتهم وطاقاتهم واستغلالها لخدمة الإسلام والمسلمين.

كذلك، التقى بالأستاذ أسامة والأستاذ عماد والأستاذ عارف، وقصّ عليهم أحواله في أمريكا، وكيف أن فرص الدعوة وخدمة الإسلام والمسلمين متاحة أكثر مما هي في بلدان المسلمين. اقترح على أساتذته أن يبدؤوا بنقل بعض تلك الأفكار وتطبيقها في المملكة، وخاصة ما يتعلق بالمنظمات الطلابية؛ كاتحاد الطلبة المسلمين وغيرها من المنظمات العلمية، وأوضح لهم أنه وإن كانت البداية ستكون بسيطة، إلا أنها مع مرور السنوات ستتمو، وسيتم الترحيب بها من قِبَل شرائح عديدة في المجتمع. كذلك، اقترح إصدار نشرة طلابية للمدرسة يمكن أن تنمو فيما بعد لتخدم طلاب المدارس الأخرى.

قابل معلموه تلك الاقتراحات بالترحيب والإجلال، ووعدوه بالسعي الحثيث للبدء في تطبيق بعضها، وتدارسوا كيف يمكنهم أن يُوسّعوا من أنشطة جماعة العمل التطوعي لتتحول إلى ما يشبه اتحاد الطلبة المسلمين. وفيما يخصّ النشرة الطلابية، فبالرغم من ترحيب الأساتذة لها إلا أنهم أوضحوا له بأن الواقع في المملكة يختلف عما هو عليه في أمريكا؛ فهناك لم يحتاجوا إلى تصاريح لإصدار نشرتهم الطلابية، أما في المملكة فإنهم بحاجة للحصول على تصاريح وتراخيص من جهات عديدة، منها وزارتي التربية والإعلام، وربما غيرها من الجهات الأخرى، ولكنهم مع ذلك وعدوه بمحاولة القيام بذلك.

انتظرت خديجة عدة أيام قبل أن تفتاح زوجها؛ حيث كانت تتحجّن الفرصة المناسبة لذلك، وخاصة عندما تشعر بارتياح نفسه وصفاء ذهنه. ما إن أخبرته

حتى سُرَّ بذلك كثيرًا، وكان رأيُه في شيماء أنها بنتٌ ذات خلقٍ ودينٍ وذكاء، وأنها توافق محمدًا في اهتماماته وميوله. بعد أن علمت سمية بموافقة والدها، كتبت إلى شيماء بذلك، ثم قالت لها:

– بقيت الخطوة الأهم، وهي مخاطبة والديك.

ردَّت عليها:

– لا أظنُّ أنهما سيمانعان، ولكن عليه أن يُعجَّل بالأمر.

جلس مع والده، وطلب منه المبادرة للذهاب لخطبتها، وبَرَّر ذلك بقصر إجازته الصيفية، وأنه سيحتاج لتدبير كثيرٍ من الأمور قبل عودته. اتفقا أن يذهبا في المساء. لبس أحسن ملابسه، ثم تعطَّر. لقد كان هذا هو أخرج يوم في حياته، وربما يكون أسعد يوم.

كان سعيد قد رجع للتو من المسجد، وبقي ينتظر في الصالة لحين إحصار العشاء. ما إن سمع الجرس حتى قام يفتح الباب. فوجئ بزيارة عليٍّ ومحمد في ذلك الوقت؛ فإن عليًّا كان يزوره أحيانًا بنفسه، وأحيانًا مع خديجة، ولكنهما يأتيان في صباح الخميس أو الجمعة. وأما محمد فكان يزور سالمًا عندما يكون في البيت، وهو الآن في الدوام.

حاول أن يجد مبررات لزيارتهم؛ فمرة فسَّرها بأنها مجرد زيارة للجيران والأصدقاء، فأسرتهم في تواصلٍ مستمر منذ طفولة أولادهم، وخاصة بسبب العلاقة التي توطَّدت بين محمد وسالم. ومرة يقول بأنهما ربما جاءا لاقتراض شيءٍ من المال ليُوسَّع البيت أو ليشتريا سيارة لمحمد. لكن فكرة مجيئهما للزواج لم تخطر على بال سعيد؛ لأن شباب القرية – كغالبية شباب المملكة –

لا يتزوجون إلا بعد التخرج، ثم إن بناته الكبار لا زلن يدرسن في الكلية، وشيما لم تُنه الثانوية إلا هذا العام. حاول أن لا يستبق الأمر.

أجلسهما، ورحّب بهما، ثم استأذنهما لإحضار الفاكهة والقهوة. أخبر البنات لتجهيزها، فسبقت شيما أختيها إلى المطبخ، وبدأت تجهز صحن الفواكه وعصير البرتقال، وهما ينظران إلى همتهما ويتعجبان، وهما لا يعلمان بقدم محمد وأبيه. تحادثا أولاً عن أحوال محمد ودراسته، وهنأه سعيد على تفوقه وذهابه إلى أمريكا.

كان ينتظر بفارغ الصبر أن يفتح والده موضوع الزواج، وهو في اضطراب وقلق لا يوصفان. بدأ عليّ بالحديث عن محمد وتفوقه وتميُّزه، ثم عرّج على ما حظّ عليه الشرع من المبادرة إلى الزواج متى ما تسرت الظروف لذلك. فهم سعيدٌ أنهما جاءا لخطبة إحدى بناته، وانصرف فكره إلى ابنته الكبرى، فلا يُعقل - حسب العادات السائدة - أن تتزوج الصغرى قبل الكبرى.

- لقد جئنا لخطبة ابنتكم شيما.

قالها عليّ ثم سكت ليعرف ردّة فعل سعيد. ازداد اضطراب محمد، وصار لقلبه وجيفٌ يكاد أن يُسمع. أما سعيد فظنّ أن عليّاً قد أخطأ في اسم ابنته، فردّ:

- أظنك تقصد ابنتي الكبرى هدى؛ فشيما ما زالت صغيرة.

نظر عليّ إلى ابنه، وكأنه يستوضح منه، فردّ محمد بتلعثم:

- بل شيما.

أعاد سعيد لهما أنها ما زالت صغيرة، وأن أختيها لم يتزوجا بعد.

بدأ قلق محمد يتزايد؛ فسعيد يبدو عليه أنه يعترض على زواجه من شيما للأدلة التي ساقها. أراد أن يوضّح له خطأ نظرتة هذه، ولكن أباه سبقه فقال:

– نحن نعلم أن عادة الناس عندنا هو تزويج الكبرى ثم التي تليها، ولكن هذه ليست شرعاً.

قاطعهُ سعيد:

– ولكنني لو زوّجْتُ شيماء قبل أختيها، فالناس سينظرون إليهما بريبة، وقد لا يتقدّم لهما أحد.

ردّ محمد– وكأنه ساخطٌ على هذه العادة–:

– ولكن لا يمكنني الزواج بأيٍّ منهما؛ فهما أكبر مني بعدة سنوات.

ردّ سعيد ببرود:

– ولماذا لا تنتظر لحين تخرُّجك، فحينها تكون أختيها قد تخرجتا، وربما قد تزوجا؟

ردّ محمد بغضب:

– وماذا لو لم يتزوّجا؟

استحيا عليٌّ من ردّ ابنه، فحاول ملاطفة سعيد، فقال:

– بإذن الله سيتزوجا قبل ذلك، وكلام عمّك سعيد في محلّه.

رأى محمد أن الفرصة ستفلت من يديه، فحاول استدراك الأمر فقال:

– ألا يمكن أن أعقد قراني الآن، ثم نترك الزفاف لبعْدِ زواج أختيها؟

لقد رأى أن هذا الاقتراح– في حال الموافقة عليه– سيُتيح له رؤية شيماء والتحدُّث إليها والجلوس معها متى شاء. راق الاقتراح لعلّي، فعلق:

– صحيح، ألا يمكن القيام بهذه الخطوة الآن، ثم يؤجل الزفاف لحين تخرُّج محمد وشيماء؟

الصراع النفسي

لم ير سعيد بأسًا بهذا الاقتراح، ولكن بدأت تخامره الظنون حول إلحاح محمد على الزواج الآن، وبشيماء على وجه الخصوص. أيكون على علاقة بها وهو لا يدري؟ لقد شاهد أفعالاً غريبة لشيماء في السنتين الأخيرتين لم يعرف تفسيراً لها، ولكن ما طبيعة هذه العلاقة؟ أجاب بعد فترة من الصمت:

- على كل حال، سأطرح الأمر على أهل البيت، وسأوافيكم بالرد.

شعر محمد بارتياح كبير؛ فسعيدٌ يبدو عليه أنه تقبّل الفكرة، وشيماء لا يشك في موافقتها، وأمها وأخواتها لن يمانعا. وفجأة توقف، وبدأ القلق والاضطراب يعودان إليه. خاطب نفسه، وهو يتصوّر موقف سالم عندما يعلم بهذا الاقتراح:

- هل سيوافق؟

كانت شيماء في حيص بيص، وقلبها كلما امتدت الدقائق زاد وجيفه. قالت لنفسها:

- ماذا يجري؟ هل يُعقل أن يكون كل هذا الوقت لطلب زواج؟ لا بُدَّ أن أباي لم يوافق.

دخلت أختها عليها، وهي متمدّدة في سريرها. سألتها هدى:

- مالك يا شيماء؟

- لا شيء.

أجابتها بسرعة، ثم توقفت أختها عن السؤال عندما دخلت أمها. قالت الأم:

- أراكنّ مجتمعات هنا، عسى خيراً.

ردّت هدى:

- لا شيء. كنا نتحدث عن نتائج شيماء.

- صحيح، متى ستظهر النتائج؟

- في الأسبوع القادم.

سمعت الأم وبناتها جَلَبَةً في المجلس، فحزَّرنَ أن الضيوف يغادرون، وما هي إلا لحظات حتى دخل سعيد.

عندما رآته شيماء، بدأ القلق والاضطراب يتزايدان عندها؛ فنظراته توحى بتغيُّر حاله. قالت لنفسها:

- لا بُدَّ أنه رفض فكرة الزواج. لا بُدَّ أنه عاد مغضباً عليّ.

لاحظت عفراء والبنات أيضاً تغيُّر نظرات سعيد، فبادرته عفراء:

- ماذا بك يا أبا سالم؟ أرى مزاجك متكدر.

ردَّ وكأنه يتهيأ لأمرٍ جَلَل:

- لنجلس على المائدة.

أخذ الجميع أماكنهم، وعفراء والبنات يطالعن وجه سعيد، وأما شيماء فبقي رأسها منكسًا، والقلق والاضطراب لا يوصفان.

- زارني جارنا علي ومعه ابنه محمد، وجاؤوا لطلب الزواج.

قالها سعيد، ثم سكت وهو يطالع في شيماء التي زادت تنكيسَ رأسها، وكادت أن تسقط من الكرسي مما بداخلها من اضطراب. أما هدى وأختها الوسطى فما كِدْنَ يسمَعْنَ كلمة الزواج حتى انفرجت أساريرهنَّ بابتسامة خشينَ أن يُظهِرنَهَا حياءً من أبيهما. قاطعته عفراء، وهي لم تفهم ما يجري:

- ويريدان الزواج بمن؟ هدى ما زالت في الكلية، وقد اتفقنا أنها لن تتزوج

قبل تخرجها.

ابتسم وهو يرمُقُ شيماء بنظراته، ثم قال:

- جاؤوا لخطبة شيماء.

ردَّت عفراء بصرخة:

- ماذا؟!!

وما هي إلا ثوانٍ حتى شاهدوا شيماء تسقط من الكرسي، فهزعت عفراء

وابتيتها إليها. تابعت عفراء صراخها:

- يا ويلي، هل يريدون قتلها؟

أحضرت البنت الوسطى كوب ماء، وبدأت ترشُّ على وجه شيماء، وعفراء

تضرب على خديها حتى تنفَّست.

رفعتها إلى صدرها وهي تقول:

- فداك نفسي يا حبيتي. لا تقلقي، لا تسمعي لهراء أبيك، لن يُجبرُك أحدٌ

بالزواج إلا ممن ترغبين ومتى ترغبين.

أفقدت تلك الإغماء القصيرة موضوع الزواج من ذاكرتها، ثم لما سمعت

كلام أمها عادت لها ذاكرتها، فتمنَّت لو أن تلك الإغماء لم تحدث؛ لأنها لم

تكن في صالحها. أرادت أن تتدارك الأمر، فقالت بكلمات متعثرة:

- لا تقلقوا عليّ، فأنا بخيرٍ والحمد لله.

تحاملت فوقفت على رجليها، ثم جلست على الكرسي. جلست أمها

وأخواتها بجانبها، بينما عاد سعيدٌ إلى كرسيه. رأت شيماء أن الفرصة ستذهب،

فأرادت تداركها، فقالت لأبيها:

- سامحني يا أبي، فقد صدمني الخبر.

- لا عليكِ، والحمد لله على سلامتك.

ابتسمت ابتسامة خفيفة، ثم قالت:

- سلّمك الله من كل مكروه يا أبي. وبالنسبة للزواج..

قاطعتها أمها قائلة:

- دعي هذا الأمر يا ابنتي، ولا تفكري فيه.

- أنا بخير يا أمي، وأنا وأختي سيأتي علينا يومٌ وتزوج، ولكن ألم تستوضح

الأمر منهما يا أبي، فربما كانا يقصدان هدى أو سارة؟

- لقد تعجّبتُ مما تعجّبتنَّ منه، وقلتُ في نفسي: ربما كانا يقصدان هدى،

فقلتُ لهما: تقصدان هدى؟ فردَّ محمد بأنهما يقصدان شيما.

نكّستُ هدى وسارة رأسيهما، وكأن فرصة ذهبية قد طارت من أيديهما.

علّقتُ شيما بخبث:

- ولماذا أنا بالذات؟

- لقد أخبرتهما بأنك ما زلتِ صغيرة، وأنه لا يمكن تزويجك قبل أختيك،

فاقترح محمد أن يعقد قرانه عليكِ الآن، ويؤجل الزفاف لبعد تخرُّجكما.

نظرتُ عفراء إلى شيما، فرأت البشاشة على وجهها، فعلّقتُ:

- ولكن ماذا عن هدى وسارة؟

ردَّ سعيد:

- سيتزوجان بإذن الله، وبعد أن يتم زفافهما سنسمح بزفاف شيما.

بدا أن هذا الاقتراح قد نال رضی الجميع، وشيما لا تُخفي سرورها. تابع

سعيد:

– لقد وعدتُ عليًّا بأن أستشيركم ثم أردتُ عليه، فهل أخبره بالموافقة؟
ردتُ عفراء:

– ما دام الأمر كذلك فلا بأس به.

ثم استدركت:

– ولكن لا بُدَّ أن تأخذ رأي سالم أولاً.

– طبعًا، كنتُ أعني بعد أن آخذ رأي سالم.

عاد عليٌّ ومحمد إلى البيت، فاستقبلتهم خديجة بابتسامة، ورأت ملامح محمد توحى أنه لم يحصل على ما كان يشتهيهِ، فقالت:

– بشرًا، ماذا قالوا؟

ردَّ محمد:

– رفض أبوها الزواج بحجة صغر سنِّها وعدم إمكان تزويجها قبل أختيها،
ولكنني اقترحتُ حلًّا وسطًا.

– ما هو؟

– اقترحتُ أن أعقد قراني بشيِّمَاء الآن، ثم نؤجل الزفاف إلى بعد تخرجنا.

بدا البشْر على وجه خديجة، فقالت:

– وماذا قال أبوها؟ يبدو عليه أنه تقبَّل الاقتراح، ولكن أراد أن يستشير أهله.

علَّقت خديجة وهي تمدُّ السفرة ليتناولوا العشاء:

– عسى الله أن يشرح صدورهم بالموافقة.

أخذ لقيمات قليلة ثم دخل غرفته، وبعد قليل تبعته سمية. طلب منها أن

تُعجّل بالكتابة لشيء ما لتشرح لها ما جرى له مع والدها، وكيف أنه عندما رأى الفرصة تتلاشى اقترح بالاختصار الآن على عقد القران. سردت سمية لها مبررات أخيها لما قام به، ثم ختمت رسالتها بقولها:

- وماذا عنك؟ هل أخبرك أبوك بما جرى؟ وماذا كان رأي أمك وأخواتك؟
لم تمض إلا دقائق حتى جاء الردُّ. شرحت شيئا ما جرى لها، وموقف أمها وأخواتها، وفي نهايتها قالت:

- يبدو أن الجميع راضون بهذا الاقتراح، ولم يتبق إلا رأيي سالم.
كانا يتشوقان لأن تمضي الأيام بسرعة لكي يأتي يوم الأربعاء فيعود سالم من عمله. جلست العائلة على العشاء، وشيئا لا تشك أن أباهما سيفتح الموضوع مع أخيها، ولذلك كان اضطرابها وقلقها باديان. وقبل أن يبدووا في الأكل قال سعيد:

- لقد جاء صديقك محمد وأبوه لزيارتنا.
بدت علامات الاستغراب على وجه سالم من طرح هذا الموضوع؛ فلم يكن أبوه ليعبأ بزيارات محمد، فردَّ بحيرة:
- خيراً إن شاء الله.

فتح سعيد الموضوع دون مقدمات، وكأنه لا يشك في موافقته، فقال:
- جاء لخطبة شيئا.

صمت قليلاً وهو يسترجع ذكرياته مع محمد، وتذكر أيامه مع صديقه منذ الطفولة، ومروراً بالابتدائية، ثم المتوسطة والثانوية. لكن الأمور قد تغيرت بالنسبة له؛ فشيئا أصبحت عملة صعبة يستطيع من خلالها الوصول إلى

الصراع النفسي

حبيبته هيام. كان الغرور والاعتداد النفسي لا يخفيان عليه؛ فهو ينظر إلى نفسه وكأنه سيد البيت، ومع ذلك فهو لا يريد أن يصدّم شيماء بكلام يجعلها ترفض الزواج من صديقه طلال.

كانت خطته أن يُؤلّب والديه على شيماء ليجعلها ترفض الزواج من محمد.
- محمدٌ صديقٌ عزيزٌ عليّ.

استفتح حديثه بهذه الكلمات وهو ينظر إلى شيماء، فرآها لا تُخفي سرورها مما قاله، فاستدرك قائلاً:

ولكن أخاف إن عقد قرانه عليها الآن ثم غاب عنها أربع أو خمس سنوات فسيؤثر ذلك عليها نفسياً، فتضيع دراستها، ويضيع مستقبلها.

ما إن سمعت هذه الكلمات حتى زاد اضطرابها، ثم رأت أبوها وأمها يُحرّكان رأسيهما موافقةً على ما قاله سالم. لم تصدّق أن يكون سالم هو المحرّض لرفض زواجها من محمد. علّق أبوها:

- أرى أن كلام سالم في محله، ولكني لا زلتُ لم أفهم عجلة محمد وإصراره على الزواج من شيماء.

نكّست رأسها، وزاد اضطرابها؛ فنظرات أبيها تحمل كثيراً من الشكوك تجاهها. رأت أن كل شيء سيضيع، وخافت أن تكون هذه محاولة من سالم لرفضه الزواج قطعياً من محمد. عندها، أرادت أن تتشبّث ببعض الخيوط، فقالت بصوتٍ مخنوق، وهي تعلم أن ما ستقوله سيزيد من شكوك أهلها:

- ولكنه سيعود إلى المملكة كل صيف، ويمكنكم أن تطلبوا منه أن يأتي أيضاً في إجازة منتصف العام.

شعرت أختاها بما تمرُّ به فأرادا مؤازرتها، وهما يدركان أن ثمة علاقة بينها وبين خطيبها، وخافتا أن يحدث لهما من الاعتراض ما يحدث لأختهما الآن. علَّقت هدى:

- في رأيي أن ما تقوله شيماء في محلِّه، ووسائل التواصل صارت الآن أسهل من السابق، ولا أرى أن الزواج يعيق الدراسة، بل إن الراحة النفسية مهمة للتركيز فيها، ولو رفضتم فكرة زواج شيماء، فربما تصاب - لا سمح الله - بحالة نفسية تجعلها غير قادرة على مواصلة الدراسة.

نزلت هذه الكلمات على قلب شيماء كالغيث على الأرض الجدباء، وأما عفراء فإنها صارت لا تدري ماذا تقول، غير أن سعادة بناتها مقدمة على كل شيء، وبدا أن كلام هدى صائب، فعلَّقت:

- إذا كان الأمر كذلك، فأنا مع زواج شيماء الآن.

انفجرت أسارير شيماء، وخاصة عندما رأت أباهما يوافق على ما قالته أمها. أما سالم فقد رأى أنه لا بدَّ من الحزم في الأمر وإلا لما نجحت خطته، فاعترض قائلاً:

- إن ما تقولانه ليس إلا عواطف، وأنا ما زلتُ مع رأيي، إلا إن كنتم تريدون تزويجها بدون مشورتي!!

قال كلماته، ثم قام من المائدة وهو يُظهر غضبه.

- سأخرج قليلاً.

قالها ثم خرج من البيت.

بقيت العائلة لفترة في صمت، وكل واحد منكِّس رأسه، وكأنه يُحلل في رأسه ما يحدث للأسرة. لم تتمالك شيماء نفسها فانفجرت باكية، ثم جرت إلى

غرفتها وأغلقت الباب. حاول سعيدٌ كسر الصمت الذي تمرُّ به عفراء وابنتيهما، فقال:

- سأردُّ عليهم بعدم الموافقة.

فعلّقت هدى وهي تقوم من مكانها وتتجه إلى غرفة شيماء:

- هذا ظلم، لا يمكن أن يستبدَّ شخصٌ واحدٌ برأيه.

بقيت عفراء وسارة للحظات، ثم تبعتا هدى وشيماء، بينما ظل سعيدٌ صامتاً في مكانه لا يدري ما يقول أو يفعل.

في الصباح اجتمعت الأسرة على الإفطار، ولكن كل واحد كان غارقاً في صمته، ولم يستطع سعيد أن يفتح الموضوع من جديد. قرر أن يذهب إلى بيت عليٍّ ليعطيه رده. استقبله عليٌّ ومحمد بالبشر، ثم بدأ القلق يدبُّ في نفس محمد عندما شاهد سعيداً مضطرباً، وكأنه محرّجٌ مما يريد قوله. ابتدأ سعيد حديثه، فقال:

- أرى تأجيل موضوع الزواج الآن، فالظروف أراها غير متهيئة الآن للشروع في هذا الأمر.

كانت هذه الكلمات بمثابة قبلة ألقاها على قلب محمد. اضطرب كثيراً ولم يدري ما يقول، ثم جاءت فكرة أعادت إليه بهجته، فقال بابتسامة:

- لا بأس يا عم، فموضوع الزواج لا بُدَّ له من تراضي جميع الأطراف.

سُرَّ عليٌّ وسعيد برّد محمد غير المتوقع.

ما إن انصرف سعيد حتى استأذن أباه قائلاً:

- سأذهب لزيارة الأستاذ أسامة.

كانت فكرة طرح موضوع الزواج على الأستاذ أسامة تراوده قبل أن يشرع بطرح الأمر على والديه، ولكنه رأى تأجيل ذلك لحين أن تتم الأمور بين الأُسرتين. بعد أن شرح لأستاذه كل ما جرى، ردَّ الأستاذ:

- وما هو المطلوب مني؟

- لا ينكر أحدُ فضلك ومكانتك، ولو جلستَ مع سالم وأبيه لاستطعتَ إقناعهما.

لم يرَ الأستاذ بأسًا من المحاولة، فوعده بالذهاب قبيل صلاة الجمعة ليضمن وجود سالم في البيت.

فوجئ سالم بقدوم الأستاذ أسامة؛ فهو لم يزره في الماضي إلا مرتين. رحَّب به وأدخله المجلس، ثم خاطبه وهو يُشير إليه بالجلوس:

- أنا سعيدٌ بهذه الزيارة المفاجئة يا أستاذي.

- منذ أن أنهيتَ الثانوية لم أرك، فقلتُ: أستفيد من هذا اليوم المبارك لزيارتك.

أحسَّ سالم وكأنما هناك سبب لزيارة أستاذه، فقال:

- مرحبًا بك في أيِّ وقت، فأنتَ كنتَ وما زلتَ عزيزًا على القلب.

أراد الأستاذ أسامة أن لا يدخل في مقدمات، فقال:

- بارك الله فيك يا ابني، وما دمنا لوحدنا فأريد أن أسألك عن أمر.

تأكد سالم أن الزيارة لسبب، ولكنه لم يدُر في خَلده موضوع زواج محمد. تابع الأستاذ حديثه:

- سمعتُ يا ابني أن أخاكَ ورفيق عمركَ محمد قد جاء يطلب الزواج من

أختك!!

فوجئ سالم بهذا، فردّ بتلعثم:

- نعم.

- وماذا كان ردُّكم؟

ارتبك سالم قليلاً، ثم أراد أن يقف موقف الهجوم لا الدفاع، فقال:

- وبماذا أخبرك هو؟

كان الأستاذ أسامة قد تعوّد على أسلوب سالم في المراوغة، فتنبه لذلك

وقال:

- أريد أن أعرف منك أنت.

اضطرب قليلاً، ثم قال:

- رأت الأسرة تأجيل الأمر إلى بعد تخرُّج محمد.

عرف الأستاذ أن سالمًا ما زال يراوغ، فهاجمه قائلاً:

- لا أسألك عن رأي الأسرة، وإنما عن رأيك أنت.

شعر سالم وكأن الأستاذ أسامة جاء متحيزًا لمحمد، فلم يشأ أن يُفصح له

عن رأيه، فردّ بخبث:

- أنا واحدٌ من الأسرة، ولا أخرج عن رأيها.

عندها، رأى الأستاذ أسامة أن لا مجال لمواصلة هذا الحوار العقيم، فقال:

- يا سالم، أجبني بنعم أو لا. هل توافق على زواج صديقك محمد بأختك

في هذه الفترة؟

- بشر يا أستاذ!!

قالها محمد وهو يفتح الباب للأستاذ أسامة، ويرى الكأبة على وجهه.

– فعلاً، لقد تغيرَ صديقك!!

وقعت هذه الكلمات على محمد كالصاعقة، فردَّ بحشرة:

– وماذا كان ردُّه؟

أجاب الأستاذ بأسى:

– لم يرد بشيء، وإنما بقي يراوغ، واستتجتُّ أنه غير موافق.

– لماذا لم تضغط عليه؟ ألم تُذكِّره بأيام دراستنا وكيف أننا كنا كأخوين

شقيقين؟

أدرك محمد أنه قد أساء إلى أستاذه بهذا الأسلوب، فاعتذر قائلاً:

– أرجو المَعذرة يا أستاذي. أعرف أنه ليس لك ذنبٌ فيما يحصل، وإنما

أثارني تنكُّره لكل العلاقة التي كانت بيننا.

لاحظ سالم أن شيماء تنظر إليه بنظرات يمتزج فيها الغضب والحزن،

ولاحظ أنها تقضي أوقاتاً طويلة على الحاسوب الوحيد الموجود في الصالة،

فظن أنها على تواصل بمحمد، وأنه ينقل لها ما يجري أولاً بأول، فبيَّت في

نفسه أمراً.

بعد صلاة الفجر حاولت أن تفتح بريدها، فوجدت المفاجأة، وما إن ظفرت

به حتى انفجرت في وجهه:

– ما قمتَ به شيءٌ قذر!!

رمقته بوجهٍ يفوح غضباً وهي تلقي عليه هذه الكلمات، ثم تابعت:

- إن كنتَ تظنُّ أنك بقطع خدمة الإنترنت ستمنعني من الزواج به فأنتَ واهم. لقد تنكَّرتَ لأهلك وصديقِ عمرِكَ.

كان يرمقها بنظراتٍ ساخرة، وعندما توقفت عن تهديداتها، قال لها بنبرة جريئة:

- اسمعي، أنا أعلم كل خبايا علاقتك به، وإن لم تكفِّي عن هذا الأسلوب فسأخبر أبي وأمي بكل ما يجري بينكما.

كانت ترتجف من الغضب، وأحسَّت بداخلها من الظلم الذي أصابها من أخيها ما جعلها لا تفكر في عواقب كلماتها؛ فهي ترى أنها لن تخسر أكثر مما خسرتَه الآن، ولن يصيبها من والديها مثل ما أصابها من أخيها. ردَّت عليه بشجاعة لم يعهد لها منها من قبل:

- اصنع ما بدا لك، وسأتزوج بمحمد رغم أنفك.

بعد ردِّ الأستاذ أسامة، اسودَّت الحياة في وجه محمد، ورأى أن العودة إلى أمريكا قد تنسيه بعض الهموم التي صارت تثقله.

- سأعود إلى أمريكا- بإذن الله- بعد غدٍ!!

قالها بحزنٍ وهم على مائدة العشاء. لم يستطع عليُّ أن يجيب بشيء، وأما خديجة فقد اضطربت عند سماع هذا الخبر، ثم ردَّت بحزن:

- لا زال عندك أكثر من شهر.

- أعلم ذلك، ولكني أريد أن أنسى موضوع الزواج قبل بدء الدراسة.

كانت سمية ترتقب بفارغ الصبر ظهور نتائج الثانوية في الأسبوع القادم، وكانت تُعدُّ لذلك اليوم المشهود. وما إن سمعت كلمات أخيها حتى تكدَّر

حالتها، ورأت أن أباها لا يَعْجَبُ بمشاعرها رغم كل ما قدمته له في السنوات الماضية، وخاصة في توطيد العلاقة بينه وبين شيماء. قالت له بأسى:

- ألا تنتظر ظهور النتائج؟

كان يحلم بذلك اليوم؛ ففرحته ستكون مضاعفة بنجاح أخته وشيماء وتثوّقهما، وكان قد اشترى لهما هدايا دون أن يَعْلَمَا، ولكن المَواجع التي أصابته كدّرت صفو حياته. ردّ عليها:

- أنا آسف يا سمية، لو بقيتُ هنا لربما قلبتُ عليكم ذلك اليوم إلى حزن. إنني أفضل أن أكون بعيدًا.

حاولت أن تمسكه من اليد التي تؤولمه، فقالت:

- إن لم يكن من أجلي، فمن أجل شيماء.

ما إن سمع اسمها حتى اهتزت فرائضه، وكأن ذلك قد غاب عنه. ترجمته أمه أن يبقى، ثم ألحّ عليه أبوه وإخوته. نكّس رأسه وبقي صامتًا لا يدري ما يقول، ثم أجاب بصوتٍ واهٍ:

- لا بأس، سأبقى بإذن الله، ولكن سأرحل بعد ظهور النتائج مباشرة.

رغم أن الأيام القليلة المتبقية كانت تمضي بتناقل، غير أنه رأى أن الله قد هياها له ليُجدد إيمانه، ويُقوي صلته به. كان يقضي ساعات طوال في المسجد بين ذكرٍ وتلاوةٍ للقرآن وأداءٍ للنوافل. أما سمية فقد استغلت خالداً ويوسف في التردد على المحلات لشراء مستلزمات الحفل الذي تخطط لإقامته من أدواتٍ للزينة والمواد المطلوبة لصنع كعكة جميلة زينتها بالنقوش والورود، ولم تنسَ العصائر والفواكه وغيرها من اللذائذ.

الصراع النفسي

وفي بيت سعيد اجتهدت هدى وسارة في التجهيز لحفلٍ رائعٍ لشيما؛ فهما يريدان أن يفرحا بأختيهما التي يتوقعان أن تنصدر قائمة الأوائل على المملكة، ومن ناحية أخرى يريدان مواساتها مما جرى لها. كانت تساعد أختيهما ولكن بوجه حزين، ونفسية غير متشوّقة لواحدٍ من أهم أيام حياتها. قالت لها هدى وهي تحاول مواساتها:

– لم تبقى إلا يومان ونفرح بكِ كما فرحنا بسالم في العام الماضي.
– تمنيتُ لو كنتُ في غير هذا الحال، ولكن سالمًا أبى إلا أن يُكدّر عليّ فرحتي.

لم تجد هدى شيئاً تقوله فنكّست رأسها.

جاء يوم الجائزة، وتهيات الأُسَر لأخبار العاشرة، وصار في معظم البيوت من الهرج والمرج ما هو معهود في كل عام، إلا بيت سمية وشيما، فقد كانا شبيهين ببيوت المآتم. حاول محمد وشيما أن ينسيا هومهما في ذلك اليوم، ولكن أتى لهما ذلك. جلس الجميع أمام شاشات التلفاز والصمتُ يخيم عليهم.

كانت سمية وأخواها في حركة دؤوبة لتجهيز المائدة، وكذلك بالنسبة لهدى وسارة، وأما الباقون فغرقوا في صمتٍ وأحاديث نفسية. كان الجميع حاضرون غير سالم، فقد اعتذر بالذهاب لموعد عنده. تضايق والداه وأخته من ذلك، ولكنهم لا يملكون ثنيه.

ما إن بدأ المذيع قراءة أسماء الأوائل حتى ساد صمتٌ مطبق في كل البيوت. كان قلبا محمد وشيما يرجفان، رغم أن الحزن ما زال مهيمناً عليهما. أذيع

الاسمان الأولان ووجيف قلبيهما يتزايد، حتى جاء المركز الثالث وأذيع اسم شيماء. لم يتمالك محمد نفسه حتى انفرجت أساريره عن ابتسامة حزينة، وأما هدى وسارة فقد قفزتا واحتضنتا شيماء، ثم قامت أمها واحتضنتها وهنأها أبوها.

بقيت سمية تنتظر دورها، وقلبها يضطرب، وقلقها يتزايد. كان ترتيبها السابع، ورغم ذلك فقد طارت من الفرحة واحتضنت أمها، ثم قام أبوها وإخوتها فهتؤوها. قال محمد لأخته وهو يحاول الإفصاح عن ابتسامة خرجت مية:

– مبارك عليك، لقد أبليتِ بلاءً حسنًا.

– الله يبارك في حياتك، وهنيئًا لك حصول شيماء على المركز الثالث.

– لا أدري ما هي مشاعرها الآن. لا بُدَّ أنها لم تنعم بهذا اليوم الذي انتظرته طويلاً.

قالت له وهي تشير إليه ليشاركهم على المائدة:

– سأتصل بها وأطمئنُ عليها.

دخل غرفته وأخرج هديته لسمية وقدمها لها قائلاً:

– هذه لك، وهذه لشيماء.

رنَّ الهاتف فأسرعت إليه سارة. عرفت أنها سمية فهنأتها، فردَّت بتهنئتها بتفوق شيماء، ثم طلبت منها أن تكلمها.

– مبارك عليك، إنكِ جديرة بالحصول على ذلك المركز.

شكرتها شيماء وهنأتها أيضًا على المركز الذي أحرزته، ثم سألتها:

- وكيف محمد الآن؟ هل سافر؟
- لم يسافر بعد. لقد أَجَّلَ سفره من أَجلكِ.
عاد إليها شيءٌ من البهجة، فردَّت:
- بل من أَجلكِ أنتِ؟
ضحكت سمية، ثم قالت:
- إنه يسأل عنكِ، ويهنِّؤُكِ ويُسلِّمُ عليكِ، وقد ترك لكِ عندي هدية جميلة.
أحسَّت بحرج، فقالت:
- جزاكم الله خيرًا، سلِّمي عليه.
قضى اليوم التالي في زيارة الأهل، وشراء مستلزمات السفر، وذهب لِيُسَلِّمَ على بعض أساتذته، ووجهه ونبرات صوته تُبدي من الحزن ما لا يخفى، ولكنهم ظنوا أنه حزن الفراق، ما عدا الأستاذ أسامة الذي ذكره بأن على الإنسان أن لا يقنط من قضاء الله، وأن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه.

الفصل العاشر: بداية الحصاد

عاد إلى أمريكا حزينًا كثيرًا، ووجد سلواه في الالتجاء إلى الله بكثرة النوافل والمداومة على الدعاء وتلاوة القرآن. كانت كلمات التحفيز من أساتذته ووالديه وأهله تتصارع في رأسه مع ما رآه من تبدل أحوال بعض زملائه وأصدقائه، وخاصة سالم.

وجد سلواه أيضًا في قراءة كتب التزكية والرفائق، فانكبَّ على العديد منها ككتاب إحياء علوم الدين للإمام الغزالي، وأفراح الروح لسيد قطب. أكسبته هذه الكتب رؤية جديدة للتربية الدعوية التي لا تستقيم بدون تربية إيمانية راسخة.

كذلك، أثرت هذه الكتب في نفسه من ناحية روحية؛ فصار يواظب على فترات مبرمجة للخلو مع نفسه والتضرُّع فيها إلى مولاه، وخاصة في فترة ما قبل طلوع الفجر التي خصَّصها للاستغفار والاعتراف لخالقه بذنوبه وتقصيره عملاً بقوله سبحانه: [وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ]. وأما فترة قبيل الغروب فقد جعلها للدعاء وطلب العون والمدد من مصدر القوة وباعث الحياة سبحانه وتعالى. ولم يُفِرِّط في فترة ما بين صلاة الفجر إلى طلوع الشمس فجعلها للتسبيح والذكر.

عندما بدأ فصل الخريف حاول أن ينسى همومه؛ فكّر س جهوده في دراسته وممارسة أنشطته الطلابية، سواءً أكانت تلك التي تخدم الدعوة أم غيرها التي تتعلق بأمور الدراسة. بدأت أخباره والأنشطة التي يقوم بها تسري إلى خارج الجامعة، بل وإلى مدن وولايات أخرى، وتلقى اتصالات عديدة من مراكز إسلامية ومنظمات طلابية في جامعات ومدن خارج بوسطن، وكانوا يدعونه لزيارتهم وإلقاء المحاضرات والدروس عندهم.

كذلك صار معلموه في الجامعة لا يفتؤون يذكرون اسمه في اجتماعاتهم ولقاءاتهم، ويتحدثون عن مستواه الدراسي المتميز، وقرروا أن يُشركوه في أنشطة القسم المختلفة، وأعطوه فرصة للمشاركة في العملية التدريسية من خلال مكتب المساعدة الذي يقدمه القسم كخدمة لمساعدة طلاب علوم الفضاء.

أما بالنسبة للزواج من شيماء فما زال أمله باقياً رغم تلك الحواجز التي رآها، وصار يتابع أخبارها أولاً بأول، وخاصة بعد أن علم أنها التحقت بجامعة البيان في تخصص علوم الحاسوب. أما أخته فقد التحقت أيضاً بجامعة البيان، ولكن ميولها كان في الرسم والتصميم. توطّدت العلاقة بينهما أكثر من قبل، وكانت سمية تنقل أخبار أخيها لشيماء وأخبار شيماء له عبر الرسائل الإلكترونية.

ما كان يقلقه هو تبدُّل حال شيماء أو حزنها عليه، فحاول أن يعرف ذلك من أخته، ولكن شيماء تعلمت من الكتب والروايات التي قرأتها أن تكون دوماً إيجابية ومتفائلة، وأن لا تُظهر لحبيبها ما يمكن أن يُعكّر صفو حياته، فما كانت تبوح لسمية بشيءٍ من أشواقها وأحزانها.

أما سالم فرأى أن مصالحة شيماء هي خير سبيل لتحقيق مأربه، ولكن العلاقة المتوترة بينهما حجبتة عن مباشرتها بأيّ حديث. كان يملك من

بداية الحصاد

أساليب الدهاء والخبث ما مكّنه من التلميح لصديقه الجديد وزميل عمله طلال بأنه يريد الزواج من أخته هيام. لم تكن الصفقة التي جرت بينهما تنتظر وقتاً لتفعيلها؛ فسرعان ما أخبر طلال أخته برغبته من الزواج من شيماء، وطلب منها أن تبني معها في البداية مجرد علاقة صداقة وطيدة. لم تعارض هيام الفكرة وقد علمت أنها جاءت من سالم؛ فطالما كانت تحلم بالتقرب منه.

لبست هيام ثوب الصديق المحب، فحسبت شيماء فيها نعم الصديق، وفتحت لها قلبها؛ حتى إنها صارحتها بما يجري بينها وبين محمد، وما حدث من موقف أخيها في رفض زواجها منه. كانت هيام قد تعودت اصطياذ الشباب والتغريب بالفتيات، فقد تربّت منذ صغرها - كما هو الحال عند معظم بنات المسلمين - على مسلسلات الحب وقصائد نزار قباني وروايات؟؟؟. لذا، لم تمض إلا قرابة شهرين حتى رتبت موعداً بين شيماء وأخيها. لم تكن شيماء تعلم بتلك الخديعة، ولا كانت وسامة طلال وأناقة ملابسه لتلامس قلبها، فأخذت الأمر بعفوية.

كانت هذه الخطوة الجريئة من هيام كمحاولة لصنع نوع من التعارف بين أخيها وشيماء ولكنها فشلت، فحاولت عدة مرات افتعال لقاء بينهما أملاً في أن تُحوّل شيماء حبها إليه، ولكنها ما كان يوجد في مملكتها غير محمد.

أما سالم فبدأ يلتقي بهيام سرّاً، وتناقشا موقف شيماء، ولما رأوا أنها لن تلين بمثل هذه الحيل قرر أن يُقنع والديه بتزويج أخته من طلال رغماً عنها. لكنه يعلم أن اعتراض والديه على تزويج محمد هو أن أخته هدى وسارة لم تتزوجا بعد، ولذا سعى أولاً في البحث عن أزواج لهما، ولم يكن ذلك مستحيلاً مع أساليبه الماكرة في إقناع بعض أصدقائه، والأهم من ذلك إقناع أخته.

أما محمد فشاء الله أن يبتليه بحدث زاد من همومه وأوجاعه، ولكن الله جعله اختباراً لصره وإيمانه. لقد علمه ذلك الحدث أن المؤمن الحق لا يعيش لنفسه فقط، وإنما عليه أن يتغلب على مصالحه الشخصية ليهتم بشؤون مجتمعه وأمته.

في الحادي عشر من سبتمبر حدثت تفجيرات للأبراج التجارية في واشنطن ونيويورك، وتزلزلت الأرض بكل المعاني. لقد شاهد كيف تتلاشى بعض من أهم معالم الحضارة الأمريكية في طرفة عين، والأهم من ذلك كيف تزهق آلاف الأرواح دون مبرر. كانت أياماً عصيبة قضاها عقيب التفجيرات، ثم أشهراً تبعتها عانا فيها ما عاناه غيره من إخوانه المسلمين من السخرية والتشويه، واستهدافهم بالتفجيرات والقتل المتعمد.

لقد شعر في تلك الأيام العصيبة بالظلم في أحلك صورته؛ فرأى كيف استطاع الإعلام الأمريكي أن يصنع من ابن لادن وتنظيم القاعدة عدواً وهمياً يُداهم أمريكا، وكيف استطاع أن يُؤلب الرأي العام الأمريكي والعالمي ضد المسلمين، فجعل المسلمين في أمريكا خاصة والعالم عامة كبش فداء لتحقيق مآرب مرسومة لذلك. لقد علمته تلك الأيام أنه لولا خور المسلمين وضعفهم ما كان ليصيبهم ما أصابهم.

لم يصدق ما تبته وسائل الإعلام من اتهام المسلمين بالتفجيرات فانكب لأيام متوالية وهو يبحث في الإنترنت عن خيوط لفك ذلك اللغز. لقد وجد من الحقائق والأرقام ما أذهله مما حاول الإعلام الأمريكي المُسيّس من قبل اليهود وما تبعته من وسائل الإعلام العالمية إخفاءه، وهو أن اليهود -أخزاهم الله- كانوا وراء كل ذلك، وأنه لم يكن لأسامة بن لادن ولا لتنظيم القاعدة أي دور في ذلك.

بداية الحصاد

لقد أورثت هذه الحادثة والنتائج التي توصل إليها لديه إعجابًا شديدًا بشخصية أسامة بن لادن، رغم أنه كان ضد قتل الأبرياء. كان يتابع بحرص التسجيلات التي كانت تُبثُّ وتُنسب إلى أسامة بن لادن، ويرى فيه المُخلص المنتظر لهذه الأمة، ويربط ذلك بحلم الأسد الذي رآه.

ومما زاده ألمًا وكمدًا ما أعقب أحداث ١١ سبتمبر من أحداث هزّت العالم بأسره، وفي مقدمتها غزو أمريكا للعراق وأفغانستان، وتحالف دول الغرب والشرق معها، وبالمقابل تخاذل - بل وأحيانًا - تواطؤ حكام المسلمين تجاه ما يجري. وكان أكثر ما ألمه أقلام الخونة من المسلمين وغيرهم التي يستأجرها الغرب لتلميع صورته وتشويه صورة المسلمين.

استشعر من تلك الأحداث أن الواجب الذي عليه القيام به يتضاعف، ولذا هبَّ - كما هبَّ غيره من إخوانه المخلصين - في تبيان الحق ودرء الشُّبه عن الإسلام والمنافحة عن المسلمين. وما كان الله ليُضيع عمل عامل، فعاش بعضًا من أجمل الفترات التي مرّت على المسلمين؛ وذلك عندما رأى الآلاف من الأمريكان وغيرهم يدخلون في دين الله أفواجًا، ورأى كيف يُهيئ الله لدينه من ينصره.

مرّ عليه العام الثاني وكأنه قرن، وكان موضوع رفض الزواج بشيماء لا يزال - أحيانًا - يستولي على مشاعره. مرّ عليه العام وهو يكابد المشاعر العاطفية التي صارت تغزوه بين حينٍ وآخر فتكاد أن تثبط همته، حتى إنه فكّر عدة مرات في ترك الدراسة، وساورته أحيانًا أفكارٌ شيطانية للاتصال هاتفيًا بشيماء، ومواعدها على الهروب من بيتها وأخذها معه إلى أمريكا، ولكن إيمانه الراسخ بالله كان يدفع عنه تلك الوسوس، فسرعان ما تنزوي.

ورغم حالته النفسية المتدهورة إلا أنه كان لا ينسى التزاماته الدعوية؛ فتناقش مع إخوانه في اتحاد الطلبة المسلمين فكرة إقامة أسبوعٍ ثقافي على غرار الأسبوع الثقافي الذي أقامه في المملكة، وكان يهدف من وراء ذلك تعريف الأمريكيان بالإسلام وتاريخ المسلمين.

رحّب إخوانه في الاتحاد بالفكرة وأعجبوا بها، واستطاعوا بالتعاون مع المركز الإسلامي ورابطة الشباب المسلم العربي توفير العديد من الكتيبات والنشرات والبوسترات، وكذلك استضافة العديد من الدعاة المتخصّصين في دعوة غير المسلمين.

كان أسبوعًا متميزًا ليس لاتحاد الطلبة المسلمين فحسب وإنما للجامعة أيضًا. وقد حظي هذا الأسبوع بتغطية إعلامية وافرة من الصحف ومحطات التلفاز، واجتذب إليه اهتمام كثير من المسؤولين في الجامعة والمنظمات الطلابية، وأثمر - بفضل الله - في دخول الكثير من الطلاب وعامة الناس في الإسلام.

خاف إن عاد إلى بلده أن تلتهمه المشاعر العاطفية، فيضيق صدره مجددًا، فقرّر أن يبقى ذلك الصيف في أمريكا. عانت أسرته ومعهم شيماء من ذلك القرار أيما معاناة. قالت له أمه عندما اتصل ليخبرهم بقراره:

- أرى يا ولدي أن دراستك صارت أحبّ إليك منا.

لم يجد ما يقوله غير مواساة مشاعرها، فردّ عليها:

- ليس الأمر في تفضيل الدراسة عليكم يا أمي، ولكن هذه الجامعة والتخصّص الذي أدرسه يتطلبان تكريس معظم أوقاتي للدراسة، وإلا ربما آل الأمر إلى طردي منها.

ما إن سمعت خديجة ذلك حتى رددت بصوتٍ ملؤه الرحمة والحب:
- لا يا ولدي، لا تقل ذلك، ونحن سنصبر- بإذن الله- حتى ولو استدعى الأمر أن تبقى هناك إلى أن تتخرج.

كانت تلك الكلمات بمثابة الغيث الذي نزل على قلبه ليذهب عنه بعض ما به من أحزانٍ وهموم.

في فترة دراسته تلقى رسائل عديدة من بعض المؤسسات التجارية والمنظمات الشهيرة، مثل شركة مايكروسوفت الشهيرة في عالم الحواسيب ووكالة ناسا المعروفة. عرضت عليه بعض المؤسسات وظائف جزئية مقابل رواتب مغرية. ناقش هذه العروض مع بعض أصدقائه المخلصين في اتحاد الطلبة المسلمين، فشجعه كثيراً على قبولها، ولكنه لم يشأ أن يتخذ قراراً كهذا بمعزل عن مرشده الأكاديمي. سرَّ مرشده كثيراً بتلك العروض، وشجعه على ألا يُفوت مثل هذه الفرص، واقترح عليه العمل في مركز سميثونيان للفيزياء الفلكية الموجود في الجامعة، والذي هو على ارتباط كبير بوكالة ناسا، ووعده بأن ينسق معهم ليسهلوا إجراءات توظيفه. وفعلاً، لم يمض أسبوعان حتى بدأ العمل فيه في فترة المساء.

بالتحاقه بهذا العمل تفتحت أمام ناظره فرص جديدة لم يكن ليحلم أن يصادفها من قبل؛ فقد رأى أمام عينيه الأجهزة والبرامج والكتب والمجلات وغيرها من الموارد العلمية التي تخدم علوم الفضاء، ووجد أناساً من ذوي الخبرة والاختصاص الذين رحبوا به كثيراً لما سمعوا عن تفوقه وتميزه.

بقي طيلة سنوات دراسته وهو يتألق ويشتهر صيته، حتى إن كثيراً من قنوات التلفاز والراديو والمجلات العلمية أجرت معه مقابلات، وكان يكتب في

العديد من المجالات العلمية. ورغبة في توطيد علاقته بشيما، ولتسهيل لغة التحوار بينهما، فقد أخذ تخصصًا فرعيًا في مجال الحاسوب، واستطاع من خلاله أن يتعمق في كثير من تقنيات الحاسوب، مما دعا شركة مايكروسوفت العملاقة وغيرها من الشركات أن تتواصل معه، وتمدَّ له يد العون.

وقد عمل جاهدًا لأن ينقل ما يتعلمه في علوم الفضاء والحاسوب إلى إخوانه المسلمين؛ فكان يُقدِّم لهم محاضراتٍ وعروضًا تُعرِّفهم بعلم الفضاء والتطورات التي تستجدُّ فيه، وأيضًا ببعض جوانب علوم الحاسوب. وكان يُقيم دوراتٍ تدريبية في بعض برامج الحوسبة، وفي رصد الأفلاك وحساب المطالع. ونظرًا لاشتراكه في العديد من المنظمات العلمية، فقد استطاع أيضًا أن يكون له دور بارز في العلوم الأخرى.

كل ذلك أهله للحصول على مراكز قيادية طلابية في الجامعة؛ كرئاسة الاتحاد الطلابي للجامعة، وكممثل للجامعة في اتحاد جمعية الفلك الأمريكية. وتولى أيضًا قيادة اتحاد الطلبة المسلمين لستين متتاليتين، استطاع من خلالهما أن يرتقي بدعوة المسلمين وغير المسلمين في الجامعة إلى مستويات لم تصلها من قبل، وأقام جسر التواصل بين الاتحاد في الجامعة وفروعه الأخرى، وقام بدعوة العديد من المفكرين من المسلمين وغير المسلمين للمشاركة في المحاضرات والفعاليات التي كان ينظمها الاتحاد.

بعد زواج أخته وجد سالم الفرصة سانحة لمفاتحة والديه بموضوع زواجه، ولكنه يعلم أنه لن يستطيع ذلك دون زواج صديقه طلال بشيما. فتحت هيام معها مرة موضوع الزواج فطاب خاطرها لذلك، وحسبت أنها تقصد زواجها من محمد، فردَّت بعفوية:

- ولكن أئنًى لذلك أن يتحقق وسالم يعترض عليه؟

لكن ما إن صارحتها بقصد زواجها من أخيها حتى ثارت عليها، وهددتها بقطع علاقتها بها إن فتحت هذا الموضوع مُجددًا.

بعد تعنتُ شيماء فاتح سالم أبويه برغبة صديقه، فوافقا في الحال لما زيَّنه لهم من صفاته، وأوهمهم بأنه من الأثرياء وأصحاب المناصب المرموقة. علَّقت عفراء، وهي تتذكَّر موقف ابنتها عندما اعترض سالم على زواجها من محمد:

- ولكن هل ستوافق شيماء؟

ردَّ سالم، وهو يحاول إقناعهم:

- هذه فرصة لا تتكرر، وطلال لا يُقارَن بمحمد لا في وسامته ولا مركزه الوظيفي.

علَّق أبوه:

- أنا من ناحيتي ليس لديَّ مانع، ولكن يبقى الأمر لشيماء.

علَّق سالم بخبث:

- أنت أبوها ووليُّ أمرها، ولك الكلمة الأولى والأخيرة.

لم ينسَ محمد بلده، وبقي على تواصل ببعض أساتذته من خلال الهاتف والبريد الإلكتروني، وكان ينقل إليهم أخباره والأنشطة التي يقوم بها، ويشجعهم على بذل جهودهم في تربية الطلاب على الإيمان والصلاح وفكر الإصلاح والنهوض بالأمة، وخاصة من خلال جماعة العمل التطوعي.

كان يتابع أخبار شيماء أولاً بأول، وأثر في نفسه كثيرًا ما أقدم عليه سالم من محاولة فرض تزويجها بطلال من خلال أبويه أولاً، ثم من خلال تهديداته لها،

وتعريفه لوالديه على التساهل معها، حسبما يتصوّر. لكن صمود شيماء أمام تلك الإغراءات والتهديدات رفع من معنوياته، وحفّزه على تكريس جهوده في الدراسة ليُعجّل بالزواج منها، كما اشترط عليه والداها في البداية.

وما إن قارب الفصل الأخير من دراسته على الانتهاء حتى تلقى عروض عمل من مؤسسات مختلفة، منها وكالة ناسا وشركة مايكروسوفت، بالإضافة إلى المنحة الكاملة لدراسة الماجستير التي قدّمها له جامعة هارفارد من خلال قسم علوم الفضاء. لكن طموحاته كانت أسمى من ذلك؛ فهو ما أتى إلى أمريكا ليستقر فيها، وإنما جاء ليبنى نفسه، ويتزود مما فيها من فرص وإمكانيات، ثم يعود إلى بلده، ويبدأ في خدمته، وخدمة أمته.

وقد استشار إخوانه في اتحاد الطلبة المسلمين والمركز الإسلامي، وراسل بعض أساتذته في المملكة، واستشار أيضًا مشرفه الأكاديمي وأساتذة آخرين في قسم علوم الفضاء. وجد أن من في أمريكا يشجعونه على المواصلة وقبول تلك العروض، وأما أساتذته في المملكة فحثّوه على العودة إلى بلده لتولي زمام الأمور في الأنشطة والمشاريع التي له دورٌ بارزٌ في تأسيسها وبقائها. وأما والداه فحثّاه أيضًا على العودة، وأخبره والده بأن فرص العمل في المملكة متوفرة، وخاصةً لأشخاص مثله. من أجل ذلك، قرر أن يعود إلى بلده فور انتهاء دراسته.

انتهى الفصل الدراسي، وتخرج بمعدل ٣٩٥، أي بدرجة امتياز مع مرتبة الشرف الأولى. حضر حفل التخرج الذي أقامته الجامعة، وحضره معه العديد من زملائه وأصدقائه الذين بنى معهم علاقات علمية أو دعوية. وبعد استلامه لشهادة التخرج جاءه مشرفه الأكاديمي فهنأه وأخبره بأن قسم علوم الفضاء سيقوم حفلًا خاصًا لتكريمه، وأنه يمكنه دعوة من يشاء من أصدقائه وزملائه

بداية الحصاد

لحضور الحفل. أخبر بعض إخوانه، فلم يجدوا بُدًّا من المشاركة؛ فهم يعرفون مكانته في قلوبهم. استعدَّ لهذا اليوم، فلبس بدلته الأنيقة، وظهر بهيئة توحى بالصفاء والنقاء والتميز والتفوق.

حضر الحفل رئيس قسم علوم الفضاء وعميد كلية العلوم، بالإضافة إلى العديد من مسؤولي الجامعة، وحضره أيضًا مندوبون من مركز سمثونيان للفيزياء الفلكية وشركة مايكروسوفت وغيرها من المؤسسات والمنظمات الطلابية والعلمية. في بداية الحفل ألقى رئيس قسم علوم الفضاء كلمة ترحيبية بالحضور، قال فيها:

- أيها السادة الأعزاء: أشكر لكم تلييتكم لهذه الدعوة، وإنه لشرف عظيم لنا جميعًا أن نجتمع هنا لتكريم واحد من أنجب أبنائنا الذين سيظل قسم علوم الفضاء والجامعة بأكملها يتذكرانه لسنوات قادمة. إنني أعني بذلك الطالب محمد علي، الذي أنهى تخصُّصه بمعدل تراكمي لم يحققه أحد من قبله في هذا القسم، رغم أننا نعلم جميعًا أنه من أكثر طلاب القسم - بل وربما طلاب الجامعة - نشاطًا وفعالية.

يا سادتي: إن ما يقوم به هذا الطالب المثالي من أنشطة متنوعة، وعلى مستويات عديدة، لم تمنعه من تحقيق ذلك التميز في دراسته، وإننا نتمنى أن يحذو حذوه طلاب علوم الفضاء وغيرهم من الطلاب؛ فبناء الأمم لا يقوم إلا على السواعد الفتية من أمثال هذا الطالب. وقبل أن نُقدِّم له بعض الهدايا التذكارية، نرجو منه أن يقول لنا شيئًا بهذه المناسبة.

عندما كان رئيس القسم يُلقي كلمته كان محمد يسبح في عالمٍ آخر. لقد تذكر أيام الثانوية وكلمات أساتذته المحفِّزة. لا تزال ترنُّ في مسمعه عبارات

أساتذته بأنه قد يكون الشخص الذي سيُعيد لهذه الأمة مجدداً وعزها. تذكّر رؤيا الأسد الذي امتطاه حتى استقرَّ به على تلك الصخرة الضخمة، وهو يشاهد الحيوانات تجشوا على ركبها. خاطب نفسه:

– أترى هذا أوان تحقيق ذلك الحلم؟ أم إن المستقبل سيحمل لي – بعون الله – ما هو خيرٌ من هذا المقام؟

تمنى في تلك اللحظات السعيدة أن لو شاركه فرحته والداه وأساتذته وشيماؤه. تصوّر فرحتهم وهم يشاهدون ابنهم تُكرّمه هذه النخبة المتميّزة من العلماء والأساتذة. تذكّر أيام خطبته لشيماؤه، وأحسّ بحسرة في أنها لم تتم له كما أراد، ولكنه سرعان ما تذكّر أن الأمور تسير كما يشاء الله لا كما يشاء هو، وأن عليه أن يُحسِن ظنه بربه. كذلك تذكّر سالمًا وكيف أن مغريات الحياة قد أقدته عن نيل المعالي والوصول إلى هذه المراتب.

انتبه من خيالاته عندما رأى رئيس القسم وهو يلوح بيده إليه ليعتلي المنصة. توجه صوب الميكروفون، ثم استفتح – كعادته – باللغة العربية، فقال:

– بسم الله الرحمن الرحيم. الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على رسوله الأمين، وعلى أصحابه ومن سار على نهجهم إلى يوم الدين. بعدها، بدأ يتحدث باللغة الإنجليزية، فقال:

– أيها السادة الكرام، من عمداء ورؤساء أقسام ومندوبي مؤسسات وطلاب، وأخصُّ بالذكر أساتذتي الفضلاء. أشكر لكم هذا التجمهر لتنهئتي بتخرجي من هذا القسم المتميّز، وإني أشكر السيّد رئيس القسم على ما قاله في حقّي، وإن كنتُ لستُ أهلاً لما قال، وإني أعتزُّ لكم أيها الحضور الكرام

بداية الحصاد

بحقيقة لا أظنها تخفى عليكم، ولكنني سأوردها من باب التذكير، ألا وهي أنه ما كان لي أن أتفوق في دراستي لولا توفيق الله لي، ثم العناية والاهتمام بالبعين اللذين حصلت عليهما من أساتذتي بشكل خاص، ومن القسم والكلية والجامعة بشكل عام.

وإنه لا يفوتني أن أشكر إخواني وزملائي في المنظمات الطلابية والعلمية دعوتهم لي للانضمام إلى منظماتهم، وإتاحتهم الفرصة لي للمشاركة في بعض الأنشطة التي يقومون بها، والتي صار لها الأثر البالغ في صقل مواهبي وقدراتي. كما أنني لا أنسى أن أقدم الشناء الحسن والشكر البالغ على الاهتمام الذي أولتني إياه وكالة ناسا ومركز سميثونيان وشركة مايكروسوفت وغيرها من المؤسسات، كما أنه ما كان بمقدوري أن أتفوق وأتميز لولا دعم إخواني وأصدقائي وزملائي وتشجيعهم وتحفيزهم لي لمواصلة البذل والعطاء.

فشكراً لكم جميعاً أيها الحضور الكرام، وشكراً لكل من كان له دور في نجاحي أو قدّم لي مساعدة أيام دراستي، سواءً أكان حاضراً أم غائباً. وأشكر قسم علوم الفضاء مرة أخرى على هذا التكريم لي، وأتمنى أن يكون حافزاً لي ولإخواني الطلاب لمواصلة النجاح والتفوق، وشكراً لكم.

قام الجميع وهم يصفقون له، ثم طلب منه رئيس القسم أن يبقى في مكانه، وطلب من عميد الكلية أن يأتي ليُقدّم له بعض الهدايا، فقدّمت له هدايا من قسم علوم الفضاء ومن الجامعة، وقدّم له أيضاً مركز سميثونيان هدية تذكارية. أما شركة مايكروسوفت فقد أهدته حاسوباً محمولاً. بعد انتهاء الحفل جاءه الكثير من الحضور ليُسلموا عليه شخصياً، وكانوا يتمنون له المزيد من النجاح والتفوق.

لقد كان هذا اليوم بالنسبة له من أبهج أيام حياته، فلم يشأ أن يُفوّته دون أن يُشرك أهله معه. اتصل بهم، وقصّ عليهم ما جرى، وما حصل عليه. غمرت الفرحة الأسرة بأكملها، ولم تنسّ خديجة أن تسأله عن موعد قدومه، فقال لها: - أحتاج إلى بعض الوقت لإتمام إجراءات التخرُّج، ويأذن الله سأخبركم عندما يتأكّد موعد سفري.

لم يفته كذلك أن يكتب لأخته تفاصيل ذلك الحفل، ويؤكّد عليها أن تنقل ذلك لشيما، وكما كانت فرحة شيما عندما علمت بذلك. مازحتها سمية قائلة:

- أرى موعد الفرحة الكبرى يقرب يوماً بعد يوم.

فابتسمت ثم قالت:

- يأذن الله سنفرح جميعاً.

لم ينسّ اتحاد الطلبة المسلمين الدور الرائد الذي تولاه محمد في الاتحاد، فقرر إقامة حفل توديع له في المركز الإسلامي القريب من الجامعة. بدأ الحفل بعد صلاة المغرب من يوم الجمعة، واستهلّه رئيس الاتحاد بكلمة ترحيبية بالحضور، خصّ فيها محمداً بالشكر والثناء البالغ على نشاطه الكبير وتفاعله المستفيض في النهوض بالدعوة بشكل عام والاتحاد بشكل خاص.

بعد ذلك، قام عدد من قادة الاتحاد والمركز الإسلامي بإلقاء كلمات الشكر والثناء على ما كان يقوم به في خدمة الدعوة. وأشار عددٌ منهم إلى أن ما يقوم به من أنشطة واهتمامات لتعدُّ أنموذجاً صادقاً للمسلم الداعية، وخاصة في الظروف الدراسية التي يمرُّ بها محمد؛ فقد أثبت قدرته على التميّز والتفوق الدراسي، وفي الوقت نفسه كان مثلاً حياً للداعية الواعي والنشيط.

بداية الحصاد

بعد أن انتهى المشاركون من إلقاء كلماتهم، طلب رئيس الاتحاد من محمد أن يُعبّر عن مشاعره ويشارك إخوانه بكلمة قصيرة. قام وحمد الله، ثم صلى على رسول الله - صلى الله عليه وسلم -، ثم قال:

- إخواني الأكارم: أشكر لكم مشاعركم النبيلة تجاهي، وأسأل الله - سبحانه - أن أكون عند حسن ظنكم بي، وأن يغفر لي ما لا تعلمون.

إخواني في الله: إن أولى مَنْ يُشكّر بعد الله - سبحانه وتعالى - هو أنتم الذين احتضتموني منذ مجيئي إلى هذه البلاد، وفتحتم لي قلوبكم، وجسّدتم معي معاني الأخوة الإسلامية النبيلة. إنه لولا عناية الله ثم اهتمامكم بي لربما زجّت بي العواصف في هذا البلد الذي تجتاحه أعاصير الفكر والاعتقاد فتعصف بأبنائه ذات اليمين وذات الشمال. وإني لأحمد الله - سبحانه - أن هياً لي من أمثالكم مَنْ يعينني على الثبات والاستقامة على دينه.

إخواني الفضلاء: قد يتصوّر الواحد منا أن الأعمال البسيطة التي يقوم بها لخدمة هذا الدين وهذه الأمة تعذره عند الله، وإني أقول لكم يا إخوتي بأنه لا عذر لنا عند الله إذا كنا نُقدّم لديننا وأمتنا مجرد فضلة أوقاتنا وجهودنا، وإننا لن نكون مؤدّين للأمانة التي افترضها رب العزة علينا حتى نبذل في خدمة الإسلام وأمة الإسلام كل غالٍ ونفيس. وإني أذكّر نفسي أولاً وأذكّركم بأن تجعلوا همّكم الأول هو نشر هذا الدين وإعزاز هذه الأمة، وإنكم في بلدٍ تتاح فيه سبل الدعوة إلى الله أكثر مما هي متاحة في بلاد المسلمين، فعليكم استغلال هذه الظروف لا لتزيدوا من أرصدتكم البنكية، وإنما لتزيدوا من رصيدكم في الدعوة إلى الله.

إخوتي في الله: أرجو من كل مَنْ أسأتُ في حقه أن يسامحني، وأسألكم أن لا تنسوني من دعائكم. وأقول لكم: لا تتوانوا عن خدمة دينكم وفيكم عينٌ

تطرف. وفقني الله وإياكم لنصرة دينه وإعزاز أمته، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

بعد أن انتهى من إلقاء كلمته سادت لحظات صمت، وكان الحاضرين قد تأثروا كثيراً بكلماته، وتمتم بعضهم بكلمات الدعاء والشكر له. بعدها، قام رئيس الاتحاد ورئيس المركز الإسلامي وقدمًا له بعض الهدايا التذكارية، وعانقاه. عندها، قام الحاضرون فسلموا عليه وهنؤوه بتخرجه، وطلب الكثير منهم منه الدعاء لهم، وأن لا يقطع تواصله معهم. بعد ذلك، تناول الجميع وجبة العشاء التي أقيمت لهذه المناسبة، ثم صلوا العشاء.

بعد انتهاء الدراسة أخذ يرتب أموره للعودة إلى وطنه، وقرر أن يبقى في أمريكا شهرًا آخر ليتمكن من تصديق شهادته في سفارة المملكة، وليتسنى له إنهاء إجراءات تسليم الشقة، وقطع الخدمات، وتسديد ما تبقى عليه من فواتير. كذلك، قام بجولة في بعض المحلات التجارية الشهيرة، واشترى هدايا لوالديه وإخوانه وبعض أساتذته وأصدقائه، ولم ينس أن يخصّ شيماء بهدية متميزة.

اشترى أيضًا حقيبة دبلوماسية جمع فيها ما حصل عليه من شهادات علمية وشهادات خبرة وشهادات تقدير، وأيضًا بعض اللوحات التذكارية، بالإضافة إلى ألبوم صور جمع فيه صورًا له في بعض الفعاليات، وخاصة الاحتفال الذي أقامه قسم علوم الفضاء، واحتفال اتحاد الطلبة المسلمين.

قبيل موعد سفره ودّع إخوانه في اتحاد الطلبة المسلمين والمركز الإسلامي، ولم ينس أن يذهب ليُسلم على أساتذته في قسم علوم الفضاء، وأيضًا على بعض زملائه في المنظمات الطلابية والعلمية. امتزجت في نفسه مشاعر الحزن على فراق إخوانه وأساتذته والصرح العلمي الذي قضى فيه شطرًا من

بداية الحصاد

حياته مع مشاعر الغبطة للقاء الأحبة والعودة إلى وطنه الذي ما غاب عنه إلا ليتزوّد بالعلم والمهارات ليكون أقدر على العطاء وأمهر في البناء.

في يوم سفره اتصل بشركات الكهرباء والماء والهاتف، وطلب منها قطع خدماتها في اليوم التالي لسفره، وزوّدها بعنوان أحد أصدقائه هناك لترسل له ما تبقى من مبالغ الضمان الذي دفعه يوم مجيئه إلى أمريكا، وكذلك فعل في شقته. بعدها، قام بترتيب حقائبه، ثم أخذ قسطاً من الراحة. وبعد صلاة العصر أوصله أحد زملائه في اتحاد الطلبة المسلمين إلى المطار.

غادر مطار بوسطن في المساء، ووصل إلى مطار واشنطن بعد حوالي ساعة، ومنها انتقل إلى طائرة أخرى، ليغادر من خلالها أمريكا قافلاً إلى المملكة. استغرقت الرحلة أكثر من عشرين ساعة، وصل بعدها إلى مطار المملكة. استغل فترة الرحلة في كتابة مذكراته لذلك اليوم، ثم تلى ورده اليومي من القرآن، ثم دوّن بعض الصفحات في كتابه الذي بدأ في تأليفه منذ أكثر من عام، والذي يتحدث عن واقع علم الفضاء في البلاد الإسلامية. كذلك اصطحب معه بعض المجلات العلمية التي تسلّى بقراءتها، في الحين الذي كان غالبية الركاب يتسلّون بمتابعة الأفلام الأجنبية.

كانت الرحلة أيضاً - بالنسبة له - فرصة لمحاسبة النفس والالتجاء إلى الله بالدعاء والشكر. غاص في أعماق نفسه، وتذكر الكثير من فترات الضعف الإيماني التي قصّر فيها في حق ربه أو أسرته أو حتى نفسه. وبالمقابل، استشعر عظمة النعم التي امتنّ بها - سبحانه - عليه خلال الفترة التي قضاها في أمريكا.

أخذ يناجي ربه، فقال:

– يا الله، ما أحلمك، رغم كل تقصيري في حقك، ورغم الذنوب والآثام التي ارتكبتها وأرتكبتها إلا أنك لم تتخلَّ عني. يا رب: إنك تعلم أنني ما جئتُ لهذا البلد إلا رغبة في تأهيل نفسي لأكون أقدر على خدمة دينك ونصرة أمتك. اللهم أسبغ عليّ من وافر عطائك وعظيم آلائك ما يجعلني إليك أقرب، وإلى دينك أوعى وأفهم.

بقي يناجي ربه لفترة طويلة إلى أن أعلن القبطان بدء الهبوط التدريجي في مطار المملكة.

قبل ساعات من وصول الطائرة كان عليّ وأسرتي في فرحة غامرة، وحرّة دؤوبة وهم يتجهّزون للذهاب إلى المطار. لحسن حظّ عليّ والأولاد- وطبعاً بترتيبٍ مسبقٍ من محمد- كان وصوله مساء يوم الجمعة المباركة. وأما شيماء، فبعد أن سمعت بيوم وصوله صارت لا تسعها الأرض من الفرحة، وكانت تقضي وقتها في الحافلة من جامعة البيان وإليها في الحديث مع سمية حول محمد وأخباره ومستقبله، كما تتصوّره هي.

استقبله والداه وإخوته، تتقدّمهم أروى التي صارت الآن ابنة عشر سنين. أما خالد، الذي التحق بالكلية المهنية منذ عامين، فقد تولى مهمة تصوير تلك اللحظات السعيدة عندما رأى أخاه يخرج من بوابة المطار، ثم تجري إليه أروى ليحملها إلى صدره، كما تعود في السنوات الماضية. مازحها وهو يقبلها:

– لقد صرت كبيرة وثقيلة.

اعتنق والديه وأخويه، ثم صافح أخته وهو يهمس إليها:

– كيف حال شيماء؟

- الحمد لله، إنها أكثر شوقاً منا إليك.

في اليوم التالي قدّم لوالديه وإخوته هداياهم، ثم أسرّ بوحدة منها لأخته، وقال لها:

- هذه لشيما، وأرجوك أن تعجلي لها بها، وطمئنيها عليّ.

مازحته سمية قائلة:

- يا ليتني كنتُ شيما.

فنظر إليها وهو يبتسم.

جاء الأهل والجيران وبعض الأساتذة لزيارته وتهنئته على تخرجه وتفوقه الدراسي. كان الأستاذ أسامة والأستاذ عماد من أكثرهم استبشاراً بمقدّمه، ولم يخفيا ذلك، فقال له الأستاذ أسامة:

- لقد انتظرنا هذا اليوم بشوق كبير وتلهّف لا يوصف، وقبل مجيئنا كنا نتناقش أنا وأخي - وأشار إلى الأستاذ عماد - الأعمال الجليلة التي بدأتها معنا وباتت تنتظرك لتغذيها بنشاطاتك وأفكارك. ونحن نعلم أن لأهلك وأصدقائك عليك حقاً، فاقض معهم بعض الأيام، وبعدها ستجدنا نتظرك لنكمل مشوار الدعوة سوياً.

شكر لهم تلك المشاعر، ثم قال:

- إني في تلهّف أكبر للعمل سوياً، وبارك الله فيكم وفي أمثالكم.

فتح حقيبته وأخرج منها بعض الهدايا وقدمها لهم، ثم قال:

- هذه مجرد رمز لتعبّر عما يُكنّه قلبي لكم من محبة ووفاء.

الفصل الحادي عشر:

وعاد سالم

في مساء اليوم التالي لوصوله فوجئ محمد بزيارة سالم، وما إن رآه حتى بدأ يستعيد شريط ذكرياته، وخاصة فيما قام به للحيلولة بينه وبين زواجه من شيماء، ثم محاولته إرغامها على الزواج من صديقه طلال. أحسَّ وكأن سالمًا ما جاء إلا لينكأ فيه تلك الجروح.

استقبله بوجهٍ تملؤه الكآبة، وعرف سالم ذلك من ملامحه، فبادره وهو يعانقه:

- أعرف أنني قد سببتُ لك الكثير من المآسي، ولك الحق في أن تطردني إن شئت.

لم يكن من عادته أن ينتقم لنفسه، فردَّ عليه بنبرة لا تُخفي ما بداخله من أسي:

- لا عليك، مهما حصل فسنظل إخوة.

بعد رفض شيماء الزواج من طلال، بدأت العلاقات بين سالم وطلال تتأزَّم، وكان الأخير ما صادقه إلا لغاية. كذلك، رأى من هيام أفعالاً نفرت منه. ذهب مرة للنزهة على الشاطئ، وبينما كان يُوقف سيارته، إذا بها تخرج من خيمة هناك وهي تُمسك بيد شابٍّ يعرفه منذ أيام الثانوية. عندها، تمنى لو أن بيده سكينًا فيغرسها في صدرها.

خاطب محمداً وهو يجلس على أريكة في المجلس:

- جئتُ لأعبر عن بالغ اعتذاري لكل ما بدر مني.

أراد محمد أن يقاطعه، فأشار إليه ليتركه يكمل حديثه، فتابع:

- لا أخفي عليك أن رفقاء السوء الذين تعرّفْتُ عليهم في عملي قد أعموني عن أن أبصر المخلصين حولي، وكانت الوظيفة والراتب يتزيّنان لي، حتى صرتُ أقيس ما يجري حولي بهما؛ فالعزیز عندي مَنْ له وظيفة مرموقة وراتبٌ كبير.

كان يستمع إلى كلماته وهو يقاوم وسوسات الشيطان التي تُملي عليه أن لا يصدق ما يسمعه، وأن يعتبرها مجرد حيلة أو لعبة لتحقيق مأربٍ يريده. لكنه نظر إلى أن اتخاذ موقف عدائي منه لن يحقق له ولشيماء ما يريدان. خاطب نفسه:

- إذا كان الله يغفر الذنوب للعصاة من عباده مهما عظمت، أفلا أغفر لصديقٍ عزيزٍ عليّ زلة صغيرة وقع فيها في لحظات ضعف؟
ثم خاطب سالمًا، فقال:

- مهما جرى بيننا، فإننا سنبقى أصدقاء وإخوة متحابين.

كانت هذه الزيارة بدءًا لمسيرة جديدة من الإخاء والمحبة والتعاون. وبسببها فتح الله له أبواب الزواج، فلم تبق أمامه عوائق، أو هكذا تصوّر. بعد صلاة العصر زار أستاذ التربية الإسلامية، وتناقشا خطة محمد لما بعد التخرج، فقال محمد:

- كما أخبرتك في الهاتف، فإنني قد حصلتُ في أمريكا على بعض العروض، وشجعني الكثير من إخواني وزملائي ممن هم في أمريكا على أن أقبل واحدًا

وعاد سالم

منها، وخاصة أنها ستتيح لي مواصلة الدراسة، لكنني اطمأنت أكثر لرأيك أنت والأستاذ عماد، وكذلك لتشجيع والدَيَّ ورغبتهما في عودتي. وسأحاول - بإذن الله - أن أبحث عن فرصة عمل مناسبة هنا.

- أظن أن هنا حاجة ملحة للاستفادة مما وهبك إياه المولى - سبحانه وتعالى - من قدرات وطاقات وعلم؛ فنحن - كما تعلم - محتاجون لك في مجال الدعوة، وهناك أيضًا من الجهات التي هي بحاجة إلى المتميزين من أمثالك في التخصص الفريد الذي درسته. وأقترح عليك أن لا تحصر الآن مكان عملك في مؤسسة بعينها، وإنما عليك أن تتقدم بطلبك إلى أكثر من جهة، ثم ترى العروض التي يقدمونها لك، ومن ثمَّ يمكنك انتقاء الأفضل منها.

- بحمد الله وتوفيقه قد أحضرتُ الكثير من الشهادات والمستندات التي ربما تفتح لي فرصًا أكبر للحصول على الوظيفة التي أرغب فيها، ولكن ماذا عن مشاريعكم أنتم؟
ابتسم الأستاذ، ثم قال:

- الحقيقة إنها شبه متوقفة، وهي بحاجة إلى مَنْ يدفعها إلى الأمام، وأظن أن الشخص المناسب لها قد أتى، وعليك أن تتولى زمامها.
ردَّ بتواضع قائلاً:

- جزاك الله خيرًا يا أستاذي الفاضل، فهذا تواضع منكم، وما أنا بينكم إلا طالب أنفد ما تروونه مناسبًا للقيام به، وبإذن الله سنحاول أن نُرتب لقاءات بيننا وبين بعض الأساتذة والطلاب الذين كانوا وما زالوا يشاركون في جماعة العمل التطوعي وغيرها من الأنشطة، فلعلَّ ذلك يحفزهم للبذل والعطاء.

- أتمنى ذلك، وإن كنت بحاجة إلى مساعدة فيما يخص تردّدك على المؤسسات المختلفة فأنا وسيارتي تحت تصرفك.

- شكر الله لك، وأنا متأكد من أنك لن تألو جهداً في مساعدتي، ولكن والدي وبعض أصدقائي قد عرضوا عليّ مثل ذلك، وإن رأيت أحدهم مشغولاً فسأكلم الآخر أو أتصل بك.

ردّ الأستاذ وهو يتسم:

- أرجو هذا.

عاد إلى البيت، وأخرج من حقيبته الدبلوماسية سيرته الذاتية التي كان قد أعدها في أمريكا، بالإضافة إلى شهاداته وبعض الأوراق الأخرى، ثم ذهب لنسخها. جهّز منها عدة نسخ، وأخبر والده برغبته للذهاب إلى العاصمة لتسليم أوراقه إلى بعض المؤسسات، وخاصة وزارة الخدمة المدنية. وجد أن والده قد استعدّ لهذا؛ فأخذ الأسبوع إجازة، فانفقا للذهاب سوياً.

تعوّد في أمريكا على استخدام الشبكة العنكبوتية لتخليص معاملاته. لذا، استخدم خط الإنترنت الذي يستخدمه إخوته، وبحث عن فرص لوظائف، وخاصة في الشركات والمؤسسات المعروفة. آلمه أن كثيراً منها لم تكن لها مواقع على الشبكة، أو إن مواقعها ما زالت غير متهيئة للتفاعل مع الباحثين عن العمل. لكنه رغم ذلك استطاع الحصول على إعلانات لبعض الوظائف، فأخذ عناوين أصحابها وأرقام هواتفهم.

في الغد توجه مع والده إلى العاصمة، واستغرقت رحلتها قرابة الساعتين، وكانت أول محطة لهما هي وزارة الخدمة المدنية. عندما وصلا إلى دائرة

شؤون الموظفين، سأل عن الشخص المسؤول عن استقبال طلبات التوظيف، فأخبره أحد الموظفين بأنه أخذ هذا الأسبوع إجازة، فسأله محمد عمّن ينوب عنه، فردّ عليه بأنه لا أحد. تعجّب من ذلك، ولكن والده شرح له لاحقاً أن هذا أمرٌ مألوفٌ في الوزارات. أخبر الموظف بأنهم جاؤوا من مسافة بعيدة، وتحايل معه ليستلم هو أو غيره طلبه، فأخبره الموظف بأنه لا بُدّ من تسليمها لذلك الشخص، وأن عليه الانتظار إلى الأسبوع القادم.

بعد أن يئسا من الخدمة المدنية، توجهوا إلى بعض الشركات والمؤسسات الشهيرة، ورغم أنه ما كان يريد أن يُقدّم طلبه عندها نظراً لاختلاف طبيعة عملها عن تخصصه، غير أنه أخذ بنصيحة والديه وأساتذته. وجد أن هذه الشركات والمؤسسات، رغم شهرتها، إلا أن النظام شبه معدوم في كثيرٍ منها؛ فتارة لا تجد الموظف المختص، وتارة يضعون شروطاً تعجيزية من قبيل سنوات الخبرة الطويلة والشهادات التي ما أنزل الله بها من سلطان.

وحسبما شرح له أبوه، فإن هذه - في الغالب - تُدار بأيادٍ أجنبية، ولذا فهم لا يريدون للمواطن مكاناً بينهم، وقد ساعدتهم على ذلك البيروقراطية المتحكمة في نظام العمل، والهبات والامتيازات الوهمية التي يُسكّتون بها بعض الإداريين الجهلة من المواطنين.

ذهبا أيضاً إلى النادي العلمي، وأعجب محمد بضخامة مبناه، وكثرة المختبرات فيه. لكنه صُعق عندما علم من مديره المصري أنه لا يعمل في هذا النادي إلا هو والمنسّقة الهندية التي تجلس في مكتب مجاور. ولما سأله عن الأنشطة التي يقومون بها، أخبره بأنه - أحياناً - يُقدّم بنفسه دورات في تشغيل الحاسوب.

عندما شاهد بدءا النادي العلمي عدل عن تقديم طلبه عندهم، فتوجهها إلى الجمعية الملكية لعلوم الفلك. أُعجِبَ بضخامة المبنى، فحفَّزه ذلك على ترك أوراقه مع المنسَّقة الهندية. انتهت جولتهما عند الظهيرة، فقفلا راجعَيْن إلى البلد.

في الأسبوع التالي ذهب مرة أخرى مع والده إلى وزارة الخدمة المدنية، وفي هذه المرة وجدا الموظف المختص باستلام طلبات التوظيف، ولكنه أخبرهما بأن إجراءات التوظيف موقوفة حاليًا. صُدِمَ محمد من هذا، فقال للموظف:

– ومتى سيتم فتحها مرة أخرى؟

ردَّ الموظف ببرود:

– لا أدري، ولكن راجعنا في الشهر القادم.

فسأله باستغراب:

– أنتظر شهرًا كاملًا؟ ألا يمكن مقابلة مدير شؤون الموظفين لأشرح له ظروفِي؟

– يمكنك ذلك، ولكنه لن يفيدك بشيء لأن هذا تعميم من معالي الوزير.

رأى أنه من الأفضل حفظ ماء وجهه، فعادا إلى البلد بخُفي حُين.

استغل فترة الانتظار لإعادة ترتيب أمور جماعة العمل التطوعي؛ فصار يلتقي بأساتذته وزملائه كل يوم، ووضعوا خططًا لتوسيع دائرة أنشطة الجماعة لتمتد إلى بعض المدارس الأخرى، وأيضًا لتكون لها أنشطة في القطاعات الأخرى كالنادي الرياضي والمكتبة العامة.

وعاد سالم

من ضمن الأنشطة التي اقترحها، وحظيت بمباركة أساتذته وأعضاء الجماعة الآخرين، تلك التي تهدف إلى الارتقاء بالمستوى العلمي والثقافي لأعضاء الجماعة خاصة، ولأفراد المجتمع عامة. اقترح أن تكون هناك دورات مكثفة لأعضاء الجماعة في المهارات المختلفة؛ كالقيادة وإدارة الوقت والجودة الشاملة. كذلك، اقترح إقامة أسبوع ثقافي يجمع بين مريدي الثقافة ومحبي العلم، وبين الشخصيات البارزة في المجتمع.

أما موضوع الزواج فقد شغل باله منذ عودته من أمريكا، وبما أن سالمًا- فيما يبدو- قد بدأ يعود إلى سابق عهده في علاقته به، لذا رأى أن الأجواء مهيئة لذلك. كانت أمه قد فتحت هذا الموضوع معه عندما عاد من العاصمة كئيبيًا متوترًا، وأخبرها بما جرى له. خاطبته قائلة:

- لماذا لا تفرِّ عينك وعيني بزوجة صالحة تسكن إليها؟

تلك الليلة فتح هذا الموضوع مع والده فأَيده هو الآخر.

في صبيحة يوم الجمعة ذهب مع والده إلى بيت سعيد، وعرف من زيارتهما أنها لموضوع الزواج. تذكَّر سعيد مواقف سالم حيال هذا الموضوع، فلم يشأ أن يعطيهم رأيه قبل استشارته. وما إن جلست الأسرة للغداء حتى فتح الموضوع، وتوجَّه مباشرة إلى سالم بقوله:

- هذا محمد قد تحرَّج، وشيماء في سنتها الأخيرة، وقد جاء محمد وأبوه

اليوم مرة أخرى لخطبة شيماء، فما تقول الآن؟

- أنا موافق.

ذُهل سعيد وعفراء من سرعة ردِّه، ولم يعرفا سبب هذا التغيُّر، ومع ذلك

علَّق سعيد:

– إذن، على بركة الله.

كانت شيماء تستمع إليهم وهي منكسة رأسها، وما إن سمعت ردَّ أبيها حتى ابتسمت ورفعت رأسها. فوجئ الجميع بسؤال عفراء:

– أليس لي أنا رأي؟

فردَّ سعيد:

– ظننتك موافقة؟

كانت عفراء قد زوّجت ابنتها هدى وسارة لموظفين «كبار» ويتقاضون رواتب عالية. كذلك، عندما جاء طلال لخطبة شيماء علمت من سالم أن لديه وظيفة مرموقة وراتبًا كبيرًا. لكل ذلك لم ترض بتزويج شيماء بشخص يقل عن مستوى زوجها ابنتها الأخرى.

صار الجميع يَحُلِقُ في وجهها وهم ينتظرون رأيها، وأما شيماء فصارت القلق والتوتر باديان على وجهها. تكلمت عفراء بعد فترة من الصمت:

– شيماء لم تتخرج بعد.

ما إن سمعتها ابنتها حتى زاد اضطرابها. تابعت عفراء:

– ثم إن محمدًا لم يتوظف إلى الآن، ولا أرضى بتزويج ابنتي لمن يعيش عائلة على أسرته.

بدا أن ما قالته عفراء منطقيًا، فوافقها سعيد وسالم، ولكن شيماء لم تُطِق سماع كلام أمها فوَّلت إلى غرفتها وهي تبكي. ما إن وصلت الأخبار إلى محمد، حتى أحسَّ بضيقٍ شديد، وتضامنت أسرته معه، حتى إن أمه عبَّرت عن ذلك بقولها:

– يبدو أنها بنتٌ منحوسة، فلماذا تصرُّ عليها وهناك الملايين ممن هو خيرٌ منها؟

ما إن سمع ذلك حتى اشتدَّ ضيقه، فردَّ عليها:

– لا يا أمي، لا تقولي ذلك، فبالنسبة لي ليس هناك مَنْ يعادل شيماء، وإذا كانوا يريدون مني الانتظار فسأنتظر.

أحسَّ بأن الأجواء في بيته وبيت شيماء متوترة، وحالته النفسية يرثي لها. لذا، جاءت فكرة الذهاب إلى مكة المكرمة لتأدية العمرة. أراد أن يسطحبه معه والديه وإخوته، ولكن الأولاد كانوا قد بدؤوا عامهم الدراسي، وأمه لا يمكنها ترك البيت دون بديل مأمون يراعي شؤونهم، ويوفر لهم احتياجاتهم.

استشار الأستاذ أسامة في الأمر فدلَّه على حملة يُسيِّرها أحد الدعاة المعروفين واسمه الشيخ مصطفى نادر. تواصل معه فعلم أن الحملة ستغادر بعد يومين، وستبقى في مكة أربعة أيام، ثم يعودون. كانت هذه المرة الثانية التي يذهب فيها إلى العمرة؛ فقد ذهب في السابق بصحبة ثلثة من الأساتذة والطلاب المتميزين عندما كان في الصف الحادي عشر في ثانوية خالد بن الوليد.

وجد في الشيخ مصطفى أنموذجًا رائعًا للشخصية المسلمة التي تجمع بين الاستقامة والعلم وسلامة الفكر وعلو الهمة في الدعوة إلى الله. اغتنم الرحلة لتقوية علاقته بالله – سبحانه وتعالى – وأيضًا للتفقه في الدين، وتعميق فهمه لأموال الدعوة. كان لا يفارق الشيخ مصطفى إلا في فترات النوم وبعض الفترات التي كان يختلي الشيخ فيها مع نفسه، أو يجتمع فيها بمعاونيه في الحملة. أثناء بقاءه في بيت الله الحرام اجتهد في الدعاء والتضرُّع إلى الله ليحلَّ له موضوع الزواج، وييسر له أمر الوظيفة.

عاد من العمرة بهمة عالية، ونفسية منسرحة، فكثف نشاطاته في جماعة العمل التطوعي؛ فقدّم بعضًا من الدورات المقترحة، واستعانوا ببعض الشخصيات المعروفة في المجتمع في تقديم الدورات الأخرى. وقد حظيت تلك الدورات بإقبال كبير من أعضاء الجماعة وغيرهم. كذلك، أوضحت استبانات التقييم، التي كانت توزع في نهاية كل دورة، رضى غالبية المشاركين عن مستوى الأداء والتحصيل لتلك الدورات، وطالب الكثيرون منهم بالمزيد منها.

استطاع من خلال هذه الدورات أن يخدم الجماعة من جانبيين: الأول، هو تحسين مستوى الأداء والتفاعل مع المجتمع بالنسبة لعامة أعضاء الجماعة، وخاصة الأساتذة منهم. أما الثاني، فكان من خلال إيجاد مدرّبين من الجماعة قادرين على تقديم مثل هذه الدورات لعامة أفراد المجتمع.

ورغم أن هذه الدورات قد استغرقت عدة أسابيع، واحتاجت إلى إعداد جيّد وترتيبات مكثفة من قبل أفراد الجماعة، وخاصة النشيطين منهم، إلا أن شعور الكثيرين داخلها وخارجها قد كان الرضا التام عنها، والتفاؤل الواسع بأن مستقبلها في خدمة المجتمع سيكون ذا أثرٍ فعال.

في الشهر التالي ذهب مرة أخرى مع أبيه إلى العاصمة. توجهها أولاً إلى وزارة الخدمة المدنية، وفي هذه المرة دخلا مباشرة على مدير شؤون الموظفين. عرّفه محمد بنفسه، وأخبره بأنه تخرج في تخصص علوم الفضاء من أمريكا. علّق المدير:

– ما شاء الله، هذا تخصصٌ فريدٌ ونادر. مبارك عليك التخرُّج، وعسى أن تكون عونًا لأهلك وللمملكة، ومن فضلك أعطني نسخة من سيرتك الذاتية وشهادتك، وبإذن الله سأحاول إرسال طلبك إلى أكثر من جهة.

وعاد سالم

شكر المدير على دماثة خلقه وحسن تعامله. لم يخبره بتسليم أوراقه من قبل للموظف المختص، وإنما تصنَّع وكأن شيئاً من ذلك لم يحدث، فسَلَّمه عدة مظاريف، وأخبره بأن كل واحد منها يحتوي على نسخة متكاملة من السيرة الذاتية والشهادات. ردَّ المدير وهو يبتسم:

- يبدو عليك أنك شخصٌ مرتب.

ابتسم وشكر المدير على إطرائه. طلب منه المدير أن يملأ استمارة طلب وظيفة، وأن يُسَلِّمه بعض الصور الشخصية وصورًا من جواز السفر. سلَّمه ما طلب، ثم سأله عن الإجراءات المتبعة في الوزارة. أخبره المدير بأنهم سيقومون بإرسال طلبه إلى الجهات التي لديها شواغر، وأن تلك الجهات قد تتصل به مباشرة، أو تُنَسِّق معهم.

سأله عن المدة التي عادةً ما تستغرقها هذه الطلبات، فأخبره بأنها تتفاوت بحسب الجهة، وبحسب مؤهلات الشخص؛ فالبعض قد لا ينتظر إلا أسبوع أو أسبوعين، وهناك من ينتظر سنة أو أكثر، ردَّ محمد:

- على كل حال، رقم هاتفي مُدَوَّن عندكم في الاستمارة، ومتى يصلكم ردُّ فاتصلوا بي.

خرجوا من وزارة الخدمة المدنية، فبادره والده قائلاً وهو لا يخفي سروره وتفاءله لمستقبل ولده:

- الحمد لله، يبدو أن أمورك ستسهَّل بإذن الله.

ردَّ وهو يبتسم:

- أتمنى من الله ذلك، وما هذا إلا بفضل الله ومته، ثم بفضل دعائكم لي

ووقوفكم بجاني.

- يا ولدي: إن الله لا يُضيع عمل عاملٍ، وأنت اجتهدتَ في دراستك،
وبإذن الله فهو لن يضيعَكَ.

ردّ بتواضع:

- ونعم بالله.

استغلَّ المشاعر الإيجابية لدى أعضاء جماعة العمل التطوعي فقام بوضع برنامج عملي يهدف إلى طرح العديد من الأنشطة التي تخدم المجتمع، والتي يقوم بها أعضاء الجماعة أنفسهم. وقد كان إقامة الأسبوع الثقافي لأول مرة في المدينة حدثًا ثقافيًا متميزًا، وشهد بذلك الكثير من شخصيات المجتمع، بالإضافة إلى التغطية الواسعة من العديد من وسائل الإعلام في المملكة.

استطاع من خلال الأسبوع الثقافي أن يُفعل أعضاء الجماعة وغيرهم من أفراد المجتمع، وذلك بإعداد خطة مدروسة وناجحة لإقامة فعاليات ثقافية على مدار أسبوع كامل. وقد ميّز هذا الحدث عن غيره ما كان فيه من الفقرات الفكرية والعلمية المتميّزة التي قامت الجماعة بدعوة شخصيات عربية وإسلامية بارزة من داخل المملكة وخارجها للمشاركة فيها.

استغلت الجماعة الإقبال الواسع على الأسبوع الثقافي، فقامت بطرح بعض الدورات المكثفة، التي هدفت إلى بناء الكثير من المهارات المفقودة لدى شريحة كبيرة من المثقفين في المجتمع. كذلك، قامت بطرح مسابقة علمية متميزة خلال أيام الأسبوع الثقافي، شهدت إقبالًا كبيرًا من كافة شرائح المجتمع، بما فيهم النساء والأطفال.

أما فيما يخصه شخصيًا، فهناك أمران مهمان قام بهما خلال فترة انتظاره للوظيفة. الأمر الأول هو قراره للحصول على رخصة قيادة، والذي حصل

على تأييد ودعم غير محدود من قبل أهله وأساتذته.

لم يكن خلال فترة دراسته في أمريكا بحاجة لقيادة السيارة؛ فممكنه قريباً من الجامعة، وزملاؤه في اتحاد الطلبة المسلمين كانوا يأخذونه في سياراتهم عندما تكون هناك حاجة للذهاب لأماكن بعيدة أو للتسوق. أما في المملكة، فقد رأى ضرورة الحصول على رخصة قيادة ليتسنى له التنقل إلى القرى والمدن المختلفة، وخاصة في أيام الدوام الرسمي التي يكون فيها والده وأساتذته وصديقه سالم منشغلين بوظائفهم.

أما عن تكاليف التدريب فقد أراد والده أن يدفعها عنه بأكملها، ولكنه أخبره بأن عنده ما فيه الكفاية من النقود. لقد كان يحصل من عمله في مركز سميثونيان على ألف دولار شهرياً، واستطاع أن يُوفّر غالبية. وكانت عاداته عندما يعود إلى المملكة أن يعطي والده خمسة آلاف دولار ووالدته ألفاً، ويصرف جزءاً منه في احتياجاته الشخصية أيام الإجازة، ويدّخر الباقي، وبذلك استطاع أن يُوفّر في فترة دراسته ما يزيد عن عشرة آلاف دولار.

تعاقد مع مدرب سباق، بحيث تكون فترة التدريب مكثفة؛ أي في الصباح والمساء، ولم يحتج إلا لأسبوعين للحصول على رخصة القيادة. وبعد حصوله عليها صار يستخدم سيارة والده في أحيان، وسيارات بعض أساتذته في أحيان أخرى. وبذلك تمكّن أن يذهب إلى القرى المجاورة في معظم أيام الأسبوع، ويُلقى المحاضرات والدورات، وأحياناً يقوم بزيارة الأشخاص الذين تعرّف عليهم من خلال الأسبوع الثقافي والأنشطة التي تقيمها الجماعة.

أما الأمر الآخر الذي كان يشغل باله بعد تخرّجه هو أنه كان يحلم أيام دراسته بالتعمّق في أمور دينه، وخاصة ما يتعلق بحفظ كتاب الله، والتفقه في الدعوة

الفصل الحادي عشر

إلى الله. لذا، وضع لنفسه برنامجًا مكثفًا يخدم هذا الجانب؛ فصار يستيقظ في الثالثة صباحًا، ويقضي تلك الفترة إلى صلاة الفجر في حفظ ومراجعة كتاب الله.

أما في الفترة بين صلاة الفجر إلى طلوع الشمس فكان يقضيها في المسجد في قراءة بعض كتب الدعوة، ويقوم بتلخيصها لغرض تقديمها مستقبلاً على شكل محاضرات أو دورات علمية. أما فترة ما قبل النوم فيقضيها في مراجعة ما قام بتلخيصه في ذلك اليوم، ومحاولة إضافة أفكار جديدة عليه. وكان يهدف إلى جمع تلك التلخيصات والإضافات وإخراجها على شكل كتاب يخدم الدعوة إلى الله.

الفصل الثاني عشر: دراسة ميدانية

استغل عودة الصداقة مع سالم؛ فصار يستشيرَه في الأمور المتعلقة بالوظيفة، وما يمكن القيام به من أجل تسريع فرصة الحصول عليها. وبحكم السنوات التي قضاها سالم في العمل، وبحكم تردُّده على المؤسسات المختلفة في العاصمة، أخذ يُوجِّهه للاتصال ببعض المؤسسات، ومعرفة ما إذا كانت عندهم فرصٌ للعمل. حاول أن لا يدخل مع سالم في نقاشات حول أمور الدعوة والعمل التطوعي؛ حيث رأى منه انصرافاً كبيراً عن هذا الجانب.

انقضت عدة أشهر، وكلما اتصل بجهة ما لمعرفة أين وصلت إجراءات توظيفه عندهم، كانوا يردُّون عليه بأن الإجراءات جارية، وأن عليه الانتظار والصبر. شعر بأن بقاءه في البلد واستخدام الهاتف للتواصل مع المؤسسات المختلفة قد لا يفيدُه في تسريع إجراءات توظيفه. ناقش هذا الأمر مع سالم، واقترح عليه أن يذهب إلى العاصمة ويبقى في شقته، بحيث يستغل فترة ذهابه للعمل في التردُّد على المؤسسات المختلفة.

بعد مناقشة هذا الأمر مع والده والأستاذ أسامة رأوا صواب ما اقترحه عليه سالم. كان والده يُدرك غلاء المعيشة في العاصمة، وحجم المصاريف التي على محمد أن ينفقها، ولذا ناوله صرة من النقود. حاول أن يُقنع والده بأنه ما

زال عنده ما يكفيه من النقود مما استطاع ادّخاره في أمريكا، ولكن أباه أبي إلا أن يأخذها.

في بداية الأسبوع التالي رافق سالمًا إلى العاصمة وأقام في شقته. وفي كل صباح كان يوصل سالمًا إلى عمله، ثم يبقى يتردد بين المؤسسات المختلفة، ولا يعود إلا بعد الظهر ليُعيد سالمًا إلى شقته بعد انتهاء عمله. استطاع من خلال زيارته للمؤسسات المختلفة التعرف عن قرب عن طبيعة عملها والقائمين عليها. وقد تبين له أمورٌ كثيرة كانت غائبة عنه. من هذه الأمور أنه وجد أن غالبية المواطنين الذين يعملون في تلك المؤسسات - رغم شهرتها وكثرة العاملين بها - هم في وظائف متدنية من حيث الراتب والإنتاجية.

ووجد أيضًا أن الكثيرين منهم لا يتقاضون من الرواتب إلا ما يعينهم على دفع نفقات الإقامة والمعيشة في العاصمة، وما يفيض عن ذلك فلا يكاد يغطي احتياجاتهم الخاصة. أما المساهمة في نفقات أسرهم أو الادخار للمستقبل فنادرًا ما كان موجودًا عند معظمهم. وقد اكتشف أن السبب الأول لهذه الظاهرة تدني المستوى التعليمي لهؤلاء؛ إذ إن أغلبهم كانوا من خريجي الثانويات، ولم تتح لهم فرصة الالتحاق بالكليات والجامعات بسبب تدني تحصيلهم العلمي في الثانوية.

أما الفئة القليلة الباقية التي استطاعت أن تصل إلى المرحلة الجامعية فقد حصلت على وظائف لا بأس بها، إلا أن غالبيتهم من ذوي الطموحات الواهية والاهتمامات المتواضعة. وقد وجد - من خلال استطلاع رأي بعض المسؤولين الوافدين في هذه المؤسسات - أنهم لا يتشجعون لتوظيف المواطنين نظرًا لعدم جدّيتهم في العمل، ولعدم رغبة الكثيرين منهم في الارتقاء بمستوياتهم ومستوى مؤسساتهم.

أحسَّ بأنَّ اللهَ - سبحانه وتعالى - قد هيا له فرصة التعرُّف على هذه المؤسسات ليُلفت نظره إلى المسؤولية الكبرى التي عليه القيام بها تجاه مجتمعه وأُمَّته. صارت هذه الزيارات فرصة له لدراسة الوضع الحالي للمجتمع، ولتحفيز الشباب على البذل والعطاء. حاول أيضًا أن يتعرف على الأشخاص الذين يمكن أن يكون لهم دورٌ رائد في خدمة المجتمع وإصلاحه. رَبَّ وقته بحيث يؤدي الصلوات المفروضة في مساجد مختلفة، وكان يُبكر في الوصول إليها بغية أن يتعرَّف على الناس الذين يتعشَّم فيهم الخير للإصلاح والإصلاح، وأيضًا لدراسة أحوال المساجد الموجودة في العاصمة من خلال اللوحات المعلَّقة فيها، وما يوضع بها من مقالات وإعلانات عن الدروس والمحاضرات.

كذلك، واطب على حضور العديد من الدروس والمحاضرات، واستغل الفرص للتعرف على المشائخ والدعاة والمصلحين، وكانت تلك اللقاءات فرصًا سانحة يسوقها الله إليه لبناء ثقافة واسعة عن المجتمع، ولإنماء فكره وتوسيع معارفه.

تعمَّد - أحيانًا - عدم أخذ سيارة سالم أثناء تردُّده في شوارع العاصمة، وإنما كان يركب سيارات الأجرة. وقد هدف من ذلك إلى التعرف على أحوال عامة الناس ومستوياتهم العلمية والثقافية والفكرية، وكان لا يركب واحدة من سيارات الأجرة إلا استطاع - بلباقة وحكمة - أن يفتح موضوعًا للنقاش.

اكتشف أن غالبية سائقي سيارات الأجرة، وكثيرًا من المتردِّدين عليها، يمكن تصنيفهم في طبقة الأمية المتعارف عليها، وشريحة كبيرة منهم عندهم من الأمية الدينية والفكرية ما لا يخفى على لبيب. ووجد أن غالبية هؤلاء لا

يهمهم ما يجري في المجتمع من أحداث، فضلاً عن أن تكون لهم اهتمامات بما يجري في العالم. أما القليل النادر ممن كانوا يشاركون في الحديث عما يجري في مجتمعاتهم، فقد كانت ثقافتهم حول تلك الأحداث وتصورهم لكيفية التعامل معها تنبئ عن فكرٍ سطحي، وساذجٍ في أحيانٍ كثيرة.

وعندما كان يلتقي بأولئك الأشخاص، ويستمع إلى تلك الحوارات، يفكر فيما يمكن أن يفعله لمساعدتهم، ومساعدة غيرهم من أفراد المجتمع. لقد وجد أن نطاق الدعوة إلى الله يجب أن لا ينحصر في المثقفين فقط، أو فيمن عندهم رغبة في التفاعل مع المجتمع فحسب، وأيقن أنه لا صلاح للمجتمع إلا بصلاح جميع أفرادِهِ.

ركب مرة في سيارة أجرة يقودها شاب اسمه صلاح خالد، كان قد أنهى الثانوية منذ أكثر من عام، ولا يزال يبحث عن وظيفة. وجد أن الشاب صاحب فكرٍ تحرري استنهاضي، وأُعجِبَ بشخصيته القوية، وأسلوبه الجريء، واطلاعه الواسع على مجريات الأحداث الذي أكسبه فهماً عميقاً للواقع والمجتمع.

صار محمد يركب معه يومياً، وأثناء مصاحبته له كثرت أحاديثهما حول تشخيص المجتمع، واكتشف منه حقائق مهمة كانت غائبة عنه عن المجتمع وما يعجُّ به من منظمات وتيارات فكرية وتحليلية تديرها أصابع خفية، وبتغطية وحماية من شخصيات معروفة.

وأثناء بقاءه في العاصمة تكررت لقاءاته مع صلاح، ووضع لنفسه برنامجاً لجذب هذا الشاب النبيه إلى صفِّ الدعوة، بعد أن وجد عنده الكثير من الانحرافات الفكرية والعقدية، والتي - بلا شك - أثَّرت على مستوى التزامه بالعبادات وخاصة الصلاة.

دراسة ميدانية

استطاع في البداية أن يبنى معه علاقة وطيدة دون التعرُّض إلى نقاط الضعف عنده. وبعد أن اطمأنَّ إلى رسوخ تلك العلاقة بينهما بدأ يستغل الأحداث والمواقف ليفتح معه حوارات يُذكره فيها بأمور دينه والتزاماته تجاه أمته. وبعون الله وتوفيقه بدأ صلاح يواظب على صلوات الجماعة، ثم تدريجيًّا أخذ يقرأ الكتب ويحضر معه بعض الدروس.

لقد كانت تجربته مع صلاح فريدة من نوعها؛ فقد اكتشف أن هذا الشاب، رغم بساطة مظهره وتدني مستواه الاجتماعي، غير أنه يحمل قلبًا كبيرًا يمكن أن يبنى أمة. وأخطر ما اكتشفه عنه هو استهدافه من قِبَل أصحاب التيارات الفكرية المنحرفة، ورؤاد التنصير الذين يمارسون طقوسهم وشعائرهم بسريَّة تامَّة، ويبحثون عن أمثال صلاح من الشباب السُّدج فيجتهدون في غرس المعتقدات والأفكار الفاسدة في أدمغتهم ليصيروا فيما بعد أدوات طوعية في أيديهم يُنفذون من خلالها إلى البقية من الشباب.

لقد ألمه هذا الحال كثيرًا لأن هناك الآلاف - بل الملايين - من أمثال صلاح الذين تم التغرير بهم، وصاروا معاول هدم لمجتمعاتهم وأمتهم، بدل أن يكونوا سواعد بناء وإصلاح.

لذا، رأى من الضروري أن يُغذِّي روحه وقلبه وعقله بما يعينه - بعد توفيق الله سبحانه وتعالى - على ممارسة الدعوة مع أمثال هؤلاء. ورأى ضرورة أن يكون لجماعة العمل التطوعي نشاطًا دعويًّا، وخاصة لحماية وتحصين أفرادها، وأيضًا لتدريب المخلصين من أعضائها على طرائق العمل الدعوي.

حفزته اللقاءات والحوارات التي حدثت بينه وبين الشيخ مصطفى نادر بعد رحلة العمرة، وكذلك مع غيره من الشباب الذين التقى بهم في العاصمة

لينحَوَّ بجماعة العمل التطوعي وغيرها من المؤسسات لتسعى للتعمُّق في فهم المجتمع وخدمة أفرادهِ فيما يُصلح أحوال دنياهم وأخراهم. وكان يستغل فترة عودته إلى القرية في إجازة نهاية الأسبوع ليلتقي بالأستاذ أسامة والشيخ مصطفى، ويتناقش معهما كيفية مواجهة مثل هذه التيارات، والسُّبُل الأنجع لاحتواء الشباب الذين تم التغيرير بهم، ووسائل حماية الباقين من أخطار المنصِّرين وأصحاب التيارات الضالة والمنحرفة.

اتفق مع الشيخ مصطفى على خطة دعوية يمارسانها معًا في العاصمة والمدن الأخرى، وتشمل البحث عن هؤلاء الشباب، ووضع برامج ناجحة لاحتوائهم ومحاولة التأثير عليهم. واستطاع الشيخ مصطفى الاستفادة من العديد من الدعاة الناجحين الذين ربَّاهم بنفسه، أو تعرَّف عليهم خلال رحلات الحج والعمرة.

أما فيما يخصُّ العمل الوظيفي فقد ذهب عدة مرات إلى وزارة الخدمة المدنية، وكان الموظف الذي استلم منه الأوراق أول مرة يستقبله بالبشر ويطمئنهُ بأن الإجراءات سارية، وأن عليه الانتظار. سأله عن الجهات التي أرسلوا طلبه إليها، فأخبره بأنهم - عادة - يرسلون الطلبات التي تصلهم إلى معظم الوزارات والجهات الحكومية، وأن الجهة التي ترغب في توظيف شخصٍ ما تردُّ على وزارة الخدمة المدنية لإكمال إجراءات توظيفه.

استغل سالم وجود صديقه معه ففتح معه موضوعًا لم يخطر على بال محمد من قبل. لم يلاحظ أيام الثانوية ولا في السنوات التي تلتها اهتمامًا - ولو من طرفٍ واحد - بين سالم وسمية. لذا، فعندما سأله سالم:

- ما رأيك في الزواج من سمية؟

دراسة ميدانية

لم يدرِ ما يقول. هل يوافق مباشرة بحكم صداقته السابقة وحاله معه الآن، أم يرفض عقاباً له على موافقه مع شيماء؟ لم ينسَ أيضاً أن توطيد العلاقة مع سالم وأسرته سيخدمه كثيراً في موضوع زواجه من شيماء. بقي صامتاً لا يدري ما يقول، ثم بعد فترة أجاب:

- سأطرح الأمر على أهلي وأردُّ عليك.

اختلى أولاً بأخته، فسألها عن شيماء، فأخبرته بأن معنوياتها ما زالت متأثرة بعد رفض أمها موضوع الزواج، فبادرها قائلاً:

- وأنتِ ما رأيكِ؟

ظنَّت أنه يقصد زواجه منها، فابتسمت ثم قالت:

- تسألني عن رأيي، وأنت تعلم أنني كنتُ وما زلتُ مع هذا الأمر؟
فعلقت مبتسماً:

- إذن على بركة الله.

ما إن سمعت كلماته ورأت ابتسامته حتى شكَّت في أنه ربَّب أمر زواجه مع سالم، فعلقت:

- الحمد لله، لقد استفدتَ من بقائك معه في العاصمة.

- يبدو أنه يُعزِّك كثيراً!!

صدمت بسماع هذه الكلمات منه، وبدأت تخامرها الشكوك في أنه يقصد زواجها بسالم، فبدأ اضطرابها، ثم ردَّت بحياء:

- وما دخلي أنا؟

ردًّا بابتسامة:

- أنتِ المعنية بهذا الموضوع!!

زاد اضطرابها، وبدأ الحياء يطغى على نظراتها ونبراتها، فعَلَّقت بتلعثم:

- ومَن قال لك إنني أريد الزواج الآن؟

عندما اجتمعت الأسرة للعشاء، افتتح الموضوع مع والديه، وعرف
الوالدان من سكوت سمية وتنكيس رأسها أنها لا تمانع. علَّق أبوها عندما لم
تُجِب على سؤاله عن رأيها في الموضوع:

- السكوت علامة الرضى.

حاولت خديجة أن تعترض وتأتي بحجج كتلك التي جاءت بها عفراء،
ولكن محمدًا أقنعها بأن عليها أن تكون قدوة لغيرها، وأن لا تُحكِّم عواطفها
على حساب الدين. وعندما فرغ محمد من حوارهِ مع أمه، علَّق خالد بابتسامة:

- حتى لو أنكم لم تسألوني عن رأيي غير أنني موافق، وبشدة.

ابتسم أبوه، ثم قال:

- ولماذا بشدة؟

أجاب خالد بضحكة ومرح:

- لأنه برحيلها سنستأثر بحبِّكما لنا!!

علَّقت أمه بابتسامة:

- يا لك من ولد خبيث!!

ضحكت أروى، ثم قالت:

- لكنني غير موافقة!!

فرفعت سمية رأسها قليلاً، ثم رمقتها بابتسامة. سألتها أبوها بابتسامة:

- ولماذا أنتِ غير موافقة؟

ردّت بضحكتها المألوفة:

- لأنني لن أجد بعدها من يقصُّ عليَّ حكايات قبل النوم.

ضحك الجميع، وتمتم محمد بحمد الله على هذه الألفة، ثم دعى في سرّه:

اللهم أدمها من نعمة.

طارت الأخبار إلى شيماء وأسرتها، وفرح الجميع، إلا أن عفراء تردّدت كثيراً؛ فمن ناحية هي تشكُّ في موافقة أسرة سمية على هذا الزواج بعد معارضتها هي لزواج محمد بشيماء. ومن ناحية أخرى، فهي لا ترى أن سمية ولا أسرتها يليقان بمقام ابنها، وهي تسعى لتزويج أولادها بأصحاب المناصب والأثرياء. لم يترك سالم لها مجالاً للرفض، فوافقت على مَضُص.

في صباح الجمعة ذهب سعيد وسالم لخطبة سمية، واستقبلهم عليٌّ ومحمد بالبشر، وافتتح سعيد الموضوع، ولم يجد منهما إلا الترحيب. احتاج سالم أسبوعاً لتجهيز نفسه لحفلة عقد القران وطباعة بطاقات الدعوة، وساعده محمد في ذلك. كذلك، تعاونت سمية وشيماء على طباعة وتوزيع بطاقات الدعوة للنساء. في صبيحة الجمعة التالية تم عقد القران في بيت سالم، وأقيمت الأفراح في البيتين.

تغيّر برنامج سالم اليومي كلياً؛ فصار يقضي معظم أوقاته إجازته الأسبوعية في بيت سمية، ويقضي الساعات الطوال في المساء طيلة أيام الأسبوع في

الفصل الثاني عشر

الحديث مع سمية على الهاتف. وجد محمد أن زواج أخته بسالم فرصة سانحة ليعاود خطبة شيماء، ولكنه فضّل تأجيل ذلك لحين توظيفه، واستلام أول راتب له.

ازدادت علاقة سمية بشيماء بعد عقد قرانها بسالم وتحوّلت أكثر أحاديثهما عندما يلتقيان عن سالم والزفاف، وأحياناً يناقشان معاناة محمد في الحصول على وظيفة. سألتها سمية مرة عندما كانت تخبرها عن العروض التي حصل عليها أخوها من أمريكا:

– هل ستسافري معه إن قرر العودة إلى أمريكا؟

– لا أدري، ولكن لو تم الزواج فلن أتركه يعاني من الغربة والبعد عني.

بعد انقضاء ما يزيد عن شهر من مقابلة مدير شؤون الموظفين، ذهب محمد مرة أخرى إلى وزارة الخدمة المدنية، فقابله الموظف في هذه المرة بالبشر، ثم بادره قائلاً:

– أنت محظوظ.

فردّ محمد بابتسامة:

– خيرٌ إن شاء الله؟

– لقد تم قبولك في وزارة البريد!!

تعجّب مما سمعه، فقال باستغراب:

– وزارة البريد!! وماذا عسى أن تكون وظيفتي هناك؟

أخبره الموظف بأنه إن كان يريد معرفة التفاصيل فعليه مقابلة مدير شؤون الموظفين عندهم، أو مقابلة مدير التوظيف في وزارة البريد.

فضّل الدخول على مدير شؤون الموظفين في الخدمة المدنية، فتوجه إلى مكتبه، وعرفه المدير مباشرة. سأله عن الردّ الذي وصلهم من وزارة البريد، فأكد المدير ما أخبره به الموظف، ثم قال:

- عليك الآن أن تذهب إليهم وتُكمل إجراءات التوظيف.
- ولكن، كما تعلم فإن تخصصي هو في علوم الفضاء، وماذا عسى أن أعمل في وزارة البريد؟

- كانت لديهم وظيفة شاغرة لفرز الطرود البريدية التي ترد إليهم من الدول الغير ناطقة باللغة العربية. وعندما رأوا أنك من خريجي أمريكا، وأنت من المتفوقين دراسياً، وجدوا أنك الشخص المناسب لها.

تعجّب من تصرّف وزارة البريد، وبدأت الدهشة واضحة على محياه، وقال بنبرة تنم عن تعجّب وتهكّم في الوقت نفسه:

- قضيت تلك السنين في دراسة علوم الفضاء، وفي النهاية أعمل في فرز طرودٍ بريدية؟!!

تعجّب المدير هو الآخر من ردّ محمد واستنكافه لهذه الوظيفة، فعلق:

- يبدو عليك يا عزيزي أنك لا تعرف عن شُحّ الوظائف عندنا، وخاصة بالنسبة للمواطنين. إن العاقل في هذا الوقت هو من يقتنص أية فرصة وظيفية تسنح له، وليس من الحكمة - فيما أرى - أن تشتت نوعية الوظيفة التي ترغب في الحصول عليها ولا جهة العمل.

ازداد تعجّبه أكثر، ولكنه لم يشأ أن يدخل مع المدير في محاورات، فقال:

- على كل حال، لكم وجهة نظركم في هذا الأمر. وماذا عليّ أن أفعل إذا

لم أرغب في هذه الوظيفة؟

- أخي العزيز: قبل أن أجيب على سؤالك، دعني أقدم لك نصيحة أخوية، وعساك أن تتقبلها مني كأخ وليس كمدير.

ردّ عليه بابتسامة:

- تفضل.

أسند المدير ظهره إلى كرسيه، وكأنه يستعد لجولة كلامية معه. تأوّه قليلاً، ثم قال:

- أخي العزيز: إن المملكة بشكل عام تعاني من أزمة في الوظائف، وخاصة بالنسبة للمواطنين. والجهات الحكومية - كما تعلم - تعاني من سُخِّ في مواردها وميزانياتها. ولذا، فهي لا تستطيع القيام بمشاريع كبيرة قادرة على استقطاب الشباب المتميّزين من خريجي الجامعات والمؤهلات العلمية العالية. من أجل هذا، فإن الوظائف التي تطرحها هي في نظر الكثيرين متواضعة، وفي الوقت نفسه رواتبها متدنية، وخاصة إذا ما قيست بما تعرضه الشركات والمؤسسات الخاصة. من هنا فإنّ توجه غالبية الشباب هو اقتناص أية فرصة وظيفية تسنح لهم، حتى وإن كانت دون مستوياتهم العلمية وطموحاتهم المستقبلية.

ابتسم محمد من كلام المدير، ثم علّق:

- ولكن تعلم أن هذا التوجّه لا يخدم البلد على المدى القريب، وهو قد يفضي إلى عواقب وخيمة - لا سمح الله - على المدى البعيد.

- هذا صحيح، ولكن - بحكم دراستك في أمريكا - تستطيع أن تستكّنه أسباب المشكلة وأبعادها، ونحن - كمسؤولين - نقف في بعض الأحيان عاجزين عن التصرّف حيالها.

أحسَّ بصدق مشاعر المدير ورغبته في الإصلاح رغم أن نفسه - فيما يبدو - ما زالت مقيدة بأغلال الواقع. لذا، علّق بنبرة تنمُّ عن حكمة وفهم للواقع، فقال:

- اعذرني يا أخي إذا قلتُ لك بأننا إذا تعاملنا مع واقعنا بهذه النظرة السلبية فإن أحوالنا ستزداد سوءاً. وأريد أن أذكر لك أمراً، وأرجو أن لا تنظر إليه على أنه زهوٌ وتفاخر. إني كنتُ أرى ما آلت إليه أحوال المملكة وغيرها من دول العالم من تردُّ في الأوضاع على جميع الأصعدة، ورأيتُ نفسي عاجزاً عن تغيير شيءٍ منها. لذا، فإني حاولتُ جاهداً أن أبني لِنفسي مكانة علمية تؤهلني لتغيير ما أستطيع عليه من أوضاع أمتي. وبحمد الله ومنتته قد وُفِّقْتُ لما كنتُ أصبو إليه، وحصلتُ على أعلى الدرجات في تخصصي. وإنك تراني الآن مجتهداً في الحصول على الوظيفة التي أستطيع من خلالها تغيير الواقع الذي وصفته لي.

أُعجب المدير بما سمعه من كلامه، فردَّ:

- إنه لو كان عند كل فردٍ من أبناء هذا الوطن ما عندك من فكرٍ نبيِّرٍ لتغيرت الأحوال بسرعة. لكن - كما قلتُ لك - لا نستطيع عمل شيءٍ خارجٍ عن الصلاحيات التي أنيطت بنا.

هنا شعر محمد بأنه لن يقدر أن يُغيِّر فكر هذا المدير في جلسة عابرة، ولذا أراد أن يختصر اللقاء معه، فقال:

- وأنا أيضًا، كما أخبرتك، لا أرغب في تلك الوظيفة، فماذا عليَّ القيام به

الآن؟

- من وجهة نظر نظام الخدمة المدنية فإنك الآن موظف في وزارة البريد!!
أخبره المدير بهذا وهو يُسند ظهره على كرسيه، ثم بدأ في تقليب صفحات ملفّ كان على طاولته، وكأنه يُشعره برغبته في إنهاء هذا الحوار. صُبعق محمد من هذا الردّ، فسأله متعجبًا:

- والحلّ؟!!

ردّ المدير ببرود:

- إن كنت لا ترغب في تلك الوظيفة فعليك أن تأتي لنا برسالة إخلاء طرف منهم، ليتسنى لنا مخاطبة جهات أخرى.
ردّ مستغربًا ومستنكرًا:

- كيف تعتبروني موظفًا في جهة لم أذهب إليها، ولست راغبًا في العمل فيها؟

- إن تقديمك لأوراقك عندنا يعني أنك قد خولتنا للبحث لك عن أية وظيفة، وأيضًا فإن ذلك يخوّل الجهة التي تصلها أوراقك لإكمال إجراءات توظيفك عندهم، سواءً كان بالتنسيق معك أو بدونه.
لم يصدق ما يسمعه، فسأله:

- ألا توجد طريقة أخرى من خلالكم أستطيع بها رفض تلك الوظيفة دون الحاجة للرجوع إلى وزارة البريد؟

- نحن غير مخوّلين لتوظيف أشخاص في جهات أخرى أو إقالتهم منها، والشخص الوحيد في وزارتنا المخوّل بذلك هو معالي الوزير.

رأى أن لا مناص من مقابلة الوزير، فشكره على حديثه معه، ثم استأذنه للخروج.

الفصل الثالث عشر: الغوص في الأعماق

منذ عودته من أمريكا بقي محمد على تواصل مع أساتذته وإخوته في اتحاد الطلبة المسلمين والمركز الإسلامي والشيخ علي أحمد إمام المسجد في واشنطن، وآخرين في مركز سميثونيان وميكروسوفت والمنظمات الطلابية المختلفة، وكان يُطلعهم على ما يستجد في موضوع الوظيفة. دارت بينه وبينهم حوارات ونقاشات عن الأوضاع في المملكة، وخاصة ما يتعلق بقطاع العمل. شجَّعه العديد منهم على العودة إلى أمريكا، والحصول على وظيفة هناك، وأغراه مركز سميثونيان وميكروسوفت بعروضٍ لم يحلم بها. أما أساتذته في الجامعة فشجَّعوه على مواصلة دراسته، وذكَّروه بالمنحة المجانية التي عرضتها عليه الجامعة من قبل. ناقش تلك العروض والاقتراحات مع أهله وأساتذته، فلم يشجعه أحدٌ على العودة إلى أمريكا، ونصحوه بالتحلِّي بالصبر والالتجاء إلى الله لتسهيل أموره.

بعد خروجه من مكتب مدير شؤون الموظفين توجه مباشرة إلى الطابق الرابع الذي فيه مكتب الوزير، ووجد أن كل شيء في ذلك الطابق يختلف عن الطوابق الأخرى؛ فالأبواب ضخمة ومُدَهَّبة، والكراسي والكنبات من النوع الراقي، والجدران مزينة باللوحات الزيتية الضخمة، والأرضية مفروشة بالسجاد الفاخر.

توجّه إلى مكتب منسّق الوزير، وكان متكئًا على كرسيه، رافعًا الجريدة بكلتا يديه، ومستغرقًا في تصفحها. ألقى نظرة خاطفة على الجرائد والمجلات المبعثرة على طاولته. كان من ضمنها بعض المجلات الخليعة مثل «زهرة الخليج» و «سيدتي»، فامتزجت بداخله مشاعر السُّخْط والكراهية لهذا الشخص وأمثاله، مع مشاعر الأسف والشفقة على ضياع نسبة كبيرة من شباب وفتيات هذا الجيل في المعجون والفسق، والذين لا همّ لهم إلا التجمُّل وتتبع الموضات وقصّات الشعر، والتي تلعب وسائل الإعلام دورًا كبيرًا في ترويجها وتزيينها لهم.

سلمّ عليه، فحرّك الجريدة قليلًا ليرى القادم، ثم خاطبه بنبرة توحى بالكبر وعدم الاحترام:

– مرحبًا، تفضل. أيّ خدمة؟

– أريد مقابلة معالي الوزير.

– هل عندك موعد؟

ردّ مندهشًا:

– لا، وهل أحتاج موعدًا لمقابلته؟

انبلجت شفتا المنسّق عن ابتسامة ساخرة به وبما قاله، ثم علّق:

– وهل كل من رغب في مقابلة معالي الوزير أمكنه ذلك؟ لماذا تريد

مقابلته؟

تضايق من الأسلوب الوقح الذي يخاطبه به المنسّق، فلم يشأ أن يصارحه

بما جاء به، فأجابته:

- عندي موضوع خاص أريد أن أكلمه فيه.

ردّ المنسّق بتكبير:

- لا يمكن أن أحجز لك موعدًا دون أن أعرف موضوع المقابلة، وإذا كان الأمر شخصيًا - كما تقول - فاذهب إلى بيته وقابله هناك!!

ازداد شططًا مما يسمع، ولكنه تمالك أعصابه وقال:

- قدّمت طلبًا لوظيفة فتم قبولي في وزارة البريد في وظيفة لا تناسبني، وأريد من معالي الوزير أن يخاطب وزارة البريد لإخلاء طرفي منها.

ردّ المنسّق بسرعة، وكأنه لم يمتنع بموضوع المقابلة:

- هذا الأمر من اختصاص مدير شؤون الموظفين، فاذهب إليه، وهو سيرتب الأمر لك.

بعدها، انشغل المنسّق بقراءة الجريدة. أحسّ أن هذا المنسّق لا يريد أن يقابل الوزير، ولذا فهو يحاول أن يصرفه بأيّ طريقة. ردّ عليه:

- أنا ما جئتُ إلى هنا إلا بتوجيه منه.

أزاح الجريدة قليلاً، ثم علّق بنبرة متعالية:

- لم يصلنا منه أيّ إيضاح بخصوص موضوعك، فاذهب إليه وأخبره بمخاطبتنا أولاً، وإن رأينا ضرورة لمقابلة معاليه، فسيخبرك هو بذلك.

ثم عاود القراءة في الجريدة. كاد أن ينفجر في وجهه، فردّ عليه بنبرة لا تخفي الغضب الذي بداخله:

- يا أخي: أنا لم آتِ إلى هنا لأتسوّل ولا لأطلب منك أو من غيرك أمراً خارجاً عن طبيعة عملكم. وإذا كنت تشكُّ في صدق ما حدثتك به فاتصل به واسأله عني.

أحسَّ المنسَّق بأن أسلوبه معه كان قاسياً، فوضع الجريدة على الطاولة ثم قال له، وكأنه يعتذر عن أسلوبه الوقح:

– كان من المفترض منه أن ينسق معنا أولاً قبل أن يبعثك إلينا. لكن، سأتصل به.

رفع السماعه، وبدأ يتكلم بصوتٍ خافت لم يسمعه محمد. في تلك الأثناء حدَّق ببصره في المنسَّق، وأثاره طريقة لباسه وتصفيف شعره، وكأنه واحدٌ من الشباب الخليعيين الذين يعجُّ بهم المجتمع، وآلمه كثيراً أن يجد هؤلاء البيئة المناسبة لممارسة خلاتهم في الدوائر الحكومية دون رقابة. حوّل بصره إلى المكتب الفخم وما به من أثاث وستائر ولوحات، فاستاء كثيراً أن تُهدر أموال الدولة في المظاهر والبذخ، في الوقت الذي يُعلنون فيه للمواطنين بأن الدولة تمرُّ بحالة تقشُّف.

رجع بذاكرته إلى جامعة هارفارد يوم أن لَبَّى دعوةً من رئيس الجامعة وصلته عن طريق رئيس قسم علوم الفضاء. رغم أن هذا الرجل يُعدُّ بمقاييسنا – بمرتبة وزير، ورغم مكانته العلمية والأكاديمية، إلا أنه ما إن قَدِم إلى مكتبه حتى استقبلته منسقته بابتسامة، وطلبت منه الجلوس للحظات دخلت أثناءها لتستأذن له في الدخول. فوجئ حينها برئيس الجامعة يخرج من مكتبه ليلتقاه. دخل مكتبه المتواضع الذي تُزَيَّن إحدى جدرانه مكتبة فخمة، وتوجد بعض اللوحات لمشاهير وعلماء. لم يبق إلا على صوت المنسَّق وهو يقول له:

– متى تريد أن تقابل معاليه؟

فردَّ بسرعة:

- إذا كان بالإمكان مقابلته الآن فيكون جيّدًا، وإلا ففي أقرب وقت.

ابتسم المنسّق وردّ بتهكّم:

- اليوم؟! يبدو أنك لا تعلم عن انشغالات معاليه. إن معاليه مشغول طيلة

هذا الأسبوع.

قاطعته بسرعة:

- إذن، ففي الأسبوع القادم؟

قال المنسّق بابتسامته الساخرة، وكأنه يحاول مرة ثانية أن يصرفه عن مقابلة

الوزير:

- في الأسبوع القادم سيسافر معاليه إلى الخارج في مهمة رسمية، ثم يعود

معاليه إلى مكتبه لإنجاز بعض الأعمال، وبعدها سيأخذ معاليه إجازة لمدة

أسبوعين. هذا يعني أن أقرب موعد لمقابلة معاليه سيكون بعد حوالي شهرٍ

من الآن.

رأى أن الدخول مع المنسّق في مجادلات قد تُفوّت عليه فرصة مقابلة

الوزير، فردّ بامتعاض:

- لا بأس. احجز لي موعدًا بعد رجوعه من الإجازة.

قال المنسّق بأسلوب ينمُّ عن زهوٍ، وكأنه قد انتصر على خصمه:

- مواعيد المقابلات مع معاليه تبدأ في التاسعة والنصف صباحًا وتنتهي في

الواحدة ظهرًا، فمتى ترغب أن أحجز لك؟

فردّ بسرعة:

- في التاسعة والنصف.

فتح المنسَّق سجلاً ملقياً على طاولته، وبدأ يُدوّن فيه الموعد، وبعد أن انتهى قال:

– إذن، موعدك في مثل هذا اليوم من الشهر القادم.

– بإذن الله.

– يجب أن لا تتأخر عن الموعد، وإلا فقد لا تتأتى لك فرصة أخرى لمقابلته.

فردَّ بسرعة وثقة:

– لن أتأخر بإذن الله.

زاد المنسَّق، وكأنه لا يريد أن يخرج من عنده إلا وهو مهموم مغموم:

– ولا تنس أن تحضر معك أوراقك.

فردَّ عليه بامتعاض:

– سأفعل بإذن الله.

شكره بتثاقل، ثم توجه صوب المصعد وحالته النفسية مما عاناه في ذلك اليوم لا يُحسد عليها. كان المصعد ينزل ببطء أحسَّ أثناءه بنزول معنوياته، حتى ما كاد المصعد يصل إلى الطابق الأرضي إلا وأحسَّ أن رجله لا تكادان تحملاه. كان من عادته أن يواصل تنقله بين الوزارات والمؤسسات الأخرى إلى أن يحين وقت صلاة الظهر. لكنه هذه المرة توجه مباشرة إلى شقة سالم، واستلقى على سريره.

أخذ يسترجع المواقف التي مرَّ بها في وزارة الخدمة المدنية، ثم خاطب نفسه بنبرة يخالطها الضحك:

– إذا كانت هذه هي البداية، فماذا عسى أن تكون النهاية؟ أليس من المفترض

أن يعاملونا باحترام؟ نحن لا نطلب منهم شيئاً غير حقوقنا كمواطنين. لماذا

يحاولون امتهاننا؟ أليسو هم في الشرع والقانون مجرد عمّال مستأجرين
لخدمة الرعية؟

بقي يصبُّ على نفسه هذه التساؤلات التي لم يجد لها جوابًا. أحسَّ
بالتشاؤم مما يمكن أن يصيبه أو يجنيه من هؤلاء. لكنه كان واثقًا من أن الله
معه ولن يضيعه، فاسترجع واستغفر الله، ثم قال:
- ستكون النهاية خيرًا بإذن الله.

أغمض عينيه ولم ينتبه إلا على أذان الظهر. قام بسرعة وتوضأ، ثم توجه
إلى المسجد وصلى الظهر، وبعدها ذهب ليحضر سالمًا من عمله. عندما رأى
سالم التغيير في وجه محمد، قال له:
- ماذا جرى؟ يبدو عليك الإرهاق.

لم يشأ أن يزعجه بأخباره، فردَّ:
- نمت قليلًا قبل الصلاة، ويبدو أنني لم أُنم بما فيه الكفاية.
- ولكن ليس من عادتك أن تنام قبل الصلاة. لا بُدَّ أنه حدث لك شيءٌ
أزعجك فلجأت إلى النوم.
ردَّ باختصار:

- حدث لي موقف أزعجني قليلًا.
ثم حاول أن يُداري ما يشعر به، فابتسم وقال:
- لا بُدَّ أن نمرَّ أحيانًا بمثل هذه المواقف المزعجة، فلا تفكر فيه.
حاول أن يصرف الحديث إلى شيءٍ آخر، فتابع بسرعة:

- في أيّ مطعم تريدنا أن نتناول غداءنا؟

لكن سالمًا ما زال يشعر أن هناك ثمة أمرٍ مهم قد حدث لصديقه، وهو في نظره أهم من الغداء، فقال له:

- يمكننا الغداء في أيّ مطعم ترغب فيه، ولكن ما زلتُ أنتظرُك لتخبرني بما جرى.

بدأ محمد يقود السيارة بحثًا عن مطعم مناسب، وحاول مرة أخرى أن يلتفت على سؤال سالم، فقال:

- أخبرتك بأن الأمر هينٌ ولا داعي لقلقك.

وفجأة شاهد مطعمًا للمأكولات البحرية، فاستغلها فرصة لتغيير الحديث، فقال:

- ما رأيك أن نذهب إلى هذا المطعم، فإني أشتهي تناول طبق (المأكولات البحرية المشكّلة)، فما رأيك؟

ردّ سالم باقتضاب:

- جيّد.

عندما وصلا إلى المطعم بادره سالم قائلاً:

- لماذا لا تريد أن تخبرني بما جرى لك؟

أحسّ بأنه لن يتركه حتى يخبره بالتفاصيل، فبدأ يقصُّ عليه، وسالم يلتزم السكوت ولم يعلّق على كلامه حتى انتهى، فابتسم وقال:

- عرفتُ الآن سرَّ انزعاجك، ولكن يا عزيزي ما حدث لك اليوم، رغم مرارته وأثره النفسي عليك، ليس بالأمر الغريب، وإنما يحدث لمعظم الناس، والناس قد تأقلموا عليه.

- ولكن، ألا يمكن استخدام أسلوب آخر غير أسلوب المراوغة والتهكُّم والسخرية؟

قال سالم، وكأنه يحاول التخفيف من معاناة صديقه:

- أنت امرؤٌ نشأتَ على القيم والمبادئ، وتحاول جاهداً أن لا تجرح مشاعر أحد. لكن هناك من الناس مَنْ يرى أن احتراف الأعمال لا يكون إلا بتمريغ أنوف الناس، وجعلهم يركعون لهم، وهو أسلوبٌ - رغم خطئه - إلا أنه - بالنسبة لهؤلاء - فإنه يحقق لهم الاحتفاظ بوظائفهم ويبني لهم - كما يتصوِّرون - مكانة مرموقة في دوائرهم.

قال محمد، وقد جاء النادل ليأخذ طلباتهم للغداء:

- صدقتَ. أنا الضعيف المحتاج بينهم، فليس بمقدوري إلا التأقلم مع هذه الأساليب والانصياع لطلباتهم لحين أن يُفَرِّجَ اللهُ هذا الأمر ويوفقني للوظيفة التي أطمح فيها.

ردَّ سالم، محاولاً قطع الحديث لحين تناول الغداء:

- ياذن الله.

انشغلا بتناول الغداء، ولكن صوت التلفاز شدَّ انتباه محمد. كان المذيع يتحدث عن الإنجازات التي تحققت على أرض المملكة، ولحسن حظه أنه كان مقابلاً للشاشة. صار يرفع اللقمة إلى فيه، ثم تبقى معلّقة في يده وهو يُصغي إلى ما يقوله المذيع. شدَّ المنظر انتباه سالم، فقال:

- مالك؟

- ألا تسمع؟! إنهم يتباهون بالمنجزات التي - حسب ما يزعمون - تحققت

سعادة المواطن، وتكفل له كرامته. أيُّ سعادة، وأيُّ كرامة هذه التي يتبجحون بها؟!!

ابتسم سالم، ثم قال:

- أخالك لم تشاهد التلفاز منذ سنوات؟

أحسَّ محمد بإحراج؛ فهو حقاً لم يجلس أمام تلفاز المملكة منذ تخرجه من الثانوية. ردَّ بارتباك:

- وما الغريب في ذلك؟

- لأنك لو تابعت التلفاز لتعودتَ على هذه البرامج؛ فهي تُبثُّ ليل نهار، وفي كل يوم.

- ولكن كيف يصدق الناس هذه الأكاذيب؟!!

- إنهم لا يصدقونها، وفي الوقت نفسه لا يستطيعون فعل شيء حيالها.

استمرَّ يتجاذبان الحديث إلى أن فرغا من الغداء. وعندما عادا إلى السيارة، كان في نفس سالم رغبة في التعليق على بعض ما جرى لمحمد في وزارة الخدمة المدنية، فبادره قائلاً:

- اسمح لي في تعليقٍ بسيطٍ بخصوص الوظيفة التي حصلتَ عليها من وزارة البريد.

فردَّ بأدب:

- تفضل.

استطرد سالم في الحديث وهو يتكئ على كرسيه، بينما محمد يقود السيارة صوب شقته. قال سالم:

- إني أعلم أنك قضيتَ عدة سنوات في دراسة علوم الفضاء، وأنت تطمح للحصول على وظيفة في ذلك التخصص.

قاطعها قائلاً، وكأنه يؤكد له أنه ما زال على ذلك:

- فعلاً.

واصل سالم حديثه:

- لكن تعلم أيضاً أن أوضاع المملكة - كما أخبرك بذلك مدير التوظيف - لا تسرُّ، فالأحوال الاقتصادية متردية، والوزارات والهيئات تعاني من شح كبير في مواردها، ولذا قلَّت الفرص الوظيفية، ونتج عن ذلك سوق سوداء للحصول على الوظائف من خلال الرشاوى والمحسوبيات. وإني أريد أن أؤكد لك بأنه لولا أنك تخرجت من أمريكا، وتفوقت في دراستك، لما حصلت على تلك الوظيفة من وزارة البريد.

- إنك تعلم أنني قد حصلت على عروض كثيرة في أمريكا، وأني تركت تلك الإغراءات وفضلتُ المجيء إلى بلدي، فلا أقل من أن يكافؤوني بوظيفة تناسب تخصصي وتوجهاتي.

ابتسم سالم، ثم قال:

- ليس هنا من يُعير التخصص والتميز اهتماماً حتى تجد من يكافؤك عليها. إني أقول لك، وهذه نصيحة مني كأخ وصديق، بأنك إن كنت حقاً تريد البقاء في المملكة، فعليك أن تقبل أية فرصة تسنح لك، وإني أقترح أن تذهب إلى وزارة البريد، وتُنهي إجراءات التوظيف عندهم.

اشطاط محمد غضباً مما سمعه من سالم، فردَّ عليه:

– ماذا؟ أتريدني أن أفضي حياتي في فرز طرودٍ بريدية؟!
– وماذا في ذلك؟! إن هناك مَنْ يكتسون الشوارع ويجمعون النفايات من المزابل.

ازداد غضبه، فقال:

– إذن، خيرٌ لي أن أقوم أنا أيضًا بذلك.

حاول سالم أن يُهدّئه، فقال:

– يا عزيزي: عليك أن تفرّق بين أمرين: هناك وظيفة لكسب لقمة العيش، وهناك تخصص ومبادئ وطموحات يمكنك أن تمارسها متى شئت وكيفما شئت.

ردّ عليه ونبرة الغضب ما زالت بادية في صوته:

– وأنا أريد أن أمارس مبادئ وطموحاتي من خلال وظيفتي وليس خارجًا عنها.

– إنك ترى أن توجه المملكة هو ليس للارتقاء بمستويات الناس ومنافسة الأمم والشعوب – كما يتبجّحون في قنواتهم وصحفهم – بقدر ما هو توفير ما يسدُّ رمق المواطنين ويكفل لهم العيش والبقاء، وإنني أرى أن تبدأ العمل في تلك الوظيفة، ثم بعد ذلك ترى ما يحين لك من فرص لتحقيق ما تحلم به.

– إنني لو فعلتُ ذلك فسيعني ارتكاسة مميتة قد لا أستطيع الفواق منها إلا وأنا على حافة القبر!!

شغلت بال سالم فكرة جديدة، فقال:

– جاءني فكرة جميلة، وأظنها ناجحة.

- ما هي؟

- لماذا لا تُكَلِّم أحدًا يشفع لك مع مدير التوظيف، أو حتى مع وزير الخدمة المدنية؟

رغم أنه لا تعجبه هذه الأساليب، التي يعتبرها قدرة، إلا أنه أراد أن يستكنه ما بجعبة سالم، فقال:

- مثل مَنْ؟

- هناك الكثيرون ممن تعرفهم أنت أو والدك أو الأستاذ أسامة.

ثم فجأة انتبه إلى أمرٍ، فقال بعجلة:

- صحيح، لماذا لا تطلب من الأستاذ أسامة أن يكلم الدكتور إياد محفوظ - رئيس جامعة البيان -؟

سأله بتغابٍ:

- وهل ترى الدكتور إياد يرضى بذلك؟ وهل تظنه يقدر على إقناع الوزير؟ هزَّ سالم رأسه مؤكِّدًا، ثم قال:

- فلنجرب.

كان يغلي بداخله وهو يسمع ما تمليه أفكار سالم، ثم لم يُطِق مواصلة الحديث، فانفجر في وجهه:

- حسبتك عاقلًا يا سالم!!

- وما العيب فيما قلته؟ هذا أمرٌ يفعله كل الناس.

- لا تقل كل الناس؛ فهناك من الشرفاء من لا تعجبهم هذه الأساليب القدرة.

- ولماذا تسميها قدرة؟ أليست الوظيفة حقُّك؟ إذن، فلماذا تسمي وسيلة الحصول عليها قدرة؟
علّق محمد بهدوء:

- يا أخي، إن ديننا يقول لنا: الغاية لا تبرر الوسيلة، واستجداء الناس أعتبره نذالة، ثم إن في هذه الطرق حرمانٌ للمستحقين ومكافأة لغير المستحقين، وفيها غمطٌ لحقوق الناس، وفيها إشاعة للفساد.
كان الاثنان قد قاربا الوصول إلى الشقة، فأراد سالم أن يقطع الحديث في هذا الموضوع، فقال:

- في نهاية الأمر القرار بيدك، وما قلته أنا وما قاله مدير التوظيف لا يعدو كونه محاولة لتبصيرك بالواقع.
- أشكر لك هذا، وعليّ أن أفكر في الأمر، وعندي الآن الخيار في قبول الوظيفة أو رفضها.

- وماذا تنوي الآن؟

- أرى أنه لا داعي للبقاء في العاصمة؛ فقد تردّدتُ على المؤسسات والهيئات بما فيه الكفاية، وسأعود- بإذن الله- غدًا إلى البلد، ثم أعود إلى العاصمة في وقتٍ لاحقٍ إما للوظيفة أو لمقابلة الوزير.

- شقتي وسيارتي طوع أمرك، وقد آتستني ببقائك معي.

- أشكر لك ما قدمته لي، وأسأل الله أن يعينني على ردّ الجميل لك.

- العفو يا عزيزي، فأنا لم أفعل شيئًا فوق ما يمليه الواجب عليّ.

في صباح الغد طلب من سالم أن يوصله إلى جمعية علوم الفلك. وعندما دخلها وجد في الاستقبال الفتاة الهندية، فتحدّث معها باللغة الإنجليزية،

الغوص في الأعماق

وأخبرها بأنه قدّم منذ حوالي شهرين طلباً للحصول على وظيفة، ولكنه لم يصله أي رد. أخبرته الفتاة بأنه يمكنه الحديث مع مدير الجمعية، وأرشدته إلى مكتبه.

عندما دخل إلى مكتب المدير فوجئ بوجود أحد الوافدين من الدول العربية. سلّم عليه ثم أخبره بأنه جاء لتقديم طلب للحصول على وظيفة. ردّ عليه المدير فوراً دون أن يسأله عمّن يكون ولا عن طبيعة الوظيفة التي يريدها، فقال:

- للأسف، لا يوجد عندنا شاغرٌ.

تعجّب من هذا الردّ؛ فقد رأى الجمعية شبه فارغة من الموظفين، فسأله:

- وهل عندكم من الموظفين ما يكفي لتسيير أمور الجمعية؟

ابتسم المدير، ثم قال:

- نعم، أظن يوجد عندنا ما فيه الكفاية؛ فكما ترى أنا موجود، وعندنا

منسقة، وكفى!!

ابتسم محمد مندهشاً، ثم قال:

- أتعني أنه لا يوجد في الجمعية إلا أنت والمنسقة؟

حرك المدير رأسه بالإيجاب وهو يبتسم، وكأنه يسخر من وضع الجمعية.

ازدادت دهشته، فعلق باستغراب:

- كل هذا المبنى الضخم، ولا يعمل فيه إلا اثنان؟ لا بُدَّ أنكما تعانيان من

زحمة الأعمال؟

ابتسم المدير وهو يرفع جريدة كان يقرأها، ثم قال:

- أية أعمال؟! الجمعية شبه ميتة، وليس عندنا أية أنشطة، ولا نقوم بأية أعمال سوى استقبال من يأتي لزيارة الجمعية، والإجابة على تساؤلاتهم، والتي غالبًا ما تكون مثل أسئلتك!!

ظن أن الجمعية ينقصها الكادر الذي يستطيع تفعيلها، فجال بذهنه ما بإمكانه أن يصنعه لو تولى زمام هذه الجمعية، فقال للمدير مازحًا وهو يبتسم:
- ولماذا لا توظفوني أنا، وبإذن الله سأجعل من الجمعية حديث المجالس ووسائل الإعلام؟

لم يكن جواب محمد بغريب على هذا الرجل؛ فقد جاءه الكثيرون - كما ذكر - ممن يبحثون عن عمل، ولا شك أنهم يريدون أن يُظهروا أنفسهم بقدرات خارقة فوق ما يمتلكه هو. لذا، كان جوابه له فيه شيءٌ من السخرية:

- إذا كنتَ تريد أن تتطوَّع بالعمل لدينا فالمكاتب متوفرة، وأما كوظيفة فليس للجمعية ميزانية حتى تستطيع توظيف أشخاص!!
سأله بتعجب:

- ليس للجمعية ميزانية؟!!

- نعم يا ابني، كل ميزانية الجمعية هي لتسديد راتبي وراتب المنسّقة وشراء بعض المواد المكتبية البسيطة.
فعلّق مازحًا:

- لا بُدَّ أن رواتبكم عالية جدًّا، بحيث لا يبقى من ميزانية الجمعية شيء
ابتسم المدير، ثم قال:

- نعم، رواتبنا والحمد لله عالية جدًّا، فهي بالكاد تفي بمصاريف السكن والإعاشة.

الغوص في الأعماق

سادت لحظة من الصمت مشوبة بتأوهٍ داخلي وحسرة على ما تم إهداره في هذا المبنى الضخم. خاطب نفسه:

- إذن، لماذا تم بناء هذا المبنى الضخم؟ لماذا هذه التجهيزات؟ لمصلحة مَنْ تم إنفاق كل هذه المبالغ إذا كان المبنى لا يُقدِّم الرسالة المنوطة به، أو المفترض أن تناط به؟

ثم جال في نفسه خاطرٌ غريب:

- لا بُدَّ أن هذا المبنى هو كغيره من المباني الحكومية التي تستنزف خزينة الدولة لإنعاش شركات المقاولات والتأثيث والتوريد التي - عادة - تتقاسم المناقصات التي تطرحها الدولة، والتي في حقيقتها ملكٌ لأصحاب النفوذ في الدولة.

شعر بإحباط شديد؛ فقد كان يتعشَّم أن تكون هذه الجمعية منارة إشعاع للنهوض بجانب مهم، وفي حقيقته مُهمَل، من جوانب الرقي العلمي والحضاري للدولة. كان يحمل أملاً كبيراً للعمل في هذه الجمعية، نظراً لتوافق طبيعة عملها مع تخصصه. لكنه - في الوقت نفسه - لا يستطيع العمل بدون راتب؛ فهو بحاجة لتغطية مصاريفه الخاصة ومصاريف أسرته.

خاطب المدير بنوعٍ من الاستلطاف:

- اعذرني يا سيدي. لماذا لا تطالبون بميزانية أكبر تتيح لكم تفعيل الجمعية؟
- يا ولدي: سأصارك بأمرٍ لا يعلمه غالبية الناس، ولولا أنني أراك صادقاً في رغبتك للعمل، وحرصك على الارتقاء بهذه الجمعية لما أخبرتك بهذا. يا ابني: المملكة تمرُّ منذ سنوات بأزمة مالية خانقة، ولذا صدر مرسوم ملكي منذ

عدة سنوات بتجميد أنشطة الجمعية. وبطبيعة الحال، فقد صاحب ذلك أيضًا تقليص ميزانيتها بحيث تبقى بين الحياة والموت!!

كانت هذه المعلومة صدمة كبيرة لمحمد؛ فما يُشاع في التلفاز والصحف غير ذلك. وأيضًا، فقد قرأ عن أحوال المملكة في بعض التقارير التي تصدرها صحف دولية معروفة، ولم تذكر عن أزمة مالية تعاني منها المملكة. أراد أن ييوح للمدير بهذه الخواطر، ولكنه تعلّم من الأستاذ أسامة أن لا يثق بأيّ إنسان قبل أن يعاشره لفترة ليتأكد من صفاء سريرته. قال للمدير:

- كنتُ أتعشّم العمل في هذه الجمعية، ولكن فيما يبدو لا أمل من ذلك.

ابتسم المدير، ثم قال معذرًا:

- نحن ننتظر الفرج مما تمرُّ به المملكة، وأنا أحتفظ بالطلبات التي تصلني، ومتى سنحت الفرصة للتوظيف فستكون من أوائل من نتصل بهم.

- أشكرك يا سيدي، وأعتذر عن أخذ الكثير من وقتك.

ابتسم المدير، ثم قال:

- على العكس، فأنت قد آنستني وسلّيت عني الكثير مما أجد من فراغٍ

وملّل.

عندما عاد إلى بلده بدأ يقصُّ على والديه ما جرى له من أحداث في ذلك الأسبوع. وقد كانت نصيحة والديه بأن لا يقبل وظيفة وزارة البريد إذا كان يشعر بعدم رغبته فيها. كذلك فإنهما شجعا على انتظار موعد مقابلة وزير الخدمة المدنية، فلعله من خلالها يستطيع التحدّث معه حول مؤهلاته العلمية ورغبته في خدمة بلده، وقد يستطيع الوزير تدبير وظيفة مناسبة له.

الغوص في الأعماق

في اليوم التالي ذهب لزيارة الأستاذ أسامة، وأخبره بما جرى له، وكان ردُّه شبيهاً برد والديه. لذا وطَّن نفسه على رفض وظيفة وزارة البريد، وأيضاً على انتظار مقابلة وزير الخدمة المدنية. أثاره تعليق الأستاذ أسامة حول ما قاله مدير الجمعية الفلكية من التَّشْفُّف في الميزانية التي تمرُّ بها المملكة. قال الأستاذ أسامة:

- يا ابني، لقد صرَّت الآن ناضج العقل، قادرًا على استيعاب ما سأقوله لك. اختلطت مشاعر محمد بين السعادة من ثقة أستاذه به، وبين التأهب لما سيقوله له؛ فهو يعلم أن مثل هذه المقدمات منه لا تكون إلا لأمرٍ ذي أهمية بالغة. بدأ الأستاذ حديثه:

- المملكة - كغيرها من بلدان المسلمين - هي بمثابة إقطاعية ضخمة يمتلكها الحاكم، ويشاركه في إدارتها بعض الأمراء والوزراء وأصحاب النفوذ الذين يثق بهم.

كان يستمع إلى هذه الكلمات وهو في سعادة لا توصف؛ فمنطق الدراية والعلم الذي يمتلكه الأستاذ أسامة مع ما يخالطه من حكمة في تشخيص الوقائع والأحوال يجعل كل لحظة من هذه اللحظات كنزاً علمياً وفكرياً قلما يحصل عليه المرء من مصادر أخرى.

ما كان يثير العَجَب في نفسه هو وصف أستاذه لبلدان الإسلام بالإقطاعيات، والتي - حسب فهمه - تباع وتشتري وتُورَث. عليه أن لا يستبق الأحداث. هزَّ رأسه بابتسامة لطيفة موافقاً لكلام أستاذه، وكأنه يطالبه بمواصلة الحديث. واصل الأستاذ حديثه:

– والحكام لا يرون لشعوبهم أيَّ حقٍّ في هذه الإقطاعات، وإنما هم مجرد حشود من الخدم يُسخَّرون من قِبَل الحاكم لتسيير أمور إقطاعيته كيفما شاء هو، ويكفيهم من العيش ما يسدُّ رمقهم.

كان يتابع الحديث بتلهُّفٍ كبير، ومع ذلك فقد جالت في داخله بعض الشكوك لمصادقية كلام أستاذه، فخاطب نفسه:

– لو كان الأمر كما يقول الأستاذ أسامة، فلماذا إذن تقوم الحكومات بعملية واسعة للإعمار وتوفير الخدمات؟

جاءت الإجابة سريعة؛ حيث تابع الأستاذ حديثه قائلاً:

– والحكام يدركون أنهم مغتصبون لحقوق شعوبهم، ويعلمون أن الشعوب تدرك ما يقومون به من سرقة لثروات بلدانهم، ولذا فهم يتظاهرون أمامهم بالنزاهة والشفافية، ويلعب الإعلام دورًا كبيرًا في تلميع صورة الحاكم أمام شعبه.

همس في نفسه:

– فعلاً، هذا ما يحدث.

واصل الأستاذ حديثه:

– ولو قارنا حجم ما يقدمه الحاكم لشعبه، بما يقوم به هو وبطانته من سرقات وانتهاب لثروات البلاد لعرفنا ضآلة ما يتبجَّح به الإعلام من النهضة المزعومة المقامة على أرض كل بلد إسلامي.

يا ولدي: إن بنوك الغرب والشرق تعجُّ بالحسابات والأرصدة التي تُضخُّ من خلالها ما ينيهه هؤلاء من خيرات بلادنا، ناهيك عما يتمتَّعون به في بلدانهم من



الغوص في الأعماق

قصور وشركات عملاقة وامتيازات لا تقارن - بحالٍ - مع ما يقدمونه لشعوبهم. وإذا فهمت كل هذا أدركت حالة التقشُّف والشُّح في الإنفاق التي يفرضونها على شعوبهم، وما ذلك إلا لبيتلعوا أكبر مقدار من خزينة الدولة وميزانيتها.

الفصل الرابع عشر:

أبو خالد والوزير

استغل فترة انتظار مقابلة الوزير التي كانت تقارب الشهر لمتابعة سير جماعة العمل التطوعي، وقام بمناقشة بعض معلميه حول الاستراتيجيات والأفكار الجديدة التي يريد إدخالها على نظام عمل الجماعة. كانت الكثير من تلك الأفكار والاستراتيجيات تدور حول توعية الناس لتجاوز الأزمات التي تمرُّ بها المملكة. كذلك، فقد رأى ضرورة وضع خطة لتوسيع رقعة أنشطة الجماعة لتشمل العامة من الناس، والذين غالبًا لا يجدون مَنْ يهتم بهم.

من الأنشطة التي اقترحها دعوة سائقي سيارات الأجرة والعمال والمزارعين لحضور ندوات خاصة بهم. كذلك، اقترح إصدار بعض النشرات التي تناسب ثقافة هذه الفئات ومستوياتهم العلمية، بحيث يتم توزيعها على المستهدفين منها بطرق مباشرة أو غير مباشرة.

فمن الطرق المباشرة وضع طاولة في أماكن تجتمع سيارات الأجرة، بحيث يتناوب عليها بعض المتطوعين من أعضاء الجماعة. ويقوم المناوب بتوزيع النشرات والمواد الأخرى المناسبة، سواءً أكانت مقروءة أو سمعية، على سائقي سيارات الأجرة والركاب الذين يترددون على تلك الأماكن.

أما الطرق غير المباشرة فهي عديدة، ومنها الاستفادة من طلاب المدارس في تثقيف أهلهم، وذلك من خلال برامج خاصة للطلاب تشرح لهم بعض

القضايا التي تهم أسرهم، ثم يُطلب منهم نقل تلك الأفكار إلى بيوتهم إما عن طريق النشرات والمواد السمعية المعدة لذلك الغرض، وإما عن طريق دعوة أولياء أمورهم لحضور الفعاليات المدرسية التي تناقش تلك القضايا.

عندما حان موعد لقاء الوزير ذهب إلى العاصمة مع سالم، وبقي في شقته إلى يوم المقابلة. في تلك الفترة قام بترتيب أوراقه وشهاداته، وإعداد بعض الصور التي التُقِّطت له أيام تخرُّجه، والمجلات الأمريكية التي نشرت قصة تفوقه، والعروض التي حصل عليها من ميكروسوفت ومركز سميثونيان.

وفي ليلة المقابلة ناقش مع سالم ما ينوي التحدث فيه مع الوزير، والذي كان يتلخص في تعريف الوزير بنفسه، ثم ينتقل للحديث عن دراسته في أمريكا، ويحكي له قصص نجاحه، ويدعم ذلك بالصور. بعد ذلك، يُقدِّم له العروض التي حصل عليها من ميكروسوفت ومركز سميثونيان، ويوضح كيف أنه مع كل ذلك فضِّلَ المجيء إلى بلده لخدمته وردِّ الجميل له. بعدها، ينتقل إلى المعاناة التي مرَّ بها للحصول على وظيفة، ثم يختم حديثه بموضوع المقابلة، والذي يتلخص في رفض وظيفة وزارة البريد، والطلب من الوزير اختيار وظيفة أخرى تتوافق مع تخصصه وطموحاته.

أعجب سالم بخطته، ولكنه نصحه بمراعاة بعض الأمور أثناء حديثه مع الوزير. من تلك الأمور مخاطبته بإجلال واحترام، وعدم الانتقاص من الحكومة أو وزارة الخدمة المدنية أو الأشخاص الذين قابلهم، لا من قريب ولا من بعيد، وإنما عليه أن يُكثر من مدح الحكومة والدور الذي تقوم به وزارة الخدمة المدنية والموظفون الذين التقى بهم. وأخيرًا، اقترح عليه أن يكون على درجة من الأناقة، بحيث تُلفت نظر الوزير إليه، وتحظى بإعجاب.

أبو خالد والوزير

شكره على تلك الأفكار والاقتراحات، رغم أنه لم يوافق على الأمور التي فيها تصنع وتزلف بالقول؛ فنفسه لا ترضى أن تدلّ لمخلوق، سواءً أكان وزيراً أم شخصاً عادياً. اقترح عليه سالم أن يلبس شماغه الذي يلبسه عند ذهابه للعمل، لكنه رفض ذلك، وأخبره بأنه لا يريد تصنع شخصية غيره.

في اليوم التالي استعدّ للمقابلة، وحمل معه حقيته الدبلوماسية التي بها ما قام بتجميعه من أوراق وشهادات وصور. استيقظ قبل الفجر، فاستحّم وتجهّز، وطلب من سالم التذكير في الخروج مخافة التعرّض لازدحام مروري يؤخره عن مواعده، وكان حريصاً على الالتزام بمواعيده. وقد حصل ما توقع؛ فما إن قاربا الوصول إلى المنعطف الدائري المتجه إلى الوزارات حتى توقّف الشارع، فصارا يسيران ببطء شديد.

بدأ قلقه واضطرابه يتصاعدان، وعبر بكلمات الوجّل لسالم، وسالم يُطمئنه بأن هذه الأمور معهودة في شوارع المملكة؛ فبسبب سوء التخطيط للشوارع، وتكديس الوزارات والمؤسسات الحكومية في منطقة واحدة، تصبح الشوارع في فترات الذهاب للدوام أو العودة منه شبه مغلقة، مما يجعل التأخر عن الدوام بساعة أو ساعتين شيئاً متقبلاً. عبّر محمد عما في نفسه من قلق، فقال:

- لكنني لا أرضى لنفسي الوقوع في مثل هذا، وأرى أن تبحث عن مخارج أخرى توصلنا إلى الوزارة بدون تأخير.

ابتسم سالم، وقال:

- يا عزيزي، لا توجد مخارج أخرى، ولو وُجدت لسلكها الناس أيضاً، مما يعني أن المشكلة ستكون قائمة هناك أيضاً.

وصلا إلى الوزارة في الثامنة إلاًربع، أي بعد ربع ساعة من بدء الدوام. توجه سالم مباشرة إلى عمله، وطلب من محمد أن يتصل به بعد انقضاء المقابلة. كان يشعر بشيء من الارتباك، ليس من هيئة الموقف عند مقابلة الوزير، ولكن مخافة أن يرتكب أثناء المقابلة شيئاً لا يُرضي الله - سبحانه وتعالى -، والذي قد يكون في إعجابه بنفسه عند الحديث عن دراسته وتفوقه، أو في أسلوب حديثه مع الوزير، وما قد يصاحب ذلك من تذلل وتملُّق. كذلك، كان يتخوَّف من أن يرى في مكتب الوزير من أبهة وفخامة ما يجعل نفسه تضعف، فتتوق للحصول على مثلها.

صار يحثُّ الخطى للوصول إلى مكتب الوزير، مخافة أن يتأخر كثيراً. وعندما وصل إلى مكتب المنسَّق، فوجئ بعدم وجوده في مكتبه، فبدأ القلق يساوره من ضياع فرصة المقابلة. بقي ينتظر لأكثر من ساعة، وكلما مرَّت لحظة أحسَّ بالفرصة تتلاشى؛ فهو لا يدري أين ذهب المنسَّق. خاطب نفسه: - هل يمكن أن يكون في إجازة؟ إذن، لن أستطيع الدخول على الوزير، وسأحتاج إلى موعدٍ آخر.

في التاسعة والربع أطلَّ المنسَّق وهو يحمل حقييته. سلَّم عليه بنبرة تنمُّ عن عدم ترحيبٍ بوجوده. وضع حقييته، وبدأ يُخرج منها أوراقاً ويضعها في أدراج مكتبه، وصار يتحرك هنا وهناك دون أن يُنبَس بكلمة لمحمد، ومحمد يرقب حركاته، وفي داخله ثور مشاعر الاحتقار من هذا التصرف، الذي لا يليق بموظفٍ مثله. خاطب نفسه بأسى:

- لماذا يعاملني وكأنني شخصٌ غير مرغوب فيه؟ أنا ما جئت لأطلب منه

أبو خالد والوزير

شيئاً خارجاً عن طبيعة عمله. ألا يفهم هذا أنه في موقع يخدم فيه الناس، وأنه يتقاضى مقابل ذلك راتباً؟

مرت قرابة ربع ساعة، وبعد أن جلس على كرسيه، وتناول جريدة اليوم التي كانت ملقاة على الطاولة، وأخذ في تصفُّحها، خاطب محمداً بجفاء وعيناه على الجريدة، وكأنه لم يره من قبل:

- نعم، هل من خدمة؟

أخبره بأنه جاء لمقابلة معالي الوزير. استدار - كعادته - قليلاً، ثم قال:

- هل عندك موعد؟

ردَّ باستغراب:

- نعم، ألا تذكر أنني جئتُك منذ حوالي شهر، وأنتك حدّدت لي هذا اليوم لمقابلة معاليه.

- وفي أيّ ساعة موعدك؟

- أخبرتني بأن مواعدي في التاسعة والنصف، وطلبتَ مني أن آتي قبل الموعد، وها أنا قد جئتُك قبل الموعد بأكثر من ساعة.

ردَّ المنسّق بكبرياء:

- معاليه مشغولٌ حالياً، فاجلس في غرفة الانتظار، وسنناديك عندما يحين موعد المقابلة.

أراد أن يُعلّق على عدم تقيّدهم بالمواعيد، ولكنه لاحظ المنسّق فجأة يرمي بالجريدة على الطاولة، ويهرول صوب المصعد، وإذا بالوزير يخرج من المصعد ومعه مدير مكتبه. شعر بكآبة شديدة، واحتقار لا يوصف لهذا المنسّق

وأمثاله الذين يتخذون الكذب والمراوغة مركبًا لصرف الناس عنهم، وكأنهم حثالة لا قيمة لهم. أراد أن يُلقِّنه درسًا في أخلاقيات العمل، ولكنه فضّل تجنُّب أيّ صدام معه. أخذ حقييته وتوجَّه إلى غرفة الانتظار المجاورة.

وجد في القاعة بعض الأشخاص، فسلم عليهم. تخيَّر كرسياً قريباً من الباب لكي يسمع صوت المنسَّق عندما ينادي عليه. تصفَّح وجوه الحاضرين فرأى عليهم الأناقة في اللباس، مما يوحي أنهم قد يكونون من الشخصيات المعروفة. تناول جريدة كانت موجودة على الطاولة، وبدأ يُقلِّب أوراقها بطريقة تدلُّ على ما يشعر به من ارتباك.

كان يأمل أن يجد مقالاً علمياً يُسلي به نفسه، أو أطروحة أدبية تعالج بعض قضايا المجتمع، ولكنه خاب ظنه فلم يجد إلا مقالات التزلف للملك، والمديح للوزراء والوكلاء، ومقابلات مستفيضة تُثني على الدور الرائد الذي تبذله الحكومة في خدمة الشعب. لم يكن هذا الأسلوب جديداً عليه، ولكنه تحسَّر على الأموال والطاقات والأوقات التي تُهدر من أجل تلميع صورة الملك وبطانته في أعين الناس.

انقضت فترة النصف ساعة، وفي تلك الفترة جاء إلى غرفة الانتظار عدة أشخاص آخريين، انشغل بعضهم بالأحاديث الجانبية، وانشغل آخرون بتصفح الجرائد والمجلات، وتلَهَّى الباقون بتصفُّح وجوه الحاضرين. كان بين حينٍ وآخر يختلس نظرة إلى الموجودين، فيرى على وجوههم شيئاً من الوجود والارتباك؛ مما يعني أنهم قد يكونون أيضاً قلقون من ردِّ الوزير على المواضيع التي جاؤوا من أجلها.

حان موعد المقابلة، لكنه لاحظ أن المنسَّق ينادي على من جاؤوا قبله،

فقال في نفسه:

أبو خالد والوزير

- ربما كانت عندهم مواعيد قبل مواعدي، ولكن الوزير تأخر في استقبالهم. مرّت ساعة أخرى، وفي كل مرة ينادي المنسّق على شخص ممن جاؤوا قبله، ثم لاحظ أنه بدأ ينادي على أشخاص جاؤوا بعده. صبر على ما يشاهد لأكثر من نصف ساعة أخرى، وحاول أن يجد مبررات لذلك، رغم أن الشكوك بدأت تساوره في نية المنسّق من هذا التصرف.

تكرر الموقف عدة مرات، حتى قاربت الساعة من الثانية عشرة ظهرًا، وعندها نفذ صبره، فحمل حقييته، ثم توجه صوب مكتب المنسّق. لاحظ أنه لم يُعرّه أيّ اهتمام، فبادره قائلاً:

- يا أخي: أخبرتني بأن مواعدي في التاسعة والنصف، وها هي الساعة تقترب من الثانية عشرة، ولم يحن دوري بعد.
ردّ المنسّق ببرود، دون أن يرفع حاجبه في وجهه، وكأنه يُخفي أمرًا بيّته في نفسه:

- معاليه قد طلب خلفيات عن موضوعك، وعندما يطلب مقابلتك فسناديك!!

هنا اشتاط محمد غضبًا، وقال له:

- كان من المفترض أن يعرف خلفيات موضوعي قبل موعد المقابلة، ومع ذلك فأنا صاحب الشأن، وبمقدوري أن أعطيه ما يحتاج إليه من معلومات عن موضوعي.

ردّ المنسّق بنبرة متعالية:

- الأمور لا تسير عندنا كما تقول، وعليك الانتظار في القاعة إلى أن يطلب معاليه مقابلتك.

لم يشأ أن يدخل معه في مشادة كلامية، فتوجه مرة أخرى بثقل إلى قاعة الانتظار.

مرت أكثر من ساعة أخرى، والمنسّق ينادي الجالسين الواحد تلو الآخر، حتى إنه لم يبق في القاعة إلا شخصان. عندها، توجه إلى المنسّق وهو يفوح غضبًا. ما إن شاهده قادمًا حتى صاح في وجهه:

– أخبرتك بالانتظار إلى أن يطلب معاليه مقابلتك.

لم يتمالك محمد أعصابه، فخاطبه بصوت عالٍ سمعه من قاعة الانتظار:

– إنني لن أتحرك من مكاني هذا، فأنا ما جئتُ إلا بتنسيقٍ معك.

قام المنسّق من كرسيه، وبدأ يصرخ عليه:

– إنه لا يمكنك البقاء هنا، وعليك الرجوع إلى قاعة الانتظار والبقاء هناك.

سمع مدير مكتب الوزير هذا الصراخ، فجاء إلى المنسّق، وسأله:

– ماذا يجري؟ لماذا كل هذا الصراخ؟

ردّ المنسّق بخبث:

– إنني أطلب من هذا أن لا يجلس هنا، وأن يبقى في قاعة الانتظار، لكنه

يرفض ذلك.

نظر المدير إلى محمد، وقال بصوت مهذب:

– يا أخي: هذا المكان ليس للجلوس، وهناك قاعة خاصة للانتظار، ومتى

يحين موعد مقابلتك، فسيخبرك المنسّق بذلك.

كان محمد ما زال مغضبًا، لكنه احترم شخصية المدير، فتحدث معه بأدب

وقال:

أبو خالد والوزير

- هل تعلم أي جئتُ إلى هنا في الثامنة، وأن موعد مقابلي كان في التاسعة والنصف؟ لقد انتظرتُ في قاعة الانتظار طيلة هذه الفترة، وهذا - وأشار بأصبعه إلى المنسَّق - ينادي على مَنْ بالغرفة الواحد تلو الآخر، حتى الذين جاؤوا بعدي بساعات.

نظر مدير المكتب إلى المنسَّق، ورآه قد نكَّس رأسه، وكأن أمره قد انكشف. قال له المدير:

- ولماذا لم تنادِ عليه؟

- كنتُ أريد أن أجمع بعض المعلومات عن موضوعه لتقديمها لمعالیه. أحسَّ المدير بأن ثمة أمر يجول في خاطر المنسَّق، فحاول تلافي الأمر دون إجراجه، فقال له:

- لا بأس، سيدخل معي، وأنا سأدخله على معاليه.

شعر محمد وكأنه قد انتصر في الجولة الأولى من هذه المعركة، فنظر إلى المنسَّق بابتسامة، وكأنه يقول له: برغم أنفك سأدخل. كان المنسَّق - فيما يبدو - يغلي في داخله، ولم يستطع إخفاء مشاعر التوتر والغيط، ولكنه التزم الصمت.

تبع محمد المدير إلى مكتبه، وعندما وصلا أشار إليه بالجلوس، ثم قال:

- سننتظر خروج الشخص الذي عند معاليه، ثم تدخل.

- شكرًا، وأعتذر عن رفع صوتي.

- لا عليك.

انتظر عدة دقائق تجوّل خلالها ببصره في أرجاء المكتب الفسيحة، وما

يحتويه من كنبات وستائر فاخرة، وطاولة ودواليب أنيقة، وجدران تزيينها الصور الجميلة، وأرضية يعلوها السجاد الفاخر الجميل.

خرج الشخص من مكتب الوزير، فقام مدير المكتب، وأشار إلى محمد بأن يتبعه، فبدأ خفقان قلبه وارتبائه يتزايدان. حمل حقيبته، ومشى خلف مدير المكتب إلى أن دخلاً إلى مكتب الوزير. دُهِش من اتساع مكتب الوزير وما به من كراسي فاخرة ودواليب ولوحات وسجاد في منتهى الجمال، حتى كادت تلك المناظر أن تلهيه عن متابعة خطاه نحو الأريكة الفاخرة التي كان يجلس عليها الوزير، لكنه حثَّ الخطى وتبع مدير المكتب.

عندما وصل إلى مقربة من الوزير سلَّم عليه، فردَّ: هلا، أو هكذا سمعه، ثم مدَّ يده إليه وصافحه. أشار إليه مدير المكتب بالجلوس في الأريكة المجاورة. تحرك صوب تلك الأريكة، وبقي واقفاً إلى أن جلس الوزير، وانتظر إذن الوزير له بالجلوس، وعندها جلس ووضع حقيبته بجانبه. كان الارتباك بادياً عليه. بادره الوزير قائلاً بنبرة توحى بالعجلة:

- تفضل.

شكر الوزير، ثم بدأ يسرد قصة ذهابه إلى أمريكا، وتخصُّصه في علوم الفضاء، ونبوغه فيه. بعدها، أخبره بالتكريم الذي حصل عليه في يوم تخرجه، وأخرج من الحقيبة الصور التي أحضرها عن حفل التكريم الذي أقيم على شرفه، ومدَّ بها للوزير. استلمها الوزير، وبدأ يُقلِّبها.

أثناء ذلك، بقي محمد صامتاً، وبدأت نفسه تسكُن، وصار يشعر بشيء من الاعتزاز بنفسه لما أنجزه من مستوى علميٍّ متميِّز. شاهد الوزير يضع الصور

أبو خالد والوزير

جانباً، وكان لا يشكُّ أن الوزير ما إن يرى الصور، وقد سمع منه ما حققه في دراسته من تميّز، حتى يسمع منه كلمات المديح له والاعتزاز به، وسيقول له في الحال: سلّ ما شئت، وتخيّر وظيفتك حيثما تريد. لكن الوزير خاطبه بنبرة ساخرة:

- ما عرفه أن الأمريكان يرتدون الجينز ويحلّقون لحاهم، وأنت تبدو بينهم وكأنك قادمٌ من العصور الحجرية!!
أحسّ بشيء من الإحباط مما قاله الوزير فأراد أن يلقّنه درسًا لا ينساه، فقال له:

- يا معالي الوزير إن بلدان الغرب والشرق تحافظ على هويتها وثقافتها، وتعتبر التفريط في شيءٍ من ذلك خيانة وطنية.
أدرك الوزير المغزى من كلمات محمد، فأراد أن يصرف الحديث إلى أمرٍ آخر، فقال:

- لا علينا. أكمل.

هنا أخبره عن التغطيات الإعلامية التي نُشرت لتحكي قصة تفوقه، والعروض التي حصل عليها من مركز سميثونيان للفيزياء الفلكية وميكروسوفت. وهنا أيضًا أخرج من حقيبته نسخة من المجلات التي نشرت قصته، ونسخة من العروض التي حصل عليها، ثم ناولها للوزير. قلبَّ الوزير صفحات المجلات بسرعة، ثم قلب صفحات العروض، ثم وضعها جانباً.

توقف محمد عن الكلام، وكأنه يريد أن يعرف انطباع الوزير، وساوره القلق من أن أسلوب الوزير ينبئ عن عدم انبهاره بما سمع من كلامه أو ما رأى من

الفصل الرابع عشر

الصور، ولاحظ من نظراته وتجهُّم وجهه ما يوحي بعدم الترحيب به. بعد فترة من الصمت مرَّت على محمد كأنها ساعات، بادره الوزير بالسؤال قائلاً:

– وماذا تريد مني؟

بدأ يسرد ما جرى له من تقديم طلباته وحصوله على عرض الوظيفة من وزارة البريد، ثم قال:

– وكما ترى يا معالي الوزير، فإني لستُ راغبًا في تلك الوظيفة نظرًا لبعدها عن تخصُّصي، ولعدم موافقتها لطموحاتي.

نظر إليه الوزير بنظرة تشي بالكبر والازدراء، ثم قال:

– وما هو المطلوب؟

– لقد طلب مني مدير شؤون الموظفين رسالة إخلاء طرف من وزارة البريد من أجل أن يفتحوا ملف توظيفي عندكم من جديد.

قاطعته الوزير قائلاً:

– وماذا في ذلك؟

قال له بنبرة فيها شيءٌ من الضعف والاستجداء:

– كما ترى يا معالي الوزير، فأنا لم أختَر تلك الوظيفة، ولستُ راغبًا فيها، وما أريده من معاليك هو أن تساعدني في الحصول على وظيفة تتناسب مع تخصُّصي.

كان يتأهب لسمع من الوزير كلمات البشارة بتحقيق هذا المطلب البسيط، والذي هو – في نظره – حقٌّ مشروع له، ولكن الوزير صدمه بكلام فيه نوعٌ من التهديد. قال له وهو يرمقه بنظرات ازدراء:

أبو خالد والوزير

- لقد كنتَ محظوظاً في الحصول على تلك الوظيفة؛ فغيرك يبحث عن أقل منها ولا يجد.

وقعت تلك الكلمات في نفسه وقع السيف، وصارت تُقَطِّع ما بقي في نفسه من خيوط الأمل التي تشبَّثَ بها للبقاء في خدمة وطنه. ورغم أنه أحسَّ بأن الوزير لا يريد مساعدته، غير أنه تشجَّع في محاولة أخيرة لإقناعه. حاول أن يوضح له أن طلبه لوظيفة متناسب مع تخصصه هو لحبه لبلده، ورغبته في خدمته، ولولا ذلك ل بقي في أمريكا.

خاطبه بنبرة فيها نوعٌ من التحدي، فقال:

- كما أخبرتك يا معالي الوزير، لقد عرَّضتُ عليَّ وكالة ناسا المتمثلة في مركز سميثونيان للفيزياء الفلكية، وكذلك شركة ميكروسوفت الشهيرة العمل عندهما، لكنني رفضتُ كل ذلك رغبةً في خدمة بلدي. ثم إنني - كما أخبرتك - قد قضيتُ سنين طويلة في دراسة علوم الفضاء، وحققتُ تفوقاً باهراً في تخصصي، وبصراحة، فأنا لا أريد أن أخسر كل ذلك.

لم يعجب الوزير هذا الكلام، فقال له بنبرة قاسية:

- الشباب هنا في المملكة يريدون أية وظيفة يحصلون عليها، ويعلمون أنه ليس من الحكمة تخيُّر الوظائف والاحتجاج بأسباب واهية كتدني الراتب أو عدم موافقة الوظيفة لتخصص الشخص وطموحاته!!

شعر بإحباط شديد، فنكسَّ رأسه، ثم تناول الصور والمجلات والعروض من الطاولة، وكأنه يريد أن يُنهي المقابلة.

في هذه الأثناء دخل مدير المكتب، وتقدَّم نحو الوزير وأسرَّ إليه بكلام. عندها قام الوزير من مكانه دون أن يقول لمحمد شيئاً، وذهب نحو الباب

وخرج من مكتبه. كان محمد يرقب ما يجري ولا يجد له تفسيرًا، إلى أن جاءه مدير المكتب وقال له:

- لو سمحت، اجلس هناك- وأشار إلى أريكة بعيدة قليلًا عن الأريكة التي يجلس عليها-؛ فمعاليه قد جاءه ضيف مهم!!

فهم ما يجري، وشعر لبرهة بنوع من الامتihan والاحتقار، ولكنه تذكر قوله سبحانه: [إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ]. كانت نفسه تتوق لترى هذا الضيف المهم الذي جعل الوزير يخرج من مكتبه ليتلقاه، ولترى الفارق في معاملة الوزير له. وضع الصور والمجلات والعروض في حقيبته وأغلقها بسرعة، ثم حملها وانتقل إلى الأريكة الأخرى. وضع حقيبته على الأرض، وبقي واقفًا، شاخصًا يبصره نحو الباب، ينتظر دخول الوزير وضيفه.

كان يسمع قهقهات الوزير وضيفه وهما خارج المكتب، وقال لنفسه متهكمًا:

- عجيب، إن معالي الوزير يضحك ويقهقه!! لقد حسبتُ أنه لا يستطيع حتى الابتسامة!!

بعد قليل دخل الوزير وضيفه، ودخل معهم شابٌ في نفس سنِّ محمد. كان الضيف طويل القامة، فارع البنية، يرتدي ثوبًا ناصع البياض، يعلوه بثتٌ أسود طويل، وعلى رأسه شماغ من النوع الفاخر جدًّا. أما الشاب فقد ارتدى ثوبًا طويلًا ناصع البياض، وشماغًا فاخرًا، ولكنه يبدو أنه لا يجيد طريقة لبسه، ورغم وسامته إلا أنه تبدو عليه بلادة ظاهرة. تقدم الجميع حتى وقفوا بجانب الأريكة التي كان يجلس عليها محمد. أشار الوزير لضيفه وابنه بالجلوس.

جلس الوزير، وبعدها جلس الضيف وابنه، وهنا جلس محمد.

بدأ الوزير بمداعبة ضيفه، ثم استطرد في الحديث عن أشخاص وأحوال عرف محمد من خلالها أن هذا الشخص صاحب وجهة قبلية، وأن الوزير يعرفه جيّدًا. أثناء ذلك دخل ثلاثة شبان بلباس أنيق، ووضع أحدهما على المنضدة التي كانت أمام الوزير وضيفه صحنًا من الحلوى الفاخرة، وأشار الوزير إلى ضيفه ليمدّ يده. تناول الاثنان شيئًا منها، وبإشارة من الوزير جاء الشاب وحمل الحلوى، ثم وضعها أمام ابن الضيف، ثم جاء الشاب الثاني وصبَّ على يد الوزير وضيفه بعض الماء، ثم ناولهما بعض المحارم الورقية ليحفظا أيديهما، ثم تقدّم الثالث وصبَّ لهما القهوة.

بعد أن فرغ ابن الضيف، وضع الشاب الأول الحلوى على منضدة محمد. كان يرى برتوكولات الضيافة التي تجري، وهو يزدريها في نفسه، ورغم ذلك لم يستطع أن يقاوم نفسه؛ فقد كان الجوع قد أخذ منه مأخذه، فأراد أن يسدّه ببتفة صغيرة من تلك الحلوى.

بعد أن خرج الشبان الثلاثة، بدأ الضيف يتكلم مع الوزير بصوتٍ خافت لم يسمع محمد منه شيئًا، غير أن الوزير كان يبتسم ويهزُّ رأسه موافقًا لكلام ضيفه، ثم بعد حديثٍ طال لعدة دقائق شاهد الوزير يبتسم ابتسامة فرح، ثم علّق بصوتٍ مسموع:

- أحسنت يا أبا راشد، وما دام رضي بالثلاثة ملايين فهذا جميلٌ جدًّا، فمساحتها كبيرة، ولا شك أنها تساوي أكثر من خمسة ملايين.

رأى محمد الضيف يهزُّ رأسه موافقًا وهو يبتسم، ففهم من كل ما دار أنه

الفصل الرابع عشر

سمسار في بيع وشراء أرضٍ يعرفها الوزير.

لم يُصدِّق أن ينقلب مكتب الوزير إلى مكان لسمسرة الأراضي، وأن يستغلَّ الوزير منصبه لابتزاز الناس. ظن أن الأمر قد انتهى هنا، ولكنه سمع الوزير يخاطب ضيفه:

– والآن، تفضل يا أبا راشد.

قال الضيف:

– أدام الله فضلك يا معالي الوزير. هذا ابني خالد قد أنهى دراسته من إحدى الجامعات العربية، لكنه تخرج بمعدل ضعيف. وأنت تعلم معاليك عن شُحِّ الوظائف عندنا، وخاصة بالنسبة لخريجي تخصص اللغة العربية. ردَّ الوزير وهو يحرك رأسه تأكيدًا لما قاله ضيفه:

– صدقت.

قال محمد لنفسه:

– إذن جاء أبو راشد ليقبض عمولته من صفقة الأرض!!

بدأ يفهم سبب زيارة هذا الشخص، ورغم احتقاره لهذه الأساليب، إلا أنه أحسَّ في داخله بنشوة عارمة لمتابعة ما يجري، وكأنه يشاهد فيلمًا دراميًا. أسند أبو راشد ظهره إلى الأريكة، ثم تابع حديثه قائلاً:

– لهذا، فقد جئنا إليك يا معالي الوزير لتختار له وظيفة مناسبة.

ابتسم الوزير، ثم قال:

– أبشر يا أبا راشد، فقد جئت في الوقت المناسب.

ابتسم أبو راشد، ثم قال:

- بَشَّرَكَ اللهُ بِالْخَيْرِ يَا مَعَالِي الْوَزِيرِ.

واصل الوزير حديثه:

- وزارة الزراعة تبحث عن مدير لدائرة السدود، وأرى أن ابنك سيكون

الشخص المناسب لذلك!!

ما إن سمع محمد هذه الكلمات حتى ابتسم، وقال لنفسه:

- مدير دائرة، وأنا أريد وظيفة بسيطة ولم أحصل عليها!!؟

قال أبو راشد، والبشر بادٍ على مُحيَّاه:

- جزاك اللهُ خَيْرًا يَا مَعَالِي الْوَزِيرِ، وبالتأكيد، سيكون خالد الشخص

المناسب.

كان خالد يسمع الحوار بين الوزير وأبيه وهو ساكت. لكنه عندما سمع ما

قاله الوزير، وسمع ردَّ أبيه لم يتمالك نفسه، فانفجر قائلاً:

- ماذا؟! مديرًا للسُدود، وأنا تخصصي لغة عربية!!؟

قال الوزير، وكأنه لم يعجبه رد خالد:

- وما الفرق؟! تخصص اللغة العربية سيعطيك ميزة للتخاطب والتحاور

مع الآخرين.

ردَّ خالد بنبرة تنمُّ عن غضب:

- ولكنني لا أعرف شيئًا عن الزراعة ولا عن السُدود، وأهم من ذلك أنني

أريد وظيفة في مجال تخصصي.

قاطعته أبوه، وكأنه غضب من هذا الرد، فقال:

- يا خالد، لولا كرم معالي الوزير وتفضله علينا لما حصلت على هذه الوظيفة ولا على غيرها. وأنت تعلم أنك لست في مقام التخيير؛ فتخصّصك ومستواك الدراسي الضعيف لا يتيحان لك الحصول على وظيفة.

أراد الوزير أن يُنهي المقابلة ويحسم الأمر، فقال:

- يا ولدي، أبوك صادق فيما قاله، ولولا معزته عندي لما عرضت عليك هذه الوظيفة. وإذا كنت لا ترغب فيها، فحاول أن تبحث عن غيرها بنفسك. قال أبو راشد متداركًا الأمر:

- لا يا معالي الوزير، خالد شابٌ عاقل، وهو لن يُضيّع هذه الفرصة من أجل تخصّص. هيا- وأشار إلى خالد- اشكر معاليه على هذه المكرمة.

قال خالد على مضض، وبنبرة واهية:

- شكرًا معالي الوزير.

كان محمد يشتاظ غيظًا مما يسمع ويرى. خاطب نفسه:

- إذن، هكذا توزع الوظائف والمناصب في بلادنا. التفوق والتميز ليس له مكان هنا، وإنما المهم العلاقات والمحسوبيات.

قام أبو راشد وولده، فقام الوزير، ومدَّ أبو راشد يده ليصافح الوزير، وهو يقول:

- شكرًا لمعاليك على هذه المساعدة، والله يعلم أنني لن أنساها لك.

قال الوزير مبتسمًا:

- العفو، هذا أقل ما أستطيع تقديمه لك.

تحرك أبو راشد جانباً ليتيح لابنه أن يصفح الوزير. مدَّ خالد يده، ثم قال:

- شكراً معالي الوزير.

قال الوزير:

- العفو.

سار الوزير أمام ضيفه ليُشيعه إلى باب مكتبه، وسار أبو راشد بجانبه، بينما خالد يسير خلفهما. أثناء مشيهما قال الوزير مخاطباً خالداً:

- سيتصل بك مدير شؤون الموظفين لإكمال الإجراءات.

قال خالد:

- شكراً معاليك.

أوصل الوزير ضيفه إلى الباب، ثم عاد، وفي طريقه وقف أمام محمد، الذي وقف هو الآخر عندما رأى الوزير وضيفه ينهضون.

سكت الوزير برهة، وكأنه يبحث عن كلام يبرر به لمحمد ما جرى أمام

ناظريه:

- يا ابني، كما رأيت، فليست عندنا وظائف، ولولا معزة الشيخ عندنا لما

استطعتُ مساعدته، وأنت عندك فرصة كبيرة في تلك الوظيفة، فعليك أن لا تفرط فيها.

ردَّ محمد، ونبرة صوته لا تخفي ما بداخله من إحباط وأسى، فقال:

- سأفكر في ذلك، وشكراً المعاليكم.

هنا توجه الوزير صوب طاولته، وعندها تحرك محمد صوب الباب، ثم مرَّ على مدير مكتب الوزير، فأطلَّ عليه، ثم قال له:

- شكرًا.

- العفو، وعساكَ وُفِّقَتَ لما جئْتَ لأجله.

ردَّ عليه، وهو يخفي مشاعره الحزينة:

- الحمد لله على كل حال.

خرج بخطى متثاقلة، ومرَّ على مكتب منسِّق الوزير، ولكنه لم يلتفت إليه.

خرج من الوزارة وهو يستعيد في عقله شريط الذكريات والآمال التي علَّقها على المقابلة. كانت هذه المقابلة الخيط الوحيد الذي أبقاه على أرض المملكة. اتجه صوب مواقف سيارات الأجرة. خاطب نفسه بنبرة يمتزج فيها الحزن والغضب:

- لماذا أُعْرِضَ نفسي لكل هذه الإهانات؟ لماذا لا أعود إلى أمريكا وأعيش هناك معزِّزًا مكرِّمًا؟

صمَّتَ قليلاً، ثم استدرِك قائلاً:

- لا بُدَّ أنَّهُم يُمرِّغون أنوف الناس هكذا ليُجبروهم على العيش أذلاء، أو الهجرة فتخلوا لهم الأجواء.

عاد إلى شقة سالم، وما إن وصل حتى رمى حقيبهته على السرير. كان لا يطيق الحديث مع أحد، ولكن رأى لزامًا عليه أن يتصل به ليخبره بأنه قد عاد إلى الشقة. تعجَّب سالم، فسأله عما جرى، فقال له:

- سأخبرك عندما تصل.

استلقى على سريره، ثم نام إلى وقت صلاة الظهر.

عاد سالم من عمله، وأحضر معه الغداء، وعندما وصل وجده ما زال مستلقيًا على السرير. سلّم عليه، ثم مباشرة سأله عما جرى له في المقابلة. بدأ يشرح له كل ما جرى. كانت كلماته تفوح غضبًا، ويخالطها الأسى على ما ضيّع من أوقاتٍ في التذلل لهؤلاء، حسب رأيه. استمر الحديث أثناء فترة تناول الغداء وبعدها إلى أن حان وقت صلاة العصر.

كان سالم يسمع حديثه، ولا يقاطعه إلا ببعض الكلمات التي حاول من خلالها تخفيف ما كان يعاني منه من إحباط. عاد الاثنان من صلاة العصر، وتناقشا ما آل إليه أمر محمد. كان رأي سالم أن يبقى محمد في العاصمة، ويذهب إلى وزارة البريد ويحاول أن يتفاوض معهم لإخلاء طرفه، ثم يذهب إلى وزارة الخدمة المدنية ليعاودوا البحث له عن وظيفة جديدة.

أما محمد فكان لا يزال يعاني من إحباط نفسي شديد، ولم يكن إحباطه لعدم مساعدة الوزير له، ولكن ما أثار فيه كثيرًا هو تردي سلوكيات الناس وأخلاقهم، بدءًا من العامل البسيط الذي لا يكاد يملك حولًا ولا قوة، وانتهاءً برؤوس الناس المتمثلة في الوزراء ومن على شاكلتهم. لقد عاش سنينه السابقة وهو يُمني نفسه بالإصلاح وتغيير الأوضاع، وها هو يصطدم وجهًا لوجه مع مواقف بدا عاجزًا أمامها. خاطب سالمًا:

- إذا كنتُ أنا بما حباني الله به من علم وعقل، وما جئتُ متسلحًا به من تفوقٍ دراسي، ومع كل هذا لم أستطع أن أقول أو أفعل شيئًا مع أولئك العتاة، فكيف بغالبية الناس الذين لا يملكون حولًا ولا قوة؟

ما يؤلمني كثيراً هو كيف يُداس على حقوق الضعفاء من خلال صفقات تجارية يتزلف بها أصحاب الجاه والنفوذ لكسب وظائف ومناصب وربما امتيازات أخرى لا يستحقونها. أليس هذا ظلم؟ أين العدالة والمساواة التي يتبجحون بها في إعلامهم؟ ثم أين تعاليم الشريعة وحقوق الإنسان التي يدعون أن الدولة تقوم على أساسها؟

لم يجد سالم ما يواسي به مشاعر صديقه المتحطمة إلا الصمت. وعندما رآه فرغ كل ما في نفسه من مشاعر مكلومة، قال له:
- ما قلته صحيح، ومع ذلك نبقي عاجزين أن نفعل شيئاً.
قاطعته محمد:

- كنت أقول لك من قبل بلزوم التسلح بالعلم، ولكن فيما يبدو أن العلم بدون مكانة ووجاهة لا يُغيّر شيئاً مع هؤلاء.
استشفَّ سالم من حديثه أنه يعزم على أمر، فعلق:
- لم أفهم قصدك.

قال محمد بنبرة توحى بانسراح نفسي:
- سأعود إلى أمريكا، وأواصل دراستي، ثم أحصل على وظيفة تُجبر هؤلاء على احترامي والاعتراف بي، وعندها أكون قادراً على التغيير. بمعنى آخر أريد أن أكون في مستوى القيادة لا في مستوى التبعية.
سأل سالم متعجباً:

- أمريكا مرة أخرى؟! ألم تملّ من أمريكا ومن الدراسة؟!
- أنت تعلم أنني صاحب رسالة، ولا أستطيع أداء رسالتي إلا بالتزود بما يُمكنني من محاربة هذا الفساد المستشري.

أبو خالد والوزير

حاول سالم إقناعه بأن المملكة ما زالت بخير، وأنه خيرٌ له أن يبقى في بلده من أن يذهب إلى بلدٍ أجنبية، ويعيش فيها كالمشرد. و حاول كذلك أن يقنعه بمواصلة البحث عن وظيفة، وطرح عليه خيارات جديدة علّه من خلالها أن يُوفّق للحصول على وظيفة تفرّج عنه ما ألمّ به من هموم.

أما هو فقد تحوّل تفكيره من رغبة في الحصول على وظيفة تحقق له رغباته وطموحاته، إلى الحصول على مكانة علمية ووظيفية تؤهله لإصلاح المجتمع؛ إذ إن المشكلة - كما يراها - ليست في الموظفين فقط وإنما في القيادات، ولا تستطيع مقارعة تلك القيادات - كما يقول - إلا قيادات يعترفون هم بمكانتها وتأثيرها.

لقد أحسّ بأنه يحتاج إلى مُقوّمات أخرى يستطيع من خلالها أن ينفذ إلى أعماق مجتمعه، ويكون قادرًا على إحداث تغييرات جوهرية فيه، حتى وإن كان يحمل شهادة في تخصص فريد من نوعه في بلده. وفي نظره أن أمريكا - بحكم تجربته السابقة - هي أنسب الأماكن لتأهيل نفسه وتزويدها بما يحتاج إليه من قدرات وإمكانيات.

بقي صامتًا، وكأنه يراجع خططه السابقة ومدى ثباته على مبادئه وأهدافه التي أراد أن يبني حياته عليها. شعر سالم بأنه مستغرق في مراجعة داخلية فتركه برهة من الوقت، ثم سأله:

- هل وصلت إلى قرار؟

بقي على صمته لفترة، ثم قال:

- نعم.

فرح سالم، فقال:

- أخبرني.

رفع رأسه، ثم أبرق ببصره في وجه سالم، ثم قال:

- سأعود إلى البلد.

ابتسم سالم ثم ردَّ عليه، وكأنه يحاول أن يمازحه:

- أعلم بأنك ستعود إلى البلد، فلربما اشتقتَ لوالديك وإخوانك.

- الأمر ليس ما ذهبتَ إليه، وإنما قصدتُ أن أنهي اللّهث وراء الوظيفة، وسأبقى- بإذن الله- في البلد برهة من الزمن ثم أعود إلى أمريكا لمواصلة الدراسة.

لم يشأ أن يدخل معه في معارك كلامية، فهو يعرف إصراره على مبادئه وصعوبة تحويله عن أهدافه. لذلك، كل ما فعله معه هو أن يبارك له هذا التوجُّه، فقال له:

- يبدو أن طموحاتك لن تنتهي، وهذا أمرٌ يثير البهجة في نفسي، ولذا فأنت أحرص على نفسك مني. لكن أريد أن أخبرك بأننا ما زلنا صديقين، وأرجو أن لا تتلكأ في طلب أية مساعدة مني.

في اليوم التالي أوصله سالم إلى مواقف سيارات الأجرة، وبقي هناك إلى أن استقل سيارة وعاد إلى بلده. ركب في الكرسي الخلفي مجاورًا للنافذة، وأسند رأسه إلى الوراء، وصار يراقب الأشخاص والمباني والأشجار وهي تظهر لبرهة ثم تتوارى. كان منها الجميل الذي يبعث في النفس السعادة والانشراح، ومنها القبيح والجاف والمتهدم.

أبو خالد والوزير

رأى أن من حكمة الله ورحمته بعباده أن يتعرض الإنسان لمثل هذه التغيرات لتزِيل ما في الحياة من رتابة وملل، وليتعلم منها الدروس والعبر. خاطب نفسه:

- رغم ما واجهته خلال هذه الفترة من عراقيل وتحديات، غير أنني أعتبرها فرصًا عظيمة ساقها المولى - سبحانه - لي لأغوص في أعماق هذا المجتمع، لأكون أقدر على تشريحه ومعالجته.

ثم قال لنفسه، وهو يحاول أن يُسَلِّبها مما أصابها من أحزان:

- إذا كانت هذه الحياة لم تدم لمن سخر الله لهم أرجاء الأرض، وطغوا وبغوا فيها، وأدعوا من الألوهية والتحدّي لله، فلا شك أنها لن تدوم لهؤلاء. إن الظلم لن يبقى مهما امتدَّ ليله، واحلّو لكتّ جوانبه، ولا بُدَّ أن يأتي الله بيوم ينتصر فيه الحق على الباطل.

أغمض عينيه، وجعل يُسَبِّح الله ويحمده ويذكره إلى أن غط في نومة طويلة، لم يستيقظ منها إلا على صوت السائق وهو يخبره بالوصول إلى البلد.

عندما وصل إلى بيته أخبر والديه بما جرى له، وأيضًا بما ينوي القيام به. لم يُنصَح لهما بأنه ينوي هذه المرة الهجرة إلى أمريكا وترك بلده، ومع ذلك كانت صدمة قاسية لهما، فنصحاها بأن لا يتعجل في اتخاذ قراره، وإنما عليه أن يبقى في المملكة عدة أشهر إضافية فلعلّ الأمور تنفرج، والأبواب تُفتح، ولكنه عزم هذه المرة على عدم التراجع عن قراره.

عندما رأت سمية إصراره، قالت له:

أذهب وتتركها، وقد علقت كل أحلامها عليك!!؟

نزلت عليه هذه الكلمات كسهمٍ اخترق قلبه، فلم يدرِ ما يقول. تابعت سمية محاولتها لإقناعه:


- لم يبقَ على تخرجها إلا بضعة أشهر، وعندها لن يمانع أهلها من زواجكما.

كان يعلم أن انتظار الزواج هو مجرد مغامرة لا يعرف نتيجتها، ولكنه مع ذلك تشبَّثَ بذلك الخيط الرفيع علَّ الله أن يبارك فيه، ويجعله سبباً لتحقيق حلم الزواج من شيماء. سُرت شيماء كثيراً بقراره، مع أنها أيضاً كانت قلقة من أن أمها قد تتعلَّق بأسباب تافهة لعرقلة زواجها منه. استخار الله فرأى نفسه قد استقرَّت على البقاء. لكن بقاءه لن يطول هذه المرة، فقد بدأ يُعدُّ العدة لهجرة طويلة، قد لا يعود بعدها إلى بلده إلا في فترات متباعدة ولحظات قصيرة.

استغلَّ فرصة الانتظار في تجهيز لوازم السفر دون أن يذكر ذلك لأحد. تواصل أولاً مع قسم علوم الفضاء في جامعة هارفارد وأخبرهم بقبوله لمنحة الماجستير التي كانوا قد قدَّموها له سابقاً، وطلب منهم تسريع استصدار رسالة القبول ليتسنى له الحصول على تأشيرة دراسية.

لم تطل فترة انتظاره حتى تلقى رسالة القبول من الجامعة، فقدَّموا له منحة كاملة لدراسة الماجستير لمدة عامين، كحدِّ أقصى. توجه إلى السفارة الأمريكية، وقدَّم طلبه لتأشيرة دراسية، وسلَّمهم نسخة من رسالة القبول له من جامعة هارفارد.

كانت الإجراءات الأمنية المشددة التي اتَّخذت بعد تفجيرات نيويورك في ١١ سبتمبر ٢٠٠١م قد عقَّدت إجراءات الحصول على تأشيرات. لكنه،



أبو خالد والوزير

بالرغم من نشاطه الدعوي في أمريكا، إلا أن تميّزه الدراسي، والأوراق التي
زودتها جامعة هارفارد للسفارة كان لها أثرٌ كبير في الحصول على التأشيرة في
فترة قياسية.

الفصل الخامس عشر: حِيل مآكرة

بقي محمد في بلده، وبدأ يعاود نشاطه في جماعة العمل التطوعي. كذلك، أخبر الأستاذ أسامة والأستاذ عماد بما جرى له في العاصمة. كان ثمة أمر مهم أثر في نفسه عندما قابل وزير الخدمة المدنية وهو تعليق الوزير على هيأته. خاطب أستاذه فقال:

– هل تعلمان أن أول تعليق للوزير على الصور التي قدّمها له هو تشبيهي بالقاديين من العصور الحجرية. لقد آلمتني تلك النظرة التي تدلّ على الانقسام الموجود في شخصيات أمثال هؤلاء المثقفين، وأخطر من ذلك أن يكون هؤلاء أصحاب نفوذ؛ لأنهم سيجتهدون في نقل أفكارهم للمجتمع بحكم سلطتهم، وأيضًا بتوسيد الأمر لغير أهله من خلال الوساطات والمحسوبيات في التوظيف والترقيات والفرص الأخرى كحضور الدورات والمؤتمرات. علّق الأستاذ أسامة، فقال:

– يا ابني، ما فسدت مجتمعاتنا إلا بفساد هؤلاء المتنفذين الذين تأثروا بالتيارات الفكرية والدعوات الهدامة المنتشرة في بلاد الغرب، فأبّت نفوسهم المريضة إلا جلبها إلى بلداننا، ثم استماتوا في نشرها بأقذر الوسائل، ومنها الوساطات والمحسوبيات التي ذكرتها.

ثم علّق الأستاذ عماد قائلاً:

- المشكلة أن كل شيء في بلادنا صار بقبضة هؤلاء الذين تلوّث عقولهم وتسمّمت أفكارهم، وصاروا أداة طيِّعة في قبضة المنظمات الهدّامة كالماسونية والشيوعية، وحتى الحركات المحسوبة على الإسلام كالقاديانية والبهائية. سرّ محمد بهذه التعليقات، لكنه يُدرك حجم المرض المستشري في بلدان المسلمين، فقال:

- لم يُعدّ تبني مثل هذه التيارات يحتاج إلى سرّية؛ فكل شيء بات مكشوفاً، حتى إنه صارت تُفتح في بلداننا مكاتب تمثيل لتلك المنظمات والحركات الهدّامة بمباركات رسمية، وصار الإعلام يُسخر لنشر تلك الأفكار وتزيينها للناس، وتضليلهم بها بالباسها ثياب الإصلاح والحرية والإخاء والتسامح. والخوف هو تغلغل تلك الأفكار في المجتمع، وتبني الشباب والفتيات لها، وخاصة أن غالبية هؤلاء هم خواء في العقيدة والفكر.

أخذ محمد يقصُّ على أستاذه بعض المواقف التي تعرّض لها في العاصمة، وضرب لهما مثال الشاب صلاح خالد، وما كان عليه من انحراف فكري وعقدي، وكيف استطاع - بتوفيق الله - أن يُصلح له أفكاره، ويُعيده إلى الاستقامة.

بعد حديث طالب بينهم أخبرهما بما يُزعم الإقدام عليه من السفر إلى أمريكا. كان رأي أستاذه شبيهاً برأي والديه؛ وهو أن يترث في اتخاذ مثل هذا القرار، فهما يعلمان أنه صاحب طموحات وهمم عالية، وقد تدفعه طموحاته للمغامرة في أمور تبعده كثيراً عن بلده، ويعلمان كذلك مدى حاجة بلده إلى الإصلاح.

جِيل مَاحِرَة

كذلك، كانا يعلمان رغبته الشديدة في الحصول على وظيفة، ليس للراتب، وإنما لكسب الخبرة وممارسة تخصصه. لكنهما يعلمان كذلك أن الوظائف - وخاصة في أمريكا - قد تكون فيها من الإجراءات المادية ما يمكن أن تؤثر على المبادئ والأهداف التي عاش من أجلها. لذا، استغلا اللقاءات التي كانت تجري بينهم في جماعة العمل التطوعي وخارجها في فتح حوارات معه حول موضوع سفره، وما ينوي القيام به في غربته.

أما سالم فقد أحسَّ بأنه قصَّر كثيرًا في مساعدة صديقه، ولذا حاول أن يبتكر طرقًا جديدة لمساعدته، علَّه يستطيع من خلالها أن يُخرِجَه من أزمته. كانت نظرتَه بأن المملكة - رغم شحِّ مواردها وقلة الفرص الوظيفية فيها - تحوي من الفرص التي لو استطاع المرء التعرُّف عليها لربما أوصلته للحصول على ما ينشده من وظيفة أو يحقق له من مكانة.

كان يرى أن التزلف للحكومة بشكل عام، والملك بشكل خاص، قد يفتح له أبوابًا كثيرة لا تفتح بطرق أخرى. لكنه يعلم أيضًا أن محمداً قطعاً سيرفض القيام بذلك، لما يتغنى به دومًا من ضرورة التمسك بالمبادئ والقيم التي يقتنع الإنسان بنبليتها، ويتربى ويعيش من أجلها.

كان يرى أن الحياة لا تسير أحيانًا بدون تسهيلات من هذا، أو دفعٍ من ذلك. لقد رأى أثر الواسطات والمحسوبيات في نفسه وزملائه؛ فبالرغم من أنهم أنهوا الثانوية فقط، غير أنهم استطاعوا الحصول على العديد من الترقية والعلوات، ولم يكن ذلك إلا بالتملُّق والمديح والإطراء للمسؤولين، حتى ولو كان نفاقًا، وأيضًا بالتعامي عما يقوم به المسؤولون من اختلاسات واستغلالٍ للمناصب لمصالحهم الشخصية ومصالح ذويهم.

كان يعلم أن هذه الأساليب لا يتقنها كل الناس، ولذلك فهو يشعر بالفخر والاعتداد بنفسه لقدرته على الحصول على مبتغاه، بينما يقف الآخرون مكتوفي الأيدي، ومكبّلين - حسب رأيه - بالمبادئ والقيّم التي ليس لها - كما يقول - وجود في عالم الوحوش المتصارعة الذي نعيش فيه. لقد ألمه تمسك محمد بهذه الأمور، رغم أنه حاول ثنيه عنها، وتبصيره بالواقع الذي يعيشه الناس. لذا، قرّر أن لا يترك صديقه يغرق في إحباطه دونما مساعدة.

كانت خطته في دفع محمد للتزوّف للحكومة والملك هي بإقناعه بكتابة مقالات علمية وأدبية في الصحف والجرائد المحلية، وخاصة الحكومية منها، ثم يقوم هو تدريجياً بإدراج عباراتٍ في تلك المقالات تُمجّد الحكومة والملك. وفي تصوّره أن كثرة تلك المقالات قد تُلفت نظر بعض مسؤولي الحكومة إلى ما عند محمد من قدرات وإمكانيات، فيحاولون كسبه إليهم.

عندما عاد إلى البلد في نهاية الأسبوع، سارع لملاقة محمد، وافتتح لقاءه بالسؤال عن أحواله، والقرارات التي توصل إليها. ردّ محمد:

- لقد استشرتُ والديّ وبعض أساتذتي، وأشاروا عليّ بالتريّث في البلد لعدة أشهر أخرى، وأنا اطمأنتُ لرأيهم.

ابتسم سالم، وكأنه رأى الفرصة باتت مواتية لتحقيق خطته، فقال له:

- وأنا أوافقهم أيضاً على ذلك الرأي. ولكن، بماذا تنوي القيام في هذه

المدّة؟

- لا أدري بعد.

ردّ سالم بسرعة:

- أنا عندي لك فكرة.

- وما هي؟

قال سالم، وكأن خطته قد قاربت أن تتحقق:

- أن تُشغِل وقتك بالكتابة في الصحف والجرائد.

نظر محمد إليه نظرة فيها من علامات الاستغراب والريبة، ثم قال:

- وماذا أكتب؟

قال سالم، وكأنه شعر بما يدور في خاطر محمد:

- يمكنك الكتابة في أي شيء، فأنت صاحب أفقٍ واسع، وفكرٍ نيرٍ.

- أنت تعلم أن تلك الصحف لا تنشر إلا الغثَّ والهزيل من الكلام، وأنا لا

أريد أن أنزل بكتاباتي إلى ذلك المستوى.

قال سالم، وهو يحاول أن يضرب على الأوتار الحساسة عند محمد:

- ألسنتَ تقول بأن علينا إصلاح المجتمع؟

ردَّ محمد بسرعة:

- بلى.

- إذن، فلماذا لا تستغل هذه الصحف في ذلك؟

ابتسم محمد، ثم قال:

- وهل تراهم على درجة من السذاجة بحيث لا يفهمون ما سأكتبه في

صحفهم؟

- يمكنك البدء بالحديث في أمورٍ عامة، ثم تدريجيًّا تتطرق إلى المواضيع

التي ترغب في طرحها.

سكت محمد برهة، فهو من ناحية يرى أن فكرة سالم قد تنجح، ولكنه في الوقت نفسه يُشكِّك في نيات سالم؛ فهو يعلم أنه لا يهتم بأمور الدعوة والإصلاح، فلماذا يدفعه إلى الكتابة في تلك الصحف ويبرر الأمر بأنه نوع من الإصلاح ونشر الخير؟ رفع رأسه، ثم قال:

– أظن أنه من الأفضل لي أن لا أقوم بذلك، على الأقل في الوقت الحاضر. لكن سالمًا لم يكن بالشخص الذي يستسلم عن تحقيق خطته بتلك السهولة. جلس معه عدة جلسات، وفي كل مرة كان يفتح الموضوع معه، ومحمد يغلقه. وبعد إصرار ومحاولات، وافق محمد أن يكتب مقالًا في الجريدة الحكومية يتحدَّث فيه عن دراسته ومعاناته وتفوقه.

كان العرض الذي قدَّمه سالم هو أن يكتب محمد المقال، ويقوم سالم – بحكم بقائه في العاصمة ومعرفته بمقر الجريدة – بإيصاله إليها. طلب محمد أسبوعًا كاملًا ليتسنى له صياغة المقال بأسلوب أدبي، وليضمَّن بعض الأفكار التي تُحفِّز القراء على أن يحذو حذوه في طلب العلم، وفي التفوق والتميز.

في نهاية الأسبوع التقى به سالم، وأخذ منه المقال، ووعد به بأن يأتيه به عندما يُشَر. بعد ذلك اللقاء انشغل محمد بأعماله الأخرى، وانقطع سالم عن ملاقاته محمد لعدة أسابيع. وخلال تلك الأسابيع، حاول محمد أن يلتقي به ليفتح معه موضوع المقال، لكن سالمًا كان يعتذر عن ملاقاته، ويتعلَّل بأعذار بدت لمحمد واهية، لكنه احترم خصوصياته، فلم يُشكِّك في صدق تلك الأعذار.

وبعد مرور ما يقارب من شهر من تسليم المقال لسالم، فوجئ بشخص يتصل به ويهنئه على المقال الذي نشره في الجريدة الحكومية. تذكَّر المقال،

حِيل ماهرة

وتذكر أن سالمًا وعده بأن يخبره عندما ينشر. ازدادت دهشته عندما أخبره المتصل بأن الديوان الملكي أعجب بالمقال، وأنه يريد أن يقدم له مكافأة، وأنه يمكنه الحضور لاستلامها في أيّ وقت.

شكّ في سبب اهتمام الديوان الملكي بمقاله، فاتصل بسالم، وأخبره باتصال الديوان الملكي، وقال له:

- لا بُدَّ أن في الأمر سرًّا لا أعرفه.

ردّ عليه، وهو يحاول أن يصرفه عن تحرّري ما جرى:

- لا أظنُّ ذلك، فإن المقال الذي كتبتَه كان متميِّزًا، ولا بُدَّ أنهم أيضًا قد أعجبوا بتفوّقك الدراسي، وخاصة في ذلك التخصص الفريد.

لم يقتنع برده فطلب منه أن يأتيه بنسخة من المقال. حاول سالم أن يأتي بأعذار، ومنها أنه في هذه الآونة مشغولٌ جدًّا، وأنه قد لا يحضر للبلد لعدة أسابيع. كذلك، أخبره بأنه لم يشتري الجريدة في ذلك اليوم. ردّ محمد، وقد أحسَّ بريته مما جرى:

- لا بأس، سأحاول الحصول على المقال بطريقي الخاصة.

اتصل ببعض معلميه وسألهم عما إذا كانوا قد اشتروا جريدة ذلك اليوم. لم يحصل على الجريدة من أحد، فتذكّر المكتبة العامة، فذهب إليها، وبحث عن المقال فوجده. لم يُصدّق نفسه وهو يقرأ المقال؛ فقد وجد أن سالمًا قد أدخل فيه من عبارات المديح والثناء للمملكة والملك ما غطى عن موضوع المقال.

غضب غضبًا شديدًا من تصرّف سالم، واتصل به على الفور، وقال له بنبرة

تفوح غضبًا:

– أشكرك يا عزيزي على المقال الذي كتبته باسمي. والله لولا معزتك عندي لعرفتُ كيف أتعامل مع تصرُّفك هذا.

تعلَّل سالم بأنه يريد مساعدته، وشرح له أن المجتمع ما زال غير مهيبٍ لقراءة المقالات العلمية البحتة، وأنه أدخل عليه بعض العبارات لتلطيف المقال. لم يشأ أن يدخل معه في عراك، فأغلق السماعة في وجهه.

أحسَّ سالم بأن صديقه مغضبٌ عليه، فما إن عاد من عمله في نهاية الأسبوع حتى بادر لزيارته. حاول أن يأتي بمبررات على ما فعله في مقاله، ولكن محمداً لم يقتنع بها؛ وخاصة أن العبارات التي أدخلها كان فيها من التزُّف الممجوج للحكومة والملك ما لا يرضاه الذوق السليم، فضلاً عن صاحب الإيمان والعقيدة والفكر المستقيم. قال له:

– أنا لم أقدم على كتابة ذلك المقال لأتباهى بما امتنَّ به عليَّ سبحانه من علمٍ وتفوقٍ، فكيف بأن يكون وسيلة للتملُّق والتزُّف؟

حاول سالم من خلال حوار طويل أن يقنعه بأن التزُّن بالأخلاق والمبادئ لا يُجدي في هذا الزمان شيئاً، وأن عنده من الفرص الكبيرة التي يمكن أن تحقق طموحاته وأحلامه، وبعد أن يحصل على مبتغاه يمكنه أن يواصل حياته كما يشاء. هداً قليلاً، لكنه بقي ساخطاً على سالم وتخليه عن القِيم والمبادئ التي ظلا أيام دراستهما وهما يتغنيان بها.

حاول سالم أن يقنعه بأن يأتي إلى العاصمة ويذهب سويّاً إلى الديوان الملكي لاستلام المكافئة، لكن محمداً رفض. عندها، حاول إقناعه بأن يذهب هو بنفسه إلى الديوان الملكي ويستلم المكافئة، ولكن محمداً أذره بأنه لو

حيدل ماهرة

فعل ذلك فستكون نهاية العلاقة بينهما. لم يرَ سالمُ بدءًا من الانصياع لمطلب صديقه، وإلا خسره مدى الحياة.

فيما يبدو أن نشر ذلك المقال كان له تأثير على طلب الوظيفة الذي تقدم به محمد لبعض الجهات والمؤسسات منذ عدة أشهر؛ ففي الأسابيع التي تلت نشر المقال استلم عدة مكالمات من جهات حكومية وخاصة. كان غالبية المتصلين يهنئونه على المقال الذي كتبه، وفي الوقت نفسه يعرضون عليه العمل معهم.

لقد تعجّب كثيرًا كيف لمقالٍ واحدٍ من شخصٍ مغمورٍ أن ينتشر ذلك الانتشار، ويؤثر على مجريات التوظيف. عندها، فهم كيف أن أناسًا لا قيمة لهم في المجتمع ولا وزن يصيرون - بين عشية وضحاها - حديث الإعلام، ويُتوجون بالألقاب ويُمنحون من المناصب ما لا يستطيع الوصول إليه صاحب العلم والمروءة والشرف.

أحسّ حينها بالدور المهم الذي يلعبه الإعلام، وجعل من أولوياته وواجباته أن يبحث عن أصحاب الأفلام الحرة والنزيهة والمخلصة، ويحاول توجيههم لكي يصلوا إلى وسائل الإعلام المختلفة، ثم يُحفّزهم ليجتهدوا فيصلوا إلى مناصب النفوذ والقيادة، والتي يستطيعون من خلالها برمجة عقول الناس إيجابًا نحو خدمة دين الله، كما يبرمجهم أعداؤهم سلبيًا.

سائل نفسه:

- ماذا لو كتبتُ مقالًا فيه انتقادٌ صريحٌ للحكومة؟ هل يمكن له أن ينتشر؟ هذا لو وجد الفرصة لأن يظهر. إن إعلام اليوم يقوم بتعبيد الناس للحاكم دون

أن تكون هناك حاجة لبيعهم في أسواق العبيد. إنه يبرمج الناس ليكونوا من ذوي الولاء المطلق للحاكم، حتى يُصبح في أعينهم وكأنه ملكٌ مقربٌ أو نبيٌّ مرسل، وربما نظر إليه البعض - والعياذ بالله - وكأنه إله.

لم يقبل أيًّا من تلك العروض؛ إذ إن غالبيتها كانت في مجالات بعيدة عن تخصصه. كذلك، كانت جميعها قاصرة عن الوفاء بطموحاته ورغباته من ناحية الفرص التدريبية ومكان العمل وطبيعته. ورغم كل ما حدث، إلا أنه كان طيلة تلك الفترة يلتقي بسالم في نهاية كل أسبوع ويُطِعه على المستجدات، وكان سالم لا يقابله إلا بالنصائح، ويطلب منه أن يلين قليلاً ويتنازل عن مبادئه وطموحاته، وهو يرفض كل ذلك.

طالت المدة لعدة أشهر أخرى، وأحسَّ بأن الأبواب بدأت تنغلق في وجهه، فاستغلَّ سالم تلك الظروف لتشجيعه على الكتابة إلى الجريدة مرة أخرى، وكان يرفض ذلك خشية قيام سالم بتحويل مقالاته من جديد بطريقة لا تناسبه. أحسَّ سالم بأنه لن يكتب شيئاً للجريدة، ولذا بدأ يتعامل معه بمكر.

استطاع أن يقنعه بأنه قد أخطأ في تدخُّله في مقاله السابق، وأنه ندم على ذلك. وحاول أن يقنعه أن المملكة بحاجة إلى الأقلام المخلصة التي تستطيع توجيه المجتمع إلى الخير والبذل والعطاء. قال له:

- تعلم يا محمد بأن الساحة تعجُّ بالأقلام المستأجرة التي تحاول توجيه الناس إلى مشارب شتى، وإن تخلَّيت أنت والمصلحون من أمثالك عن المشاركة في الكتابة في هذه الصحف، فمن سيستطيع توجيه الناس إلى الخير والصلاح؟

حيل ماهرة

كان هذا الأسلوب يُدغدغ مشاعر محمد، رغم أنه لا زال يتوجَّس من تدخُّل سالم فيما يكتب. حاول سالم أن يقنعه بأنه لن يتدخَّل في المقالات التي يكتبها، وأنه إن تبيَّن له غير ذلك فيأمكنه أن يفعل معه ما يشاء. اطمئن محمد لهذا، وبدأ يكتب مقالاته ويسلِّمها لسالم، وكان سالمٌ يأتيه بالمقالات المنشورة، ويجدها محمد كما هي دون تحريف أو تعديل.

ارتاح لنشر مقالاته، ولمساندة سالم له. ورغم أنه لم يتلقَّ أية مكالمات أو رسائل شكر، حتى من الجريدة نفسها، إلا أنه واصل الكتابة. كان له أسلوبٌ رائعٌ في مخاطبة فئة الشباب للثبات على المبادئ، والجِدِّية في التعامل مع الأحداث، والاهتمام والإخلاص في العمل والدراسة. وكانت غالبية مقالاته تنصبُّ في طرح القضايا الاجتماعية والتربوية، ومحاولة تحليلها وبيان أسباب نشوئها وانتشارها، والأساليب التي يراها ناجحة لمعالجتها. كذلك، قام بنشر مقالات حول علوم الفضاء، ودور الغرب في الارتقاء بها، والدور الذي يفترض أن تلعبه الأمة في هذا الجانب.

وبعد أن كثرت تلك المقالات، بدأ يتلقى دعوات من بعض الأفراد والنوادي الثقافية لإلقاء محاضرات حول علوم الفضاء وبعض القضايا التي كان يطرحها في مقالاته. سرَّرتلك الدعوات كثيراً؛ فقد وجد فيها سبيلاً مناسباً للوصول إلى شرائح أخرى من المجتمع لا يستطيع مخاطبتها من خلال مقالاته.

كان سالم يتابع تلك التطورات، وفي نفسه شفقة على صديقه الذي بدأ يشكو من حاجته للحصول على عمل لتوفير نفقاته ومصاريفه، ولمساعدة أسرته، رغم أن أسرته كانت طيلة تلك الفترة تقف بجانبه وتشجعه. وبعد مرور عدة أشهر على اعتراض محمد على المقال الذي أدخل عليه سالم بعض

التعديلات، رأى سالم أن محمداً ربما يكون قد اطمئن إليه، وأنه لو طلب منه طلباً مشابهاً لطلبه الأول فلربما لن يرفضه.

أراد في هذه المرة أن يغيّر خطته، فقال له:

– أرى أنه قد صارت لك شريحة لا بأس بها من القراء، وأنه قد حان الوقت لنقلهم إلى مستوى أرقى من الفكر والفهم.

كان محمد لا زال يتوجّس ريبة من أية مقترحات جديدة من سالم، ولذا قال له:

– هذا صحيح، ولكن كيف؟

– إن هذه الشريحة قد تعودت على مقالاتك وأسلوبك في طرح القضايا ومعالجتها. لكنك تعلم أن هناك من القضايا ما لا تتسع لها أوراق الجرائد لطرحها، فضلاً عن معالجتها.

لم يكن فيما قاله سالم شيءٌ يثير الريبة، ولذا ردّ عليه:

– صدقت، فكم من القضايا لا أستطيع أن أتطرق إليها إلا بعبارات مبتورة، مما قد يضربُّ القارئ أكثر من أن ينفعه.

شعر سالم بأنه قد حان الوقت لطرح فكرته الجديدة، فقال له:

– إذن، لماذا لا تبدأ في التأليف؟

ردّ بدهشة:

– ماذا تقصد؟

– أقصد أن تقوم بتأليف بعض الكتب.

حيدل ماهرة

تأليف الكتب؟ إنها فكرة جميلة، لكن محمداً يعرف أبعادها، ولذا ردَّ عليه:
- ولكنك تعلم أن تأليف الكتب أمانة كبرى؛ فهي رسالة المرء لجيله
الحالي ولأجيال تأتي من بعده، والكتب تُستَخدم كمستند يُحكَّم من خلاله
على معتقد الشخص وفكره وعلمه، وأنِّي لي بالعلم والفهم اللذان يُمكنَّاني
من مخاطبة الناس بأسلوب فيه من الحكمة والدراية ما يستطيع أن يوجههم
لصلاح الدارين؟

- لكنك تعلم أن الشروع في التأليف قد يكون حافزاً لك ولغيرك على
التعمُّق في العلوم المختلفة، وفي الوقت نفسه هو وسيلة للارتقاء بأسلوب
الشخص وثقافته.

قال محمد، وكأنه اقتنع بما يقوله سالم:

- قد يكون الأمر كما ذكرت، ولكن في أيِّ موضوع أكتب؟

- أقترح بأن تبدأ بشيء بسيط، وبما عندك فهم راسخ فيه.

- ماذا تقصد؟

- أقصد أن تبدأ بكتابة بحثٍ متميِّزٍ عن تاريخ علم الفضاء والتطورات التي
طرأت عليه.

سُرَّ محمد بهذا الطلب، وراقت له الفكرة، ووعد سالمًا بأن يجتهد في
ذلك. تذكَّر الكتاب الذي بدأ بتأليفه أيام دراسته ولكنه لم يكمله بسبب ظروف
الدراسة. رجع إليه، وصرف معظم وقته في مراجعته وإدخال التعديلات
والإضافات عليه حسبما استجدَّ عنده من معلومات وخبرات. بعد حوالي
أسبوعين فرغ من الكتاب، وكان في أكثر من ٨٠ صفحة، بأسلوبٍ علميٍّ

رصين، يتخللّه الكثير من الجداول والصور والاقباسات.
في نهاية الأسبوع التقى بسالم، وعرض عليه الكتاب، فسُرَّ به كثيرًا. سأله
محمد:

- وماذا تقترح أن نفعل به الآن؟

لم يشأ أن يشير ربيته من جديد، فقال له:

- لماذا لا تقوم بعرضه على بعض دور النشر، وترى رأيهم فيه؟

- فكرة جيدة، ولكن معظم دور النشر موجودة في العاصمة، فهل يمكنك

أن تقوم أنت بعرضه عليهم؟

سُعد سالم بهذا الطلب كثيرًا، فقال:

- سأفعل ذلك بإذن الله، وسأحاول التفاوض معهم حول حصتك من

مبيعاته.

- لا يهمني كثيرًا إن كنتُ سأحصل على عائدٍ مالي منه أم لا. كل ما يهمني

هو أن أستطيع أن أسهم في خدمة بلدي وأمتي من خلاله.

أخذ سالم الكتاب معه، وانقضت عدة أسابيع، وكان كلما سأله محمد أين

وصلت إجراءات النشر، كان يطمئنه بأن الأمور تسير بشكل جيّد. عندما طالت

المدة، بدأ محمد يشكُّ في الأمر، وخاصة أن سالمًا كان يراوغ حتى في اللقاء

به.

وذات يوم التقى به وسأله - كعادته - عن كتابه، فردَّ عليه:

- لا تقلق يا عزيزي، فكتابك سيوصلك - بإذن الله - إلى مراتب لم تطمح

إليها من قبل.

توجَّس محمد من هذا الردِّ، فقال له:

- ماذا تقصد؟!؟

ارتبك قليلاً، ثم قال:

- أقصد أن الكتاب قد يصل إلى أناس وشرائح لم تظن أن يصل إليها.

حاول أن يُهدِّئ من روعه ويصرفه عن تساؤلاته، لكن محمداً بقيت عنده

شكوك بأنه قد يحاول استغلال كتابه لأمر ما.

ولقد كان ما توقعه في محله؛ فبعد حوالي شهرين من تسليم الكتاب لسالم،

تلقى اتصالاً جديداً من الديوان الملكي، وفوجئ بالمتصل يخبره بأن جلالة

الملك اطَّلَع على كتابه وأنه أُعجِب به كثيراً، وأنه يرغب في مقابلته في مثل هذا

اليوم من الأسبوع القادم.

الفصل السادس عشر: المرافق الخاص

كان اتصال الديوان الملكي بمثابة اللغز لمحمد؛ فسالم لم يخبره بأنه قد تم الانتهاء من طباعة الكتاب، فكيف وصل إلى الديوان الملكي؟ وكيف استطاع بحثه أن يحظى باهتمام الملك؟ ولقطع تلك الشكوك، ولدرء الظنون اتصل فوراً بسالم، وبادره بنبرة فيها من الريبة والشك:

- ماذا فعلت بكتابي؟

ارتبك من هذا السؤال، وحاول - كعادته - أن يراوغ في الإجابة، فقال:

- أخبرتك بأنه لا داعي للقلق، فسيظهر الكتاب قريباً بإذن الله.

لكن محمداً أردف قائلاً:

- إما أنك لم تفهم سؤالي، أو أنك تراوغ في الإجابة!!

ردّ سالم بأسلوبه الماكر:

- وماذا تقصد؟

أخبره باتصال الديوان الملكي، وأنهم أخبروه بأن الملك قد اطلع على كتابه، وأنه يرغب في مقابته. صمت قليلاً ليعرف ما سيقوله سالم، لكنه لم ينطق بكلمة. عندها تابع محمد، فقال:

- وأنت تعلم أن الديوان الملكي لن يهتم بكتاب عن علم الفضاء من شخصٍ مغمور في المجتمع، فكيف استطاع أن يحظى باهتمام الملك؟ حاول سالم أن يراوغ في الإجابة مرة أخرى، فقال:

- بل على العكس من ذلك، فإن الديوان الملكي يتابع بحرص ما يُنشر في الصحف والمجلات، وما يُطَبَع في المطابع المختلفة، وعندما يروا مقالاً أو بحثاً أو كتاباً جديراً بالاهتمام فإنهم يتواصلون مع مؤلفه.

أخبره بأن هناك دائرة في وزارة الإعلام متخصصة في مراقبة المطبوعات، وربما أوصلوا تقريراً للديوان الملكي عن الكتاب، وما يحويه من مضمون علمي قيّم، وأنه مكتوب بأسلوب راقٍ قلماً تجدل له مثيلاً في المملكة. ثم قال بأسلوبه المخادع:

- أنت تعرف أن الحكومة يهملها أيضاً ظهور المتميزين، فهي قد تستفيد من إنتاجاتهم لتزيين صورتها أمام الجماهير.

بدا وكأن محمداً قد اقتنع بكلامه، لكنه لا تزال بداخله بعض الشكوك، فقال له:

- لو كان الأمر كما ذكرت، لكان هذا خيراً للناس والمملكة، ولكن هل يُعقل أن يقوم الملك بمقابلة كل من نشر مقالاً أو بحثاً أو كتاباً؟

- قطعاً لا، ولكن عندما يشعرون بوجوده ما تم نشره، فإنهم يعرضونه على جلالة الملك، وهو قد يختار مقابلة الشخص، أو ربما يكتفي بمكافأته.

قال محمد، وقد بدأ يرتاح لكلام سالم ويصدقه:

- ولماذا تظن أن الملك يريد مقابليتي؟

هنا وجد سالم الفرصة سانحة لإقناع محمد بالذهاب للمقابلة:

- أظن أن الأمر لا يعدو أن يكون نوعاً من التكريم، وفي الوقت نفسه التحفيز على مواصلة البذل والعطاء. وأنا في رأيي أن هذه فرصة ذهبية قد لا تتكرر في العمر كله.

ثم أردف قائلاً، وكأنه يريد قطع الحديث في الهاتف:

- على كل حال، عندما أعود إلى البلد سنلتقي - بإذن الله -، وستكلم في الموضوع مرة أخرى.

في صبيحة الخميس زاره سالم في بيته مع زوجته سمية، فكانت فرصة لمحمد للانقضاض عليه. عاود معاتبته من جديد، وسالم يُبين له أن الأمر لا يحتاج إلى كل هذا القلق. حاول مرة أخرى أن يثير الشكوك حول الهدف من المقابلة، والسّر في اهتمام الديوان الملكي الزائد به وبما ينشره. لكن سالمًا حاول أن يطمئنه، وقال له، وكأنه يمزح معه:

- مقابلة جلالة الملك قد تكون فرصة ساقها الله لك لطرح موضوع الوظيفة من جديد، وأنت تعلم أنه بمقدور الملك فعل ما لا يستطيع الوزير فعله. كذلك، يمكنك أن تطلب منه أية أمورٍ أخرى تأمل في الحصول عليها. لم تعجب العبارة الأخيرة محمدًا؛ فهو قد نظر إليها على أنها نوع من التزلف للملك، فردّ عليه مغضبًا:

- أتعني أن أتزلف للملك وأقبل يده من أجل وظيفة؟

عندها، اشتاط سالمٌ غضبًا من مواقف محمد المتشددة، فردّ عليه:

- أولاً، أنا لم أقصد ما ذكرت، وإنما كل ما أخبرتك به هو أن تستغل أية

فرصة تسنح لك للحديث عن الوظيفة التي تطمح إليها. وثانيًا، وماذا لو تملّقت للملك وترلّفت إليه؟ أليس ذلك خيرًا من أن تبقى تستجدي الوزراء والمدراء؟ أحسّ بانفعال سالم، فحاول الاعتذار إليه، ولكن بأسلوبه المعتاد، فقال له:

– أنا أشكر لك حرصك على مساعدتي للحصول على وظيفة، ولكنك تعلم أنني لا أريد أن أتنازل عن قِيَمِي ومبادئِي، حتى وإن كان الأمر يتعلق بالملك.

– أنا لم أطلب منك التنازل عن قِيَمِك ومبادئك، ولكن عليك أن تستغل الفرص التي تسنح لك، ومقابلة جلالة الملك – كما أخبرتك – فرصة لا تُعوّض.

– على كل حال، هم يريدون مني الذهاب إليهم يوم الاثنين القادم، فما رأيك؟

ردّ سالم بنبرة حازمة:

– ليس عندي رأيٌّ آخر لك سوى الذهاب. وسأخذ يوم الاثنين إجازة لنذهب سويًّا إلى قصر الرئاسة.

شعر محمد بالامتنان لصديقه، فقال:

– أنا لا أريد أن أعطّل عليك عملك، ويمكنني تدبير الأمر بنفسِي.

– أعلم أنك قادرٌ على تدبير أمورك بنفسك، ولكن عندما نكون سويًّا نستطيع مسامرة بعضنا بعضًا، وخاصة في فترات الانتظار.

اتفق الاثنان على أن يذهب محمد إلى العاصمة مساء الأحد، وفي الصباح يذهبان إلى قصر الرئاسة. اقترح سالم عليه أن لا يخبر والديه بموضوع المقابلة كي لا ينتشر أمره، فوافق على ذلك.

بعد صلاة العصر من يوم الأحد تجهز محمد للسفر، وكان قد أخبر والديه بأنه سيذهب إلى العاصمة لمراجعة بعض الجهات. عندما وصل إلى شقة

سالم فوجئ بسيارة لكسيس جديدة تقف أمام العمارة. وما إن دخل الشقة،
ورحّب به سالم، حتى قال له:

- هل لاحظت سيارة اللكسيس أسفل العمارة؟

ردّ محمد باستغراب:

- نعم، لمن تلك؟

- لقد استعرتها من زميل لي، وأحضرتُ من زميل آخر شماغًا فاخرًا يليق
بك.

استاء محمد كثيرًا من هذه التصرفات، فردّ عليه مغضبًا:

- لقد أخبرتك بأنّي أرفض تقمُّص شخصية غيري.

فقال سالم مبتسمًا:

- يجب أن تظهر لجلالة الملك بمظهر يليق بمقامك.

- على كل حال، أريد نسخة من الكتاب لأتصفحها قبل ذهابي إلى هناك.

أخبره سالم بأنه لم يستلم أية نسخة من الناشر، وأنه لم يعرف عن طباعة
الكتاب إلا عندما أخبره هو. زادت شكوكه، ولكنه فضّل عدم الدخول في
نقاشات معه إلى أن تتبيّن حقيقة الكتاب.

كان موعد المقابلة- حسبما أخبره المتصل من الديوان الملكي- في
الساعة العاشرة، فكان عندهما متسعٌ من الوقت. بعد صلاة الفجر بقي محمد
في المسجد إلى شروق الشمس، ثم صلى الشروق وعاد إلى الشقة، فوجد
سالمًا قد أعدّ الإفطار، ثم نام. عندما أحسّ بقدمه، استيقظ وأفطرا سويًا. في
التاسعة تحركا- حسب طلب محمد- تحسبًا لمصادفة حوادث أو ازدحامات
غير متوقعة.

عندما اقتربت سيارتهما من بوابة القصر، أوقف الشرطي السيارة، وسأل سالمًا عن وجهتهما، فأخبره بأنهم جاؤا لتلبية دعوة من جلالة الملك. سأل الشرطي عن اسمه، فأخبره باسم محمد علي. قام الشرطي ببعض الاتصالات، وبعدها طلب منهما أن يقودا السيارة إلى قاعة كبار الشخصيات، وسيجدان هناك من يستقبلهما.

عندما وصلا إلى قاعة كبار الشخصيات، وجدا اثنين من الحرس الملكي واقفين، وكأنهما ينتظرانهما، وأشار الرجلان إليهما ليقفا. أوقفا سيارتهما، فجاء الرجلان وفتحا لهما الباب. وبعد خروجهما من السيارة، إذا بشخص يتقدم إليهما ويصافحهما، وكان الشخص عليه من الأناقة ما يدلُّ على أنه من كبار المسؤولين في القصر الرئاسي.

تنحى الرجل جانبًا، ثم نظر إلى محمد، وكأنه عرف من لباسه أنه هو المدعو، ثم سأله:

– من منكما محمد علي؟

ردَّ سالم بزهو: هذا محمد، وأنا صديقه سالم.

– سَعِدْتُ بلقائكما. أنا رئيس المراسم في القصر الرئاسي، وسأكون بصحبتكما.

ردَّ سالم:

– تشرفنا.

أشار رئيس المراسم لهما بالدخول إلى مبنى القصر، ومشى هو بجانب محمد. لاحظ محمد أنه كلما تقدَّم في المسير رأى من ألوان الأبهة ما لا يقدر

المرافق الخاص

على وصفه. تذكّر للحظات حياة النبي - صلى الله عليه وآله وسلم -، وكيف كانت حجيرات زوجاته لا تكاد تتسع الواحدة منها لأكثر من ثلاثة أشخاص، وقد لا تجد بداخلها حتى وسادة من ليف. وتذكّر الفاروق الذي كانت تهتز لذكر اسمه عروش كسرى وقيصر، ومع ذلك كان ينام على الحصباء.

سألهما رئيس المراسم عن أحوالهما، واعتذر إليهما عن انتظارهما عند البوابة - رغم أنه كان لفترة وجيزة. قال سالم:

- نشكر لكم هذا الاستقبال، ونعتذر نحن عن تأخرنا عليكم.
- لا بأس، فما زال في الوقت متسع.

بقي محمد صامتاً، ولم ينطق إلا بعبارات مقتضبة عندما يجيب على أسئلة رئيس المراسم؛ فهو يتوجّس ريبة من دخول قصور الملوك خشية أن يُتهم في دينه، وخاف أن يصل أجله وهو داخل القصر.

أخذهما رئيس المراسم إلى صالة استقبال فخمة، وأشار إليهما بالجلوس على إحدى الأرائك الفخمة، والتي كانت أمامها طاولة أنيقة بها أنواع الفواكه والحلويات والعصائر. أخبرهما بأن يرتاحا قليلاً، وطلب منهما أن يتناولوا شيئاً من الفواكه والحلويات والعصائر، وأخبرهما بأنه سيعود إليهما بعد قليل.

تعجب سالم من حفاوة الاستقبال والاهتمام الزائد بهما، وأنكر على محمد بقاءه صامتاً. خاطبه باستنكار:

- يا أخي، ما لك لا تتكلم، وهذا يوم عيد لك؟
ردّ محمد بتهكّم:

- يوم عيد؟! أرجو من الله السلامة.

لم يفهم سالم قصده، ومع ذلك لم يشأ أن يدخل معه في نقاش. بقي حديث سالم أثناء الانتظار يدور معظمه حول ما شاهده من طيب الاستقبال وحنو حفاوة التكريم، وأما محمد فبقيت الشكوك حول المغزى من المقابلة لا تكاد تفارقه. تناول الاثنان كوبًا من العصير وبعض الحلويات، وأثناء ذلك كانا يجولان بناظرَيْهما في تلك الصالة الفخمة. كان سالم لا تكاد تقع عينه على شيء حتى يمدحه بانبهار، وأما محمد فكانت تتصارع في نفسه شهوة الانبهار بما يرى، وتأنيب الضمير من كون ما يرى ليس إلا متاعًا زائلًا، وصار يُذكر نفسه بأن هذه ما هي إلا فتن الحياة الدنيا، وأن النعيم الحق ليس إلا في الجنة.

مرت حوالي عشر دقائق، وبعدها جاء رئيس المراسم وبادرهما قائلاً:

- أتمنى أن تكونا قد استمتعتما بهذا الوقت القصير.

ردَّ سالم:

- بكل تأكيد. نشكركم على حسن الضيافة.

ردَّ بأدب:

- العفو.

ثم تابع:

- جلالة الملك ينتظرنا للدخول عليه، وسندخل أنا ومحمد، ويمكنك يا سالم أن تبقى هنا.

نظر سالم إلى محمد بانكسار؛ وكأنه يرغبه على هذه الفرصة العظيمة لمقابلة الملك. وبعد برهة من الصمت قال:

- لا بأس.

المرافق الخاص

نهض محمد وحمل معه حقيبته الدبلوماسية، ولكن رئيس المراسم أخبره بأنه لا يمكنه حمل حقيبته معه، فأصبرَّ على حملها، وأخبر رئيس المراسم بأنه يرغب أن يُري جلالة الملك بعض الأوراق الخاصة، لكن رئيس المراسم جدَّد رفضه لذلك، فاضطرَّ لتركها مع سالم.

أخذه رئيس المراسم أولاً إلى مكتبه، وأشار إليه بالجلوس، ثم بدأ يشرح له البروتوكول الخاص للسلام على الملك، ويتلخص في أن يمشي رئيس المراسم في المقدمة ويتبعه محمد، وعندما يصلان إلى مقربة من الملك يتنحى رئيس المراسم إلى جانب، ويقف محمد مكانه، بينما يقوم رئيس المراسم بتعريف الملك به. عندها، على محمد أن يتقدم إلى الملك ويمد يده اليمنى ليصافحه، بينما يضع يده اليسرى على رأس الملك، ويرفع جسده قليلاً ليُقَبِّل رأسه، ثم يُنزل يده من رأس الملك، بينما يُبقي يده اليمنى مصافحة للملك إلى أن يشعر بأن الملك يريد نزوعها، وعندها يرجع محمد إلى الخلف، و ينتظر إشارة الملك له بالجلوس، وعليه أن يجلس في الموضع الذي أشار إليه الملك.

كان يستمع إلى كلام رئيس المراسم وهو يؤنب نفسه على الوقوع في هذه الورطة. خاطب نفسه:

- كيف يمكنني أن أُقبِّل رأسه وأنا لا أُكِنُّ له أيَّ حب وولاء؟ أليس هذا النفاق بعينه؟ ماذا لو قُبِضْتُ رُوحِي وأنا في ذلك الموقف؟ أتري أن الله سيرضى عني؟

رأى أن لا سبيل للتراجع الآن، فبدأ يسأل الله أن يغفر له ما أوقع نفسه فيه. دخل الاثنان على الملك، وسارت الأمور كما شرحها رئيس المراسم.

جلس الملك على أريكته، وجلس محمد حيث أشار إليه الملك، وبقي رئيس المراسم واقفاً. أثناء دخوله على الملك، اختلس بعض النظرات الخاطفة، فرأى قاعة متسعة الأرجاء، تُزيّن سقفها القباب الشاهقة التي تتدلّى منها الثريات الضخمة، وتغطي جدران القاعة والقباب النقوش والزخارف التي لا تكاد توصف في جمالها وتناسق ألوانها، ورأى كنبات فخمة تتناثر بتشكيلات مشيرة.

ثارت في نفسه الشجون لحال الأمة؛ فهنا تهدر ثرواتها ببذخ فاضح، وفي الخارج يتصوّر الملايين من الجوع. خاطب نفسه بأسى:

- أين أنت يا حبيبي يا رسول الله؟ ليتك كنتَ حيّاً لترى كيف يسرق هؤلاء أموال الشعوب ويتلذذون بها، وشعوب المسلمين لا تكاد تجد لقمة العيش.

أين أنت يا عمر لترى حال هؤلاء؟ لو كنتَ حيّاً يا سيّدي لاستطعتَ أن توفر هذه المليارات التي تُهدر بدون حسيب ولا رقيب، وتُسخرها في نشر دين الله. ولكن أنّى لهؤلاء أن يفعلوا مثلك يا عمر وبطانة السوء تُزيّن لهم أن ما يفعلونه هو حقٌّ مشروعٌ لهم؟! وأنّى للشعوب المظلومة أن تثور عليهم والإعلام يُصوّرهم بأنهم سبب الحياة والبقاء، وأنه لولاهم لعاش الناس حياة الدّلّ والهوان؟!!

بقي يستغفر ربه وهو يحاول أن يقاوم نفسه من أن يصيها شيءٌ من الانبهار بما يرى، فغضّ بصره عمّا حوله، وبقي محدّقاً في الملك.

كان الملك قصير القامة، نحيل الجسم، عليه ثوبٌ ناصع البياض، وشماعٌ من النوع الممتاز، ولم يكن في هيئته وملبسه شيءٌ غير مألوف. أخذ من

المنضدة التي أمامه كتابًا جميلًا ذا ألوان زاهية، ثم خاطب محمدًا بابتسامة:

- كتاب جميل يَنمُّ عن إبداع وإخلاصٍ في حب الوطن.

عرف أن الكتاب هو كتابه، وإن كان يراه لأول مرة، لكنه لم يفهم عبارة الملك: وإخلاص في حب الوطن، فهو لم يُضْمَنه عبارات عن الوطن وحب الوطن، وإنما كان بحثًا علميًا مجردًا عن علم الفضاء. خاطب نفسه:

- هل يقصد أن تأليفه لهذا الكتاب يعتبر من الإخلاص في حب الوطن؛

لأنه سيكون له شأنٌ عظيم، مما سيرفع من سمعة الوطن عند الآخرين؟

لكنه رجَّح أن يكون سالم قد عاد إلى حيله السابقة في حشو الكتاب بعبارات فيها تمجيد للملك والوطن.

لم يَرِ بُدًّا من أن يردَّ على الملك، فقال:

- أشكر لكم يا جلالة الملك اهتمامكم بالكتاب، وإن كان لا يستحق هذا

الثناء.

أكد الملك على كلامه السابق، فقال:

- بل على العكس؛ فهو كتابٌ قيِّمٌ جدًّا، ولذا رأينا أن يقوم الديوان الملكي

بطباعته على نفقتنا الخاصة، وأن يتم تعميمه على جميع المدارس والجامعات لتدريسه كمادة أساسية.

ما إن سمع تلك العبارات حتى زادت شكوكه في أن في الأمر شيء لا

يعرفه. قال للملك:

- أشكر لكم يا جلالة الملك هذه الحفاوة البالغة بالكتاب.

عاود الملك حديثه فقال:

- إني عندما قرأتُ الكتابَ أعجبتُ بشخصيتك كثيراً، وبأسلوبك الرائع في الكتابة، ولذا قررنا أن يتم توظيفك في القصر الرئاسي كمراقب خاصٍّ لنا؛ بحيث تقوم بتغطية أخبارنا بأسلوبك الشيق.

في أول الأمر، نزلت هذه الكلمات على قلب محمد كالصاعقة، وفهم أن الأمر ليس إلا نتيجة لحيلٍ سالم، وها هو يُراد منه أن يُسخَّر مواهبه لينقل للجماهير السائمة أخبار الملك وحاشيته. كذلك، فهذا يعني أن عليه أن ينسى أحلامه وطموحاته وآماله.

دخل في صراعٍ نفسيٍّ عنيف؛ فنفسه الأمانة بالسوء تُزيِّن له هذا الأمر، وتقول له:

- مرافقٌ خاصٌّ للملك؟ هذا يعني أنه سيكون لك راتبٌ مثل رواتب الحاشية المقربة للملك، وستُعطى من القصور والأراضي والخدم ما لا يحلُم به إنسان.

لكنه صرخ في أعماقه محاولاً مقاومة نفسه:

- أستغفر الله، أستغفر الله. يا نفس توبي إلى الله. ألا تخافين عقاب الله؟ ثم قال بضعف:

- ويحي إن كنتُ سأخسر أكثر من عشرين عاماً قضيتها في طاعة الله وخدمة دينه من أجل هذه الحفنة الحقيرة من المغريات.

هجمت عليه الوسوس مرة أخرى، وحاول الشيطان أن يُزيِّن له أن ما سيحصل عليه من هذا المنصب سيستطيع تسخيره في خدمة دينه والدعوة إلى الله، وأنه من خلاله سيستطيع أن يوسِّع من أنشطته الدعوية؛ فالموارد المادية

المرافق الخاص

ستكون تحت تصرّفه، ولن يخشَ ملاحقة أجهزة الرقابة المالية والأمنية له. عرف أن تلك وسوسات شيطانية، فبدأ يستغفر الله ويستعيد من الشيطان، حتى إن الملك لاحظ صمته وتمتمات شفّيته، فظن أن المفاجئة قد عقدت لسانه، وأن وجهة المنصب قد جعلته يسبح في خيالات وأحلام. لذا، قطع عليه صمته، فقال مبتسمًا:

- أعرف أنه منصبٌ يليق بأمثالك، وستحظى منا على هباتٍ ومكرات كثيرة.

أراد أن يعتذر للملك عن هذا المنصب، وأن يطلب منه وظيفة متواضعة في صُلب تخصصه، ولكن الملك سبقه بالكلام فقال:

- سيقوم رئيس المراسم بالترتيب لتجهيز مكتبك، وسنسرُّ برؤيتك بيننا. لم يدرِ ما يقول، فهزَّ رأسه، وكأنه يوافق على ما قاله الملك، وأبدى ابتسامة مصطنعة تُخفي ما بداخله من الاضطرابات النفسية، ثم لم يزد على أن قال له: - شكرًا.

عندها، قام الملك، وقام محمد معه، ومدَّ الملك يده للمصافحة، فمدَّ محمد يده، ثم نزع الملك يده، فنزع محمد هو الآخر يده. بعدها، أشار رئيس المراسم إلى محمد بالانصراف، فتحركَ ومشى رئيس المراسم بجانبه. عندما خرجا من عند الملك، قال له رئيس المراسم بابتسامة ونبرة تشي بالسرور:

- مبارك عليكم سيّدي هذا المنصب المرموق، وإنني سأفعل كل ما في وسعي يا سيّدي لتجهيز مكتبك ولإسعادك.

ضحك في داخله بسخرية وتهكُّم عندما سمع رئيس المراسم يناديه بيا سيِّدي، ثم خاطب نفسه:

– يا لك من دنيا غداً؛ منذ فترة كان منسَّق الوزير ينظر إليَّ بازدراء، والآن يناديني رئيس المراسم بسيِّدي؟

أراد أن يعتذر لرئيس المراسم عن قبول هذا المنصب، ولكنه رأى أنه من غير اللائق التخاصم في هذا المكان.

قبل أن يأخذه إلى صالة الاستقبال ليلتقي بسالم، توجه به إلى مكتبه الخاص، وطلب منه الجلوس. أحضر ظرفاً أنيقاً وناولته إياه، ثم قال:

– هذه هدية من جلالة الملك.

استلم الظرف، ولم ينظر إليه بعينه، وكأنه يزدرى ذلك الظرف وكل ما رأى وسمع. لقد كان في مخيلته أمرٌ واحدٌ يفكر فيه منذ أن جلس أمام الملك. لقد كان يتمنى الحصول على نسخة من ذلك الكتاب الذي أشاد به الملك كثيراً، ليعرف السر وراء كل هذا الاهتمام. قال لرئيس المراسم:

– هل يمكنني الحصول على نسخة من كتابي؟

أجابه بابتسامة:

– طبعاً يا سيِّدي.

ثم توجه إلى درج مكتبه فأخرج نسختين، وقال له:

– هذه نسخة لك وأخرى لزميلك.

قلَّب الكتاب بسرعة فلاحظ أن صفحاته تزيد بكثير عن البحث الذي أعطاه لسالم، وأن به صوراً لم تكن في البحث، وأن هناك جداولاً ومعادلات كانت في البحث لكنها صارت غير موجودة في الكتاب.

المرافق الخاص

عرف أن الكتاب ليس إلا خليط من بحثه وما دسّه سالم من صنائعه وحيلته. قام فوراً، وشكر رئيس المراسم على ما قدّمه له، وقال:

- هل يمكنني الآن الانصراف، فأظن أننا قد أطلنا عليكم؟
ردّ رئيس المراسم بابتسامة:

- نحن في خدمتكم يا سيّدي، ولكن إذا كانت هذه رغبتكم، فهيا بنا.

انطلق الاثنان إلى صالة الاستقبال، ووجدوا سالمًا جالسًا على إحدى الأرائك الفاخرة، وهو يستمتع بما لذّ وطاب من العصائر والحلويات. عندما رآهما قادمين قام من مكانه، وابتسم لمحمد، وكأنه يُعبر عن إعجابه بما أمامه من مشروبات ومأكولات، لكنه سحب ابتسامته بسرعة عندما شاهد تكثّرًا واضحًا في وجه محمد. كان محمد يعتصر غيظًا، ويتمنى لو يتمكن من رقبة سالم فيخنقه.

خاطب سالمًا بنبرة قاسية، فقال:

- هل يمكننا الذهاب؛ فقد أطلنا على رئيس المراسم؟
ردّ رئيس المراسم بابتسامة:

- أنتم ضيوف عندنا، وأنت يا سيّدي لم تتناول شيئًا، فتفضّل يا سيّدي وتناول بعض العصائر والحلويات.

عندما سمع سالم كلمة سيّدي علم أن خطته قد أثمرت، فنظر إلى محمد مبتسمًا، ورفع حاجبيه وكأنه معجبٌ بهذا الإطراء. لكن محمدًا ما كان يُطبق البقاء، فردّ بلهجة فيها انزعاج:

- شكرًا لكم، ولكنني أفضل الانصراف.

قال رئيس المراسم:

- إذا كانت هذه رغبتكم يا سيّدي، فكما تحب.

مشى رئيس المراسم في الأمام وتبعه محمد ثم سالم وراءه، ولمس سالم كتف محمد، وعندما أدار رأسه إليه، أشار بيده مستفهماً عما جرى. لم يجبه بشيء، وأشاح بوجهه عنه، وتمالك نفسه كي لا يصفعه في وجهه. تابع رئيس المراسم سيره إلى خارج القصر، وفور وصولهما إلى السيارة، توجه اثنان من الحرس الملكي، وفتح أحدهما الباب اليمين لمحمد، وفتح الآخر الباب اليسار لسالم.

وقف رئيس المراسم قريباً من السيارة، ومدّ يده لِيُسَلِّمَ على محمد، وبادره بقوله:

- في حفظ الله يا سيّدي، نراكم غداً.

لم ينطق محمد بكلمة، وإنما رفع يده قليلاً ثم لَوَّحَ بها. عندها، أغلق رَجُلًا الحرس الملكي بابي السيارة، وانطلق سالم بالسيارة ببطء وهو يُلَوِّحُ بيده لتوديع رئيس المراسم.

الفصل السابع عشر: تصفية حسابات

ما إن انطلقت السيارة وهي تخرج من مبنى القصر الرئاسي حتى أخذ محمد الظرف الذي كان في يده ونسخة من الكتاب ورمى بهما في الكرسي الخلفي، بينما أبقى النسخة الأخرى من الكتاب في يده، ثم انفجر بغضب:

- نفاق وأيُّ نفاق!! هل يظنون أنهم قادرون على شراء ذمم الناس وعقولهم!!؟

قاطعته سالم، وهو يريد أن يعرف ما جرى، فقال:

- ماذا حصل؟

هنا اشتطاط غضبه، فاستدار إلى سالم، وقال له بنبرة شديدة:

- أنت لا تتدخل في شيء، واخرس في مكانك!!

ثم صمت برهة، وكأنه يستجمع كل الغيظ الذي بداخله، ثم نفثه في وجهه فقال:

- فقط أوصلني إلى البيت، واعتبر أن الروابط التي بيننا قد انتهت، وبعد أن توصلني لا أريد أن أراك مرة أخرى.

حاول سالم أن يمتصَّ غضبه، فقال مداعبًا له:

- هذا جزاء الإحسان!! لا عليك؛ فإنك قد أصبحت من الشخصيات المهمة في البلد، وبالطبع لا يهتمك حال الفقير المسكين (يقصد نفسه).

انفجر مرة أخرى في وجهه، وقال له بغضب:

- أرجوك، الزم الصمت إلى أن نصل، وإلا خرجتُ من سيارتك!!

سكت سالم، وانشغل بقيادة السيارة، وكان بين الفينة والأخرى يرمق محمداً بنظرات خاطفة وهو يشاهده يتصفح الكتاب، ويراه في بعض الأحيان يتوقف ويقرأ بعض العبارات ثم يواصل تقليب الصفحات.

لم يدم الصمت طويلاً، حيث تكلم محمد مخاطباً سالمًا بصوت ملؤه الأسى والحزن:

- لم أكن أتوقع منك القيام بهذا العمل النذل!!

صمت سالم ولم يجب، وبعد فترة عاود محمد الكلام، فقال:

- لو كنتُ أريد تأليف كتابٍ في تمجيد الملك وحاشيته، فهل يا تُرى ستفوتني هذه العبارات؟

صمت مُجدِّداً، ثم بعد قليل واصل كلامه بصوتٍ عالٍ ونبرة حادة:

- إذن، لماذا تُلبسني ما لستُ منه؟! هل طلبتُ ذلك منك يوماً؟ إني على العكس، فأنا أرفض هذه التصرفات القذرة، وأنت تعلم مواقف السابقة من المقالات التي نشرتها لي.

صمت برهة، وكأنه ينتظر إجابة من سالم. قاطع سالم الصمت بصوت فيه شيء من الحشجة، وقال:

- كنتُ أريد أن أفعل لك معروفاً.

انفجر مرة أخرى في وجهه، وقال:

- لا أريد منك معروفًا كهذا!!

وبعد برهة تابع:

- ولا أيّ صنيع آخر تُقدّمه لي، فقد صرتُ أكره وأتخوّف من المعروف

الذي تدّعي أنك تفعله من أجلي.

صمت الاثنان لفترة طويلة، وكأن كل واحد منهما يحاول أن يراجع علاقته

بالآخر. بعدها تكلم محمد قائلاً، وهو يرمي بالكتاب إلى الكرسي الخلفي:

- هذا كتابك، فأنا لم أولفه، وإن أصبح - زورًا وبهتانًا - يُنسب إليّ.

صمت قليلاً، ثم تابع:

- والداهية الكبرى أنهم سيُعَمِّمون الكتاب على جميع المدارس

والجامعات، وسيكون اسمي مقرونًا بالكتاب في كل محفل، وهذا يعني أنني

واسمي قد ارتبطنا بالخزي والعار مدى الحياة دون أن يكون لي دخلٌ في ذلك،

إلا ثقتي العمياء بك!!

سكت الاثنان مرة أخرى، ثم نطق سالم بصوت متقطّع، وقال:

- أحسنتَ على ما وُصفتني به.

صمتَ قليلاً، ثم انفجر بصوتٍ غاضبٍ يملؤه الندم:

- لقد كنتُ أسعى لأن تصل إلى أعلى المناصب في الدولة لكي تحقق

جميع أحلامك وطموحاتك التي كنت تتغنى بها، وما كان تصرّفني ذلك إلا حبًّا

لك. وعندما فعلتُ كل ذلك من أجلك، وبعد أن تحقّق لك الجاه والمنصب

والأمور الأخرى التي لم تكن يوماً لتحلم بها، أصبحت في نظرك مجرمًا، رغم

أني لم أحصل من وراء ذلك على شيء لنفسي. لقد صدق الشاعر عندما قال:

وَمَنْ يَفْعَلِ الْمَعْرُوفَ فِي غَيْرِ أَهْلِهِ يَكُنْ حَمْدُهُ ذِمًّا عَلَيْهِ وَيَنْدَمَ

لكن، ليس الذنب ذنبك، وإنما ذنبي أنا عندما أردتُ أن أفعل لك الخير.

بقي محمد صامتاً ولم يردّ بشيء، ثم بدأ يؤنب نفسه على ما قاله له. أحسّ بأنه كان قاسياً عليه، وأن سالمًا ما فعل كل ذلك إلا من حُبِّه له، ورغبته في مساعدته، ورغم أنه غير راضٍ عن كل ما جرى، إلا أن عليه أن لا ينكر لسالم محاولاته المستمرة لمساعدته في تحقيق آماله وطموحاته. عندها، لم يجد بُدًّا من الاعتذار له، فقال له بنبرة خافتة:

– أنا آسف، لقد كنتُ قاسياً معك.

صمت سالم قليلاً، ثم قال وكأنه يحاول أن يُخرج محمداً من مشاعره المتوترة:

– لا عليك، ولكننا قد قاربنا الوصول إلى نصف الطريق، فهل سنقف ونتناول

الغداء في المحطة القادمة؟

عرف مقصده، فقال:

– كما تشاء.

صمت الاثنان إلى أن وصلا إلى المحطة، ثم دخلا المسجد وصليا الظهر. بعد الصلاة بقي محمد في مكانه لعدة دقائق وهو يستغفر الله عن كل ما وقع له في القصر الرئاسي، وألحَّ على الله بالدعاء ليعصمه من الوقوع مرة أخرى في مثل هذه الخطايا. بعدها، خرجا إلى المطعم المجاور وتناولوا وجبة الغداء، وفي كل تلك الأثناء كان الصمت يُخيّم عليهما، ولم ينطق أحدهما للآخر ببنت

شفة، حتى أن محمداً كان لا يُطبق النظر إلى سالم، وسالم يرقب ما يجري.
عندما ركبا في السيارة، وبدءا في السير بقيا لفترة في صمت. لكن سالمًا
لم يصبر على ذلك، فقال:

- هل سنبقى على هذا الصمت إلى أن نصل؟

- تكلم أنت، وأنا أسمع.

أحسَّ بأن أعصاب محمد قد بدأت تهدأ، فاستغل ذلك لمعرفة ما جرى،
فقال:

- لم تخبرني ماذا بالظرف.

صمت محمد قليلاً، ثم قال:

- لا أدري، هو لك!!

ردَّ سالم بسرعة، وكأنه يمازحه:

- هل حقاً الظرف لي؟

ردَّ محمد بامتعاض:

- قلتُ هو لك، ولا أريد منه شيئاً!!

فردَّ سالم بسرعة:

- هيا افتحه لنعرف ما بداخله.

كان محمد لا يريد أن يتذكَّر ما جرى له في القصر الرئاسي، فقال له:

- هو في الكرسي الخلفي، وعندما نصل خذه وافتحه.

أحسَّ سالم أن محمداً ما زال في ضيق، فأراد أن يُنفس عنه، فقال له:

– أرجوك يا محمد، انسَ ما حصل، وأنا أعتذر لك إن كنتُ سببتُ لك شيئاً من المشاكل، ولكنني لا أستطيع أن أصبر إلى أن نصل لأعرف ما بداخل الظرف، فهيا أرجوك افتحه.

استدار بظهره للوراء، ومدَّ يده وأخذ الظرف ثم رمى به لسالم، وقال له:
– ها هو، خذه وافتحه.

أخذ سالم الظرف بيده اليمنى، وأمسك مقود السيارة بيده اليسار، ثم فتح الظرف، وأدخل يده فيه، وأخرج منه ورقة مكتوب عليها إلى نصفها، فدفعها إلى محمد، وقال له:

– لا أريد أن أنشغل بالقراءة وأنا أقود السيارة، فاقراها.
ردَّ محمد بشدة:

– أنا لا أريد أن ألمس شيئاً مما في ذلك الظرف!!

رفع سالم الورقة، وأطلَّ عليها بنظرات خاطفة، ثم بدأ يقرأ بصوتٍ عالٍ:
– يتشرف جلالة الملك بأن يزف أحر التهاني وأجمل التبريكات للسيد محمد علي على ما خطه يراعه وتألقت به ذهنه الصافي في كتابه الرائع (دور النهضة المباركة في إثراء البحث العلمي).

كان سالم يقرأ هذه الكلمات بصوت مسموع، ولكنه ما إن وصل إلى عنوان الكتاب حتى قرأه بصوتٍ خافتٍ ومتقطع، وكأنه شعر بالخجل من تحويل بحث صديقه إلى كتاب دعاية وتمجيد للملك وحكومته، حتى إن عنوان الكتاب لم يسلم من ذلك. بعد توقف قليل تابع القراءة:

– وإنه ليطيب لجلالة الملك أن يقوم بطباعة الكتاب على نفقته الخاصة،

وتعميمه على جميع المدارس والجامعات. كذلك، يطيب لجلالة الملك تعيين السيّد محمد علي مرافقًا خاصًّا له.

هنا توقف سالم عن القراءة، ثم تأوّه قليلاً، ثم قال:

- يا لك من دنيا غدارة!! أنت تُخاطب بالسيّد، ويُعرض عليك منصب المرافق الخاص للملك، وأنا أتردّد بين المكاتب، وتوصد في وجهي الأبواب، ومع كل ذلك تصبُّ عليّ جام غضبك.

قاطعته بسرعة:

- هل أنت شامتٌ بي، أم حاقد عليّ؟!!

ردّ سالم بنبرة ملؤها الأسى:

- أنا لستُ بشامتٍ ولا حاقدٍ، وهنيئًا لك ما حصلتَ عليه، وأتمنى لك المزيد من كل قلبي. لكنني أتأوه على موقفك مني، وكأني أجرمتُ في حقك.

قاطعته بنبرة نائرة:

- ألا تعتبر ما جرى جريمة؟!! نعم، إنها جريمة، وأيُّ جريمة!! ألم تُدبر لي

هذه المؤامرة لجعلي أتنازل عن المبادئ والقيم التي عشتُ من أجلها، والتي

أدعو الله ليل نهار أن يُثبّني عليها إلى أن ألقاه وأنا على ذلك؟!!

بعد صمتٍ قليل، ردّ سالم بنبرة ساحرة:

- أيُّ مبادئ وأيُّ قيم؟!! هل عرضوا عليك لتكون رئيس عصابة قتل أو

نهب، أم إنهم عرضوا عليك منصب مرافق الملك؟!!

ردّ محمد بغضب:

- إن كنت نسيّت المبادئ والقيم التي تربينا عليها، وعشنا سويًّا نحلم بأن

نراها تتجسد في حياتنا، فإني أذكرك ببعض منها:

أولاً: أن تعيش لدينك وأمتك، وليس لذاتك ومصالحك الخاصة.

ثانياً: أن تجتهد في دراستك وعملك إلى أن تصير من المتميزين على مستوى العالم.

ثالثاً: أن تسعى جاهداً لنقل ذلك التميز إلى أفراد أمتك، لتصبح أمتنا أمة القيادة والريادة والتميز.

هل نسيت هذه المبادئ وغيرها، أم إن بريق المادة وظروف الواقع قد أنستك كل ذلك؟

كان سالم يتسم وهو يسمع محمداً يسرد هذه المبادئ، ثم بعد صمتٍ قليل ردّ بنبرة حازمة:

- أنا لم أنس ذلك، ولكنني أريد أن أكون واقعياً وليس مثالياً؛ فالمثالية لن توصلك إلى شيء.
ردّ محمد بتحدّ:

- بحمد الله، قد أوصلتني لتحقيق ولو شيءٍ يسيرٍ مما أسعى لتحقيقه، بينما كبّلتك واقعيّتك من تحقيق أيّ شيء!!
صمت قليلاً، ثم تابع:

- ثم أيّ واقعية تتحدث عنها؟! أن ترتمي في أحضان أولئك الذين لا همّ لهم إلا جمع حطام الدنيا، والتسلط على رقاب الناس، وامتصاص خيرات البلاد؟! إن عيشي على المبادئ والقيم التي تعلمتها خيرٌ لي من أن أصبح مرافقاً للملك، والذي قد يكون سبباً لتنازلي عن مبادئني ثم ديني.

أحسَّ سالم أن الحوار لن يفضي إلى توافق، فأراد أن يقطع ذلك، فأدخل يده في الظرف ليعرف ما إذا كان بداخله شيء آخر، وهو يقول:
- ذاك رأيك، ولك الحق في أن تعتقد ما تشاء.

أحسَّ سالم بأن هناك قصاصة أخرى صغيرة في الظرف فأخرجها بسرعة ونظر إليها، فإذا هي شيك، فقال مُعلِّقاً وهو ينظر إلى الشيك:
- وهذا شيك لك.

ثم قال بصوتٍ متقطع:

- مائة ألف ريال؟! لو عشتُ طيلة حياتي أكُدُّ وأتعب لما جمعتُ هذا

المبلغ!!

ردَّ محمد متهكِّمًا به:

- هنيئًا لك، فهو لك!!

ردَّ سالم بسرعة:

- لا يا صاحبي، لا أريد شيئًا!! كفاني ما سمعته منك!!

- إذن، مزِّقه!!

- ماذا؟! تمزقه؟! هل أنت مجنون؟!!

- قلتُ لك: خذه، فلم ترَّض، وقلتُ لك: مزِّقه، فلم ترَّض. حسنًا، ناولنيه

وأنا أمزقه.

- لا، لا تفعل!! هذا لا يجوز. ثم إنهم لو عرفوا أنك فعلت هذا لأوقعوك

في مشاكل.

ردّ محمد بغير اكتراث:

– إذا كنت لا تريد تمزيقه، إذن تصرّف به كيفما تشاء، فأنا لا أريد أن أُدخل جيبى شيئاً من تلك النقود.

ردّ سالم بتهكّم:

– عدّنا مرة أخرى إلى المثالية؟!!

– فسّرّها كما تشاء. أما أنا فلن آخذ من تلك النقود شيئاً.

– حسناً، سأحتفظ بالشيك عندي، فربما تغير رأيك بشأنه.

صمت الاثنان قليلاً، ثم بادر سالم قائلاً:

– هذا بخصوص الشيك، وماذا بخصوص المنصب؟!!

بعد صمتٍ قليل ردّ محمد متهكّمًا:

– أيُّ منصب؟!!

ردّ سالم بسرعة:

– منصب المرافق الخاص لجلالة الملك.

صمت قليلاً، ثم قال بنبرة فيها تهكّم وسخرية:

– منصب المرافق الخاص لجلالة الملك؟ يا له من منصب براق!! هل

تعرف ماذا يريدونني أن أفعل؟

لم يجب سالم بشيء، فتابع محمد بعد صمتٍ قليل:

– إنهم يريدونني أن أكتب عن كل ما يقوم به الملك من لقاءات وزيارات

وحفلات وغيرها.

صمت مرة أخرى، ثم تابع:

- طبعاً، عليّ أن أكتب عن تلك الوقائع بصيغة التمجيد والتعظيم، وعندما أخلص في وظيفتي سأرفع الملك إلى مقام الإله، وأصوّر للناس أن الحلال ما أحلّ والحرام ما حرّم، وهذا هو الشرك بعينه!!

توقف عن الكلام، وبقي سالم صامتاً لفترة، ثم ردّ بتهكم:

- أظن أن عندك خيالاً واسعاً، فتستطيع تصوير الأمور على غير مرادها!!
فردّ محمد بنبرة غاضبة:

- إن وصفي لما يريدونني أن أفعله هو عين الحقيقة وليس خيالاً، وإذا كان عندك تفسير آخر فأخبرني به.

قال سالم بيروود:

- الأمر في غاية الوضوح، ولا يحتاج إلى تفسير: جلالة الملك معجب بذكائك، ويريد أن يجعلك من خاصته، ليستعين بك على تسيير الأمور.

- نعم، هذا تفسير صحيح، ولكن الأعمال التي سأكلّف بها لن تخرج عما وصفتُ أنا قبل قليل.

أحسّ سالم أن محمداً متمسكاً برأيه، فلم يشأ أن يتابع الحديث في الموضوع، فسأله:

- على كل حال، وماذا أنت فاعل بشأن الوظيفة؟

- لن أذهب!!

فردّ سالم بسرعة:

- ماذا؟! هل جننت؟! هل تعرف ماذا يعني أن ترفض المنصب الذي عرضه عليك الملك؟

- وماذا عساهم أن يفعلوا بي؟ هل سيُخَيَّرُونِي بين الوظيفة والقتل؟ إذن، سأختار القتل!!

ردّ سالم متهكماً:

- لا بأس، وعندها ستتحقق كل أحلامك وطموحاتك!!

- لا تهتم بشأني، فأنا سأتحمل عاقبة قراراتي.

صمت الاثنان برهة، ثم تابع محمد:

- وعلى كل حال، لن يدوم مكثي هنا طويلاً.

ردّ سالم بتهكُّم:

- وإلى أين ستذهب؟ هل ستهاجر أم تختفي؟!؟

بعد برهة ردّ محمد:

- سأعود إلى البلد التي فتحت لي ذراعيها. سأعود إلى أمريكا.

ردّ سالم بتهكُّم:

- تُفضِّلُ أمريكا على بلدك المسلم؟! أيُّ تناقض هذا مع المبادئ التي

تتغنّى بها!!

- إنني لا أعود إلى أمريكا حباً فيها، وتفضيلاً لها على بلاد الإسلام كما

تزعم، ولكن رغبة في أن أتمكن من ممارسة مبادئ وتحقيق طموحاتي، بعد أن

رفضت بلدي الإسلامي أن أعيش على أرضها حُرّاً طليقاً، أمارس كامل حريتي

في تطبيق مبادئ وتحقيق أحلامي وطموحاتي.

- وهل ستبقى طيلة حياتك هناك!!؟
- سأترك ذلك للظروف، فعسى أن تتغير أحوال بلادي، وعندها لن أتردد في العودة لخدمته وخدمة أمتي.
رأى سالم أنهم قد قاربوا الوصول إلى بيت محمد، فأراد أن يقطع الحديث، فقال:

- أتمنى لك كل خير، ولكن نصيحتي لك بأن تُعجل المغادرة قبل أن تصلهم أخبار قرارك، ويتخذوا بشأنك إجراءات تعرقل سفرك.
أحسَّ محمد أن ما قاله سالم يَنبئ عن حُبِّ له وخوفٍ عليه، فردَّ:
- سأفعل بإذن الله. وعلى كل حال، أشكرك على ما قدَّمته لي، وسامحني إن أغلظتُ القول عليك، وأخطأتُ في حقك.
لاحظ سالم أن محمداً قد بدأ يلين، فقال له:
- لا عليك، فنحن مهما يحصل بيننا، سنظل - بإذن الله - صديقين، حتى وإن باعدت بيننا المسافات.
- بإذن الله.

أوقف سالم السيارة قريباً من باب بيت محمد، وخرج محمد من السيارة وأخرج معه نسخة الكتاب والخطاب الموجه إليه من الملك، بينما ترك الظرف وبه الشيك في السيارة. توجه إلى سالم وقال له:
- ألا توقف السيارة فتفضّل عندنا؟
- أشكرك، ولكن أظن أن الوقت غير مناسب. سأرتاح قليلاً، ثم أعود إلى العاصمة.

شكره محمد، ثم أغلق الباب.

الفصل الثامن عشر: القرار الأخير

ما إن دخل منزله، حتى استقبلته أمه بابتسامتها المعتادة وبشاشتها المألوفة.
بادر أمه بالسلام، ثم اقترب منها وصافحها وقبّل يدها. خاطبته بقلق:

– بشر يا ولدي، كيف كانت رحلتكم؟!؟

– الحمد لله، لقد استفدْتُ منها كثيرًا.

ما إن سمع أبوه صوته حتى خرج من غرفته، وما إن شاهده محمد حتى
أسرع نحوه، وسلّم عليه، ثم صافحه وقبّل يده. ردّ الأب السلام، ثم قال:

– تبدو عليك ملامح السرور، فعسى أن تكون قد وُفِّقت في رحلتك؟

– الحمد لله، كانت رحلة مليئة بالدروس!

علّق علي مبتسمًا:

– يبدو أنا بحاجة إلى جلسة لتُقَصَّ علينا ما جرى.

وتابعت الأم:

– اسبقاني إلى الصالة، وسأتيكما ببعض العصائر.

توجّه محمد وأبوه نحو الصالة، ثم بعد قليل جاءت خديجة بصينية فيها

بعض العصائر والبسكويت، ووضعتها على المنضدة، ثم قالت:

- والآن، أعطنا يا ابني أخبارك، فإني في شوقٍ لمعرفة ما جرى.

قال الأب مماًزحاً:

- ألا تمهليه قليلاً حتى يستردَّ أنفاسه، ويشرب كوباً من العصير؟

ابتسم محمد، وقال:

- أشكر لكما اهتمامكما، والواقع أنه قد حدثت لي في هذه الرحلة الكثير

من المفاجئات.

تناول كوباً من العصير، وشرب منه قليلاً ثم وضعه على المنضدة، وبدأ يقصُّ على والديه ما جرى له في هذه الرحلة، ووالداه يُصغيان إليه باهتمام بالغ.

ما إن فرغ من رواية الأحداث التي مرَّت عليه في رحلته، بالإضافة إلى انطباعاته هو فيما جرى، حتى ساد المجلس صمتٌ لبرهة من الزمن، إلى أن بادر أبوه قائلاً:

- يا ولدي، أنت صاحب الشأن، وليس لأحد - مهما كان - أن يُجبرك على

أمرٍ لا ترغب فيه.

أحسَّ بشيءٍ من الاطمئنان، فقد كان قلقاً من أن يكون موقف والديه كموقف

سالم، فردَّ بقوله:

- ليس المهم عندي هذا أو ذلك. ما يهمني هو إرضاء الله - سبحانه

وتعالى - ثم رضاكما عني.

أراد أن يسمع رأي أمه، فخاطبها:

- وما رأيك أنت يا أمي؟

انحدرت من عينيها دمعة مسحتها بيدها، ثم قالت بتنهّد:

القرار الأخير

- يا حبيبي، لقد عشتُ حياتي وأنا أتابع التطورات التي تطرأ لك، والتغيُّرات التي تحدث لحياتك، وكنْتُ أتوقع أن يأتي يوم يحدث لك فيه ما جرى لك في هذا اليوم، لكنني كنتُ قلقة من أنك لن تستطيع الصُّمود في وجه الإغراءات والمخاطر، ولكنك أثبتت لنا اليوم أنك بحقُّ رجلٌ وأيّ رجل، وإن كنتُ تريد رأيي فيما جرى لك، فإني أقول لك: توكل على الله، وافعل ما أنت مقتنع بصوابه ما دام ليس فيه معصية لله ورسوله، واعلم يا حبيبي بأن الله لن يضيعك أبداً، وسنبقى أنا وأبوك دوماً ندعو الله لك بالسِّداد والتوفيق والحفظ.

أثرت هذه الكلمات عليه فلم يتمالك نفسه حتى تدرجت دموعه من عينيه، فقام وانحنى على أمه وقبَّل رأسها، ثم قال:

- أشكر لكما حسن ظنكما بي، وإني أسأل الله - سبحانه - أن يعينني على البرِّ بكما والإحسان إليكما كما أحستما إليَّ وأوليتماني من الثقة وعزة النفس ما تطيب به نفسي.

ردَّ علي:

- الحمد لله، هذا فضلُ الله يؤتیه مَنْ يشاء من عباده، ولكنك لم تخبرنا ماذا تنوي أن تفعل.

صمَّت قليلاً - وكأنه يحاول انتقاء الكلمات التي سيكون لها أثرٌ في تطيب قلبِي والدِّيهِ، وفي الوقت نفسه تجعلهما لا يعارضان ما ينوي الإقدام عليه، ثم قال:

- إنكما تعلمان مدى رغبتني في خدمة بلدي وحرصني على الارتقاء بأمتي، وإني أرى من خلال الفترة التي قضيتها هنا بعد عودتي من الدراسة أن الظروف

ما زالت غير موافقة لأن أخدم بلدي وأمتي بالصورة التي أطمح إليها.

صمت قليلاً، ثم تابع:

- لذا، قرّرت العودة إلى أمريكا.

ما إن قال تلك الكلمات حتى انفجرت أمه تبكي، بينما تحلّرت بضع دموعات من عيني والده. أحسّ بأنه قد أثار في نفسيهما مشاعر محزنة، فهما يعلمان أن ذهابه إلى أمريكا يعني سفرًا طويلًا قد لا يعود منه إلى وطنه. لذا، أراد أن يطمئنهما ويدخل شيئًا من السرور على قلوبهما، فقال:

- بإذن الله، لن يطول بقائي هناك، فما إن أرى أن ظروف بلدي قد تحسّنت، حتى أعود مسرعًا لأكون أول من يبادر إلى خدمته.

لكن هذه الكلمات لم تزد والديه إلا مزيدًا من الحزن والأسى، فعلق والده بصوتٍ متقطع:

- يا ولدي، إن تعيّر الظروف بيد الله - سبحانه وتعالى -، والأمر قد يطول إلى سنوات عديدة، وربما قد لا تتغيّر في حياتنا، وهذا يعني أن مغادرتك أرض الوطن ربما ستكون بمثابة اللقاء الأخير بيننا.

هنا أدرك عمق المشاعر الحزينة التي يمرُّ بها والديه، فحاول أن يُخرجهما من الحزن الذي ألمَّ بهما، فقال:

- بإذن الله، ما إن تستقرّ أموري هناك حتى أرتب لكما لزيارتي، ومن الآن إلى ذلك الوقت سنكون على تواصل دائم، فكما تعلمان إن الإنترنت قد قرّبت البعيد، وأصبحت المكالمات بالصوت والصورة في متناول اليد.

أحسّ عليّ أن ابنه جادٌ في الهجرة عن أرض الوطن، ولأنه لم يقف حجر

القرار الأخير

عشرة أمام طموحاته في السنوات الماضية، فلا ينبغي له أن يكون كذلك الآن.
هنا تكلم بحشجة فقال:

– أسأل الله أن يوفقك فيما تطمح لتحقيقه، وكما تعودت منا فإننا سنقف
بجانبك حتى وإن فرقت بيننا المسافات.

أحس بنوع من الانشراح لمقولة والده، لكنه كان يرى والدته غارقة في
صمتها، وهي تكفكف الدموع المنهمرة على خديها. تابع عليّ كلامه فقال:

– هل تنوي الرحيل قريباً؟

صمت قليلاً، ثم قال:

– سأحاول المغادرة خلال هذا الأسبوع، قبل أن تصل أخبار سفري إلى
القصر الرئاسي فيمنعوني من المغادرة.

فقال عليّ بنبرة حزينة:

– إذن، علينا أن نعجل في إنهاء الترتيبات لسفرك، وخاصة فيما يتعلق بشراء
تذكرة السفر والأغراض التي قد تحتاج إليها في رحلتك.

هنا لم تتمالك خديجة نفسها فانفجرت باكية، وهي تصرخ في وجه زوجها:

– أشجّعه على السفر وأنت تعلم أن هذا يعني هجرة لأقيا بعدها!!

أدرك الأب أن الأسرة تمرُّ بأزمة، وأن عليه أن يتصرّف لحلّها، فقال:

– أظن أن ما قاله محمد من الترتيب لزيارته، وأيضاً الاتصالات المتواصلة

كافية لأن تبقينا على تواصلٍ به.

صمت قليلاً ثم تابع:

- وإذا كنا نريد له أن يحقق طموحاته وأحلامه - كما كنا ننشد له ذلك - فإن علينا أن نتقبَّل مثل هذه الظروف بشيءٍ من الرضا والتسليم لله سبحانه وتعالى . واعلمي يا أمَّ محمد أن الله الذي امتنَّ علينا بمحمد وبما وصل إليه من تفوُّقٍ، فإنه - بلا شك - لن يضيِّعه ولن يضيِّعنا.

كانت أمُّ محمد إذا ذُكِرَتْ بالله - سبحانه - تنازلت عن مطالبها في سبيل إرضاء الله - سبحانه وتعالى - . هنا تكلمت خديجة بلهجة حزينة، ولكنها تنمُّ عن إيمان وثقة بالله، فقالت:

- ونعم بالله .

صممت قليلاً ثم تابعت:

- أتمنى لك يا حبيبي كل خير، وإن الله عليمٌ لكم أنتَ غالٍ على قلبي، ولذا فلا أظنُّ أن الله سيجعل فراقك عنا سبباً لشقائنا أو شقائك . لذا أقول لك: توكل على بركة الله، والله سيوصلك إلى ما تصبو إليه .

نزلت هذه الكلمات على قلب محمد كالماء البارد، ولم يتمالك نفسه فقام من مكانه واعتنق أمه واحتضنها كأنه طفلٌ رضيعٌ متعطشٌ إلى حنانها ودفئها . وبعد فترة طالت، توجه محمد إلى والده فاعتنقه هو الآخر، وأحسَّ بقطرات الدموع وهي تتحدَّر من عيني والده فتلامس جسده وكأنها رذاذ مطر بارد .

استمرَّ عناقه لأبيه برهة، وبعدها عاد إلى مجلسه ثم تناول كوب العصير وشرب منه قليلاً، وكأنه يريد أن يُنهي تلك اللحظات الحزينة التي مرَّت به . خاطب والديه بابتسامة:

- أظن أنها لحظات من أجمل لحظات حياتي، وإنني لأسأل الله أن يُديم علينا هذه اللحظات الجميلة ما بقينا بإذن الله .

مسحت خديجة دموعها بطرف كُمِّها، ثم قالت:

- كانت لي أمنيّتان في الحياة: أن أراك تصل إلي ما وصلت إليه، وبحمد الله قد تحققت هذه.

صممتُ طويلاً وهي تغالب دموعها، ثم قالت:

- وكنتُ أتمنى أن أفرح بيوم عرسك.

ثم توقفت، وأخذت تبكي بنشيجٍ مسموع، فقام محمد واحتظنها، وبعد قليل قالت بصوتٍ يخالطه البكاء:

- ولا أدري هل سأرى ذلك اليوم بعيني، أم ستُدْفَن أمنيّتي تلك مع جثمانِي. ما إن سمع محمد ذلك حتى انفجر باكياً، وهو يقول:

- أطال الله في عمرِك يا أمي، لا تقولي ذلك؛ فإنك - بإذن الله - ستفرحين بعرسي، وسترَبِّين أولادي على ما ربَّيتني عليه.

كان عليٌّ يراقب مشهد خديجة ومحمد وهو يُسُحُّ العبرات. ساد صمتٌ لفترة، فاستغلها عليٌّ لفتح موضوع الزواج بشيما، فقال:

- لم يبقَ عليٌّ تخرُّج شيما إلا حوالي شهرًا، أفلا يمكن أن تنتظر إلى ذلك الوقت لنعاود خطبتها لك؟

ما إن ذكر أبوه كلمة شيما حتى أحسَّ وكأنه أصابه رمحٌ فغاص في أحشائه. خاطب نفسه قبل أن يجيب علي والده:

- يا ويحي، لقد نسيْتُ شيما!! ماذا سيكون حالها فيما لو عرفتُ عن

سفري؟! وماذا سيكون ردُّ فعلها لو عرفتُ ما جرى لي مع الملك؟! هل تُراها ستنتفهمني وتقف بجانبي، أم ستسخط علي لتفويت تلك الفرصة الذهبية،

كما يقول أخوها!!

كان يُدرك صواب كلام والده، ولكنه أيضًا يعلم أن القرار ليس بيده. بقي غارقًا في صمتٍ طويل، وهو يصطرع بين مشاعر الرغبة في التعجيل في السفر، وبين الانتظار للزواج من شيماء. رأى أبوه أنه قد أثار مواعج ابنه بفتح موضوع الزواج، فعلق قائلاً:

– كنتُ فقط أتمنى أن تجد في غربتك مَنْ يُسَلِّيك، وإذا كنت ترى صعوبة تحقيق ذلك الآن، فلك أن تؤجله إلى أن تنهياً الظروف لذلك.
ردَّ بعد فترة من الصمت:

– الانتظار فيه مخاطرة بعرقلة سفري – كما ذكرت لكم –، وأيضاً قد يتخذون ضدي إجراءات قاسية، قد تؤدي إلى سجنني.
سمعت خديجة هذا الكلام فعاودها البكاء، بينما نكس عليَّ رأسه. تابع محمد:

– ولو كان الأمر بيدي، لتمنيتُ الزواج من يومي هذا.
هنا نطقت خديجة بسرعة:
– إذن، على بركة الله، اذهبا الليلة إلى بيت سعيد وعاودا خطبتها، فعسى الله أن يتمم الأمور.

ابتسم محمد بحزن، ثم علق:
– لا أظن أن الأمر بتلك السهولة.
قاطعته أمه بحماس:

– وما الصعوبة في ذلك؟
– أنتما تعلمان أن خالتي عفراء اشترطت لعقد قراني بشيماء شرطين وهما

القرار الأخير

أن تكون قد أنهت دراستها، والثاني أن أكون قد حصلتُ على وظيفة مرموقة، ولم يتحقق شيءٌ من ذلك بعد.

تأوّهت خديجة، ثم قالت:

- لقد نصحتك من قبل بأن تبحث عن فتاة أخرى، ولكن لا أدري لماذا أنت متعلِّقٌ بها؟

تكدّرت مشاعره عندما سمع هذه الكلمات، فخطب أمه باستياء:

- أرجوكِ يا أمي، لا تفتحي هذا الموضوع من جديد، فارتباطي بشيما ومصيري، ولن يفكّه إلا الموت.

تدخّل سعيد محاولاً تدارك الأمر، فقال:

- لا أرى في محاولة الخطبة أيّ ضرر.

قاطعته محمد:

- أظن أن الأمر سيزيد تفاقماً بعد أن تصل أخبار ما جرى لي اليوم إلى سعيد وعفراء.

علّق أبوه بسرعة:

- إذن، نذهب هذه الليلة لتتدارك الأمر.

انشرح صدر محمد لرأي أبيه، فقال:

- على بركة الله.

هنا رفعت خديجة رأسها وأدارته نحو محمد وابتسمت، ثم مدّت يدها إليه حتى لامست يده، وأمست بها. رأى عليُّ المشهد، فمدّ هو الآخر يده

الفصل الثامن عشر

نحو محمد، ووضع كلتا يديه على يديّ محمد وأمه، وابتسم الوالدان وكأنهما يُنهيان اجتماعاً لتحديد مصير ولدهما.

وصلت أخبار ما جرى لمحمد إلى سمية، فلم تتمالك نفسها حتى أسرعت إلى شيماء فقصّت عليها ما أخبرها به سالم، وفرحت فرحاً شديداً، وزاد إعجابها به، وعبرت عن ذلك بقولها:
- لو كنت مكانه لفعلت مثله.

طارت سمية إلى أخيها، وأخبرته برّد شيماء، فسُرّ بذلك كثيراً، ثم أخبرها بما اتفق عليه مع والديه من الذهاب لخطبة شيماء هذه الليلة قبل أن تصل أخبار ما جرى إلى والديها فيشمتان به، كما فعل سالم معه. هنا، رأت سمية من الضروري الإسراع إلى شيماء لتحذيرها من إخبار والديها.

ما إن وصلت سمية إلى البيت حتى توجهت فوراً إلى غرفة شيماء، فوجدتها تذاكر؛ إذ إن الامتحانات النهائية على الأبواب. ما إن رأتها قادمة حتى عرفت أن أمراً مهماً قد حدث، فخافت أن يكون ذلك لمحمد، ولكن سمية بادرتها قائلة وهي تلهث:
- محمد يُسلم عليك.

ما إن سمعت ذلك حتى استبشرت خيراً، وانفجرت أساريرها. تابعت سمية:

- وقد عزم هو وأبي أن يأتيا الليلة ليعاودا الخطبة.

لم تتمالك شيماء نفسها حتى قامت من كرسيها واحتظنتها. وعندما تركتها تابعت سمية:

- ولكن!!

وهنا تبدّلت مشاعر شيماء إلى قلق، فعلّقت:

- ولكن ماذا؟!!

- لا تخبري أبوك ولا أمك بما جرى لمحمد، فلو وصلتتهما الأخبار فقد يشمتان به بدل أن يقفا بجانبه، وقد يكون ذلك سبباً لرفضهما الزواج منك.

نكّست شيماء رأسها، ثم قالت بحزن:

- قد سبق السيف العذل؛ لقد أخبرتُ أمي، ولا شك أنها ستخبر أبي.

استغلّ فترة العصر فذهب لزيارة الأستاذ أسامة، وشرح له ما جرى له مع الملك، وما ينوي القيام به، وأخبره بالمنحة التي قدمتها له الجامعة، والعروض التي حصل عليها من مركز سميثونيان ومايكروسوفت. كانت خطة محمد أن يواصل الترتيب السابق بالدراسة المنتظمة في الصباح والعمل الجزئي في المساء إلى أن يحصل على الدكتوراة، فارتاح الأستاذ لهذا الرأي. ثم فاجأ أستاذه قائلاً:

- لقد عزمْتُ على معاودة الخطبة الليلة.

سُرَّ الأستاذ أسامة بهذا، فعلق:

- لقد كنتُ أحدثُ نفسي بالمخاطر التي قد تواجهها في غربتك، وكنتُ أقول: لو كان يجد بجواره مَنْ يشدُّ أزره، ويُدكِّره بالله لهان الأمر قليلاً. ولقد أثلجتُ صدري بهذا الخبر.

- ولكنك تعلم أن القرار بيد سالم ووالديه.

- بإذن الله لن يعارضوا، فتوكل على الله.

انشرح صدر محمد لما قاله أستاذه، وشكره على ذلك.

الفصل التاسع عشر: توهّمات مزعومة

بعد صلاة العشاء توجه محمد وأبوه إلى بيت سعيد، وما إن رأهما حتى عرف أنها لموضوع الخطبة. لحسن حظ محمد أن عفراء لم تُكلّم زوجها بما جرى له، فسارت أمور الخطبة طبيعية، ووافق سعيد من جانبه، ولكن أخبرهما بعرض الأمر على أهله وسالم. كانت سمية قد اتصلت بسالم فأخبرته بنية والدها وأخيها للمجيء لخطبة شيماء، فردّ عليها باستبشار:

- إذن، بهذا تكتمل الفرحة.

كانت العقبة الكؤود هي إقناع عفراء؛ فما إن فاتحها سعيد بهذا الأمر حتى استاءت، وردّت عليه بتكبر:

- محمد لا يصلح زوجًا لشيماء!!

ذُهل من هذا الحكم القاسي على محمد، فقال لها:

- يا امرأة، اعتراضاتك هذه لا تليق بنا، وخاصة أننا صرنا أصهارًا، وأنتِ تتذكرين أننا عندما خطبنا سمية وافقوا في الحال.

ردّت بنبرة متعالية:

- العيب ليس فيهم، وإنما فيه هو!!

كان سعيد يتلفّت يمينة ويسرة، ثم خاطب عفراء:

- يا امرأة، اخفضي صوتك قبل أن تسمعنا سمية أو شيماء.
لم تكثرث بما قاله زوجها، فردّت:
– يسمع مَنْ يسمع، فلم أتجنّي عليه بشيء، ولو علمت ما حصل له لقلت
مثل كلامي.
هنا أدرك سعيد أن ثمة معلومات غائبة عنه جعلت عفراء تُصرُّ على موقفها
هذا، فسألها بفضول:
– وماذا حصل له؟
بدأت تقصُّ عليه ما جرى لمحمد، ثم علّقت:
– هل هناك شخصٌ به ذرة من عقل يرفض ذلك المنصب؟
أراد سعيد أن لا يتعجل في الحكم، فقال:
– ربما عنده أعذار لا نعلمها.
– أيُّ أعذار تجعل الإنسان السويَّ يرفض مكرمة الملك؟
فقال لها مستفهمًا:
– وما تفسيرك أنتِ لذلك؟
ردّت بنبرة فيها من الكبر والتعالم ما لا يخفى:
– لا تفسير لذلك إلا أنه مختلُّ عقليًّا!!
صدمته هذه الكلمات، فأراد أن يُدافع عنه، فقال:
– لو كان الأمر كما تقولين، فكيف تسنّى له الدراسة في أمريكا، وفي أشهر
جامعات العالم؟ وكيف تسنّى له مقابلة الوزير، ثم جلالة الملك؟

رَدّت بسرعة، وكأنها تفهم تفسير كل ذلك:

- أما مقابلة الوزير وجمالة الملك فكانت بترتيب من سالم، وأما الدراسة فلا ندرى إن كان درس فعلاً في أمريكا أو في أدغال أفريقيا!!

بدا وكأن سعيداً رأى شيئاً من الصواب في كلامها، ومع ذلك كان لا يجد ما يبرّر به رفض زواج شيماء به. قال لها:

- كل ذلك مجرد شكوك، ولا أرى ضيراً في تزويج شيماء به.

هنا، أرادت عفراء أن تأتي لزوجها بمبررات تجعله يرفض الزواج. قالت له بعد أن صممت لبرهة، وكأنها تستجمع قواها:

- هل توافق أن يأخذ ابنتك إلى أمريكا ثم لا يعود بها إلى هنا مدى الحياة؟!
أدرك سعيد أنه ما زال في جعبتها أموراً غائبة عنه، فردّ بسرعة:
- قطعاً لا.

عندها، ابتسمت وقالت:

- وهذا ما ينوي أن يفعله!!

فقال لها بسرعة:

- ومن أين عرفت ذلك؟

قالت بابتسامة مآكرة:

- من شيماء نفسها.

- ولكن كيف؟!!!

- لقد أخبرتها سمية أنه سيعود إلى أمريكا فوراً قبل أن يمنعه جمالة الملك

من السفر.

ثم قالت بكلمات متقطّعة وبثقة، وكأنها وصلت إلى النتيجة الحاسمة:

- ولذلك جاء اليوم لخطبة شيماء ليعقد عليها، ثم يفرّ بها.

رغم أن هذا السيناريو لا يبدو مكتملاً، غير أنه رأى أن كلام زوجته يبدو منطقيًا. ردّ عليها وكأنه شبه مقتنع بما قالته:

- سأستشير سالمًا، وأرى ما يقول.

ردّت بخبث:

- سالم لن يعارض؛ فهو صديقه، وفي الوقت نفسه لن يفعل شيئًا يُكدر صفو زوجته.

علّق سعيد، وكأنه وقع في حيرة لا يدري كيف يتصرّف حيالها:

- وما الحل؟!!

أسندت ظهرها على الكرسي، وقالت بنبرة حازمة توحى بأنها السيّدة المطاعة في البيت:

- ليكن معلومًا لديكم جميعًا أنني رافضة لزواجه بشيماء، سواءً أكان اليوم أو بعد مئة سنة، حتى ولو كنتم جميعًا تريدون ذلك.

لم يدر سعيد ما يقول، فقام من مكانه، ثم خرج من البيت.

اتصل بسالم وأخبره بما يدور في الأسرة، وخاصة موقف أمه. وعده سالم بأنه سيتصل بها ويكلمها في الأمر. طال حديثه معها على الهاتف، وهو يحاول إقناعها بأن كل ما تعتقده عن محمد ليس إلا أوهاماً. أصرت على موقفها، فلم يشأ أن يختصم معها على الهاتف.

بعد انتهاء الدوام في اليوم التالي عاد إلى البيت، واجتمع بالديه، وساق لهما المبررات من أن محمداً إنسانٌ سويٌّ وعاقل، وأنه صاحب مبادئ سامية

توهّمات مزعومة

وأخلاق عالية، ولذلك رفض ذلك المنصب. لكن تلك العبارات لم تُدغدغ قلب عفراء، فأصرت على موقفها. عندها، هدّدها سالم بهجران البيت إن لم تُغيّر رأيها، فردّت عليه بحزم:

- إني لن أسمح لشيء أن تبيعي بمثل محمد كما بعثني أنت بزوجتك!!
ذهل سالم لسماع هذه الكلمات من أمه، فلم يتمالك نفسه فتوجّه إلى غرفته، وطلب من سمية أن تأتي معه، فردّت بدهشة:

- إلى أين؟!!

فقال بغضب:

- يبدو أن البيت صار لا يتسع لنا!!

تعجّبت من هذا الرد، فكرّرت سؤالها:

- ولكن إلى أين نذهب؟!!

- سأخبرك لاحقًا.

رأته يضع ملابسه في حقيبه، فما كان منها إلا أن فعلت مثله، وبعد لحظات غادرا المنزل!!

شاهدت شيماء أخاها وسمية يخرجان حاملين حقائبهما، فشكّت أن ثمة خصومة وقعت له مع والديه، ولم يدّر بخلدها أنها بسبب موضوع الزواج. توجهت إلى غرفة أمها فوجدتها تبكي، ورأت أباهما جالسًا على كرسيّ، ويبدو عليه الضيق. بادرتهما قائلة:

- خيرًا، ماذا يجري؟

لم يتمالك سعيد نفسه فخرج من الغرفة، ثم خرج من البيت.

بعد محاولات عرفت شيماء أن ما يجري هو حول زواجها من محمد.
خاطبتها أمها بنبرة توحى بالحبِّ لها والخوف عليها:

– يا ابنتي، إنهم يحاولون أن يحرموني منك؟

لم تفهم مقصد أمها فعَلَّقت:

– الزواج يا أمي سنة الله ورسوله، ولا بُدَّ أن يأتي يوم وأتزوج، وأعيش مع زوجي كما تفعلين الآن.

كانت عفراء ما زالت منفعلة بسبب ما جرى بينها وبين سالم، فقالت وهي تبكي:

– تذهبين مع أيِّ شخصٍ آخر إلا ذاك المعتوه!!

تعجَّبت شيماء من كلام أمها، فكل ما تعرفه أن محمدًا وأباه قد جاءا لخطبتها. خاطبت نفسها:

– هل يا ترى تقدِّم لي شخصٌ آخر؟! إذن، لهذا جاء سالم من عمله. لا بُدَّ أنه يُدبِّر تزويجي لشخصٍ آخر دون علمي، كما فعل من قبل.

بدأت الظنون ووساوس الشيطان تُغري قلبها ضد أخيها.

خرجت من غرفة أمها مغضبة، فاتصلت بسالم في الحال، وما إن سلَّم عليها حتى هجمت عليه بكلماتها الجارحة، فقالت له بغضب شديد:

– ظننتُ أن حالك تجاهي وتجاه محمد قد تغيَّر بعد زواجك من سمية، ولكن يصدِّق عليك قول الشاعر:

صلى اليهودي لأمرٍ كان يطلبه فلما انقضى الأمر لا صلى ولا صاما

كان سالم يسمع تلك الكلمات وهو لا يكاد يُصدِّق أذنيه، وكان في حالة

يرثي لها من الاستياء، ولكن رأى لزامًا عليه أن يوضّح لها موقفه، فقال لها بهدوء:

- يبدو أنك لم تفهمي ما يجري.

صرخت في وجهه بنبرة تطير شررًا:

- الأمر لا يحتاج إلى فهم، فكل شيء بات مكشوفًا!! وأقول لك بأن نذالتك هذه لن توصلك إلى ما تريد، وكما قلت لك من قبل، وسأعيدها لك مرة أخرى: سأزوج من محمد رغم أنك.

ثم أنهت المكالمة. كانت سمية تسمع كلام شيماء وهي تصرخ في الهاتف. خاطبها سالم بحرقة:

- كيف التبس عليها الأمر؟

ردّت سمية مستفهمة:

- أيُّ أمر؟

- أمر زواجها بمحمد. لقد بذلت كل ما في وسعي لإقناع أمي، ولكنها أصرّت على رفضها له.

هنا، فهتمت سمية ما يجري في بيت زوجها، وما دعى بسالم أن يترك المنزل. قالت له، وكأنها تحاول معرفة غضب شيماء:

- ربما أمك لم تخبرها بالحقيقة، فحوّرت الكلام.

- لا أستبعد أن تكذب أمي عليها؛ فهي تحاول أن تحول بينها وبين زواجها من محمد بأيّ طريقة.

- وهل ستتركها هكذا؟

- مَنْ تقصدين؟

- شيماء. لا بُدَّ أن توضح لها ما يجري.

حاول الاتصال بها عدة مرات ولكنها لم ترد، فلم يَرِ بُدًّا من العودة إلى المنزل. بقيت سمية في السيارة، بينما توجه هو إلى غرفة شيماء. طرق عليها الباب فلم ترد. عاود الطرق عدة مرات، ولكنها لم ترد، فخاف أن يكون قد أصابها مكروه، ففتح الباب، فرآها مستلقية في السرير على وجهها وهي تبكي.

- شيماء.

ناداها بصوتٍ رقيقٍ فلم تُجِب. عرف أنها ما زالت غاضبة، فخاطبها قائلاً:

- أظن أنك فهمتِ الأمور على غير حقيقتها.

بقيت في بكائها ولم تتكلم بشيء. تابع:

- أنا لم أعارض زواجك من محمد، بل سررتُ كثيرًا عندما سمعتُ بمجيئه هو وأبيه لمعاودة خطبتك.

بدأ نحيبها يخفُّ، فتابع:

- عندما اتصل بي أبي البارحة وأخبرني بأن أمي تعارض الزواج، اتصلتُ بها فورًا، وحاولتُ إقناعها، ولكنها أصرت على موقفها. عندها، أتيتُ اليوم بعد الدوام، وبقيتُ أحاول إقناعها، وهي ترفض كل مبرراتي، حتى أنها اتهمتني بأمورٍ لم يخطر على بالي يومًا أن أسمعها منها، فقررتُ هجران البيت، أو بمعنى أصح الهرب منه.

كانت شيماء قد توقفت عن البكاء عندما سمعت أن أمها هي التي كانت تعارض الزواج. جلست على سريرها، ومسحت دموعها، وما إن فرغ سالم

من كلامه حتى علّقت بأسى:

- إذن، كل تلك الأوصاف التي سمعتها منها كانت تقصد بها محمداً؟! -
- نعم، فهي ترفض تزويجه بشدة، وتعتبره- بسبب ما جرى له مع جلاله الملك- مختلاً عقلياً.

عندما سمعت هذا الكلام، بدأت شيماء تبكي، ثم قالت:

- كنتُ أعلم أنها سترفض تزويجي منه من أول خطبة، عندما أتت بتلك الاعتراضات التي لا مبرر لها. كل أخواتي تزوّجنَ، وأنا سأُتخرج بعد شهر، ومعظم زميلاتي في الثانوية تزوّجنَ، فلماذا تريدُ أن تحرمني ممن أحب؟

أثناء دخول سالم البيت، اتصلت سمية بأخيها وأخبرته بما يجري في بيت زوجها، وأخبرته باتصال شيماء بسالم وما قالته له. تكدّر قلبه كثيراً، وأحسّ بأن الله لا يريد أن يُتّم له الزواج من شيماء في هذا الوقت. جلس مع أمه وأبيه، وصارحهما بما يجري في بيت سعيد، ثم قال:

- أظن أن الأجواء هناك متوترة، ولا أعتقد أنه سيتم حلها خلال هذا الأسبوع.

كان والداه ينصتان إليه باهتمام، فهما يعلمان أنه يمرُّ بظروفٍ صعبة، وأن أيّ خطوة يخطوها غالباً ما تكون مصيرية بالنسبة له. تابع حديثه:

- لذلك، فقد حزمتُ الأمر على الذهاب إلى أمريكا، وتأجيل موضوع الزواج إلى أن يشاء الله!!

لم يكن من السهل عليه أن يتفوّه بتلك الكلمات، وتمنى أن لو مات قبل أن يصل إلى هذا القرار.

نكّس عليّ رأسه تضامناً مع مشاعر ولده، وأخذت خديجة تبكي، ثم قالت بصوتٍ يخالطه الشئخ:

- لقد قلتُ لك بأن أمانة زواجك ستُدفن في قبري.

فخاطبها بتأثر:

- أرجوكِ يا أمي، لا تفتحي هذا الموضوع من جديد، فأنا أريد أن أغادركم ونفساكما منسرحة.

رأى سالم أن لا جدوى من معاودة الحديث مع والدته، فقرر العودة إلى شقته في العاصمة، وقبل مغادرته البيت أخبر شيماء بوجهته. عندما غادر أخوها، دخلت على أمها. بقيت أمامها واقفة، وهي تُكفكف الدموع، وعرفت عفراء ما أتت من أجله، فبقيت صامته تنتظر ما ستقوله. خاطبت أمها وهي تبكي بنشئخ مسموع:

- عندما سمعتكِ تسوقين تلك الأوصاف البشعة، حسبتكِ تقصدين شخصاً آخر.

فهمت عفراء سبب سرعة خروجها من الغرفة من قبل، وخمّنت أن سالمًا شرح لها ما جرى، فلم تردّ بشيء. تابعت شيماء بعد صمتٍ:

- ألهذه الدرجة نظرينَ إليه؟! لقد أَلَّفَ كتابًا حظي باهتمام جلاله الملك، مما جعله يُعيّنه مرافقًا خاصًا له، ولو رأى عيبًا في شخصيته لما أولاه تلك العناية.

هنا، لم تتمالك عفراء نفسها، فقالت بازدراء:

- أنتِ لا زلتِ صغيرة لا تفهمين الحياة!!

هاجت مشاعر شيماء من سماع هذه الكلمة من أمها، فانفجرت في وجهها بصوت عالٍ يخالطه البكاء:

- أنا لم أعد صغيرة، وعمّا قريب - بإذن الله - سأخرج من الكلية، ولكنني أعلم السبب في رفضك له.

صمتت شيماء لتسمع ردّ أمها، ولكن عفراء لظمت الصمت. تابعت وهي تبكي:

- منذ أن حصل على المركز الأول في الثانوية، صرت تحقدين عليه، وأنا لاحظتُ أنكِ صرتِ تحقدين حتى على أسرته؛ فمن يومها قلّت زيارتك لهم، ولم تعودني تقضين الأوقات مع أمه في زيارة الجارات والصاحبات.

كانت عفراء تستمع إلى تحليل ابنتها وهي تبسم، وكأنها تسخر من ذلك، وأرادت أن تُظهر خطأ تفسيرات شيماء، فردّت عليها بهدوء:

- لو كنتِ حاقدة عليهم لما سمحتُ لسالم أن يتزوج ابنتهم.
قاطعتها شيماء، وقد خفّ نسيجها:

- كنتِ معارضة لذلك الزواج بشدة، ولكن سالمًا ذا شخصية قوية، فلم تستطعي منعه من ذلك، ومنذ أن دخلت سمية بيتنا وأنتِ تزدريها.

عندما رأت عفراء أن الحُجج التي تسوقها شيماء قد كشفت مؤامراتها، لجأت إلى البكاء، ثم ردّت عليها وهي تبكي:

- كذبتِ!! أنا لم أمنع أحدًا، ولم أحتقر أحدًا، ولكنكم عندما كبرتم رددتم الجميل والحب الذي كنتُ أحيطكم به بالتجنّي والافتراء عليّ. أخوكِ تزوج وباعني، وأنتِ تريدين أن تبيعيني باسم الحب، ولم يبقَ لكم إلا أن تأتوا بسكين،

وتغرسوها في صدري، ويخلو لكم الجو.

تأثرت شيماء كثيراً من تلك الكلمات، وبدأت تبكي بحرقة، ورأت أنه ما كان يليق بها أن تخاطب أمها بهذا الأسلوب، ولكنها في الوقت نفسه لا تريد الاعتراف لها بأنها محقة فيما قالته عن محمد وفي موقفها منه. لم تستطع الكلام للاعتذار لها، فقررت الانسحاب، فدخلت غرفتها، وأغلقت عليها الباب.

الفصل العشرون: اللحظات الأخيرة

قضى محمد وأسرته اليومين التاليين في توفير احتياجات السفر، فاشترى تذكرة سفر ذهاب فقط، وكأنه أحسَّ بأن قرار العودة سيكون رهن ما يجري له هناك. أراد أن لا يكلف والده بشراء المزيد من الملابس والحقائب، فأقنعه بأن ما عنده تكفيه، وسيشتري المزيد من الملابس هناك.

قام بزيارة بعض أقربائه لوداعهم، وكان يلقي حرجًا كبيرًا في هذه الزيارات؛ حيث كانوا يطرحون عليه العديد من الأسئلة، وخاصة فيما يتعلق بالسبب في تفضيله الذهاب إلى أمريكا عن بقائه في بلده. أيضًا كان البعض يتساءل عن المدة التي سيقاها هناك، ونوع العمل أو الدراسة التي ينوي التوجُّه إليها في أمريكا. كان يجيب على تلك الأسئلة بأدب جم، ويستخدم أحيانًا مندوحات الكلام ليتخلص من الأسئلة الحرجة التي كانت تُطرح عليه.

لم تكتفِ والدته بتجهيز الملابس والأمتعة له، وإنما حاولت أن تُعدَّ له بعض المأكولات الشعبية والحلويات التي يمكنه حملها معه في السفر، وكان زوجها يُدكِّرها بأنه لا يُسمَح له بحمل أكثر من ثلاثين كيلو جرامًا في الطائرة، وأن بعض المأكولات غير مسموح بحملها.

مرَّ اليومان بعد محاولته خطبة شيماء سريعًا، ولا يدري ما حدث لها بعد ذلك. اتصل بأخته، فأخبرته بأنها في العاصمة مع سالم بسبب ما جرى بين

سالم وأمه، ثم بينه وبين شيماء. تأسّف كثيراً أن تتأزم الأمور إلى تلك الدرجة. أخبرها بالقرار الحاسم الذي توصل إليه بخصوص شيماء، فقال لها:

- أنت تعلمين أنني شديد التلهّف للزواج من شيماء، ولكنني مع ذلك لا يمكنني أن أجعلها تعيش كل حياتها مع وهم الزواج مني.

أثر هذا الكلام في نفس سمية، فبدأت تبكي. صمتت قليلاً، ثم واصل حديثه:
- أرجوك أن تخبريها بأن مشاعري تجاهها لم ولن تتغيّر، وأنه لو كان هناك سبيل للزواج منها لما تخلّيت عنها. أرجوك أن تتصلي بها، وتحاولي إقناعها بأن تقطع أملها في الزواج مني، وأخبريها بأني راضٍ بأن ترتبط بأي شخصٍ آخر، مراعاةً لمشاعرها ومشاعر أسرتها.

ازداد نشيخ أخته، ولم تدر ما تقوله له، فأثرت الصمت. تابع:

- أخبريها بأني سأسافر غداً، وترجّيتها أن تسامحني على ما كدّرت به صفو حياتها. وأرجوك أن تقفا أنت وسالم بجانبها، وأن لا تتخلّيا عنها. ابحثا لها عن شابٍّ صالح مستقيم، فلعلّه ينسيها ما كان بيننا. وأرجوك أيضاً أن تطيعي زوجك وتحسني إليه؛ فهو صديقٌ عزيزٌ يستحق كل حب واحترام، وتلطّفي به ليُصلح ما بينه وبين أمه.

واصلت سمية البكاء، ولزمت الصمت، فلعلّ أخاها يريد أن يضيف شيئاً. وفجأة انفجر محمد يبكي، وهو يقول لها:

- وأرجوك ثم أرجوك ثم أرجوك أن لا تتركي أبي وأمي وإخوتي؛ فكفاهم العذاب الذي أصابهم بسببي.

ازداد نشيخ سمية. تابع:

اللحظات الأخيرة

- حاولي أن تواسيهم، وتُدخلي السرور إلى قلوبهم، وأرجوك أن تلتمسي بأسلوبك البارع لي منهم الصفع والغفران مما جنيته في حقهم من إساءات وتقصير، وعدم مراعاة لمشاعرهم.

بقي يُعدّد وصاياها لأختها؛ وكأنه راحلٌ عن هذه الحياة. وفي الختام قال لها:

- سأبقى متواصلًا معك ومع خالد، وسأنقل لكما أخباري، فأوصلها إلى أبي وأمي بأسلوب لا يؤثر على مشاعرهما، ولكن لا تنقلي شيئًا من ذلك لشيما؛ فإني أريدها أن تنساني تدريجيًا.

صمت مرة أخرى، ثم تابع:

- بين كل فترة وأخرى سأقوم بتحويل شيءٍ مما يتجمّع لديّ من نقود إلى حسابك البنكي، وأرجوك أن تأخذي منها ما تشائين؛ فمهما قدّمت لك فلن أوفيك حقك، ثم أوصلي ما يتبقى منها إلى أبي ليستعين بها على عول أمي وإخوتي.

بقي صامتًا لفترة، وهو يحاول أن يستذكر إن كان نسي شيئًا مما يريد توصية أخته به. تابع:

- هذا ما أستذكره الآن، وقد فضّلتُ أن أقوله لك بعيدًا عن مسمع أبي وأمي وإخوتي لكي لا أزيد جراحهم.

صمت قليلًا، ثم قال لها:

- إذا كنت تريدين قول شيءٍ فتفضلي، وإلا فسنلتقي - بإذن الله - مساء

الغد، وسلّمي على سالم. كان بكاءها قد خفت، ولكنها لم تستطع قول شيء، أو لم تجد ما تقوله، فردّت عليه:

– يا ذن الله.

ثم أنهت المكالمة.

أحسّ بشيءٍ من الراحة النفسية وهدوء البال. تذكّر أن عليه أن يودّع أساتذته، فاتصل بالأستاذ أسامة، وأخبره برغبته في زيارته، فسّر بذلك كثيرًا. عندما وصل إلى منزله وجد الأستاذ عماد والأستاذ عارف عنده. شكرهم على ما قدّموه له، واعتذر عما بدر منه تجاههم من إساءات. بقي عندهم لفترة بادلوه خلالها النصائح، ودعوا له بالتوفيق ومواصلة النجاح، وطلبوا منه البقاء في تواصل معهم.

كان قد جعل سفره مساء يوم الجمعة، ليتسنى له أداء صلاة الجمعة ولقاء زملائه وأصحابه والتسليم عليهم. بعد صلاة العشاء كانت اللحظات الحرجة بالنسبة له؛ فهو سيودّع بعض أقربائه وأهله ويرحل من بلده ومسقط رأسه، وهو لا يدري أيعود إليها مرة أخرى أم لا.

بعد رجوعه وأبيه وإخوته من صلاة العشاء، توجه أخوه خالد مباشرة إلى داخل المنزل، وبدأ بإخراج حقائب محمد. أحستّ الأم بقرب الرحيل، فبدأت الدموع تتساقط من عينيها. دخل محمد، ورأى أمه وهي تكفكف دموعها، فلم يتمالك هو الآخر نفسه، فتدحرجت قطرات من عينيه، ثم نظر إلى أمه وابتسم ابتسامة حزينة، ولم يقل شيئًا.

توجه إلى غرفته، وبدأ يجول ببصره في أرجائها وكأنه يودع كل ذرة فيها، ويعتذر إليها عن رحيله عنها. أخذ يتحرك في أرجاء الغرفة، وكأنه لا يدري ما يريد أن يأخذه منها. بقي على تلك الحالة وهو في ذهولٍ وصمتٍ حتى أطلّ عليه والده من الباب، وقال له:

- هيا يا محمد؛ فقد تأخرنا.

أخذ بعض أغراضه الشخصية وحقيقته الدبلوماسية، ثم خرج من غرفته. وجد أمه تنتظره عند باب البيت، وقد لبست جلبابها وحملت معها كيسًا صغيرًا به بعض الحلويات والمكسرات، ليتسللوا بها في الطريق.

عندما خرج من المنزل وجد بعض الأقارب والأصدقاء قد جاؤوا لتوديعه. لكنه فوجئ بالأستاذ أسامة، وهو واقف بجانب سيارتهم التي ستقلهم إلى المطار. سلم بسرعة على أقاربه الذين حضروا لتوديعه، ثم توجه إلى أستاذه. عاتبه على تجشّمه المجيء لتوديعه، والأستاذ أسامة لا يكاد يستطيع الردّ من شدة الحزن.

- لا تقلق يا رجل، فالله معك.

هذه كانت كلمات الأستاذ له، ثم عانقه وهو يقول له:

- اثبت على الحق كما عهدتُك، وابقَ على تواصلٍ معنا.

بقيا متعانقين لأكثر من دقيقة، والدموع تسيل من خديهما، ولم يجد محمد ما يردُّ به إلا ابتسامته وقوله:

- شكرًا لك، سأكون - بإذن الله - عند حُسن ظنّك.

كان عليّ يتابع لقاء محمد بأستاذه، وعندما شاهده يُسلم عليه اقترب منهما، وسلم عليّ الأستاذ أسامة، وشكره على مجيئه، ثم قال لمحمد:
- أظن أننا تأخرنا كثيرًا، إلا إن كنتَ تريد أن تبيت الليلة هنا.

علق الأستاذ ممازحًا:

- أظنه يريد مفارقتنا بأقصى سرعة.

ابتسم محمد، ثم سلّم على الأستاذ مرة أخرى.

توجّه إلى السيارة؛ فوجد أمه قد ركبت في الكرسي الخلفي، ومعها خالد ويوسف، بينما ركبت أروى في الكرسي الأمامي. رفع يده، وسلّم على الواقفين من أقربائه، ثم أدار رأسه نحو الأستاذ أسامة، ولوّح بيده إليه، ثم تحرّكت السيارة باتجاه المطار.

صار يجول ببصره هنا وهناك؛ وكأنه يُودّع القرية بأكملها: أهلها وبيوتها وطرقها وبساتينها، وحتى الحيوانات التي ألفت المرور عليها. كان لا يمرُّ على شخصٍ إلا ويرفع يده لیسلم عليه، وكأنهم موكب خرجوا خصيصًا لتوديعه. كان فؤاده يتفطرّ كمدًا على مفارقة هذا التراب الذي ولد فيه وترعرع. خنقته العبرات فصار يبكي في سرّه كي لا يراه والداه. خاطب نفسه بحزن شديد:

- هل يا ترى سأرى هذه البيوت الجميلة والبساتين النضرة والوجوه الباسمة مرة أخرى؟ لا بدّ حينها أن يكون كل شيء قد تعيّر، وسينكرني الناس. لا بدّ أنهم سيسمعون عن سفري وما جرى لي، فهل سيغفرون لي رحيلي، أم سيعاتبونني كما عاتبني غيرهم، وربما اختلقوا الشائعات ضدي؟

بعد تحرّك السيارة بقليل مرّوا بجانب بيت شيماء، فجال ببصره في نوافذ البيت علّه يراها تطلُّ من إحداها، ثم صعّد ببصره إلى أعلى فلعلّه يراها واقفة على سطح البيت، وهي تلوّح بيدها وتقول له:

- الوداع، الوداع.

لم يرها، فردّ على نفسه:

- لا بدّ أنها الآن في غرفتها، غارقة في بكائها وحزنها. اللهم فرّج عنها،

اللهم فرّج عنها.

لاحظ والده استغراقه في الصمت، فناداه برفق:

- لقد خرجنا من القرية. ألا تدعو لنا دعاء السفر؟

استدار إلى أبيه بابتسامة حزينة، ثم بدأ يتلو دعاء السفر بصوتٍ متقطعٍ مخنوق، وأبواه وإخوته يؤمّنون عليه. وبعد أن فرغ، قال أبوه:

- هل حملتَ معك جميع أغراضك؟

- أظن ذلك.

- بقي عندنا أقل من أربع ساعات، ونحتاج إلى أكثر من ساعتين للوصول إلى المطار.

لم يردّ محمد بشيء، وإنما أسند رأسه إلى النافذة، وبدأ يبكي بصمت. رأى خالد أن أمه غارقة في صمتها وتكفكف دموعها، فتناول الكيس من يدها، وأخرج منه بعض الحلويات والمكسرات ووضعها في صحنٍ صغير، ثم مدّ بها إلى محمد. كان محمد غارقاً في حزنٍ شديد، فلم يشعر بخالد وهو يناوله الصحن إلا عندما وكزه به، فانتبه وأخذ الصحن، ثم مدّ به نحو والده، فأخذ أبوه شيئاً منه، ثم أعطى الصحن لأروى، وعاد إلى صمته وبكائه. قال أبوه:

- أخبرتنا بأن الرحلة تستغرق أكثر من خمسة عشر ساعة.

حرّك رأسه موافقاً، ولكنه لم يردّ بشيء.

سأله أبوه مرة أخرى، وكأنه يريد أن يخرج منه حزنه ومعاناته:

- هل أعلمتَ أحداً في أمريكا بقدمك؟

ردّ بصوتٍ خافت:

- أرسلتُ إلى بعض أصدقائي.

- وهل ردُّوا عليك بشيء؟

- ردَّ اثنان منهم، وأخبراني بأنهما سيأتيان لاستقبالي في المطار. كذلك، وعداني بالبحث لي عن شقة.

واصلت الأسرة طريقها إلى المطار، ومحمد وأبواه غارقون في صمتٍ عميق. وأما الأولاد فقد انشغلوا جزءاً من الطريق في قراءة بعض القصص والكتيبات التي حملوها معهم، وكان- أحياناً- تُسمع ضحكة أو صرخة من يوسف، وهو يتعارك بصمتٍ مع خالد. كانت أروى تلتفت أحياناً إلى الورا فترى أمها قد أسندت رأسها على النافذة، وأسدلت خمارها على وجهها لتُداري البكاء والحزن عن أولادها.

عندما وصلوا عند صالة المغادرة، كان رجال الأمن لا يُمهّلون السيارات في المكوث طويلاً، فأسرع خالد وأنزل الحقائب، وركض يوسف وأروى يتسابقان، وأحضر كلُّ منهما عربة، بينما كان محمد يراقبهم في صمتٍ وحزن؛ ولم تقوَ رجلاه حتى على مساعدة أخيه. فوجئ الجميع بوجود سالم وسمية، فجاء وسَلِّما على عليٍّ ومحمد والأولاد، ثم اتجهت سمية نحو السيارة لتساعد أمها على النزول. قبَّلت رأسها ويدها، ثم أمسكت بها لتساعد على الخروج من السيارة. كانت خديجة في منتهى الضعف؛ حتى إن سمية حملتها من ذراعها لتقوى على الخروج، ثم مشت بجانبها وهي ممسكة بها. أخذ عليُّ السيارة إلى الموقف، بينما جرَّ خالد العربة إلى داخل المطار.

كانت تبدأ على سالم علامات الحزن والحرج في الوقت نفسه: الحزن

اللحظات الأخيرة

لفراق أعزَّ أصدقائه، والخرج من أن يكون هو السبب في جعل محمد يرحل عن بلده، ويهاجر إلى بلدٍ ما كان يوماً ليحلُم أن يعيش فيه. رأى محمدًا غارقًا في صمته وحزنه، فوقف بجانبه، فقال له محمد:

- لم يكن من داعٍ لحضورك !!

تدحرجت من عينيَّ سالم بعض الدمعات وتنهَّد، ثم قال:

- ألهذا الحد أنت غاضبٌ عليَّ، ولا تطيق رؤيتي حتى عند سفرك؟؟

نكَّس محمد رأسه، وصمت قليلاً وكأنه يسترجع ذكريات ما جرى له، ثم قال:

- على العكس، فقد كنتُ في شوقٍ لرؤيتك، وكنتُ سأحزن كثيراً لو لم أرك.

ردَّ سالم بابتسامة حزينة:

- الحمد لله أنك لست غاضباً عليَّ، رغم أنني أعلم أنني السبب في جعلك تترك وطنك وترحل إلى بلد لا تألفه.

- أرجوك، لا تقل ذلك، وأنا على ثقة من أن الله يدبر لي أموراً يريد لي بها الخير إن شاء الله.

عندما رأى سالم رضى محمد عنه، أحبَّ أن يدخل السرور على قلبه، فقال له وهو يمدُّ إليه بكيسٍ يحمله:

- تفضل. هذه هدية بسيطة مني، وبعض النقود التي ربما ستحتاج إليها حال وصولك إلى أمريكا.

هدأت نفس محمد قليلاً، فردَّ بكلماتٍ متقطَّعة حزينة:

– جزاك الله خيرًا. أما الهدية فساخذها، وأما النقود فقد أعطاني والدي ما فيه الكفاية، وأنت قد تحتاج إليها أكثر مني.

– بل هي لك، وأتمنى أن تقبلها كما قبلت مني الهدية.

لم يُرد أن يدخل في جدال معه، فقبل منه الهدية والنقود، ثم قال له:

– أشكرك على الهدية والنقود، واعذرني إن أخطأت في حقك، وبإذن الله سنكون على تواصل، وأنت تعرف بريدي الإلكتروني، وسأرسل لك بإذن الله رقم هاتفي حال استقراره هناك. كذلك سأطلعك على ما يستجد لي.

قال سالم بنبرة تنمُّ عن حزن:

– أسأل الله أن يوفقك ويحفظك ويعيدك إلينا سالمًا غانمًا بإذن الله.

وصل إلى مكتب الطيران، وأعطاهم جوازه وتذكرته، وبعد حوالي عشر دقائق انتهت إجراءات السفر. عندما جاء عليٌّ ورأى الجميع جالسين على الكراسي، ظنَّ أن ثمة مشكلة قد حدثت، فبادر يسأل:

– خيرًا إن شاء الله؟ ماذا جرى؟

ردَّ سالم:

– خير والحمد لله، لقد أنهى محمد إجراءات السفر.

ردَّ عليٌّ بدهشة:

– ما شاء الله، بهذه السرعة؟

ثم توجه إلى محمد وسأله:

– هل أخبروك متى ستقلع الطائرة ومتى عليكم دخول بوابة المغادرة؟

ردّ محمد باقتصاب:

- بعد حوالي ساعة ونصف.

تم الإعلان عن الرحلة، وطُلب من المسافرين إلى لندن التوجّه إلى بوابة المغادرة. عندها، بدأت نبضات قلبه تتزايد، وأحسّ بلحظات خانقة لم تمرّ عليه من قبل. شعر وكأنّ رجليه متسمّرتان ولا يقوى على النهوض. إنه قد يكون الوداع الأخير بينه وبين أهله، ولا يدري هل سيكتب الله له فرصة أخرى للعودة إلى وطنه. تحامل حتى انتصب قائمًا، ثم قال بحشرة خانقة:

- أظنّ أن الوقت قد حان.

قام الجميع، وبدأت أمه في البكاء، ثم خاطبته بصوتٍ يخالطه النشيج:

- ألا تجلس معنا قليلًا، فلا أظنّ أنهم سيذهبون بدونك؟

مسح بعض الدمعات من عينيه، ثم قال بحشرة:

- ما زال أمامي تخليص إجراءات الجوازات، وأخاف أن أتأخر.

علّق أبوه بابتسامة حزينة:

- دعيه يا أم محمد، فمهما بقي بيننا فسنحسّ أن الوقت يطير بسرعة.

عانق أبواه عناقًا حارًّا وبكوا بكاءً مرًّا، وكان يتمنى أن تطول تلك اللحظات لدقائق وساعات. قبّل رأسيهما ويديهما، وطلب منهما الصبح عما بدر منه تجاههما من تقصير، وسألهما الدعاء له. بعدها، صافح أخته وهي تبكي، فأثر فيه منظرها فبكى هو الآخر. استحيا أن يذكر اسم شيماء في حضرة أخيها، فقال لها مواردًا، وهو يضغط على يدها:

- سلّمي على الأهل.

جاء دور خالد، فرآه أيضًا في غاية التأثر، فعانقه، ثم قال له ممازحًا:

- لقد صرت سيّد البيت، فخذ بالكَ من أبويك.

- لا تفكر في ذلك، وإني سأكون- بإذن الله- عند حسن ظنك.

أمسك بكتفيه وهزّهما قليلاً ليؤكد ثقته به. انتقل بعد ذلك إلى يوسف وأروى، فضمّهما إليه، وقبّل خدّ أروى، ثم قال لهما:

- اجتهدا في الدراسة، وكونا مثل خالد وسمية.

فردّت أروى بضحكة:

- أنا أريد أن أكون مثلك.

ضمّهما إليه، ثم قبّل رأسها وهو يبكي.

وفي الختام توجه إلى سالم وعانقه، ثم قال له بنبرة حزينة وهو يضمّهُ إلى

صدره بقوة:

- سأشتاق إليك.

تدحرجت دمعة من عيني سالم، ثم ردّ بكلمات متعثّرة:

- وأنا كذلك.

بقيا متعانقين لفترة، ولا يدريان ما يقولان. أرخى كلّ منهما يده من الآخر، وبقيا متصافحين، ولا يكاد يستطيع أحدهما أن ينظر في وجه الآخر من شدة الحزن. قال له محمد بصوتٍ خافتٍ خوف أن يسمعه أبواه:

- اتصل بي رئيس المراسم، وسألني عن سبب عدم ذهابي إليهم، فأخبرته

بأنّي أريد بعض الوقت للتجهّز، وكنّت أقصد هذا السفر.

اللحظات الأخيرة

نكّس سالم رأسه، وكأنه شعر بالخزي من إيقاع صديقه في ذلك المأزق.

تابع محمد:

– فإذا اتصلوا بك فأخبرهم بأني قررتُ العودة إلى أمريكا لمواصلة الدراسة.

هزَّ سالم رأسه بالإيجاب، ثم تعانقا مرة أخرى.

أخذ حقيقته، واتجه صوب أهله، ثم قال لهم بصوتٍ مخنوق:

– أستودعكم الله.

لم يُطِقِ النظر إلى وجوههم، فتوجّه صوب بوابة المغادرة، وبين الحين

والآخر كان يلتفت إليهم فيراهم متسمّرين في مكانهم، وأمه بين الحين والآخر

تمسح الدموع من وجنتيها. وما إن كاد يغيب عن الأنظار حتى سمع أحدًا

يناديه:

– محمد... محمد.

التفت للوراء، فرأى يوسف يجري نحوه ويده كيس الحلويات والمكسرات.

لما وصل عنده قال له:

– أمي تقول: خذ ما بقي من الحلويات والمكسرات لتتسلّى بها في الطائرة.

شكره، ثم لوّح بيده صوب أمه، وكأنه يشكرها على الكيس.

وصل إلى مكتب الجوازات لإنهاء إجراءات المغادرة، فحاول أن يُداري

الحزن الذي بداخله كي يُبعد الشكوك عنه. سلّم الجواز وبطاقة دخول الطائرة

إلى الموظف، فشاهد الموظف يُقلّب الجواز، فبدأ القلق يسري في قلبه من أن

تكون قد وصلتهم أوامر من القصر الرئاسي لمنعه من السفر. سأله الموظف:

– إلى أين؟

الفصل العشرون

- أمريكا.
- والغرض من الرحلة؟
- الدراسة.
- ماذا تدرس؟
- علوم الفضاء.
- تخصص فريد. وفي أي جامعة؟
- جامعة هارفارد.
- جامعة عريقة. هل عندك قبولٌ منها؟
- نعم.
- وأخرج من حقيبته رسالة القبول من الجامعة، وسلّمه إياها. نظر الموظف إلى الورقة لوهلة، ثم أعادها إليه، ثم خاطبه:
- لكن، رحلتك إلى لندن؟
- نعم، مجرد ترانزيت ثم أوصل إلى أمريكا.
- ومتى العودة؟
- اضطرب وخاف أن يخبره بقراره بالهجرة من وطنه، وفي الوقت نفسه خاف أن تكون وصلتهم أخبار بذلك، فردّ:
- بحسب الظروف، ومدة دراسة الماجستير هي حوالي سنتين فقط.
- يبدو أن الموظف لم يجد شيئاً آخر يسأله، فختم الجواز، ثم أعاده إليه، وقال له بابتسامة:

- رحلة سعيدة.

- آمين. شكرًا لك.

ارتاحت نفسه قليلاً، ولكن بقي عنده شيءٌ من الخوف من عرقلة سفره بأيّ وسيلة. وصل إلى بوابة المغادرة، وانتظر قليلاً في قاعة الانتظار، ثم فُتِحَت البوابة، وركب الطائرة.

تحركت الأسرة عائدة إلى القرية في حوالي الواحدة بعد منتصف الليل، وكان الوجوم يُخيّم عليهم، وخاصة عليّ وخديجة. لزم الأولاد الصمت مراعاة لمشاعرهما، وبعد قليلٍ خلدوا إلى النوم. أما عليّ فحاول بين الحين والآخر أن يفتح موضوعاً مع زوجته للتحدّث فيه، ولكنها كانت تردُّ بكلمات مقتضبة، ثم يسود صمتٌ لفترة. استمرّ الحال على هذا إلى أن وصلوا إلى المنزل في حوالي الثالثة بعد منتصف الليل.

ركب الطائرة، وجلس في كرسيه، فأحسّ بشيء من الاطمئنان من عدم عرقلة مغادرته، ولكنه كان لا يزال يشعر بحزنٍ شديدٍ وتوتّرٍ لا يوصف. ثم قرأ في سرّه دعاء السفر، ثم أخرج مصحفه من جيبه، وبدأ يقرأ شيئاً من القرآن، وحاول أن يركّز في قراءته، ولكن المشاعر كانت تتصارع بداخله مثل الطوفان الجارف.

كانت صورة والديه وإخوته وهم يُودّعونه في المطار تتراءى أمامه، وكان يرى الوجوم والحزن الذي يغشى وجوههم، ويرى الدموع تسيل من مقلّهم، فلا يتمالك نفسه فيبكي بكاءً مرّاً، وتهطل الدموع من عينيه، وكان قد أسند رأسه على الكرسي باتجاه النافذة، ليُدّاري ما به عمّن يجلس بجانبه.

خاطب نفسه:

- يا ويلي من عقاب الله.. يا ويلي من سخطه وغضبه عليّ.. ماذا جنّوا حتى أوقعهم في هذا العذاب؟ أبعد كل ما قدّموه لي أهجرهم وأرحل عنهم، وأتركهم في حزنهم وعذابهم؟ أهذا برُّ الوالدين؟ أأفعل بهم كل هذا وأنا الذي أدّعي أنني من الدعاة؟ ياله من نفاق. لماذا لم أقبل وظيفة ووزارة البريد وأعيش بين والديّ؟ ولماذا تركتُ المنصب الذي عرضه عليّ الملك؟ أليس ذلك خيراً لي من أن أوقع أهلي في هذا العذاب الذي سيظلّ معهم لسنوات.

شعر بندم شديد وازدراء لنفسه المتغطّسة التي تتعلّل بالطموح والاستقامة وغيرها من الأكاذيب التي - حسب تصوّره - لا محالة ستدخله نار جهنم. بكى بكاءً شديداً لحاله. وفجأة، تراءت شيماء أمام عينيه، وقد وضعت يديها على خديها، وهي تبكي بكاءً حارّاً على فراقه لها، والسنوات الجميلة التي نما فيها الحب بينهما وترعرع.

ثم تصوّرها تستمع إلى أخته وهي تنقل إليها كلامه لها، وطلبه منها أن تنسى ما كان بينهما، فيراها تنفجر غاضبة، قد احمرّت وجهها، وتخضّب بالدموع، وهي تلعن السنوات التي خدعها فيها بوهم الحب، ثم يتصوّرها وهي تنقل ذلك إلى أمها، فتقهقه عفراء بصوت عالٍ سمعه سعيد وسالم، وهي تسخر من سذاجتها وقلة عقلها، وتؤكد لهم رجاحة عقلها هي وبُعدِ نظرها عندما رفضت تزويجها له، وتؤكد لهم اختلال عقله، فيرى سعيداً وسالماً يقهقهان معها.

صرخ في أعماقه:

- إلهي.. إلهي.. ارحمني يا إلهي.. لا تعذبني يا رب.. اللهم إني صفحتُ عنهم، فاصفح عني.. اللهم يا رب أزل ما في قلوبهم من أحقادٍ وضغائن

اللحظات الأخيرة

نحوي.. أرجوك يا إلهي: لا تجعل شيماء تُغيّر مشاعرها من حبّ لي إلى عدااء وحقّد عليّ.

بدأت نفسه تسكن قليلاً، لكن سرعان ما تصوّر وجه سالم وهو يقهقه بأعلى صوته ويصرخ:

- يا غبي.. لقد ضحكتُ عليك!! يا ساذج.. لقد عرفتُ كيف أوقّعك في المصائب لكي أبعدك عن شيماء.. لن تنالها أبداً.
ثم يراه يقهقه مرة أخرى.

شعر بحنقٍ شديدٍ نحوه، واعتبره السبب في كل ما جرى له. تصوّره وهو يرفض بشدة زواجه من شيماء، فيبكي بكاءً شديداً، ثم يخاطبه بحرقة:

- أهذه عاقبة الصداقة التي تربّينا عليها، وعشنا سنين طويلة كأعزّ صديقين، بل أخوين؟ ماذا دهالك لتتقلب ضدي وتعاديني؟ إنه لولا غرورك وكبرياؤك، وانجرافك مع البلهاء من زملائك وأصدقائك الذين بعثني من أجلمهم، لولا كل ذلك لكانت شيماء الآن شريكة حياتي ورفيقة دربي.

ازداد غضبه عليه عندما استرجع في ذاكرته طرقه الملتوية التي فعلها- حسب زعمه- من أجله. لقد ندم ندمًا شديدًا على ما أوقعه سالم فيه من مآزق، والتي لم تكن إلا بمثابة حب الدب لصاحبه. بكى بحرقة شديدة، ثم خاطبه:

- سامحك الله، لماذا فعلت كل ذلك بي؟ أكان ذلك حقًا حبًا لي أم حقّدًا عليّ؟

صمت قليلاً وهو يبكي، ثم استدرك قائلاً:

- على كل حال، لقد ذهب كل شيء، وها أنا أخرج من وطني طريدًا مشردًا!! سامحك الله يا سالم.. اللهم سامحه.. اللهم إني عفوتُ عنه، فاعف

عني.. اللهم إن كان فعل كل ذلك حقًا من أجلي فأثبه عليه، وإن كان غير ذلك فسامحه.

كان أحيانًا يفتيق من تلك الدوامة، ويستغفر الله، ويستعيز من الشيطان، ويحاول قراءة شيء من القرآن لمغالبة تلك الوسوس، ولكنها سرعان ما تعود إليه. تحركت الطائرة، ثم أفلعت، وهو لا يزال غارقًا في مشاعره، ولم ينقذه منها إلا صوت المضيفة وهي تسأله عن رغبته في وجبة العشاء. ردَّ عليها:

- أيَّ شيء.

فتحت طاولته، ثم وضعت صينية الطعام عليها. حاول أن يتناول شيئًا منها، ولكنه رفع اللقمة فأحسَّ بغصّة تخنقه، وكأن تلك المشاعر الهادرة قد أذهبت عنه شهية الأكل. أرجع الملعقة، وأسند رأسه مرة أخرى إلى الكرسي، وبدأت نوبة جديدة من تلك المشاعر المضطربة تعصر فؤاده.

طلب من المضيفة أن تُحضّر له بطانية، فالتحف بها وأسند رأسه بين الكرسي والنافذة، وأخذ ينحب نحيبًا شديدًا، ولكنه كان يغالب نفسه لكي لا يسمعه من حوله. بعد وجبة العشاء أُطفئت أنوار الطائرة، وبدؤوا بعرض فيلمٍ غربي. بقي في صمته وبكائه إلى أن غلبه النوم من شدة الإرهاق.

استيقظ من نومه قبل وصول الطائرة إلى مطار هيثرو في لندن. أحسَّ بأن مشاعره قد هدأت قليلًا. نظر في النافذة، فرأى الفجر قد بزغ، فأسرع للوضوء، ثم صلى على كرسيه. بعد قليل، بدأ مضيفو الطائرة في تقديم وجبة الإفطار. وصلت الطائرة في حوالي السادسة والنصف صباحًا بتوقيت لندن. أنهى إجراءات الخروج من المطار، وحصل على تأشيرة مؤقتة لمدة ٢٤ ساعة.

اللحظات الأخيرة

بعدها، توجه إلى أحد الفنادق القريبة من المطار. عندما وصل إلى الفندق، وحصل على غرفة فيه، كان أول ما قام به أن اتصل بوالده وأخبره بوصوله إلى لندن.

ما إن سمعت خديجة زوجها وهو يتحدث في الهاتف، حتى أسرعته نحوه، وأشارت إليه بأنها تريد أن تكلمه. تناولت السماعة، ثم انفجرت تبكي وتقول:

- كيف أنت يا حبيبي؟

سمعها تبكي، فانفجر أيضًا يبكي، ثم ردّ عليها بحزن:

- الحمد لله.

- هل وصلت إلى أمريكا؟

- لا، ما زلت في لندن.

- ومتى ستغادر إلى أمريكا؟

- في حوالي الخامسة عصرًا.

- هل التقيت في الطائرة بأحد تعرفه؟

- سافر معي بعض الطلاب، ولكن لا أدري إن كانوا سيذهبون معي إلى أمريكا أم لا.

لاحظت خديجة أن زوجها يشير إليها أن لا تطيل الحديث، فقالت بسرعة:

- هل تريد شيئًا نرسله إليك؟

- لا. شكرًا.

انفجرت أمه مرة أخرى تبكي وهي تقول:

- إلى اللقاء يا حبيبي .

لم يتمالك نفسه فانفجر باكياً، ولم يستطع الردَّ عليها. ناولت السماعة إلى زوجها، فقال له:

- لقد أطلنا عليك، ولكن سنتنظر اتصالك عندما تصل إلى أمريكا.

ردَّ بصوتٍ خافتٍ:

- بإذن الله .

- في حفظ الله ورعايته.

ثم أغلق أبوه السماعة.

استلقى على سريره، وعاودته تلك المشاعر الحزينة من جديد. حاول أن يُخرج نفسه منها بتلاوة القرآن حيناً، أو القراءة في كتاب أحضره معه، ولكنه لم يفلح. غطى وجهه بوسادة، وحاول أن ينام ولكنه لم يستطع. بقي يتصارع مع تلك المشاعر التي هزته بعنف فأنهكت قواه، حتى كان لا يقوى على الوقوف. رأى أن المكث في الغرفة لن يزيده إلا همماً، فانتظر دخول وقت صلاة الظهر، فتوضأ وصلى الظهر والعصر، ثم رجع إلى المطار. أنهى إجراءات السفر، ثم توجه إلى بوابة المغادرة، وبقي هناك لأكثر من ساعتين. أقلعت الطائرة في الخامسة عصرًا، وكانت رحلة ثقيلة، اعتصرته فيها المواجه والهموم، وسبح بأحزانه بين أحبابه ودياره.

استغرقت الرحلة من لندن إلى واشنطن حوالي تسع ساعات، ووصلت إلى مطار دالاس الدولي في واشنطن في حوالي الثامنة ليلاً. استلم حقائبه، ثم انتقل إلى مطار رونالد ريغان للرحلات الداخلية، وواصل رحلته إلى مدينة بوسطن في ولاية ماساتشوستس.

الفصل الحادي والعشرون: حُبُّ مؤبَّد

كانت سمية قد أجملت ما طلبه منها أخوها لتوصله إلى شيماء إلى ما بعد سفره خشية أن يتضاعف عليها الحزن. ونظرًا لبقائها في العاصمة مع زوجها، كان على سالم أن يخرج من شقته بعد صلاة الفجر، فيوصلها إلى جامعة البيان التي تبعد أكثر من ساعة عن العاصمة، ثم يعود مرة أخرى إلى عمله. ما إن التقت بشيماء في الجامعة حتى أخبرتها بأن هناك موضوعًا تريد التحدُّث معها بشأنه. كانتا لا تزالان في حزنٍ شديدٍ من رحيل محمد، وكان وجه شيماء شاحبَّ جدًّا؛ إذ إنها لم تنم ليلة البارحة، وتعاون عليها فراق محمد وشماته أمها به وبها.

بعد المحاضرة الثانية التقتا، وكانتا تعودتا الذهاب في وقت الاستراحات إلى قسم الطالبات في مركز خدمات الطلاب، ولكن سمية خشيت أن تنفعل شيماء فتشعر الطالبات الأخريات بذلك، ففضَّلت الجلوس في مكان منعزل. بحثت عن أحد الصفوف الفارغة، فجلستا فيه.

حاولت سمية أن تنقل لها كلام محمد بأسلوبٍ لا يزيد من جراحها. بدأت بمقدمة طويلة عبَّرت لها عن حبِّ محمد الشديد لها، وتعلُّقه بها، وأنه لولا ما أراده الله من وقوف أمها وقبلها سالم من الزواج بها لأصبحت الآن زوجان

سعيدان. تابعت شيماء حديث سمية وهي تُكفكف الدموع، ولم يخطر ببالها ما تريد سمية إيصاله إليها. وأخيراً، صدمتها بما أوصاها به محمد، فقالت لها: - وقد أخبرني بأن أقول لك بأنه بعد أن فات كل شيء، أن الآوان لتُنسِّي ما جرى!!

ما إن سمعت هذه الكلمات حتى انفجرت تبكي، ثم صرخت في وجهها: - أنتِ تكذبين!! محمد لن يقول مثل هذا!! هذه دسيسة منك ومن زوجك لتُحطِّمًا حياتي كما حطَّمتما حياته هو!!

كانت سمية تخشى أن تفعل شيماء عندما تسمع هذا الكلام، ولكنها لم تتوقع أن تقابلها بهذه الاتهامات، ومع ذلك فقد عذرتها لكون ما قالته لها سبب لها صدمة قاسية.

وضعت شيماء يديها على خديها وصارت تبكي بنشيج مسموع، ثم بعد فترة تمت بصوتٍ ضعيف:

- ألهذه الدرجة تكرهيني أنتِ وزوجك؟! ألا يكفي ما تفعله أمي بي؟! أين تريدوني أن أذهب؟! هل تريدوني أن أنتحر؟!!

بقيت تبكي لفترة طويلة، وسمية صامتة لا تدري ما تقول لها. وبعد أن أحسَّت أن نشيجها بدأ يخفُّ، قالت لها بنبرة حزينة:

- أنا آسفة يا شيماء، ووالله ما قلته لك قد أخبرني به محمد بنفسه قبل أيام من رحيله، وطلب مني أن أوصله لك في ذلك اليوم، ولكنني خشيتُ من أن تنقلب مشاعرك تجاهه، فأجلته إلى ما بعد سفره.

خفَّت بكاءها، ولكنها بقيت صامتة ولم تقل شيئاً. بعد قليل تابعت سمية:

حُبُّ مؤبَدٍ

- لقد حاولتُ أنا وسالم أن نقتعه بعدم الرحيل، ولكنه تخوَّف إن بقي من أن يعاقبه لرفضه المنصب الذي عرضه عليه الملك.

هدأت شيماء وتوقفت عن البكاء، ولكنها بقيت صامتة ويدها تغطي وجهها. تابعت سمية:

- إنه يُحِبُّكِ حُبًّا عظيمًا، وما قال لك ما أخبرتك به إلا خوفًا عليك من أن تتعذبي بانتظار الزواج منه، وأرادك أن تتزوجي بأيِّ شخصٍ آخر مراعاة لمشاعركِ. وقد طلب منا أنا وسالم أن نجتهد في البحث عن شابٍّ صالحٍ يُنْسِيكِ- حسب قوله- ما كان بينكما من حُبٍّ ومودة.

ارتاحت شيماء لسماع هذه الكلمات، فأنزلت كفيها من وجهها، ثم علَّقت بابتسامة حزينة:

- كيف أستطيع أن أنسى ما كان بيننا؟! لقد نذرتُ على نفسي ألا أتزوج أحدًا غيره، حتى ولو طالَّت السُّنُون!!

أعجبت سمية بهذا الحب المنعقد في قلب شيماء، وفي الوقت نفسه كانت تدرك أن مثل هذا القرار يجافي الفطرة البشرية، فخاطبتها بشفقة:

- ولكنكِ تعلمين أن سفره قد يطول كثيرًا، ولا يمكن للمرأة أن تبقى بدون زوج، وتعلمين أيضًا أن الناس قد يُسيؤون بكِ الظنون!!

ابتسمت من كلام سمية، ثم علَّقت:

- لا يهْمُنِي كلام الناس، وإني- بإذن الله- سأجتهد في التبتُّل إلى الله والتضرُّع إليه ليُعجِّل بيوم زواجنا.

ما زالت سمية تشعر بخطورة هذا القرار على حياة شيماء، فخاطبتها بترجُّح:

- اعقلي يا شيماء!! محمد قد هجر وطنه، ولا يعلم هو ولا نحن إن كان الله سيكتب له العودة مرة أخرى إلينا!! ثم إنك تعلمين أنه قد يشعر هناك بقسوة الغربة عليه فيضطرّ للبحث عمّن يؤنسه!!

توقعت سمية أن مثل هذا الأسلوب قد يدفع شيماء لتغيير قرارها، ولكنها صدمت عندما أجابتها:

- حتى لو فعل ذلك فلن يتغير حُبِّي له، بل سأدعو الله أن يوفقه ويبارك في زواجه وذريته!!

قاطعتها سمية بدهشة:

- وماذا عنك أنت؟!؟

ردّت بنبرة تُنم عن وُلّه بمحمد وحُبّ نقيّ له:

- سيظل قلبي متعلّقًا به إلى أن أفارق الحياة!!

رأت سمية أن لا جدوى من محاولة إقناعها الآن، ولكنها - حسب تصوُّرها - ما إن تمرّ الأشهر والسنوات حتى تخبو جذوة الحبّ من قلبها، وحينئذٍ لن تجد مناصًا من الرضى بالزواج من شخصٍ آخر يعوّضها عن محمد. صممت قليلًا، ثم قالت لها:

- يبدو أن الحب الذي بينكما يفوق ما يتصوّره البشر، وعسى أن يُعجّل الله بالفرج لمحمد، فيتحقّق حلمكما.

لم تجب شيماء بشيء، فتابعت سمية:

- أرى أنه من الأفضل أن أتصل بسالم ليأتيني، فإني لا أشعر برغبة لمواصله محاضرات اليوم.

حُبُّ مؤبَّد

أخرجت هاتفها، وحاولت الاتصال به عدة مرات، ولكن كان يتعذَّر الاتصال به. بدأ القلق يدبُّ في نفسها، وخافت أن يكون قد حصل له مكروه. طلبت من شيماء أن تحاول الاتصال به ففعلت، ولكن هاتفه - فيما يبدو - كان مغلقاً. سألتها شيماء:

- لماذا لا تأتي عندنا، وسيأتيك بعد الدوام؟

- لا أريد العودة إلى هناك بمفردي، فأنا محرّجة مما وقع بين سالم وأمك. صممت قليلاً، ثم تابعت:

- ولكنني سأذهب إلى بيت أهلي.

قررتا العودة سوياً في الحافلة.

عندما أعلن قبطان الطائرة عن بدء النزول في مطار بوسطن، أخذ محمد يفكر في صاحبيه اللذين راسلهما ووعدها بأن يستقبلاه في المطار، ووضع خطة لنفسه بعد نزوله من الطائرة. كان يرى أن يحاول أولاً البحث عن صاحبيه، فإذا وجد أحدهما ذهب معه، وإلا استأجر سيارة، ثم توجّه إلى أحد الفنادق القريبة من المطار.

عندما وصلت الطائرة، وبدأ الركاب في الخروج من الطائرة، حمل حقيبة الدبلوماسية، ثم توجّه إلى داخل المطار، واستلم حقايبه الأخرى. بعد هنيهة جاء شابان تبدو عليهما سيماء الصلاح والوقار، فلما رأهما عرف أنهما زميلاه عبدالله ومبارك. حاول أن يُداري ما به من حزن، فتوجّه نحوهما، وسلّم عليهما، وعانقهما.

توجّه الثلاثة أولاً إلى مواقف السيارات، وحمل عبدالله حقيبة محمد الدبلوماسية، بينما دفع مبارك عربة الحقايب الأخرى. قال عبدالله:

- سندهب - بإذن الله - أولاً إلى شقتي، فإن أمّ صهيب قد أعدت لنا عشاءً، ولا بُدَّ أنها الآن قلقة لتأخّرنا عليها.

قال محمد:

- يا أخي، لم يكن من داع لأن تكلف نفسك وزوجك، وكان يكفي أن نذهب إلى أحد المطاعم ونتعشى فيه سوياً.

قال عبدالله مداعباً له:

- نحن نعرف أن قدرك أكبر من وجبة عشاء، ولذا فستترك الوليمة لوقتٍ لاحق.

بعد تناول العشاء، استأذن محمد في الانصراف؛ فقد كان يشعر بإعياءٍ كثير، ولا تزال مشاعره المتحطّمة تسيطر على قلبه. كان عبدالله قد أخبره بأنه استأجر له شقة صغيرة قريباً من الجامعة، وفي الوقت نفسه لا تبعد كثيراً عن المركز الإسلامي. أوصلاه إلى الشقة، وأنزلا له الحقائب، ثم انصرفا عنه. تجوّل في الشقة، ووجد أنهما قد أثّثاها بالكامل، بما في ذلك المطبخ وغرفة النوم. كذلك، أوصلا إليها جميع الخدمات، حتى الهاتف.

رأى أن عليه أن يتصل بوالديه ليطمئنهما على وصوله، ولكن الوقت في المملكة كان قد جاوز الثامنة صباحاً، فأبوه وإخوته لن يكونوا في البيت. لذا، أجل الاتصال بهما إلى أن يعود والده من الدوام. أراد أن ينام، فلم يستطع، رغم ما يشعر به من إعياء، وهجمت عليه الوسواس من جديد. بقي يتململ في فراشه إلى أن غلبه النوم.

استيقظ لصلاة الفجر، ثم توجّه إلى المركز الإسلامي، وكانت فرصة

حُبُّ مؤبَد

له ليلتقي ببعض أصدقائه القدامى. التقى بالعديد من معارفه من مختلف الجنسيات العربية وغير العربية، وكان الجميع يُرحّبون به ويسألونه عن سبب عودته إلى أمريكا، أهى الدراسة أم العمل؟ كان محمد يجيبهم بأنهما الاثنان معاً.

بعد صلاة الفجر، بقي في المسجد يقرأ القرآن ويدعو بأذكار الصباح إلى أن طلعت الشمس، فصلى صلاة الشروق، ثم عاد إلى شقته. كانت الساعة تقترب من السادسة صباحاً، وكان الوقت مناسباً للاتصال بوالديه. حاول الاتصال بوالده عدة مرات، ولكنه في كل مرة يتعذّر الوصول إليه. ظن أن والده عاد من عمله منهكاً فأغلق هاتفه ونام. اتصل بهاتف المنزل، فردّ يوسف فلم يُعرفه بنفسه، وإنما سأله:

- هل أبوك في البيت؟ فقال: لا، لم يرجع من العمل بعد!!

تعجّب من ذلك، فالساعة في المملكة قد جاوزت الثالثة بعد الظهر، فسأله:

- وهل أمك موجودة؟

- نعم.

ثم سمعه ينادي عليها. سلّمت عليه، فعرف من نبرة صوتها أنها ما زالت

حزينة. ردّ عليها السلام، ثم قال لها:

- أنا محمد يا أمي.

انفجرت تبكي، وهي تقول:

- كيف حالك يا حبيبي؟ لقد أقلقني عليك.

لم يتمالك نفسه فبكى هو الآخر، ثم قال لها:

– الحمد لله، أنا الآن في أمريكا، وكنتُ أنوي الاتصال بكم البارحة عندما وصلتُ، ولكن كان الوقت عندكم في حوالي الثامنة، فأثرتُ الاتصال بعد عودة والدي من الدوام.

لم تمهله حتى قالت له بصوتٍ يخالطه البكاء:

– أبوك لم يرجع من عمله اليوم، وأنا قلقة عليه.

بدأت الوسوس تخامر نفسه، وخاف أن يكون قد أصابه مكروه. لم يشأ أن يخبرها بأنه حاول الاتصال به ولكنه لم يرد، خوفاً من أن يزيد من قلقها عليه. قال لها:

– لا تقلقي يا أمي، سأتصل وأسأل عنه، وسأتصل بك لاحقاً.

ودَّع أمه، ثم أغلق السماعة.

كان يحتفظ برقم البلدية ولكن فترة الدوام قد انتهت عندهم، ومع ذلك لم يجد ضيراً من المحاولة. اتصل بهم، فردَّ عليه المنسَّق، فسأله عن أبيه، فأخبره بأنه زاره شخصٌ قبيل الظهر، وخرج معه، ولم يعد إلى مكتبه بعد ذلك.

بدأ القلق يتزايد في نفسه، فاتصل بسالم ليُخبره بما يجري ليتحرَّى مكان والده، ولكن تعذَّر الوصول إليه أيضاً. حاول الاتصال به عدة مرات، ولكن بدون فائدة. ازداد قلقه، وبدأت الشكوك في أن يكون قد أصابهما مكروه بسبب سفره. خاطب نفسه:

– لماذا يتعذَّر الاتصال بهما؟! وأين ذهباً؟! ومَن الضيف الذي خرج

والدي معه?!!!

خاف أن يكون الملك قد أمر باعتقالهما كانتقام على مغادرته هو لأمريكا. لم يتبقَّ إلا أن يتصل بسمية ليسألها عن سالم.

الفصل الثاني والعشرون: تحريّات أمنية

كانت سمية وشيماء قد ذهبتا إلى استراحة الطالبات، وانتظرتا مغادرة الحافلة في الثانية بعد الظهر. اتصل بها محمد وهي في الحافلة، فعرفته من صوته، وفرحت كثيراً، وما إن عرفت شيماء أنها تُكلمُ محمداً حتى ابتهجت، وزال عنها ما كان بها من حزن.

أخبرها باتصاله بأمه ثم بالبلدية، وكذلك تعذّر الاتصال بسالم. ازداد اضطراب سمية وقلقها، فأخبرته بأنها تحاول منذ فترة الاتصال بسالم، ولكن هاتفه يتعذّر. لم يشأ أن يخبرها بشكوكه حول ما يجري، فطلب منها أن تخبره بما يستجد في الأمر.

أخبرت شيماء بما قاله محمد، وحاولا تحليل ما يجري، ولكنهما لم يتوصّلا إلى نتيجة. أما هو فكان لا يزال الحزن يغلب على مشاعره، وكان لا يزال يشعر بإعياءٍ شديد، فقرّر البقاء في الشُّقة، فلعلّه يستطيع النوم قليلاً. نام لفترة قصيرة، ثم قام واستحمّ. كان عبدالله ومبارك قد ملؤوا ثلاجته بالعصائر والفواكه، فشرب كوب عصير، ثم استلقى على سريره.

بعد وصولهما إلى القرية، توجّهت شيماء إلى منزلها، ودخلت غرفتها مباشرة، ولم تُفصح لوالديها بما يجري. أما سمية، فبعد وصولها إلى بيت أبيها، استقبلتها أمها وهي تبكي.

جلستنا في الصلاة، وحاولت سمية أن تعرف من أمها ما إذا كان عندها تفسيرٌ لعدم عودة والدها من العمل، فأخبرتها بأنها قلقَةٌ جدًّا عليه؛ لأنه ليس من عادته أن يتأخر، ولو أراد التأخر أو الذهاب إلى مكان لأعلمها. وفجأةً تذكرت شيئًا، فتوقفت عن البكاء، وقالت لسمية:

– تذكرتُ أمرًا!!

انتبهت سمية من شرودها، فقالت بفضول:

– ماذا يا أمي؟

– في حوالي العاشرة اتصل بي شخصٌ، وسألني عن محمد، فأخبرته بأنه غير موجود، فقال لي: هل تعرفين أين ذهب؟ فأخبرته بأنه غادر إلى أمريكا، فشكرني ثم أنهى المكالمة.

حاولت سمية أن تستنتج شيئًا، ولكنها لم تستطع، فسألت أمها:

– ألم يُعرفك بنفسه؟

– لا، وأنا لم أسأله.

قالت بحيرة:

– أترأهم اتصلوا من القصر الرئاسي بعد أن تأخر محمد في الذهاب إليهم؟

– كل شيءٍ جائز، ولكن ما دخل أبيك؟

– وما دخل سالم في الموضوع؟!؟

– وماذا عن سالم؟!؟

– أحاول الاتصال به ولكن يتعذَّر ذلك.

بدأت خديجة تبكي، ثم قالت:

- إذن، لا شكّ أنهما معتقلان للتحقيق معهما.

ازداد قلق سمية وخوفها على أبيها وزوجها، ولكنها أرادت تخفيف الأمر

على أمها، فقالت لها:

- قد يكون الأمر كما تقولين، ولكن علينا أن لا نستبق الأحداث.

بعد عودة خالد من الكلية بعد صلاة العصر، أخبرته سمية بما يجري،

وطلبت منه أن يسأل عن والده وسالم. بدأ يتصل ببعض زملائه إلى أن حصل

على رقم الهاتف لشخصٍ يعمل مع والده في البلدية. اتصل به وسأله عنه،

فأخبره بأنه جاءه ضيفٌ في حوالي الحادية عشرة، وبقي يتكلم معه لفترة، ثم

خرجوا من البلدية، ولم يعد بعد ذلك للدوام. سألت سمية بدهشة:

- ضيف؟! من سيكون ذلك الضيف؟! هل يمكن أن يكون من رجال

التحريّيات?!?

حاول خالد طمأنتها، فقال:

- لا تتعجّلي في الأمر.

ثم واصل اتصالاته، وسمية تجلس بجانبه، وقد بدأت تبكي خوفاً على أبيها

وزوجها. بعد قليل سمعت خالدًا يسأل في الهاتف:

- مركز التحقيقات الجنائية؟

صمتَ قليلاً، ثم سأل:

- هل عندكم شخص اسمه علي خالد يوسف؟

انتظر قليلاً، ثم قال:

- أنا ولده خالد.

كانت سمية تُنصتُ إلى حوار أخيها في الهاتف، وكأنها أيقنت الآن أن أبأها معتقلٌ عندهم، ثم فجأة سمعته يسأل:

- ألا يمكن زيارته؟

ثم أردف بعد قليل:

- متى تنتهي الزيارة؟

صمتَ قليلاً، ثم قال:

- مشكور وبارك الله فيك.

أنهى المكالمة، ثم التفت إلى سمية وهو منكسُّ رأسه، فلما رآته بادرتَه قائلة بقلق:

- بشر!!

ردَّ عليها بحزن:

- أبي موجود عندهم!!

بدأت سمية تبكي، ثم قالت:

- إذن، لا بُدَّ أن سالمًا معتقلٌ عندهم هو الآخر. أرجوك، حاول أن تتأكد من ذلك.

- سأذهب لزيارة أبي، وسأعرف ما يجري عندما أصل هناك، ولكن لا

تخبري أمي بشيء.

ذهب إلى أمه وأخبرها بأنه سيذهب للبحث عن والده. شكَّت خديجة في

الأمر، فبدأت تبكي، ثم قالت له:

- لا بُدَّ أنكما تُخفيان عني شيئاً ما!!

ارتبك قليلاً، ثم قال لها:

- لا تقلقي يا أمي، فأبي بخير والحمد لله، وسأخبرك بما يجري عندما

أعود.

أرادت أن تذهب معه، فقال لها وهو يحاول صرفها عن ذلك:

- أفضل الذهاب بنفسني.

كان خالد قد حصل على رخصة سياقة بعد دخوله الكلية، واشترى له أبوه

سيارة ليتسنى له التنقل بين البيت والكلية. ذهب إلى مركز التحريّيات، وعندما

وصل إلى الاستقبال سألهم عن والده، وأخبر الموظف بأنه جاء لزيارته. طلبوا

منه الانتظار قليلاً، ثم أدخلوه إلى غرفة خالية، وبعد قليل جاء عليُّ بشباب

العمل. قام واحتظن أباه، ثم قال له بفضول:

- الحمد لله على سلامتك يا أبي، ماذا جرى لك؟

بدأ يقصُّ عليه ما جرى له منذ الصباح:

- جاءني شخصٌ إلى مكنتي، وعرفني بنفسه على أنه من قسم التحريّيات،

ثم سألني عن محمد. لم أرص الكذب فأخبرته بأنه سافر إلى أمريكا، فطلب

مني الذهاب معه لأخذ أقوالي، وجاء بي إلى هنا.

كان خالد يستمع إلى والده بإنصات، فلما توقّف قال له:

- ثم ماذا؟

- عندما وصلتُ أدخلوني على أحد المحقّقين، وبدأ يسألني عن كل صغيرة

وكبيرة عن محمد ونشاطاته ودراسته في أمريكا، ثم سألني عن مقابله مع جلاله

الملك، ورأيه فيها، ولماذا لم يقبل المنصب الذي عرضه عليه الملك.

توقف قليلاً ليستجمع أنفاسه، ثم واصل:

- وبعد أكثر من ثلاث ساعات من الأسئلة المتواصلة، خرج المحقق، ثم

عاد إليّ بعد فترة، وقال لي: ستبقى عندنا إلى أن نتوصل إلى محمد!!

اضطرب خالد، وبدت ملامح الحزن عليه، ثم علّق بنبرة فيها من الوجَل

والخوف ما لا يخفى:

- هذا يعني أنهم سيذهبون إلى محمد ويعيدونه إلى هنا؟!!!

ردّ أبوه بهدوء:

- هذا محتمل، واحتمالٌ آخر أن يذهبوا ويُحقّقوا معه هناك، ولكن حتمًا

لن يتركوه.

- والحل؟!!!

- لا أدري!! وماذا عن أمك؟

- هي قلقة عليك كثيرًا، وسمية أيضًا.

تعجّب أبوه من ذكر سمية، فسأله:

- وهل أخبرتها أيضًا؟

ردّ بحزن:

- هي في بيتنا، وهي التي أخبرتنا بما جرى لك ولسالم.

سأل مندهشًا:

- سالم؟!!!

تحريات أمنية

- نعم، لا بُدَّ أنهم اعتقلوه هو الآخر لأن سمية تحاول التواصل معه منذ الصباح ولكن بدون فائدة.

سأل بقلق:

- وماذا عن محمد؟

- أخبرتني سمية بأنه اتصل بها، وأخبرها بأنه يتصل بك وبسالم ولكن يتعذَّر ذلك.

بعد قليل، جاء الشرطي، وقال لخالد:

- انتهت الزيارة.

- لحظات من فضلك.

سأل أباه:

- والآن، ماذا تريدنا أن نفعل؟

ردَّ أبوه بأسى:

- لا أدري. فقط دبرَّ أمور البيت إلى أن يُفرِّج الله هذه الأزمة.

- لا تقلق بشأن البيت وأمي وإخوتي، وإذا كنتَ تريدنا أن نحضر لك شيئاً فأخبرني.

- هم سحبوا مني الهاتف حال وصولي المركز، ولذلك لو تحضروا لي بعض الثياب، فلا أدري إلى متى سأبقى هنا.

- ياذن الله، سأتيك بها في صباح الغد.

- بلغ سلامي لأمك وإخوتك، وطمئنهم عليَّ.

- ياذن الله.

صافح أباه، ثم خرج من الغرفة. توجه إلى موظف الاستقبال، وسأله إن كان سالم موجودًا أيضًا في المركز، فأخبره الشرطي بأنه لا يوجد عندهم شخصٌ بذلك الاسم، وربما يكون في القيادة العامة في العاصمة. سأله إن كان بالإمكان أن يستفسر له عن مكانه، فقام الشرطي ببعض الاتصالات، ثم أخبره بأنه فعلاً موجود هناك. شكره، ثم خرج من المركز.

عندما عاد إلى البيت قابلته أمه وسمية بالبكاء، فشرح لهما ما جرى لوالده، وطمأنهما عليه، وأخبرهما بأنه سيبقى هناك إلى أن تنتهي التحريات. أخبر أمه بأنهم سيذهبون سوياً لزيارة والده غداً بعد العصر، وأنه يمكنها المجيء معهم. عندما انفرد بأخته أسرَّ لها بما أخبره به الشرطي من أن سالمًا معتقل أيضًا في القيادة العامة في العاصمة، وأخبرها كذلك بما قاله والده من أنهما قد يبقيان في الحجز إلى أن تنتهي التحريات التي قد تطال محمدًا أيضًا. اتفق معها للذهاب لزيارة سالم في الصباح.

بعد قليل، اتصلت بها شيماء لتسأل عن التطورات، فأخبرتها باحتجاز أبيها وسالم، وأخبرتها بزيارة خالد لأبيها، وأنهما ينويان زيارة سالم في الصباح. استحييت شيماء أن تطلب منها الذهاب معها، ولكن فاجأتها بالسؤال عن محمد. تلعثت قليلاً، ثم قالت:

- لم يتصل بعد اتصاله السابق.

سألتهما بقلق:

- وهل تظنين أنهم سيحققون معه أيضًا؟!!

خافت أن تخبرها بما قاله أبوها، فردّت:

- كيف سيذهبون للتحقيق معه وهو في دولة أخرى؟!؟

طلبت منها أن تُبقيها على اطلاع بما تستجدُّ من أمور.

بعد صلاة العشاء اتصل محمد بسمية مرة أخرى، وسألها إن كانوا قد

توصّلوا إلى معرفة ما يجري لأبيه وسالم. أخبرته بتفاصيل زيارة خالد لأبيه،

وأخبرته كذلك باعتقال سالم. علّق بغضب:

- يا لهم من وحوش!! ما ذنب هؤلاء الأبرياء؟!؟ إن كانوا يقصدونني أنا،

فلماذا لا يأتون إلى هنا ويعتقلونني؟!؟

ردّت سمية بابتسامة حزينة:

- لا تتعجّل؛ فالدور سيأتيك!!

ارتبك قليلاً مما قالته أخته، فسألها بدهشة:

- ماذا تقصدين؟

- لقد أخبروا أبي بأنهم سيبقونه عندهم إلى أن يُحقّقوا معك أنت!!

صرخ محمد:

- ماذا يريد هؤلاء الأندال؟!؟ ألم يكتفوا بتشريدي من بلدي؟!؟

ثم تابع بثقة:

- إن الله غالبهم وناصري عليهم.

علّقت سمية وهي تبكي:

- يا ذن الله، ومع ذلك عليك أن تأخذ حذرِك منهم.

- وماذا عن أمي وإخوتي؟ وهل تعلم شيماء بما يجري؟

- أمي في حالة مزرية؛ فهي لا تنفك عن البكاء شفقة عليك وعلى أبي. وشيماء حالتها أيضًا سيئة؛ فقد كانت معي في الحافلة عندما اتصلت بي في الظهيرة، ثم اتصلت هي بي قبيل المغرب فأخبرتها بما جرى لأبي، وهي قلقة عليك كثيرًا.

- وهل تعلم باعتقال سالم؟

- نعم، وأخبرتها بأننا سنذهب أنا وخالد- بإذن الله- صباح غد لزيارته، ولكنني لم أخبرها بما قالوه عن ملاحقتك.

- حسنًا فعلت. وهل أوصلت لها كلامي الذي أخبرتك به قبل سفري؟

أجابته بنبرة فيها مداعبة له وتسلية:

- كدت أن توقعني في ورطة كبيرة معها؛ فلم تصدق أن ذلك الكلام صادرٌ منك، واتهمتني بالكذب والتجني عليك، وقالت بأنني وسالم ندبر لها مؤامرات لتحطيم حياتها.

سألها بلهفة:

- ثم ماذا؟

- في النهاية استطعت بحمد الله أن أقنعها بأن الكلام كان فعلاً منك، ولكن كان نابغاً عن حُبِّك لها.

قاطعها:

- وهل قبلته؟

- قبلته؟! لقد أتت بالعهود والمواثيق على نفسها بأنها لن ترضى بشخص

آخر في حياتها، حتى وإن هجرتها وتزوجت غيرها.

تحريات أمنية

طابت نفسه كثيرًا مما سمع، وتخفّف من بعض ما يجد من أحزان، ثم علّق بنبرة تُنبئ عن سرور وإعجاب بها:

– مسكينة، لقد جنيتُ عليها كثيرًا، ولا تزال تتعلّق بي.

ثم استدرك:

– أسأل الله أن لا يريها مني أكثر مما عانتَه. أبلغها سلامي. كذلك، أبلغني

أمي وإخوتي سلامي، وطمئنهم عليّ. وعندما تذهبون لزيارة أبي وسالم فسلمني عليهم، وطمئنهم عليّ.

– بإذن الله. أظن أنني أطلتُ عليك.

– لا بأس. إلى اللقاء.

– في أمان الله.

أنهى محمد المكالمة، ثم ارتقى على سريره وهو يُفكّر فيما ستحمّله الأيام القادمة من مفاجآت. خاطب نفسه:

– هؤلاء الخبثاء لن يتركوني حتى يُرجعوني إلى بلدي ويُذلّوني. عليّ أن

أصرّف قبل أن يصلوا إليّ.

اتصل بمندوب مركز سميثونيان للفيزياء الفلكية الذي كان على تواصلٍ معه أيام دراسته، وأخبره بأنه وصل إلى بوسطن البارحة، وبأن عنده موضوعًا مهمًّا يريد التحدّث معه حوله، ولا يصلح الهاتف لذلك. سأله المندوب عن عنوان شقته فأعطاه إياه، فوعده أن يكون عنده في خلال نصف ساعة.

جاء المندوب، وسلّم عليه، فرحّب به محمد، وأحضر كوبا عصير له

وللمندوب. شرح له ما جرى له من مقابلة الملك، ثم قرّره المجرى إلى أمريكا

الفصل الثاني العشرون

ومواصلة الدراسة. ثم أخبره باعتقال والده وسالم، وأنهم قد أخبروا والده بأنهم قد يأتون إليه ليُحَقِّقوا معه، وقد يعتقلوه ويُرجعوه إلى المملكة. صمت المندوب لفترة، وكأنه يحاول أن يجد مخرجًا لمحمد، ثم فجأة قال بابتسامة:

- أظن أن الأمر بسيط!!

سأل محمد بدهشة:

- وكيف ذلك!!؟

- هم سيلاحقونك هنا أو في أي بقعة من الأرض ما دُمتَ من مواطنيهم.

- لم أفهم قصدك!!

- أقصد: ما دُمتَ من مواطني المملكة، وتحمل جنسية المملكة، فقد يتحايلون على السلطات الأمريكية لتسليمك إليهم.

ازداد قلقه مما قاله المندوب، ولكنه لا يزال لم يفهم المخرج من كل ذلك، فعلق:

- لا زلتُ لم أفهم قصدك!!

- لو كنتَ تحمل الجنسية الأمريكية فلن يكون لهم أي يد عليك، وستقوم السلطات الأمريكية بحمايتك منهم.

ما زال في حيرة ولم يفهم قصد المندوب، فسأل مستفهمًا:

- ولكن كيف تكون عندي جنسية أمريكية وأنا أحمل جنسية المملكة!!؟

- أنت تعلم أن الحكومة الأمريكية تمنح الجنسية سنويًا لآلاف الأشخاص.

تحذيرات أمنية

بدأ يشعر بقليل من الارتياح، ولكنه لا يزال لا يفهم كيف يمكنه الحصول عليها، فعلق:

- نعم سمعتُ عن هذا، ولكن هؤلاء يقضون سنواتٍ طويلة في أمريكا قبل منحهم الجنسية، وكما سمعتُ فإن إجراءات الحصول عليها طويلة ومضنية.

- كل ما قلته صحيحٌ، ولكن من تحدّثت عنهم هم فقط صنفٌ واحدٌ ممّن يمكنهم الحصول على الجنسية، وهناك أصناف أخرى. وما يهّمنا هنا هو أنه يمكن - أحياناً - لجهة العمل أن تمنح أحد موظفيها الوافدين الجنسية إن رأت مصلحةً في ذلك، وطبعاً يكون ذلك بالتنسيق مع الجهات الرسمية.

بدأ يفهم مقصد المندوب، ولكنه ما جاء للعمل وإنما ينوي في البداية إكمال دراساته العليا، فسأله بفضول:

- وهل يمكن للجامعات أن تقوم بمثل ذلك مع طلابها؟!؟

- لا أعتقد ذلك.

عاوده القلق من أن ما يرمي إليه المندوب قد يُغيّر من خطته التي جاء من أجلها، فسأل مستفهماً:

- والحل؟!؟

- أرى أن نقوم بتوظيفك عندنا، ثم بعد ذلك نتقدّم بطلب الجنسية لك.

ازداد قلقه، وصارت تتصارع بداخله الطموحات والواقع؛ فطموحه هو أن يُكمل دراساته العليا ثم يلتحق بوظيفة، والواقع يقول له أنه مطارد، وأن عليه أن يحمي نفسه قبل أن تصل إليه استخبارات المملكة. ردّ بحيرة:

- ولكنني جئتُ لدراسة الماجستير، وأنوي بعدها مواصلة الدكتوراة.

هزّ المندوب كتفه، ثم ردّ ببرود:

- يمكنك القيام بذلك لاحقًا.

دخل في حيرة شديدة، وبدأ يتوجَّس من نوايا المندوب، وخاف أن يكون يريد استغلال ظروفه الصعبة في تحقيق مآرب قد تؤثر على حياته. بدأت الشكوك تزايد في نفسه، حتى إنه خاطب نفسه: كيف يمكنني أن أثق بهذا الكافر؟ ألا يمكن أنه يريد توريطي في أمر، فأقضي حياتي في سجونهم بدلًا من أن أقضيها في سجون المملكة؟!!

أدرك المندوب صمته وقلقه، فتابع موضِّحًا:

- كنتُ أقصد أن نقوم بتوظيفك كإجراءٍ صوريٍّ يسمح لنا من خلاله من مخاطبة الجهات الرسمية لتمنحك الجنسية، وبعد أن يتحقق ذلك، يمكنك الاحتفاظ بوظيفتك أو الاستقالة منها، ولن يؤدي ذلك إلى أيِّ تبعات أو مساءلات ضدَّك.

فهم خطة المندوب، وانشرت نفسه لها، وأعجب بلباقته، ولكن بقي أن يستوضح بعض الأمور، فعلق بابتسامة:

- الآن فهمتُ. ولكن ألا تأخذ إجراءات التوظيف والحصول على الجنسية فترة طويلة، بحيث تستطيع استخبارات المملكة الوصول إليَّ قبل تحقيق ذلك؟!!

ابتسم المندوب، ثم قال:

- لا تقلق بشأن هذا، فإني سأبدأ إجراءات توظيفك من الآن، وطبعًا بعد موافقتك، وسأفنع مدير العلاقات الخارجية في ناسا لمخاطبة مسؤولي الجنسية لاستثنائك من الروتين المعتاد في الحصول عليها.

طابت نفسه كثيرًا بما وضح المندوب، وبقي أن يسأل عن الدراسة:

- وهل هذه الإجراءات ستعرقل دراستي؟

سأل المندوب مستفهمًا:

- وهل ذهبتَ إلى الجامعة بعد وصولك إلى بوسطن؟

- لا، فقد كنتُ اليوم متعبًا، وأيضًا فالיום عطلة نهاية الأسبوع.

- إذن، هذا يعني أنك لا تزال غير مقيّد عندهم كطالب.

- ولكنني حصلتُ منهم على رسالة رسمية بمنحة كاملة لدراسة الماجستير.

- ذلك لا يعني أنك صرتَ أحد طلابهم، وإنما هو مجرد وعدٍ منهم لك

بذلك.

- كنتُ أنوي بدء دراستي في هذا الصيف، فهل ما أخبرتني عنه سيؤثر على

ذلك؟

- قطعًا لا.

رأى محمد أنه فهم الآن خطة المندوب بوضوح، فهدأت نفسه، ثم استدرك

قائلًا:

- وماذا عنهم؟! أقصد استخبارات المملكة. ألا يمكن أن يفاجؤوني في

أيِّ لحظة؟! كيف أتصرف معهم!!؟

- لا تقلق، سنأخذ كامل احتياطاتنا لذلك.

- وكيف!!؟

- ستكون هناك رقابة متواصلة على شقتك من قِبَل الاستخبارات الفيدرالية

(أف.بي.آي)، وسيتم وضع كاميرا مراقبة في شقتك، ومتى ما أحسّوا بخطرٍ

عليك ستجدهم بجانبك.

ارتاحت نفسه كثيراً، وقبل اقتراح المندوب بترحيب، ولكن لا يزال يساوره القلق من أنهم قد يهجمون عليه، فسأله بابتسامة تُنبئ عن قلقٍ شديد:

– وماذا لو هجموا عليّ؟! فقد يستطيعون ضربني أو حتى قتلي قبل أن تصل إليّ الأف.بي.أي!!

ابتسم المندوب، ثم قال ببرود:

– اطمئن، فالأمور لن تسير كما وصفت، وسنكون قريبين منك.

ثم تابع:

– فقط أعطني جوازك وصورتين شخصيتين، وسأعود إليك لاحقاً لتوقيع بعض الأوراق.

ساورته الشكوك مجدداً من طلب المندوب تسليمه جوازه، ولكن رأى أن لا مفر من تسليم الأمر إليه. أخرج جوازه وصورتين شخصيتين وأعطاهما له. قال المندوب بابتسامة:

– سأنصرف الآن، فأنا- بلا شك- سأقضي عطلة نهاية الأسبوع في مكثبي.

شعر بشيء من الحياء من توريطه معه، فقال معتذراً:

– أظنني سأتعبك معي، وقد أسبب لك الكثير من المشاكل.

– لا عليك، فقد تعودتُ على مثل هذا. والآن إلى لقاء.

– مع السلامة.

خرج المندوب، وأغلق محمد الباب، ثم ارتدى على الكنب، وأخذ يسترجع الحوار الذي دار بينه وبين المندوب. ورغم أنه اطمأن قليلاً من سلامته من كيد استخبارات المملكة، غير أنه لا يدري مصداقية ذلك الآن.

الفصل الثالث والعشرون: حماية درجة أولى

مرّت تلك الليلة على خديجة وسمية وشيماء كأطول ليالي حياتهن؛ فكانت خديجة تبكي طول الليل حزناً وقلقاً على ما يجري لزوجها وابنها، وسمية تتململ في فراشها وهي تذرف الدموع بصمتٍ حزناً وقلقاً على ما يجري لأبيها وأخيها وزوجها، وشيماء تُكفكف الدموع على ما يجري لأخيها وأسرّة محمد، وتسترجع الحديث الذي دار بينها وبين سمية في الجامعة. حاولت الثلاث استكنانه ما قد يحدث لذويهنّ، ولكن الأرق والقلق والحزن أعاقهنّ عن ذلك.

في الصباح الباكر توجه خالد وسمية إلى العاصمة، وفي الطريق أوصلوا الملابس لو الدهم. عندما وصلوا إلى قسم التحريات في القيادة العامة للشرطة، وأخبروهم بأنهم جاؤوا لزيارة سالم، أخبرهم الشرطي بأن وقت الزيارة فقط من الرابعة عصرًا إلى الثامنة مساءً. وبعد محاولات، رضي الشرطي بأن يسمح لهم بالتحدّث مع سالم لمدة عشر دقائق فقط.

بعد انتظار قصير أُدخلوا إلى غرفة، ثم جاء سالم بلباسه المعتاد. عانقه خالد، ثم قال له:

- الحمد لله على سلامتك. لقد أفلقتنا عليك.

ابتسم سالم وقال ممازحًا:

– بارك الله فيك. ماذا أفعل وقد أرادوا أن يُزيلوا عني رتبة الحياة.

سَلَّم على سمية، فخاطبته وهي تبكي:

– أحاول البارحة منذ الصباح الاتصال بك، وبفضل الله ثم بفضل خالد توصلنا إلى مكانك.

بدأ سالم يقصُّ عليهم ما جرى له:

– اتصل بي رئيس المراسم في القصر الرئاسي البارحة، وعرّفني بنفسه، ثم سألتني عن محمد، فقلتُ له مدارياً: كان في البيت. فقال: اتصلنا ببيته، فكلمتنا أمه وأخبرتنا بأنه سافر إلى أمريكا. ذُهِلْتُ من معرفتهم بذلك، ثم قال لي: ونريدك أن تأتي إلى القيادة العامة للشرطة الآن لتُدلي بأقوالك. خِفْتُ أن يصيبني منهم مكروه إن امتنعْتُ عن الذهاب، فأتيتُ إلى هنا. وبعد تحرّيات دامت لعدة ساعات أخبرني المحقق بأنني سأبقى معهم عدة أيام.

علّق خالد بابتسامة:

– نفس ما جرى لوالدي.

دُهِش سالم من سماع ذلك، فقال:

– وهل تم اعتقاله أيضاً؟

– نعم، وقد زرناه البارحة، وقصّ علينا كل ما جرى له.

– لقد سألوني عنه وعن مكان عمله، فأخبرتهم بذلك، وأخاف أن أكون السبب في اعتقاله.

كانت سمية تسمع ما يجري من حوار وهي تبكي، ثم علّقت بنشيج:

– ربما سيذهبون إلى محمد أيضاً، ويُحقّقون معه، أو يحضرونه إلى هنا!!

ردّ سالم:

- لا أظن ذلك.

أكّد خالد ما قالت سمية، ثم أردف:

- لقد أخبروا أبي بأنهم سيُبقونه عندهم إلى أن يُحقّقوا مع محمد.

ابتسم سالم، ثم قال:

- هذا يعني أننا سنعمّر هنا طويلاً!!

جاء الشرطي ليُخبرهم بانتهاء الزيارة، فخاطبت سمية زوجها:

- أحضرنا لك بعض الملابس والأدوات الشخصية، وسنواصل - بإذن

الله - زيارتك باستمرار.

- لا داعي لكثرة الزيارات؛ فأنا بحمد الله بخير. هل أبي وأمي يعلمان بما

يجري؟

ردّت سمية:

- لا أظن ذلك، ولكن شيماء على تواصل معي، وأخبرها بكل ما يجري.

- أفضل أن تكتما الأمر عن والديّ لفترة.

- بإذن الله.

عاود الشرطي إخبارهما بانتهاء الزيارة، فصافحهما سالم، ثم خرجا من

القيادة.

عندما عادا إلى البيت قصّوا على أمهما ما جرى في زيارتهما لسالم، ثم

اتصلت سمية بشيماء وأخبرتها أيضًا بذلك. في عصر ذلك اليوم التالي أخذ

خالد أسرته لزيارة والده، وحملت خديجة معها بعض المأكولات. وما إن التقت خديجة وسمية بعليّ حتى بدأتا في البكاء. طمأنهم أنه بخير، وأنه لم تحدث له أية مضايقات، ثم أخبرهم بأنهم جلسوا اليوم مرة أخرى للتحقيق معه لأكثر من ساعتين، وسألوه عن دراسة محمد أيام الثانوية، ونشاطاته في جماعة العمل التطوعي بشكل خاص والمجتمع بشكل عام. ثم فاجأهم بقوله:

- بعد الظهرية فوجئتُ بالأستاذ أسامة ومعه شخصان لم أعرفهما يدخلان إلى صالة الحجز.

قاطعته خالد:

- حتى الأستاذ أسامة لم يسلم منهم؟! لا بُدَّ أن الآخرَين هما الأستاذ عارف والأستاذ عماد؛ فقد كان محمد على صلة وثيقة بهؤلاء الثلاثة.

علقت سمية بأسى:

- مساكين هؤلاء!! هم خيرة المجتمع ولم يسلموا من كيدهم.

سألت خديجة بحيرة:

- ولكن ما دخل هؤلاء برحيل محمد؟!!

شرح عليّ لها بصوتٍ منخفض:

- هدفهم الأول هو جمع أكبر قدر من المعلومات عن محمد. والهدف الثاني هو مضايقة كل من له علاقة به لتخوينهم من أن يتمردوا عليهم بأي صورة من الصور. ولا أستبعد أن يستخدمونا جميعًا كورقة ضغط لتجبر محمدًا على الاستسلام لهم.

ازداد بكاء خديجة، وأرادت سمية أن تعلق على ما قاله أبوها بألفاظ قاسية، ولكنها خافت أن يكون المكان مراقبًا فيصيبها ما أصابهم. حاولت صرف

الكلام إلى شيءٍ آخر، فقالت لأبيها:

- سالم يُسلم عليك.

ردًّا أبوها بابتسامه:

- صحيح، لم أسألك عنه. كيف أحواله الآن؟

- الحمد لله، يبدو أن حالته النفسية لا تزال مستقرة، ولكن أخاف أن يُكثر وا

في التحقيق معه، أو يضايقه بشيء، فلا يُطبق احتمال ذلك.

- أسأل الله أن يُثبتته ويُثبتنا.

أردفت خديجة:

- آمين يا رب، ويُثبت محمدًا معكم، ويحفظه من كل سوء.

بقيت الأسرة لعدة دقائق أخرى، ثم أخبرهم الشرطي بانتهاء الزيارة، فعادوا

إلى البيت.

بعد صلاة العشاء اتصل محمد بهاتف البيت، وكلم أمه وإخوته، وسألهم

عن والده وسالم فطمأنوه عليهم. أخبره خالد بأن أساتذته الثلاثة تم احتجازهم

أيضًا. تأثر كثيرًا، ولم يزد إلا أن قال:

- حسبي الله ونعم الوكيل.. حسبي الله ونعم الوكيل.

لما جاء دور سمية، سألها عن سالم فطمأنته عليه، ثم سألها عن شيما

ووالديها، فطمأنته أيضًا عليهم، وسألها إن كانت الأخبار قد وصلتتهما، فأخبرته

بأنها لم تسمع عن شيءٍ من ذلك. فاجأته سمية وهي تسأله:

- وماذا عنك؟! هل وصلوا إليك؟!؟!

ارتبك قليلاً، ولم يشأ أن يخبرها على الهاتف بالترتيبات التي جرت مع مندوب مركز سميثونيان؛ حيث يعلم بأن أجهزة الأمن تراقب هواتف أهله، فردّ قائلاً:

الحمد لله، أموري هنا مستقرة، وإن حدث شيءٌ فسأوافيكم به.

في مساء ذلك اليوم جاء مندوب مركز سميثونيان ومعه شخصٌ آخر، وأخبره المندوب بأنه من الأف.بي.آي، وأنه جاء لترتيب كاميرا مراقبة في الشقة. رحّب بهم، وقام الشخص بعمله، ولم يستغرق ذلك إلا بضعة دقائق، ثم قام ببعض الاتصالات لتجربتها. أخبره الشخص بأن سيارة تابعة للأف.بي.آي موجودة في الخارج، وأن لديهم شاشة تلتقط ما تبثه الكاميرا.

كانت هذه الترتيبات تُشعر محمدًا بشيءٍ من الاطمئنان، ولكنه في الوقت نفسه لا يزال قلقًا من أن استخبارات المملكة قد تكون على دراية بهذه الترتيبات الأمنية، وقد يتحايلون عليها بطريقة تفاجئ الأف.بي.آي، مما يجعلهم عاجزين عن الوصول إليه وحمايته في الوقت المطلوب. خاطب المندوب بنبرة توشي بالقلق والاضطراب الذي بداخله:

– لا زلتُ لا أفهم كيف يمكنني أن أتصرف فيما لو أتوا إليّ!!

ابتسم المندوب، ثم قال له:

– اطمئن ولا تقلق، فالأف.بي.آي معروفة بإتقانها لعملها.

ثم أردف الشخص من الأف.بي.آي قائلاً:

– السيارة التي ستراقب شقتك هي فقط للمراقبة، ولكن هناك دورية للشرطة ستكون قريبة من هذه المنطقة، وهم سيكونون عندك في الوقت المناسب.

ردّ محمد بارتباك:

حماية درجة أولاه

- أرجوك أن تشرح لي ما عليّ القيام به فيما لو أتى شخصٌ وطرق باب شقتي، هل سأفتح له أم ماذا أفعل؟
شرح رجل الأف.بي.آي قائلاً:

- يجب أن تعيش حياة طبيعية، وتتصرف بشكل طبيعي لا يثير الشكوك مع جيرانك؛ بمعنى أن لا تُكثِر التلُفَت عندما تخرج من شقتك أو تعود إليها، ولا تُظهِر قلقاً أو ارتباكاً. وإذا صادفك شخصٌ في الطريق وأراد التحدُّث معك، فتكلم معه بشكل طبيعي.

قاطعته محمد بابتسامه:

- وستراقبوني حتى في الشارع!!؟

أجاب الرجل بثقة:

- لا تفكر في هذا؛ فهذه مهمتنا.

ثم تابع:

- كنتُ أقول: إن عليك أن تتصرَّف بشكل طبيعي في أيِّ مكان تذهب إليه، وتمارس حياتك بلا خوفٍ ولا قلق.

قاطعته محمد مرة أخرى:

- وإن جاء أحدٌ إلى شقتي!!؟

ردَّ الرجل:

- تصرَّف بشكل طبيعي حتى وإن طلب منك التحدُّث إليك داخل الشقة أو خارجها. تكلم بشكل لا يُثير الريبة، ولا تتلفَت داخل الشقة وكأنك تناديننا، وعلى وجه الخصوص لا تنظر إلى جهة الكاميرا لكي لا يشكُّوا في أمرك أو

يكتشفوا مكانها.

- وماذا لو بدؤوا يهدّدوني بالكلام، أو أرادوا استخدام العنف معي؟!؟
- ستتابع الحديث الذي يدور بينكم، ونشاهد ما يجري ونقيّم الوضع،
ومتى رأينا حاجة للتدخل فستجدنا بجانبك.

- ولو جاؤوا ولم يتصرّفوا معي بعنف، ولكنهم هدّدوني شفهيًا أو ربما
حاولوا إجباري على الرجوع معهم، وخاصة أنهم قاموا باحتجاز كثير من أهلي
ومعارفي، فهل ستركونهم يفرون هكذا؟!؟
هنا أخرج رجل الأف.بي.آي زراً صغيراً من جيبه، وناوله محمد، فعلق
محمد باستغراب:

- ما هذا؟!؟

- لو أردتنا أن نتدخل ونعتقل من يأتي إليك، فما عليك إلا أن تضغط هذا
الزر، وستجدنا في خلال لحظات أمامك، وسنقوم بالواجب.
اطمأنت نفسه، وشكرهم كثيراً على هذه الترتيبات الدقيقة، ولم يجد بُدّاً من
أن يعتذر لهم على ما أوقعهم فيه، فقال:

- أشكركم جزيل الشكر على هذه الترتيبات، وأعتذر إليكم إن كنتُ سبباً
أو سأسبب لكم من المشاكل والمتاعب ما أنتم في غنى عنها.
ردّ رجل الأف.بي.آي:

- هذا واجبنا.

وردّ مندوب مركز سميثونيان:

- أنت ضيفٌ عزيز علينا، ولا بُدّ من إكرامك وحمايتك.

نكّس رأسه، ثم قال لهم:

- أشكركم كثيرًا.

قال له المندوب:

- سأمرُّ عليك في الغد لإكمال الإجراءات الأخرى.

خرج الرجلان، وعاد هو إلى كنبته، وأخذ يتفحص الزّر الذي أعطاه له المندوب.

الفصل الرابع والعشرون: وعادت المياه إلى مجاريها

وصلت أخبار اعتقال عليٍّ إلى سعيد، وما إن عاد إلى بيته بعد الدوام، واجتمع بعفراء وشيماء على الغداء، حتى قال:

- أُخْبِرْتُ اليوم في العمل بأنه تم اعتقال جارنا عليٍّ بسبب سفر ابنه إلى أمريكا وعدم قبوله لمنصب الملك!!

ما إن سمعت شيماء ذلك حتى بدأ اضطرابها ووجيف قلبها، وترقّبت شماتة أمها بهم وبها - كما هي عاداتها - . ابتسمت عفراء، ثم علّقت:

- يستحقون ذلك؛ فإنهم قد رفضوا مكرمة جلالة الملك!!

كان سعيد قد شاهد شيماء تُنكس رأسها عندما أخبرهم بما قال، فشكَّ أنها كانت على علم، فخاطبها:

- يبدو أن شيماء كانت تعرف عن هذا قبلنا!!

بقيت منكّسة رأسها، وازداد اضطرابها، فلما رآها لم تقل شيئاً، تعمّد إخراجها، فتابع:

- أليس كذلك!!؟

لم تتكلم، وإنما اكتفت بتحريك رأسها. عندها، قالت عفراء بشماتة:

- تريدها أن تخبرك، وهي تغار عليهم وتدافع عنهم؟!
لم تتمالك شيماء نفسها، فانفجرت تبكي، وجرت إلى غرفتها!! لم تُبالِ
عفراء بها، فقالت لزوجها:

- دعها؛ فلعلها تؤوب إلى رشدها وتصدقني فيما قلتُ عن ذلك المعتوه!!

- دعيها أنتِ وشأنها؛ فهي لم تعد صغيرة ولا جاهلة.

- لن أتركها حتى تكرهه، وتقطع تعلقها به!!

صمتت قليلاً، ولم يقل سعيد شيئاً، فتابعت:

- وسأخبر سالمًا؛ فهو الآخر متعلقٌ بهم، وخاصة بعد أن ارتبط بتلك

المغرورة!!

لم يُطق سعيد سماع ذلك، فردَّ عليها بغضب:

- مالك يا امرأة والناس!! اتركهم في حالهم. ثم إنهم صاروا لنا أصهارًا،

رضينا ذلك أم أينا.

أكمل سعيدٌ غداءه على عجلٍ وبصمتٍ، ثم دخل غرفته لينام. أما عفراء

فحاولت الاتصال بسالم عدة مرات ولكن هاتفه كان مغلقًا، فدخلت غرفتها،

وخاطبت سعيد:

- يبدو أنه قد أغلق هاتفه. لا بُدَّ أن أخبره.

بعد صلاة العصر عاودت الاتصال بسالم بلا جدوى، فأخبرت زوجها،

فحاول هو ولكن بدون فائدة. بدأ القلق يدبُّ في قلوبهما من أن يكون قد أصابه

مكروه. ثم انتبه سعيدٌ، وقال:

- ربما تعرف شيماء عنه أشياء لا نعرفها.

دخل إلى غرفتها، فوجدها مستلقية في سريرها على وجهها، فلما أحسّت به جلست ورأسها منكّس. خاطبها قائلاً:

- حاولنا أنا وأمك الاتصال بسالم، ولكن يبدو أن هاتفه مغلق. اتصلي بسمية واسألها عنه.

بقيت صامتة لفترة، ورأسها منكّس، وأبوها يراقبها ويتنظر منها جواباً. فلما لم تتكلم خاطبها بنبرة حادة، وقال لها:

- يا بنت!! أنا أكلّمك!!

ردّت بصوتٍ خافتٍ يُنبئ عن حزنٍ، وفي الوقت نفسه عن استياءٍ مما سمعته من تعليقات أمها. قالت:

- لا داعي للاتصال بها، فسالمٌ معتقلاً أيضاً!!

صرخ في وجهها بغضب:

- معتقلاً أيضاً ولم تخبرينا؟! ومنذ متى؟!!

- منذ ثلاثة أيام!!

- منذ ثلاثة أيام وأنت تعلمين ولم تتكلمي؟! يا لكِ من بنتٍ حمقاء!! لقد كنتُ أسمع كلام أمكِ فيكِ ولا أرتضيه، والآن تأكّدي لي أنها محقة فيما تقوله عنكِ وعنهم!!

خرج من غرفتها، وأغلق الباب بقوة أفلقت عفراء، وشكّت أن ثمة أمراً مهمّاً قد حدث. أما شيماء فقد ارتمت على سريرها مرة أخرى، وأخذت تبكي بكاءً مُرّاً، وتخاطب نفسها:

– كانت أمي فقط، والآن صاروا اثنين!! سامحهم الله، ألا يراعيان مشاعر أحد؟!؟

عندما وصل سعيد عند زوجته، رأت وجهه قد احمرَّ، فبادرته:

– مالك؟!؟ أراك رجعتَ مغضبًا!!

– لو كان لي يدٌ عليها لأوجعتها ضربًا!!

– مالها؟!؟ ماذا قالت؟!؟

– ابنك معتقلٌ معهم منذ ثلاثة أيام، وهي تعلم بذلك، ولم تخبرنا بشيء!!

صرخت عفراء وهي تبكي:

– ماذا؟!؟ معتقلٌ معهم؟!؟ ألم أقل لكم من قبل إنه لن يأتينا من هؤلاء إلا

الشر!!

صمتت قليلاً، ثم تابعت:

– إذا كانت شيماء تعلم عن ذلك، فلا بُدَّ أن زوجته الحمقاء تعرف أيضًا!!

ردَّ سعيدٌ بتحسُّر:

– كلهم يعلمون، ونحن آخر من يعلم!! لا بأس، فهذا جزاء إحساننا لهم!!

خاطبته وهي تبكي:

– وهل ستترك سالمًا لوحده؟!؟ لا بُدَّ أن تذهب إلى الشرطة وتخبرهم أنه

ليس له دخلٌ بأحد، وإن كانوا يريدون اعتقالهم هم، فلا دخل لنا بهم!!

هدأ سعيدٌ قليلاً، ثم قال:

– لا داعي للشماتة من أحد؛ فكما نشمتُ بهم، فالناس سيشمتون بنا أيضًا!!

- نحن شرفاء لا دخل لنا بالمجرمين!!

خاطبها بترجٍّ، والأسى يعتصر قلبه:

- يا امرأة، لا داعي لهذه الألفاظ. نريد أولاً أن نعرف أين سالم الآن لنذهب لزيارته.

توقفت عفراء عن البكاء، ثم قالت بنبرة توحى بالكِبَر:

- سأذهب أنا إليها، وأعرف منها كل شيء!!

- اتركها يا امرأة. سأذهب إليها بنفسى وأسألها.

خاطبته بتهكُّم:

- اذهب إليها، وتذلل لها!! لولا دَلْعُكَ لها وتساهلك معها لما فعلت كل هذا!!

لم يُجبهها بشيء، وإنما دخل مرة أخرى إلى غرفة شيماء، وخاطبها بنبرة فيها انكسار، فقال لها:

- شيماء، أنا آسف!! أرجوكِ نريد أن نعرف أين سالم الآن.

بقيت مستلقية على وجهها وهي تبكي، وبعد صمتٍ قليلٍ رَدَّتْ بصوتٍ خافتٍ يخالطه نشيج:

- في العاصمة.

- أين في العاصمة!!؟

- في القيادة العامة للشرطة.

خرج من عندها، وأخبر عفراء بأنه سيذهب لزيارته. رَدَّتْ عليه:

- سآتي معك.

قبل خروجهما من البيت، أطلَّ سعيدٌ على ابنته، وقال لها:

- سنذهب لزيارته.

* * * * *

وصلا إلى القيادة العامة للشرطة قبل حوالي ساعة من انتهاء الزيارة. عندما جاء سالم فوجئ بوجود والديه، وسلّم عليهما وهو منكسٌ رأسه. قابلته أمه بالبكاء، وقالت له:

- يا ولدي، مالك وأولئك؟! أنت برئٌ من أفعالهم!!

ظنَّ أنها تقصد الحكومة، فقال لها بابتسامة حزينة وهو يصفحها:

- لا تقلقي، فأنا بعيدٌ عن مصائبهم.

سُرَّت أمه بهذا الرد. توجهَ إلى أبيه فصافحه، ثم خاطبه أبوه:

- كيف أحوالك؟ لقد قلقتنا عليك كثيرا عندما علمنا باعتقالك، وما علمنا

بذلك إلا اليوم، رغم أن أختك كانت تعلم بذلك منذ البداية.

أحسَّ بالحرج من والديه، فنكسَ رأسه، ثم قال:

- الحمد لله الأمور طيبة، ولا داعي للقلق، وأنا طلبتُ من سمية وشيماء أن

لا تُخبراكما بهذا كي لا تقلقا عليَّ كثيرا.

توقفت أمه عن البكاء، ثم علقتُ بتهكم:

- نحن لم نرَ زوجتك منذ خرجت من البيت.

- هي في بيت أهلها، وربما منزعة بما يجري لأبيها وأخيها.

أراد أبوه أن يصرف الحديث إلى شيء آخر، فسأله:

- ولكنك لم تخبرنا كيف ومتى اعتقلوك، وماذا جرى لك بعد ذلك!!
بدأ يقصُّ على والديه كل ما جرى له من يوم اعتقاله. وبعد أن انتهى علقت
أمه:

- كنت أعلم أنهم نُذِرُ شُوْمٍ علينا منذ البداية، ولكنكم لم تُصدّقوني!!
أحسَّ سعيد بإحراجٍ شديد من أسلوب عفراء في الشماتة بأسرة علي أمام
ولدها، فخطبها بغضب:

- يا امرأة، كُفِّي عن هذا!! أفلا يكفيننا أن سالمًا معتقلٌ هنا؟!!

تابعت بنبرة متكبرّة، وبدون اكتراث بولدها:

- لولاهم لما جاءتنا هذه المصائب!!

تضايق سالم من كلام أمه، وأشاح بوجهه جانبًا عنها، ثم قال:

- أرجوكم!! يكفيني ما أنا فيه، وأرجو أن لا تشغلوا أنفسكم بي ولا بهم،

ولا داعي لزيارتي، فهم يزوروني باستمرار!!

أحسَّ سعيد بأن سالم استاء كثيرًا من كلام أمه، فعلق على كلامه قائلاً:

- لن نجد بُدًّا منك ولا منهم، فهم صاروا لنا أهلاً، وفوق ذلك فنحن جيران،

ولهم علينا حقُّ الجيرة.

ثم تابع:

- بإذن الله سأتواصل معهم إن كانوا يريدون مساعدة، وسنكون على

تواصلٍ معك أيضًا.

سُرَّ بكلام والده، فقال:

- جزاكم الله خيرًا.

جاء الشرطي ليُخبرهم بانتهاء الزيارة، فودَّعًا سالمًا، ثم عادا إلى القرية.

كان سعيدٌ يغلي بداخله مما أوقعته فيه عفراء من حرج، وما إن ركبا السيارة

حتى انفجر في وجهها:

- ماذا بك وهذا الأسلوب الوقح؟! لم تتركي لنا صديقًا ولا جارًا ولا

حتى قريبًا إلا آذيتيه بلسانك!! إن لم تكفِّي عن هذا الأسلوب، فسأتعامل معك

باسلوبٍ آخر!!

لم يعجبها كلام زوجها، فلجأت إلى البكاء، ولكنها لم تُعلِّق بشيء، وبقيت

صامتةً إلى أن وصلا البيت في حوالي العاشرة ليلاً.

* * * * *

ظهيرة ذلك اليوم جاء المندوب إلى محمد بعقد التوظيف، فلما قرأه أعجب

بالحوافز الموجودة فيه؛ فقد عرضوا عليه وظيفة إحصائي نظم استشعار، والتي

هي مزيجٌ من علم الفضاء وعلم الحاسوب. كذلك، قدّموا له راتبًا شهريًا مغريًا

يفوق الخمسة آلاف دولار، إضافة إلى الحوافز والعلاوات الأخرى. بدأت

تتصارع بداخله مغريات الوظيفة والثبات على الهدف الذي جاء لأجله وهو

إكمال الدراسة. أحسَّ المندوب بما يجول في نفسه، فقال له:

- يمكنك التفكير في هذه الوظيفة إلى بداية الصيف، وإذا كنتَ تريد رأيي

فإني أقول لك بأن غالبية الأمريكيان يعملون في وظائفهم المعتادة في فترة

الصباح، ثم يذهبون للمحاضرات في الفترة المسائية، ونظام جامعة هارفارد

يسمح لك بالتوفيق بينهما.

رأى أن لا يتعجل باتخاذ قراره الآن، فقال للمندوب:

- على كل حال سأوقع الآن العقد، وعندى متسع من الوقت للوصول إلى

قرار.

وَقَعَ على الأوراق المطلوبة، فعَلَّقَ المندوب بابتسامة:

- مرحباً بك في عالم ناسا.

ثم تابع:

- بقي أن نُكْمِلَ لك إجراءات الجنسية.

- وهل ستأخذ وقتاً طويلاً؟

- لقد كلمتُ مدير العلاقات الخارجية في ناسا، ووعدني بالاهتمام بمتابعة

الموضوع بنفسه. في الغد سيبدؤون هذه الإجراءات.

- حسناً، سأستغلُّ هذه الفترة في البحث عن سيارة.

ابتسم المندوب، ثم قال:

- جميل، ولو أردتَ مساعدة منا فأخبرني.

علَّقَ محمد بابتسامة:

- أخاف إن أشركتكم في الأمر فسأحصل عليها بالمجان.

ضحك الاثنان ثم استأذن المندوب.

* * * * *

في اليوم التالي تم استدعاء سعيد إلى مركز التحقيقات الجنائية لأخذ

أقواله، وكالعادة فقد تم احتجازه هناك إلى أن تنتهي قضية التحقيق مع محمد.

عندما تأخر عن الرجوع من الدوام، بدأ القلق يساور عفراء، فلم تجد بُدًّا من أن تذهب إلى شيماء، وتبوح لها بذلك. دخلت غرفتها فوجدتها تذاكر، فوقفت عند الباب، ثم خاطبتها بنبرة توحى بما في داخلها من قلق واضطراب:

– لقد قاربت الساعة من الثالثة، وأبوك لم يرجع من عمله!!

دبَّ القلق في نفس شيماء، وساورتها الشكوك أنه تم اعتقاله أيضًا، ولكنها لم تشأ أن تقول ذلك لأنها خشية أن تبدأ عفراء في التقرع والشماتة. استدارت إليها، ثم قالت بنبرة توحى بتأثرها بما قالته لها هي وأبوها البارحة:

– ربما كان عنده عملٌ آخر فتأخر.

ردَّت عليها بقلق:

– اتصلتُ به ولكن يتعذَّر الوصول إليه!!

ازداد اضطراب شيماء وقلقها، وباتت شبه موقنة من أنه تم اعتقاله، فردَّت بنبرة حزينة توحى بالارتباك:

– سأتصل بسمية لتطلب من أخيها تحرِّي مكانه.

اتصلتُ بسمية وأخبرتها، فوعدها بالاتصال فورًا بأخيها. بعد دقائق جاء الردُّ من سمية بصوتٍ حزين وأخبرتها بأنه فعلاً هناك. أخبرت أمها بذلك، فبدأت تبكي، ونكَّست شيماء رأسها تضامنًا معها، ثم قالت لها:

– هم سيذهبون لزيارة عمي عليّ، فما رأيك أن نذهب معهم؟!؟

صدمت عفراء من سؤال ابنتها، وزاد اضطرابها، وخاطبت نفسها:

– أنا أذهب معهم؟!؟ ماذا سيكون وضعي بين شيماء وسمية عندما يروني

أركب في سيارتهم، وهما يعلمان بموقفي منهم؟!؟

قَررت أن تُصَحِّي زيارة زوجها من أجل أن لا تتنازل عن كبرائها. رَدَّت بعد صمتٍ بنبرة مرتبكة:

- لا، لن أذهب معهم!! سأدبّر الأمر بنفسي!!
- حاولت شيماء أن تقنعها بأن لا خيار عندهنَّ غير ذلك، فقالت لها بترجٍّ:
- ومالنا إذا ذهبنا معهم!!؟ هم جيراننا وبمثابة أهلنا.
- اعترضت عفراء بشدة قائلة:
- قلتُ لك: سأدبّر الأمر بنفسي!!
- ومَن في القرية يمكنه أن يأخذنا إلى هناك!!؟
- هناك الكثيرون، ولن يتوانى أحدٌ عن مساعدتنا.
- وهل تريدان كل مَن في القرية أن يعلم باعتقال أبي!!؟
- كأن شيماء صفعتها بهذه الكلمات، فنكّست رأسها، ورأت أنها ستجلب إلى نفسها وبيتها الخزي والعار إن علم أهل القرية بذلك. هنا لم تجد بُدًّا من الرضوخ لاقتراح شيماء، فردّت بانكسار:
- حسنًا، ولكن هذه المرة فقط إلى أن أرتب مع هدى وسارة ليُكلِّما زوجيهما؛ فأنا أرتاح لهما أكثر من خديجة وأولادها.
- سأتصل بسمية وأنسّق معها.
- اتصلتُ بها وأخبرتها باقتراح الذهاب معهم، فرحبت بذلك كثيرًا.

* * * * *

بعد صلاة العصر، مرَّ خالد بسيارته إلى بيت سعيد، وركبت معهم عفراء وشيماء، وكانت لحظات حرجة بين سمية وخالتها، وبين عفراء وخديجة. بدأ

الفصل الرابع العشرون

اللقاء بينهما جافاً، وابتسمت عفراء لها ابتسامة مصطنعة. كانت خديجة تجلس في الأمام، وبجانبها أروى ويوسف، وتوسّطت سمية بين عفراء وشيماء، وساد الصمت طيلة الطريق، ما عدا حديث خافتٍ بين سمية وشيماء. كانت شيماء تلبس الخمار في وجهها والقفازات في يديها، والتزمت باحتشامها في السيارة وخارجها.

عندما وصلوا إلى مركز التحقيقات، أخبر خالد الشرطي بأنهم جاؤوا لزيارة أبيه، وأن عفراء وابنتها جاءتا لزيارة سعيد. أُدخِل خالد وأسرته إلى غرفة، وأُدخلت عفراء وشيماء إلى غرفة أخرى. صار الحديث مع عليّ روتينياً، غير أنهم أخبروه باعتقال سعيد، وكان يعلم بذلك لأنه تم إحضاره إلى نفس صالة الحجز. وأخبروه كذلك بأن عفراء وابنتها جاءتا معهم. سألهم عن سالم ومحمد، فطمأنوه عليهم.

أما اللقاء بين سعيد وزوجته وابنته فقد كان متوتراً، فما إن رآته عفراء حتى بدأت تبكي، وصافحته وهي تقول له بانكسار:

– لقد قلقتنا عليك عندما لم تُعد، إلى أن علمنا باعتقالك.

أما شيماء فصافحت أباها، وقالت له بتأثر:

– الحمد لله على سلامتكَ يا أبي.

– الله يُسلِّمك.

ثم توجّه إلى عفراء وقال لها بنبرة حزينة:

– ألم أقل لك بأنه لا داعي للشماتة من أحد؟! ها أنا وهم في مكان واحد!!

لم تُجِب عفراء بشيء، فتوجّه إلى شيماء، وسألها:

- مع مَنْ جئْتُمْ؟

- مع سمية وأهلها.

أحسَّ سعيد بنوعٍ من الانتصار على زوجته، فخطبها باستياء تخالطه الحكمة:

- ألا تَرِيّ أننا في الشدائد أسرة واحدة يشدُّ بعضنا بعضاً؟!!!

بقيت عفراء منكّسة رأسها وهي تبكي، وعندما سمعت شيماء تأنيب أبيها لأمها، نكّست رأسها، تضامناً مع مشاعر والديها المتأزّمة. حاولت أن تُغيّر الحديث إلى شيءٍ آخر، فقالت:

- أحضرنا لك بعض الملابس، وإذا أردت أن نحضر لك أغراضاً أخرى فسنوصلها إليك - بإذن الله - في صباح الغد.

ابتسم، وقال بنبوة تُنبئ عما بداخلة من غليان تجاه زوجته:

- الثياب تكفي، وبقية الأغراض يقومون بتوفيرها لنا.

ثم تابع بتأثر:

- لا داعي للزيارات؛ فهنا العديد ممّن نعرفهم، ونقضي أوقاتنا معهم.

لم تشأ شيماء أن تسأله عن نوع التحقيق الذي أجرّوه معه، فهي تعلم أنه سيكون حول محمد، ولا تريده ذكر اسمه أمام أمها مخافة أن تُعلّق بكلام نحوه يجرح مشاعرهما. ساد صمتٌ لفترة، فأراد سعيدٌ كسره، فقال مخاطباً شيماء:

- إذا احتجتم لشراء أغراض للبيت، فهناك مبلغٌ من المال في الخزانة، وأمك تعرف الرقم السّري، ويمكنكم أن تطلبوا من خالد شراءها لكم.

ابتسمت شيماء، وقالت:

- لا تحمل همّ هذا، ولا تفكّر كثيرًا في البيت، فالأمور سيُدبّرها الله.
جاء الشرطي ليُخبرهم بانتهاء الزيارة، فاستغلّتها سعيدٌ لإنهاء هذا اللقاء المتوتّر، فصافحهما، ثم قال لشيما:
- إذا ذهبتم لزيارة سالم فطمئنه عليّ.
ردّت بابتسامة:
- بإذن الله.

التقت الأُسرتان في صالة الاستقبال، وكانت السعادة تبدو على وجوه أسرة عليّ، بينما التوتّر والحزن بادٍ على وجه عفراء. عادت الأُسرتان إلى البيت، وفي الطريق تبادلت سمية وشيما الحديث بصوتٍ خافتٍ، بينما لزم الباقون الصمت.

دخلت عفراء وابنتها البيت، وكانت عفراء ما زالت متوتّرة، فدخلت غرفتها ولم تقل شيئًا، فدخلت شيما هي الأخرى إلى غرفتها. اتصلت بسمية وأخبرتها بالتوتّر الذي ساد بين والديها. أخبرتها سمية بما ذكره أبوها من أن المحقّق قد جاءه اليوم وأخبره بأنهم سيُبقونه في الحجز إلى أن يعود محمد، وطلب منه أن يُخبرنا نحن لنحاول إقناعه بالعودة إلى المملكة في أسرع وقت، وأنه سيتم الإفراج عنهم جميعًا إن هو فعل ذلك. قاطعتها شيما:

- لا تصدقهم!! هم خبثاء، ويحاولون الآن استغلال مشاعرنا جميعًا للضغط على محمد، وأنتِ تعلمين أنه لو سلّم نفسه إليهم فلن يتركوه في أمان، وقد يقضي حياته في سجونهم.

أيّدت سمية ما قالته شيما، ثم تذكّرت شيما أمرًا مهمًّا، فخاطبت سمية:

وعادت المياه إلى مجاريها

- وأرجوك أن لا تخبري محمداً بهذا الكلام؛ فقد يرقُّ قلبه لحالنا، ويُصحِّي بنفسه من أجلنا.

- صدقتِ، وجميلٌ أن ذكّرتني بهذا لأني كنتُ أنوي نقله إليه.

- لا تفعليني، ونبّهي أمك وإخوتك بهذا.

* * * * *

بعد عودتها من زيارة زوجها، بدأت عفراء تسترجع تأنيب زوجها لها، وأحسّت بأنها فعلاً قد تكون قاسية في مواقفها تجاه محمد وأسرته. وعندما جلست مع شيماء على العشاء، كان الصّمت يسود بينهما، ثم فجأةً تكلمت عفراء بانكسار، وقالت:

- يبدو أن أباكٍ ساخطٌ عليّ.

نكّست شيماء رأسها، ولزمت الصّمت، فتابعت عفراء:

- أظنه على حقّ عندما قال بأنه في الشدائد يتغاضى الناس عن كثيرٍ مما يحملونه تجاه الآخرين.

لم تُجِب شيماء بشيء، فتابعت عفراء:

- كنتُ أتوقع كلاماً قاسياً من خديجة أو سمية!!

صممت قليلاً، ثم بدأت تبكي بحرقة، ثم قالت بانكسار شديد:

- لكن يبدو أنني أتخيّل الأمور أكثر مما هي في الواقع، وأظنُّ أن الناس مثلي

في فضاضتهم وغلظة طبعهم!!

تأثرت شيماء من سماع هذا الكلام، فبدأت تبكي. واصلت عفراء:

– كنتُ أتصوّر أنه لا يوجد في القرية مَنْ هو أفضل منا، وها نحن أصبحنا بعد دخول سالم وأبيه السّجن ندُّس وجوهنا خجلًا من الناس!!
صممتُ قليلًا، ثم تابعت:

– أظنُّ أن هذا جزاء الغرور والكِبَر الذي كنتُ أشعر به تجاه الآخرين.
كانت شيماء قد توقّفت عن البكاء، وشعرت بسعادة لا توصف وهي ترى أمها تعترف بخطئها. علّقت وهي ما زالت منكّسة رأسها:
– كل ابن آدم خطاء، وخير الخطائين التوابون.
قالت عفراء بانكسار:

– عسى الله أن يغفر لي ما أذنبتُ به في حقِّ الآخرين، وقد أدركتُ الآن أن السعادة الحقيقية هي ليست في التعالي على الآخرين، وإنما في العيش في أسرة يسودها الحبُّ والوئام.
لم تتمالك شيماء نفسها، فقامت واحتظنت أمها، وصارت تبكي في حظنها فرحًا أن غيرَ الله قلبها.

* * * * *

في صباح اليوم التالي التقت شيماء بسمية في طريقهما إلى جامعة البيان. أخبرتها بما جرى لأمها من التأسّف على ما تقوم به- أحيانًا- من الانتقاص من الآخرين، فسُرّت سمية بذلك، واتفقتا على الذهاب لزيارة سالم عصر ذلك اليوم. عندما عادت شيماء إلى البيت أخبرت أمها، فرحبت بذلك.

ذهبت سمية وخالد مع عفراء وشيماء، وأما حديجة فلم تشأ أن تترك يوسف وأروى لوحدهم في البيت. دخلت عفراء وسمية وشيماء لمقابلة سالم، وبقي

وعادت المياه إلى مجاريها

خالد ينتظر في الصالة ليتيح لعفراء وابنتها حرية التحدُّث مع سالم. فوجيء سالم بمجئ والدته وسمية بدون أبيه، وشكَّ أن يكون قد وصله دور الاعتقال. بعد أن صافحهنَّ، بادرهنَّ قائلاً:

- أرى أبي لم يأتِ معكنَّ؟!!

نكَّسنَ رؤوسهنَّ جميعاً، ثم بعد صمتٍ قليلٍ ردَّت عفراء:

- مسكين، لقد جاء الدور إليه البارحة!!

صمتت قليلاً، ثم تابعت:

- زرناه البارحة، وهو بخير، ويُسلم عليك.

لاحظ أن لهجة أمه تجاه أبيه قد تغيَّرت، فسرَّ بذلك. ثم انتبه إلى عدم وجود خالد، فخشي أن يكون تم اعتقاله أيضاً، فقال بقلق:

- وأيضاً، لا أرى خالد معكنَّ!!

ردَّت سمية بابتسامة:

- هو في الصالة ينتظرنا نخرج ليأتي ويُسلم عليك.

- وكيف حال عمي عليَّ وخالتي خديجة؟

- الحمد لله كلهم بخير، ويهدونك السلام.

- وهل من أخبار عن محمد؟

- الحمد لله هو في حالٍ طيبة، ولكنه قلَّ عليكم كثيراً، ولم يعلم بعد

باعتقال عمي سعيد؛ فهو لم يتصل البارحة.

- أخبرني المحقِّق البارحة بأنهم سيذهبون إلى محمد ويُحضرونه للتحقيق

معهُ!!

الفصل الرابع العشرون

تأثرت سمية وشيماء من هذا الخبر ونكّستا رأسيهما، وبدا قلق شيماء عليه واضحًا. أحسّت عفراء بأن عليها أن تقول شيئًا لإثارة البهجة في قلب سالم، فعلّقت بنبرة حزينة:

- ملاعين، لا يتركون الناس في حالهم!!

لاحظ سالم تغيرًا واضحًا في مشاعر أمه، فأراد أن يستشف رأيها تجاه محمد، فقال:

- أخبرني المحقق أيضًا بأن بقاءنا نحن هنا مرهونٌ بمجيء محمد.

علّقت عفراء، فقالت:

- فيما يبدو أنهم لن يتركوا المسكين في حاله.

ثم تابعت:

- هو بعيدٌ عنهم، وقد هرب منهم، فلماذا لا يتركوه وشأنه؟!!

تعجّب الجميع من تعليق عفراء، وسرّوا بهذا التغيّر كثيرًا. قالت سمية:

- أخاف أن يأتي الشرطي قبل أن يتمكن خالد من الدخول.

أكّدت عفراء ما قالته سمية، فقامت هي وشيماء وسلّمتا على سالم، ثم خرجتا. بقيت سمية عنده للحظات، فقال لها بتعجّب:

- ألاحظ أن أسلوب أمي في الحديث ومواقفها من محمد ومن أهلك قد تغيّرت.

ابتسمت سمية، ثم قالت:

- أخبرني شيماء بأنه حصلت بينها وبين عمّي سعيد مشادات كلامية عندما

وعادت المياه إلى مجاريها

زارتاه في مركز التحقيقات جعلتها تراجع نفسها. والبارحة اعترفت لشيء
بخطأ مواقفها المتشددة، وخاصة تجاه محمد.
علق سالم بابتسامة:

- الحمد لله، سبحان معيّر الأحوال.

- أرى أن أخرج قبل أن يأتي الشرطي.

صافحت سالمًا، ثم خرجت تنتظر في الصالة مع عفراء وشماء، بينما دخل
خالد وتحادث مع سالم، ولكنه لم يبق معه طويلًا؛ حيث جاء الشرطي وأعلمه
بانتهاؤهم وقت الزيارة.

* * * * *

قبيل الظهرة بقليل اتصل مندوب مركز سميثونيان بمحمد، وأخبره برغبته
في المجيء إلى شقته، وأنه سيأتي معه موظف من مكتب الجنسية ليأخذ منه
بعض البيانات، ويُجري معه مقابلة. رحّب محمد بذلك.

وصل الرجلان، ورحّب بهما محمد، وأحضر لهما كوبا عصير. سأله
موظف الجنسية أولاً عن بعض بياناته الشخصية، وطمأنه بأن كل المعلومات
التي سيُدلي بها ستبقى سرية. بعد ذلك، بدأ حوارًا معه يتعلّق بموضوع هجرته،
ورغبته في الحصول على الجنسية. سأله قائلاً:

- هل يمكن أن تشرح لي الأسباب التي دعّتك إلى الهجرة من بلدك؟

تكلم معه بكل أريحية، وخاف أن يُخفي عنه أشياء قد يكونون على علمٍ بها
فُتعرقل إجراءات الحصول على الجنسية. أجابه:

- بعد تخرّجي من جامعة هارفارد، عدتُ إلى المملكة، وبحثتُ عن عملٍ

في مجال تخصصي، فلم أفلح. ثم قام أحد أصدقائي بحيلة لمساعدتي. شرح له محاولات سالم لمساعدته للحصول على وظيفة إلى أن وصل إلى العرض الذي قدّمه له الملك. ثم قال:

– رأيتُ أن الأبواب قد انسَدَّتْ أمامي في الحصول على وظيفة، وخفتُ إن رفضتُ المنصب الذي عرضه عليَّ الملك أن يعاقبوني، فعجَّلتُ المجرى إلى هنا.

– وما هي خطتك بعد مجيئك إلى هنا؟

خاف أن يكون الموظف لا يعلم بالترتيبات التي قام بها مندوب مركز سميثونيان لتسهيل حصوله على الجنسية، فردَّ بلباقة:

– كنتُ قد عزمْتُ مواصلة الماجستير، وقد حصلتُ على منحة كاملة من جامعة هارفارد. لكنني بعدما قيِّمتُ ظروفي هنا رأيتُ من الأفضل لي أن ألتحق أولاً بوظيفة، وخلالها أو بعد فترة يمكنني مواصلة الدراسة.

أعجب مندوب مركز سميثونيان بهذا الرد، فرفع حاجبيه إعجاباً بما قال. واصل الموظف أسئلته، وفاجأ محمدًا قائلاً:

– وما الداعي للحصول على جنسية إن كان بإمكانك الرجوع إلى بلدك في أيِّ وقت؟!؟

تلعثم قليلاً، ثم قال:

– صحيح أنني لا زلتُ أحمل جواز المملكة، ولكنهم بعد هروبي إلى هنا، قاموا باعتقال العديد من أهلي ومعارفي، ولا أستبعد أن يصلوا إليَّ في أيِّ وقت!!

- وماذا لو أفرجوا عن أهلك وذويك، ولم يصيبوك بأيّ أذى، فهل لا زلت ستصّر على البقاء في أمريكا؟!؟
أجابه مرة أخرى بلباقة عجيبة، فقال:

- جئتُ لأمريكا لثلاثة أسباب: الدراسة، والحصول على وظيفة في مجال تخصصي، والهروب منهم. وقد يحصل لي الأمان مما أتخوف منه، وقد أكمل دراساتي العليا، ولكن يبقى أن أمريكا هي المكان الأنسب لممارسة تخصصي. ثم فاجأه الموظف بسؤال حرج؛ حيث قال له:

- أنت تعلم أن الولايات المتحدة تُصنّف بعض المنظمات على أنها إرهابية، وتصف بعض الأفراد بالإرهاب، فهل تنتمي إلى أية منظمة إرهابية أو تنطبق عليك خصال الموسومين بالإرهاب؟!؟
ارتبك قليلاً، ثم قال بثبات:

- أنا قضيتُ في أمريكا قرابة خمس سنوات، وجميع تحرّكاتي تعلمها الاستخبارات الأمريكية، فلو كان عندي شيءٌ مما يتخوفون منه لمنعوني حتى من الدخول إلى أمريكا.

وأخيراً، ألقى عليه سؤاله الأخير الذي كان بمثابة القنبلة. قال له:

- سؤالي الأخير لك هو: هل تُكُنُّ الولاء للولايات المتحدة، وهل أنت مستعدٌّ للدفاع عنها؟!؟

لقد عاش منذ طفولته على الولاء المطلق لله وليس لشخصٍ أو هيئة أو دولة، ولا يمكنه أن يُغيّر ذلك من أجل شيءٍ من متاع الدنيا. لكنه - في الوقت نفسه - ما كان ليُفصح للموظف ومندوب مركز سميثونيان بغير ما يتوقّعان منه. صمت برهة، ثم أجاب بلباقة وذكاء وهو يتسم:

- ولائي يا سيدي موجود، ولا يمكن أن يُزعزعه أيُّ شيء!! وأما دفاعي عن أمريكا، فلا يُعقل لإنسانٍ سويٍّ أن يرى خطراً عليه أو على مَنْ حوله ويسكت عن ذلك.

أُعجب الموظف ومندوب مركز سميثونيان بهذه الإجابة، رغم أنه يقصد بالولاء الذي ذكره ولاءه لله - سبحانه وتعالى - . شكره الموظف على إجاباته، وأخبره بأن هذه المقابلة ليست وعدًا له للحصول على الجنسية؛ فهناك جهات أخرى ستُقرّر ذلك، والأمر قد يحتاج إلى إجراءات مستفيضة. شكرهم محمد على مجيئهم إليه، ثم ودّعهم وانصرفوا.

* * * * *

في صباح اليوم التالي فوجئت خديجة بزيارة عفراء لها. رحّبت بها، وأحضرت لها العصير والفواكه. اعتذرت عفراء لها عن توتر العلاقات بينهما في الفترة السابقة، وأبدت رغبتها في بدء صفحة جديدة من العلاقات الحميمة. سرّت خديجة بذلك، وبقين لفترة وهما يتذاكران أحوال أسرتهما، والأيام السابقة التي عشنَ فيها كأعزّ جاريتين، بل صديقتين. عندما عادت سمية من الجامعة أخبرتها أمها بزيارة عفراء، وما جرى بينهما، ففرحت بذلك كثيرًا.

* * * * *

في عصر ذلك اليوم ذهبت عفراء وشيماء مع سمية وأهلها لزيارة عليّ وسعيد. عندما جاء سعيد إلى الغرفة التي فيها عفراء وشيماء، كانت مشاعره لا تزال متكدّرة من جراء الحديث الذي دار بينه وبين عفراء في الزيارة السابقة. لكن عفراء قابلته بابتسامة، وقالت له وهي تصافحه:

- كيف أنت يا أبا سالم؟

تعجّب من تغيير نبرة حديثها، ولكنه لا يزال مرتاباً منها، فردّ بنبرة توحى بتأثره:

- الحمد لله رب العالمين.

صافح شيماء، فبادرته هي الأخرى قائلة بابتسامة:

- كيف أحوالك يا أباي؟

- الحمد لله، أموري طيبة. كيف أحوال سالم؟ وهل ذهبتُم لزيارته؟

- نعم، ذهبنا مع سمية وأخيها.

- وكيف أحواله؟

- الحمد لله بخير، ويُسلم عليك.

تكلمت عفراء بنبرة فيها اعتذار لزوجها، فقالت:

- سامحني يا أبا سالم إن كنتُ في المرة السابقة قد جرحتُ مشاعرك

بكلامي. ولقد أثر فيّ كلامك، وراجعتُ نفسي، ووجدتُ أني فعلاً مخطئة.

نكّس عليّ رأسه، ثم قال بنبرته السابقة:

- عفى الله عما سلف.

ساد صمتٌ لوهلة، قطعتَه عفراء وهي تخاطبه من جديد:

- أحضرنا لك ملابس إضافية، وكذلك بعض المأكولات.

- أظنهم لا يسمحون بجميع المأكولات.

- سنحاول معهم.

بعد قليل، فوجئ الجميع بمجئ خديجة وسمية. سلّمتا على الجميع، ثم صافحت سمية عمّها، وهي تقول:

– كيف حالك يا عمي؟

– الحمد لله، نحن بخير.

ثم توجه إلى خديجة، فخاطبته وهي منكّسة رأسها:

– الحمد لله على سلامتكم.

ردّ عليها بابتسامة وهو منكّس رأسه:

– سلّمك الله. وكيف عليّ ومحمد؟

ردّت بابتسامة:

– الحمد لله، عليّ أنت أدري بحاله منا، ومحمد يخبرنا في اتصالاته أنه

بخير.

– سلّموا عليه عندما يتصل، وأخبروه بأن يثبّت ولا يلين لهم!!

فوجئ الجميع بكلام سعيد، وشعرت سمية وشيماء بسعادة لا توصف.

ردّت خديجة:

– ياذن الله سنخبره عندما يتصل. ونستأذن الآن.

ثم خاطبت عفراء وشيماء:

– سنتنظر كما في الصالة.

عادت الأستران، والسعادة تغمرهما، وخاصة سمية وشيماء، وذلك لتحسّن

العلاقة بين أمّيهما.

وعادت المياه إلى مجاريها

مرّت أيام ومحمد يتصل بأهله كل مساء، ويسأل عن أحوالهم. سُعد كثيرًا بما أخبرته به سمية من تبدّل حال عفرأء، ومن بدء العلاقات الحميمة بينها وبين أمها. وأخبرته كذلك بأن الأسرتين قد صارتا الآن كأسرة واحدة، فسألها عن مشاعر شيماء، فأخبرته بأنها مسرورة جدًّا بتغيُّر حال أمها، وخاصة تجاهه هو. سألته - كعادتها - عن أحواله، وما إذا كان قد لاحظ شيئًا فيه ريبة. تعجّب من سؤالها، فقال لها:

- وهل تتوقعون حدوث أمرٍ ما لي؟! -

ارتبكت من هذا السؤال، ولم تشأ أن تخبره بما قاله أبوها وسالم، فردّت بتلعثم:

- أقصد فقط إن كنت تعرّضت لمضايقات من أحد!! -

- الحمد لله، لم يحدث لي أيُّ شيءٍ يضايقني أو يقلقني، ولكني لا أستبعد ذلك!! -

- بإذن الله لن يحدث إلا ما فيه الخير.

الفصل الخامس والعشرون: صراعات استخباراتية

بقي يتردد على الجامعة، وقابل مرشده الأكاديمي السابق، وأخبره بالوظيفة التي عرضها عليه مركز سميثونيان، فشجَّعه عليها، وأخبره بمثل ما قاله مندوب المركز من أن غالبية الأمريكان يعملون في الصباح، ويدرسون في الفترة المسائية. بدأت نفسه تميل إلى الأخذ بهذا المقترح. استخار الله عدة أيام، فازداد قلبه اطمئناناً إلى هذا التوجُّه. أراد أن لا يتعجَّل في اتخاذ قراره، وقرَّر الانتظار إلى بداية الصيف.

ذات يوم كان يسير في الجامعة، فاستوقفه شابُّ تبدو عليه ملامح عربية، ومعه طفلٌ صغير في حوالي الرابعة من عمره. سلَّم عليه، وتصافحا، ثم بادره الشاب بلهجة عرف من خلالها أنه من أبناء المملكة، وقال له:

– أنا أخوك أحمد رائد، وقد جنَّتُ لأمریکا مع زوجتي وطفلي هذا لغرض السياحة، وفي الوقت نفسه لمحاولة الحصول على قبولٍ من إحدى الجامعات، وقد نزلنا في واشنطن منذ يومين، وكنْتُ أسمع عن جامعة هارفارد، فقلتُ: آتي إليها، وأُقدِّم أوراقِي عندهم.

ارتاح محمد لهذا الشاب، وأخبره أنه أيضًا من المملكة، فسرَّ الشاب بذلك كثيرًا، وسأله عن الجامعة وغلاء المعيشة في هذه المنطقة، فأعطاه محمد الكثير

من المعلومات، وأخبره بأنه يستأجر شقة قريبة من الجامعة. بقيا يتحادثان، وفي الختام أعطى رقم هاتفه للشاب، وطلب منه أن لا يتردد في الاتصال به إن احتاج إلى مساعدة.

بعد أن تفارقا كان يشعر بسعادة لا توصف لتعرّفه على هذا الشاب الذي ارتاحت له نفسه كثيرًا. لكنه بعد وهلة أتاه هاجسٌ يقول له:
- وما أدراك أن لا يكون هذا الشاب دسيسة من استخبارات المملكة ليعرف مكانك؟!؟

قاوم ذلك الهاجس، واعتبره من وساوس الشيطان.

* * * * *

في اليوم التالي اتصل به الشاب، وأخبره أنه أحمد رائد الذي التقى به في الجامعة، ثم قال له:

- قدّمتُ أوراقى للجامعة، ولكن لا تزال عندي بعض الاستفسارات، وأرغب في طرحها عليك، فهل يمكن أن أزورك اليوم بعد العشاء؟!؟
اضطرب محمد، وبدأت الوسواس والشكوك تجاه هذا الشخص، ومن يكون، والمغزى من زيارته تَهْجِمُ عليه، وهو يحاول دفعها، ويقول لنفسه:

- ماذا لو كان صادقًا في مقصده؟!؟

رأى أن لا ضرر في تلبية طلبه، فقال له بعد صمتٍ بنبرة متلعثمة:
- تفضل في أيّ وقت.

شكره الشاب، ثم فوجئ به يطرق بابه بعد صلاة العشاء، وما إن رآه حتى بدأ الاضطراب والشكوك تتزايد عنده. سأل نفسه:

- كيف عرف مكان شقتي، وأنا لم أخبره بذلك؟!
لكن سرعان ما رأى طفله معه، فهدأت نفسه قليلاً، فرحّب به، وأدخله إلى شقته.

ما إن جلس الشاب وولده على الكنبه، حتى أسرع فأحضر علبة عصير وثلاثة أكواب، وما إن جلس على كرسيّ قرّبه من الطاولة التي تفصل بينه وبين الكنبه التي يجلس عليها الشاب، حتى مدّ الشاب إليه بكيسٍ كان قد أحضره معه، وقال له:

- هذه بعض الحلويات التي أحضرناها معنا من المملكة.

كان محمد في اضطراب وقلق، حتى إنه لم يتكلم بعد أن أدخله الشقة، وإنما لاذ إلى الثلاجة وهو يخاطب نفسه، ويحاول تحليل ما يجري أمامه. لكنه ما إن رأى الشاب يُقدّم له كيس الحلويات، حتى اطمأن إليه قليلاً، فابتسم وقال:

- لم يكن من داعٍ لهذا.

ردّ الشاب بابتسامة:

- هذا أقل من الواجب.

ثم بدأ يسأله عن أحواله، ودراسته، والمنطقة التي يسكن فيها، وإيجار الشقة، إلى غير ذلك من الأسئلة المعتادة. ثم فاجأه بسؤال أزعجه، وأثار الريبة في نفسه من جديد. قال له:

- هل صار لك فترة هنا؟!!

تلعثم قليلاً، وخاف أن يقصّ عليه ما جرى له في المملكة، فردّ:

- حوالي أسبوعين فقط.

– ما شاء الله، إذن أنت جديدٌ على أمريكا؟!!!

– لا، لقد أكملتُ دراسة البكالوريوس هنا، ثم جئتُ الآن لدراسة الماجستير.

بعد ذلك مرَّ الحوار بشكل طبيعي، فسألته أسئلة كثيرة عن الجامعة والمدينة وغير ذلك، ولكن كانت بعض الأسئلة تافهة، وبمقدور أيِّ طالب أن يعرفها. كذلك، كانت هناك أسئلة تتعلَّق بالجامعة، وكان بالإمكان الحصول على إجابات لها من الجامعة نفسها. خاطب نفسه بارتياح:

– لماذا يسألني عنها وفي الجامعة من هو أقدر مني على الإجابة عليها?!!!

لكنه حاول البحث عن مبررات لذلك؛ ومنها أنه جديدٌ على الجامعة ولا يعرف أقسامها، ومنها أن لغته الإنجليزية قد تكون ضعيفة مما يصعب عليه التخاطب مع موظفي الجامعة.

بقي الشاب عنده قرابة نصف ساعة، ولم ير شيئاً من تصرُّفاته التي قد تُثير الريبة، عدا الهواجس التي كانت تخالج نفسه عندما كان يسأل بعض الأسئلة التي تُثير شكوكه. كذلك، لم يتطرق الشاب إلى سؤاله عن أحواله الشخصية، سواءً في أمريكا أو في المملكة. شكره الشاب كثيراً على إجاباته، واعتذر له عن الإطالة عليه. ابتسم له محمد، وقال له:

– تفضل في أيِّ وقت.

شكره، ثم استأذن بالانصراف.

ارتدى على الكنبه، وبدأ يُحلل شخصية هذا الشاب والكلام الذي دار بينهما. خاطب نفسه:

- هل صحيح أنه جاء هنا لتقديم أوراقه للجامعة؟! وهل كان لقاءه بي صدفة؟!؟

تذكر أنه الطالب الوحيد من المملكة الذي يدرس في هذه الجامعة. كان لديه قلقٌ من أن كل ما جرى في هذا اللقاء هو مُتصَعِّ ليوقعوه في فخ، ولكنه قال لنفسه:

- لو كان هذا الشاب لديه ارتباطات باستخبارات المملكة، فهل يُعقل أن يأتي مع أسرته؟!؟

في النهاية، توصل إلى نتيجة وهي أن الأمر طبيعيٌّ، ولكنه بسبب انشغال ذهنه بموضوع استخبارات المملكة، صار يُفسِّر كل شيءٍ على أن له علاقة بذلك.

* * * * *

بعد صلاة العشاء في اليوم التالي فوجئ محمد بطرقٍ على باب شقته. بدأت نبضات قلبه تتصاعد وزاد اضطرابه، وقال لنفسه:

- مَنْ يمكن أن يأتي إليَّ في هذا الوقت وبدون موعد؟!؟

خاف أن يكون القادم من استخبارات المملكة، ولكنه قاوم ذلك الهاجس، وقال لنفسه:

- من المفترض أن أعيش حياة طبيعية، ولا أبقى في قلق عند كل حادثة تقع لي من أن لها ارتباط باستخبارات المملكة.

ثم قال لنفسه، وهو يحاول درأ هذه الشكوك:

- لعلَّ أحد معارفي سمع بمجيئي فأتى لزيارتي. قرَّر أن يفتح الباب.

دُهِلَ محمد عندما رأى الشاب أحمد رائد الذي زاره البارحة، ومعه شابٌ آخر أطول منه بقليل، وجاءا وهما يرتديان بدلاتٍ أنيقة. بادره أحمد رائد بالسلام عليه وهو يصفحه، فردَّ محمد السلام بابتسامة متكلفة تُخفي تحتها الكثير من القلق والاضطراب. قال له أحمد:

– نحن بإذن الله سنعود إلى المملكة يوم غد، فجئتُ وصاحبي هذا سعود ناصر لنودِّعك!!

مدَّ الشاب الآخر يده إلى محمد وصفحه. كان الاضطراب والخوف يتزايدان في نفسه. قام بتحليلٍ سريعٍ للموقف فرأى أن المبرِّر الذي ساقه أحمد رائد للزيارة وجيهاً، ولكنه لم يتوقع أن يصل اهتمامه به إلى درجة أنه لا يغادر أمريكا إلا بعد توديعه. كذلك، فهو لم يُخبره أن هناك شخصاً آخر جاء معه. ازداد اضطرابه كثيراً، وانعقد لسانه عن الكلام. لاحظ أحمد رائد ذلك في وجهه، فقال له باعتذار:

– أنا آسف، لم أتصل بك من قبل، وأرى أننا جئنا في وقتٍ غير مناسب.

ارتبك محمد قليلاً، ثم ردَّ بدون تفكير:

– لا، الوقت مناسبٌ جداً!! تفضلاً!!

سبقهما إلى الشقة وهو يُدير ظهره إليهما، ورأسه منكس، والهواجس والاضطراب يتزايدان بداخله، حتى إنه نسي أن يغلق باب الشقة وراءه، فقام أحمد وأغلقه، ونسي كذلك أن يطلب منهما الجلوس، فبقيا واقفين إلى أن جاء بعلبة العصير والأكواب ووضعها على الطاولة. سأله أحمد وقد رأى ارتبাকে:

– هل نجلس!؟!!

ردّ بنبرة مرتبكة:

- نعم، تفضلاً.

بقي رأسه منكّساً، وكان الاضطراب والقلق بداخله لا يوصفان، حتى إن يده كانت تهتزُّ وهو يصبُّ العصير في الأكواب. فاجأه الشاب الآخر الذي عرّفه أحمد رائد على أنه سعود ناصر بقوله:

- أراك مرتبكاً كثيراً!! عسى أن لا نكون قد أزعجناك.

ردّ بسرعة، وبصوتٍ متلعثمٍ وابتسامة مصطنعة:

- لا، على العكس أنا سعيدٌ بزيارتكم.

لم يمهله سعود حتى قذف في وجهه كلاماً كاد بسببه أن يُغنى عليه، حيث قال له:

- الحقيقة أن الرائد أحمد وأنا من قسم التحريّات في القيادة العامة للشرطة بالمملكة، وقد جئنا لناخذ بعض أقوالك!!

دارت به الدنيا، ونظر إلى أحمد رائد بنظرات يمتزج فيها السُّخط والازدراء، وخاطب نفسه:

- أيها الملعون: تتصنّع البراءة، وتلبس ثوب النفاق والكذب من أجل أن تقوم بعملك القذر هذا؟!!!

لم يدر ما يفعل أو يقول. هل يضغط على الزرّ الذي أعطاه له رجل الأف. بي.آي ويأتون للقبض عليهما؟! لكنه تذكّر أن الزرّ ليس في جيبه، وإنما تركه في غرفته. ماذا يفعل إذن؟! هل يؤشّر بيده صوب الكاميرا ليستدعي رجال الأف. بي.آي؟! خاف إن فعل ذلك أن يهجم عليه هذان أو يقتلانه. ثم تذكّر

أن والده وعمه سعيد وأساتذته معتقلين في المملكة، وأنه لا بُدَّ من مواجهة هؤلاء، وإلا فلن يتغيَّر الوضع هناك. تشجَّع للحديث معهما، ومعرفة ما يريدان منه.

ساد صمتٌ لقراءة دقيقة، وأحمد وسعود ينتظران كلامًا منه، ثم قطع سعود ذلك الصمتُ بقوله:

– نحن نعلم أنك جئتَ إلى هنا هربًا من اعتقال أجهزة الأمن في المملكة لك!!

قاطععه محمد بسرعة وبنبرة تشي بالخوف والاضطراب:

– جئتُ لأدرس الماجستير، وليس هربًا من أحد.

– نعم، نعلم ذلك، ولكن بعدما رفضتَ المنصب الذي عرضه عليك جلالة الملك خفتَ من اعتقالك!! أليس كذلك!!؟

– الإنسان يختار الأصلح لنفسه!!

– لكنك تعلم أن رفضك لذلك المنصب فيه إهانة لجلالة الملك!!

– رغبتني كانت في وظيفة في مجال تخصصي.

– ولماذا لم تطلبها من جلالته!!؟

– لم يمهلني، وإنما جعلني في الأمر الواقع.

– هل رفضك لذلك المنصب كان فعلاً لرغبتك للعمل في مجال تخصصك،

أم إن هناك سببًا آخر لم تُفصح عنه!!؟

ارتبك كثيرًا من سماع هذا السؤال، وعرف خبث هؤلاء، وأنهم قد يُفسِّرون الأمور كما يشاؤون. ردَّ بتلعثم:

- أخبرتك أنني أرغب في البقاء في مجال تخصصي، ولذلك جئتُ إلى هنا لمواصلة الدراسة.

- لا، لم يكن هذا هو السبب الحقيقي لرفضك مكرمة جلالة الملك!!
ردّ بسرعة:

- ماذا تقصد؟!!

- أنت تعرف قصدي!!

- لا، لم أفهم ما تقصد!!

- إن جلالة الملك في نظرك فاسد، بل ضالٌّ وفاسق، ونحن أيضًا فساق
وَضَلَّال!! أليس كذلك؟!!

صارت هذه الأسئلة تنزل عليه كالقنابل، وكاد أن يصاب ذهنه بالشلل، فردّ
بربكة شديدة:

- أنتم تُفسِّرون الأمور كما تشاؤون، والصحيح هو ما أخبرتكم به.

- نحن نعرف توجهاتك واهتماماتك وحتى تصرُّفاتك، وكلها تصبُّ فيما
ذكرته لك.

- قلتُ لكم إنكم تُفسِّرون الأمور كما يحلوها لكم!! ولو كان صحيحًا ما
تقول، فلماذا أقابل الملك؟!! ولماذا أحرص على الحصول على وظيفة في
بلدي؟!!

- على كل حال، أنت متَّهمٌ بالإساءة إلى جلالة الملك، وهذه قد يُحكم
على صاحبها بالإعدام!!

ازداد اضطرابه وخوفه، وصار على يقين من أنهم لن يتركوه؛ فإما يتخلَّصون

منه هنا بالقتل، أو يعتقلوه ويأخذوه إلى المملكة ويعدموه هناك!! صمت ولم يقل شيئاً. تابع سعود، فقال:

- لكننا جئنا لتفاوض معك، وليس لإيذاك، وما نريده منك هو أن تعود معنا إلى المملكة، وتعتذر إلى جلالة الملك!!

قال لنفسه بتهمك: أعود لأعتذر إلى الملك، أم لقطعوا رأسي؟! ردّ بتلثم:

- لكنني أخبرتك أنني جئتُ إلى هنا لمواصلة الدراسة.

- يمكنك القيام بذلك لاحقاً!!

- ولكن الفصل الصيفي سيبدأ قريباً.

رأى سعود أن لا جدوى من التساهل في الحوار معه، فقال له بنبرة حادة:

- ليس لديك خيارٌ إلا الرجوع معنا، فأنت تعلم أن بعض أهلك وأساتذتك

معتقلون، ولن يخرجوا حتى ترجع إلى المملكة!!

رأى أنهم فعلاً لن يتركوه، ولكنه أراد أن يستشفّ منهم ما يمكن أن يفعلوه

فيما لو رفض مطالبهم. قال لهم بنبرة تشي بالتحدي والثقة:

- وإذا لم أرجع؟!!!

- أولاً: سيقضي أهلك ومعارفك سنيّ حياتهم في السجن، ولو تم الإفراج

عنهم فسيُحرمون من وظائفهم، وربما يتم اعتقال آخرين معهم!! ثانياً: سيتم

سحب الجواز منك، ولن تتمكن من الرجوع إلى المملكة مرة أخرى!! ثالثاً:

لن نسكت عنك، فستبقى مطاردًا منا، وربما يتم القبض عليك وإرجاعك عنوة.

أدرك أن أمر اعتقاله وإرجاعه إلى المملكة لا مناص منه، فأراد أن يماطلهم

ليستطيع استشارة مندوب مركز سميثونيان ورجل الأف.بي.آي. قال لهم

بانكسار:

- أمهلوني إلى الغد لأفكر في الأمر.
- لا بأس، سنمهلك إلى مثل هذا الوقت من الغد، ولكن حذاري أن تحاول الهرب أو إبلاغ الشرطة، وإلا فالعواقب ستكون وخيمة جداً!!
- قاما من مكانهما، وقال له سعود وهما يهمان بالخروج:
- لديك أربعة وعشرين ساعة للتفكير!!
- لم يُعلّق بشيء. ولما خرجا أغلق الباب، ووضع أقفال الأمان عليه، ثم توجه مباشرة إلى غرفته وأخذ الزر ووضعه في جيبه خشية أن يأتوا إليه مرة أخرى، ثم عاد إلى الصالة وارتقى على الكنبه. فكّر فيما يمكن أن يفعله خلال هذه الفترة، وهل سيثق بكلامهم من أن لا يداهموه في أيّ وقت. رأى أن لا مفرّ من الاتصال بمندوب مركز سميثونيان، ولكن الساعة قد قاربت من العاشرة. قال لنفسه:
- لا بأس، لا أظنه سينزعج من اتصالي به في هذا الوقت، وخاصة عندما أخبره بما جرى.
- توجّه أولاً صوب الباب، واختلس نظرة إلى الخارج من النافذة المطلة على الشارع ليتأكد من أنهما لا يتصنّتان عليه. اتصل بالمندوب وشرح له كل ما جرى مع هذين الضيفين، ثم قال له بنبرة توحى بالخوف والقلق:
- أمهلوني فقط أربعة وعشرين ساعة، ولا بدّ أن تتصرّفوا خلالها!!
- لا داعي للقلق، وسأتصل بضابط الأف.بي.آي، ثم أعود إليك، أو أتركه يتصل بك مباشرة ليُخبرك بما عليك القيام به.
- لم تمرّ إلا عدة دقائق حتى اتصل به شخصٌ وأخبره بأنه ضابط الأف.بي.آي الذي جاء مع مندوب مركز سميثونيان. قال له:

- أولاً: عليك أن تبقى في شقتك إلى مساء الغد كي لا يتعرّض لك أحدهم في الطريق!!

فكّر مباشرة في صلاة الجماعة، وأنه بهذا لن يستطيع الذهاب إلى المسجد، ثم قال لنفسه: يعذرنى ربي، فالحال يعلمها الله. تابع الضابط قائلاً:

- وثانياً: سيكون هناك رجال شرطة يحيطون بالمبنى، ولكن بطريقة خفية لا تزعج الجيران!! وثالثاً: عندما يأتون إليك في المساء، تعمّد أن لا تُغلق الباب بالكامل، وتصرف معهم بشكل طبيعي، ثم جاريهم في الحديث كما تشاء، وعندما ترى أن الوقت قد حان لنا لنأتي، فما عليك إلا الضغط على الزر، وبعد لحظات ستجدنا عندك، ونقوم بالواجب.

كان يسمع خطة الضابط، وهو لا يزال في قلق من أن يأتوا إليه في أيّ وقت، فسأل الضابط:

- وماذا لو داهموني في أيّ وقتٍ قبل ذلك؟!؟

- لا بأس!! كل ما عليك فعله هو الضغط على الزر، ولو رأينا من خلال الكاميرا إيذاءً جسدياً لك أو تهديداً بالسلاح، فسنأتي مباشرة.

اطمأنت نفسه، وشكر الضابط على هذه الخطة. ودّعه الضابط، ثم قال له وكأنه يمازحه:

- نم نوماً هادئاً، ولا تقلق بشيء، فحولك كتيبة تحميك!!

شكره، ثم أنهى المكالمة. توضأ ودخل إلى سريره يريد النوم، ولكنه لم يستطع. بقي يفكر في كل الاحتمالات التي يمكن أن تحدث، حتى إنه قال لنفسه:

صراعات استخباراتية

- ربما يكونوا قد زرعوها قبلة في الشقة دون أن أنتبه إليهم، وقد يفجرونها في أي لحظة.

كذلك، أراد أن يتصوّر ماذا سيحدث غدًا عندما تهجم عليهم الشرطة. ساءل نفسه:

- هل سيحدث إطلاق نار، أم ستستطيع الأف.بي.آي مباغتتهم قبل أن يُقدموا على استخدام السلاح؟!
ابتسم، وقال:

- لا شك أن الساعات المقبلة ستكون مثيرة جدًا. أسأل الله أن يحفظني ويحفظ أهلي وأساتذتي، وأسأله - سبحانه - أن يريني في هؤلاء يوماً أسوداً!!
بقي يقرأ القرآن لفترة، ثم لجأ إلى الصلاة والدعاء والتبُّل إلى الله. بقي على تلك الحال إلى أن قارب الليل من منتصفه، ثم ارتمى على سريره، وبقي يتململ إلى أن غلبه النوم.

* * * * *

قضى نهار اليوم التالي في قلقٍ واضطراب، وحاول أن يُشغل نفسه بالقراءة، ولكن ذهنه كان يُفكّر في تلك اللحظات الحاسمة. كان بين حينٍ وآخر يختلس بعض النظرات في نوافذ الشقة ليرى الكتيبة التي أخبره الضابط عنها، ولكنه لم ير شيئاً، حتى السيارة التي كانت تقف قريباً من الشقة لالتقاط ما تبثه الكاميرا قد اختفت. صلى جميع الصلوات في الشقة، وأكثر من الذكر والدعاء وتلاوة القرآن.

عندما حان وقت صلاة العشاء، صلاها في أول وقتها تحسباً لتبكيرهم

في المعجى. فرغ من الصلاة، ثم انتظر لأكثر من ساعة، ولكنهم لم يأتوا. نظر في النافذة المطلة على الشارع ولكنه لم يرَ شيئاً. بقي على تلك الحال إلى أن قاربت الساعة من العاشرة. كان في قلقٍ وخوفٍ واضطراب لا يوصف، وكان - أحياناً - يضع يده على قلبه وهو يتحسّس نبضاته المتراقصة. جاءت الحادية عشرة ثم الثانية عشرة ولم يأتِ أحد. قرّر أن يتصل بالضابط. عندما رفع الضابط السماعة، قال له:

- مرحباً. أرى ضيوفك لم يزوروك!!

- أجل، وأنا قلقٌ جدّاً!!

داعبه الضابط قائلاً:

- يبدو أنك قد اشتقت إليهم كثيراً!!

- أظنهم أرادوا أن يُعيّشوني في رعب!!

- أخبرتك بأن لا تقلق!!

قاطعته بنبرة توحى بكثيرٍ من الخوف والقلق:

- ولكنهم قد يأتون إليّ في أيّ لحظة!!

- لا بأس!! نم بهدوء، ونحن سنقوم بالواجب!!

- هل تعتقد أنهم سيأتون أم أرادوا فقط تهديدي!!؟

- كل شيءٍ محتمل، ولا أريد أن أستبق الأحداث!!

وفجأة، جاءته فكرة، فقال للضابط بسرعة:

- ما دتم تعرفون كل صغيرة وكبيرة عن كل شخصٍ في أمريكا، فلماذا لا

تذهبوا إليهم وتعقلوهم في فندقهم أو في أي مكان آخر قبل أن يصلوا إليّ؟!!

ردّ الضابط بابتسامة:

- فكرة جميلة، ولكنها لن تخدمك في شيء!!

- وكيف ذلك؟!!

- لن تكون عندنا حينئذٍ أية أدلة تدينهم!!

- ألا يكفي ما جرى البارحة بيني وبينهم؟!!

- الحوار الكلامي لن يدينهم بتهمة الاعتداء عليك!!

رأى أنه قد استهلك كل ما عنده من أفكار، فسأل الضابط:

- والآن؟!!

ردّ عليه ببرود:

- أخبرتك بأن تنام وتمارس حياتك بشكل طبيعي!!

- وإلى متى؟!!

- لا ندرى، ولكن سنقيم الوضع بين فترة وأخرى.

شكر الضابط، واعتذر له على إزعاجه في ذلك الوقت، ثم ارتدى على

سريره، ولم يستطع النوم إلا قبيل الفجر؛ فكان لا يسمع حركة خارج الشقة-

حتى ولو كانت حفيف أوراق أو مشية سنجاب- إلا حسبها الساعة الصفر التي

سيهجمون فيها عليه. غلبه النوم، ولم يصبح لصلاة الفجر إلا بعد أن أشرقت

الشمس. استغفر الله على تأخير الصلاة إلى ذلك الوقت، وكان يشعر بإنهاك

شديد، فصلى ثم عاود النوم.

استغرق في نومته ولم يستيقظ إلا عندما سمع رنين هاتفه. نظر في ساعته فإذا هي العاشرة. كان المتصل صاحبه عبدالله الذي أبدى قلقه عليه لعدم حضوره للمسجد طيلة البارحة. أخبره بأنه بخير ولكن عنده بعض الظروف، ووعده بأنه سيخبره بها لاحقاً. بعدما أنهى الكلام مع عبدالله قام من سريره، وأطلَّ على نوافذ الشقة فلم يرَ شيئاً مريباً، فاستحمَّ، ثم أفرط بكوب عصير وقطعة كعك كانت متبقية في الثلاجة.

ارتدى على الكنبه، وأمسك بالمصحف، وحاول أن يقرأ شيئاً من القرآن، ولكن ذهنه كان ينصرف بعيداً عن آيات المصحف، وتترأى أمامه سيناريوهات الهجوم. بقي على ذلك الحال من الاضطراب والخوف لأكثر من ساعتين. وفجأة، سمع طرقاتاً خفيفاً على الباب، فبدأت نبضات قلبه تتصاعد بشدة. ترك المصحف على الطاولة، وتلمَّس الزُّر ليتأكد من أنه في جيبه.

مشى إلى الباب، ورجلاه لا تكادان تحملانه. فتح الباب قليلاً، وكانت سلسلة الأمان لا تزال تحجز الباب. أطلَّ إلى الخارج، فرأى سعود وأحمد، وكلُّ منهما يرتدي فانيلة ملونة وبنطلون جينز. ارتبك كثيراً، ثم قال لهما:

- تفضلاً.

أغلق الباب ليُزيح سلسلة الأمان، ثم فتح لهما، وأشار إليهما بالدخول، ثم حرَّك الباب رويداً رويداً دون أن يغلقه. توجهَّ نحوهما وقلبه يرتجف من اللحظات الحرجة التي ستأتي. أشار إليهما بالجلوس، ثم جلس على الكنبه المقابلة دون أن يُحضِر لهما هذه المرة العصير. بادر سعود بالكلام، فقال:

- أردنا أن نأخذ احتياطاتنا الأمنية، ولذا قررنا عدم المجيء في الليل كما

اتفقنا!!

لم يردّ بشيء، وإنما بقي ينظر إليهما، وهو يتربص بطلقة رصاص من أحدهما في أي لحظة. تابع سعود:

- والآن، ماذا قررت؟!؟

نكس رأسه، ثم قال:

- فكرتُ في الأمر، ورأيتُ أنه لا يمكنني العودة في الوقت الراهن!!

ردّ سعود بغضب:

- ولكنك تعلم عواقب هذا القرار، وإذا أردتَ أن أذكركَ بها فهي كالتالي!!

أراد أن يسرد ما قاله من قبل، فقاطعه بنبرة حازمة:

- لا داعي، فقد حزمتُ أمري أن لا أراجع!!

هنا، اشتاط سعود غضباً، وقال له بصوت عالٍ يطير منه الشر:

- نحن لا نلعب معك!! إما أن تأتي معنا طواعية، أو نأخذك عنوة!!

عندما سمع هذا التهديد أدرك أنهم قد يقتلوه إن عارضهم، فلم يجد بُدّاً من الاستسلام لهم، ولكنه أراد أن يُماطل معهم ليعرف كيف سيتصرفون معه، فقال له:

- وإذا لم آت معكم؟!؟

عندها، قام سعود وأخرج مسدسه من جيبه، ثم قال له بتهديد:

- أظن أن هذا سيجعلك تأتي معنا طواعية!!

عندها، تيقن أن الموت قاب قوسين منه، فلم يبقَ عليه إلا أن يستدعي الأف.

بي.أي، فقام وهو يصرخ في وجه سعود:

- إنكم مجرمون!! إنكم قتلة!! ماذا تريدون مني!!؟ ألا يكفي أنكم
حرمتموني من حقِّي في بلدي واعتقلتم أهلي!!؟ ألا تتركوني وشأني!!؟
ثار سعود، وردَّ عليه بغضب:

- ليس عندنا وقت لهذا الهراء!! هيا، امشِ أماننا!!
رأى أن لا مفر من الخروج معهم، ولكنه خاف أن يحدث طلق نار بينهما
وبين الأف.بي.آي فيُصاب هو بشيء، فقال لهم بدهاء:
- أنا لن آتي معكم بهذه الصورة!! اذهبوا أتم إلى سيارتكم، وسألحقكم
إليها!!

ردَّ سعود بابتسامة ساخرة وبتهديد:

- لا تلعب معنا، فنحن لا نتطلي علينا حيِّلك!!
- ولكن المنطقة مراقبة، ولو رآكم أحدٌ بهذه الصورة فلا بُدَّ أنه سيبلغ
عليكم!!

- لا تقلق بشأن هذا!!

- إذن، على الأقل لا تُشهر مسدسك، وسأمشي معكم!!
وهنا، رفع سعود مسدسه، وصوَّبَه على وجهه، وقال له بنبرة حازمة:

- هيا، امشِ أمامي!!

- وماذا عن شقتي وأغراضي!!؟

- قلتُ لك: امشِ أمامي، ودع عنك هذه الحيل!!

- إذن، على الأقل ألبس حذائي!!

- هيّا البسه، وعجّل!!

انحنى يلبس حذاءه، وسعود شاهراً مسدسه على رأسه!! رأى أنه حتماً مقتول، فقام صوب الباب وجسمه يرتعش، وصار يُردّد الشهادتين في سرّه، وتوقّع أن تأتيه رصاصة في رأسه في أيّ لحظة. أدخل يده في جيبه، وضغط على الزرّ كمحاولة خاسرة لطلب النجدة. فتح أحمد الباب، وانتظرهما ليخرجا، فخرج محمد وسعود وراءه بمسدسه، ثم تبعهما أحمد.

جال يبصره يمنة ويسرة علّه يرى أحداً ينجده، ولكن خابت أمانيه. مشى خطوات إلى الأمام، ثم فجأة سمع خبطة على الأرض، فالتفت وراءه، فإذا بسعود وأحمد مرميان على الأرض على وجههما، وعلى ظهر كلّ منهما شرطي كأنه فيل، وفي غمضة عين كبّلا يديهما، ثم جذباهما بعنف للأعلى إلى أن استقاما واقفين، فنظر سعود إليه بغضب، وخاطبه بالعربية قائلاً:

- فعلتها أيها الحقير!!

ابتسم محمد في وجهه، ثم قال له بسخرية:

- إن الله غالبٌ على أمره، ولا بُدّ للظلم أن ينجلي!!

قطّب سعود وجهه، ثم ردّ عليه بغضب:

- ستدفع ثمن هذا باهظاً!!

كان محمد في نشوة عارمة لا توصف، وهو يرى انتصاره عليهم، فردّ عليه بابتسامة عريضة:

- سنرى من سيدفع الثمن!!

دفع الشريان سعود وأحمد أمامهما إلى سيارة للشرطة جاءت بعد مداومة

الفصل الخامس العشرون

الشرطة لهما. وبينما هو يشاهد سعود وأحمد وهما يُكثزان في سيارة الشرطة بأعلا لهما، انتبه إلى ضابط الأف.بي.آي وهو يقول له:
- تهانينا لك!! لقد أحرزت أول انتصار.

ابتسم له، ثم قال:

- أنا أحرزتُ هذا الانتصار؟! لقد كنتُ على حافة الموت، ولولا عناية الله ثم تدخلكم أتمت لكنتُ الآن جثة هامدة!!
- الحمد لله أنها جاءت سليمة.

سأله محمد بنبرة توشي بالإعجاب والدهشة بالسرعة والإتقان بما قامت به الشرطة، وفي الوقت نفسه الحيرة في الكيفية التي وصلوا بها. قال له:

- إن العمل الذي قمتم به ليعجز اللسان عن الإشادة به، ولكن كيف استطعتم أن تداهموهما من الخلف؟!
ردَّ الضابط بابتسامة:

- هذه أمور روتينية عندنا، ولا يوجد فيها شيءٌ يفوق المؤلف من أعمالنا!!
كرَّر سؤاله، فقال:

- ولكن، كيف أتيتموهم من الخلف؟!
ابتسم الضابط، ثم قال:

- كنا نسير وراءكم!!

ردَّ بحيرة:

- كيف؟!
- كيف؟!
- كيف؟!
- كيف?!

- لقد كان رجال المهام في شقتك عندما كانا يُهدّدانك!!
- في شقتي؟! ومن أين دخلوا؟! ومتى؟!؟
- علّق الضابط بابتسامة:
- وهل تظنهم هبطوا من السماء؟! طبعًا، دخلوا من النوافذ!!
- كيف يدخلون من النوافذ، وأنا قد أغلقتها بنفسي، وتأكدتُ من ذلك؟!؟
- ابتسم مرة أخرى، ثم قال:
- وهل ترانا قليلي الحيلة؟!؟ يا سيّدي: إن عندنا من الطرق والأدوات التي بها نستطيع الدخول إلى أيّ مكان، حتى ولو كان صندوقًا من الخرسانات الفولاذية!!
- ثم أراد أن يختصر الحديث، فقال له:
- وعلى كل حال، هذا يخصّنا، وما يخصّك أنت هو أنك نجوتَ منهم مؤقتًا!!
- ما إن سمع هذه الكلمات حتى عاد إليه توتُّره واضطرابه، ثم سأل الضابط:
- ماذا تعني أنني نجوتُ منهم مؤقتًا؟!؟ هل هناك غيرهم؟!؟
- هزّ الضابط كتفه، ثم قال:
- ومن يدري؟!؟ نعم، قد يكون هناك غيرهم!!
- ازداد اضطرابه وتوتُّره، ثم قال:
- والحل؟!؟ هل سأبقى طيلة حياتي أعيش في رعبٍ وقلق؟!؟
- لا، أنا لم أقل ذلك!!

قاطعته بسرعة:

- ولكنك تؤكد لي أن هناك غيرهم!!

- أنا قلت: قد يكون هناك غيرهم، ولكن عليك أن لا تحمل همهم!!

هزَّ محمد رأسه، ثم ردَّ بتوتُّر:

- لقد حيرتني معك!! كيف تريدني أن لا أحمل همهم، وأنت ترى ما يمكن

أن يفعلوه بي؟!!

- أولاً: هذا الحال لن يطول معك؛ فخلال يوم أو يومين ستنتهي المشكلة،

وثانياً: سنكون بجانبك، وسنحميك إن أراد أحدهم أن يؤذيك بشيء.

اطمأنت نفسه قليلاً، ولكنه لا يزال في قلق، فقال له:

- والمطلوب مني الآن؟!!

- عدُّ إلى شقتك، وخذ قسطاً من الراحة ليذهب عنك هذا التوتُّر والقلق،

وسألتقي بك في الغد لأشرح لك الخطوات التالية.

- وهل عليَّ أن أبقى في شقتي خلال هذا اليوم؟!!

- ليس ضرورياً، ولكن يُفضَّل ذلك كي لا تَلْفِتَ الأنظار إليك وأنت بهذا

الحال من الاضطراب.

ثم أراد أن يُنهي الحديث، فقال:

- والآن، أستأذن لأن عندنا أعمالٌ كثيرة علينا إنهاؤها.

- أشكر لكم وقوفكم بجانبني، وأعتذر لكم عن كل ما أسببه لكم من مشاكل.

ابتسم الضابط، ثم قال:

- لا تقلق، فهذا عملنا. أراك غداً.

- إلى لقاء.

عاد إلى شقته، وأغلق الباب بإحكام، ثم تجوّل في الشقة ليرى آثار التكسير الذي قامت به الشرطة للدخول إليها، ولكنه لم يجد شيئاً في غير موضعه. تعجّب من هذه الدقة الفائقة في أداء أعمالهم. كان يشعر بإرهاقٍ شديد، فتوضأ وصلى الظهر، ثم نام إلى وقت صلاة العصر.

الفصل السادس والعشرون: انتصارٌ ساحق

في صبيحة اليوم التالي اتصل ضابط الأف.بي.آي بمحمد وأخبره بأنه سيأتي عنده بعد حوالي ساعة. جاء الضابط، وشرح له الخطوة القادمة، فقال له:

- لقد قمنا بإبلاغ الخارجية الأمريكية بمحاولة الاعتداء عليك، وطالبناهم أن يُرتَّبوا لاجتماع مع سفير المملكة في واشنطن دون أن يُعلموه بتفاصيل موضوع الاجتماع، وطلبنا من الخارجية أن تقوم بإعداد استنكار شديد اللَهجة لسفير المملكة حول محاولة بلاده الاعتداء على أحد رعايانا، وأن يتم تقديم ذلك الاستنكار في الاجتماع ليكون شديد الوقع على السفير وحكومته. وقد طلبت الخارجية منا التواصل معك لإعداد قائمة بمطالبك من حكومة المملكة.

كان يشعر بسعادة عارمة تغمره وهو يستمع إلى هذه الترتيبات التي هي في حدِّ ذاتها انتصارٌ كبير يُحرزه تجاه حكومة بلاده. أجاب الضابط بنبرة توحى بالسرور والامتنان، فقال:

- إني مَدِينٌ لكم بعد الله - سبحانه وتعالى - بإنقاذ حياتي، وأنا مَدِينٌ لكم الآن بإعطائي الفرصة لأخذ حَقِّي من الذين أذلُّوني وحاولوا الاعتداء عليَّ، ولي عدة مطالب سأطرحها عليك، وأخبرني إن كنتُ تجاوزتُ حدودي في شيءٍ منها، أو إنها غير منطقية.

بدأ يسرد مطالبه، والضابط يُدوّن ما يقول، ولما انتهى قال للضابط:

- هذا ما يحضرني الآن، فما رأيك فيها؟

- ممتازة، وأراها لا تخرج عن دائرة حقوقك المشروعة، وسأوصلها إلى الخارجية حسب رغبتهم.

- ومتى سيكون الاجتماع؟

- ذلك تُحدّده الخارجية، وسأُعلمك في حينه.

- وماذا عن الجنسية؟! هل أعلمك مندوب مركز سميثونيان أو قسم

الجنسية أين وصلوا في إجراءات استخراجها لي؟

- لا، لم يصلني أيُّ شيءٍ بذلك، والأفضل أن تتواصل معهم بنفسك.

- سأفعل بإذن الله.

* * * * *

في اليوم التالي اتصل به ضابط الأف.بي.آي وأخبره بأن الاجتماع سيكون في الرابعة عصرًا في مكتب حاكم ولاية ماساتشوستس، وأخبره كذلك بأن مندوب مركز سميثونيان سيمرُّ عليه في الثالثة ليأخذه إلى هناك.

اعتبر محمد هذا اليوم يوم عيدٍ له، فتجهَّز له؛ فلبس بدلته الأنيقة. وقبل الثالثة بقليل وصل مندوب مركز سميثونيان، وهنأه على سلامته، وعلى قيام الأف.بي.آي بالقبض على رَجُلِي الاستخبارات. في الطريق تحدثا حول ما جرى له في اليومين الماضيين، ولما سمع المندوب بما وصل إليه الحال من محاولة قتله، علّق بابتسامة:

- يبدو أن الله قد كتب لك عمرًا جديدًا!!

- صدقتَ!! لقد كنتُ على مشارف الموت، ولكن شاء الله أن يُظهر الحق وينصر المظلوم، فله الحمد والمنة.

* * * * *

وصلا إلى مكتب الحاكم، واستقبلهم مدير المكتب بالترحيب، ثم أخذهم إلى غرفة الاجتماعات. كانت غرفة فسيحة تتوسطها طاولة خشبية تمتد لأكثر من سبعة أمتار وعرضها يزيد على المترين، وتحيط بها الكراسي الفاخرة من جميع النواحي. طلب منهما المدير أن يجلسا في الوسط. بعد قليل جاء ضابط الأف.بي.آي وموظف الجنسية، وطلب منهما المدير أن يجلسا في الجهة المقابلة لمكان محمد ومندوب مركز سميثونيان.

بقي الأربعة يتحادثون لبرهة، وأخبرهم ضابط الأف.بي.آي بأنهم لا يزالون ينتظرون وصول سفير المملكة. بعد قليل دخل الحاكم ومعه رجل آخر، فقام محمد ومن معه احتراما للقادمين. أخذ كلُّ منهما مكانه في طرف الطاولة من الجهة المقابلة للباب، وبقيا واقفين. همس مندوب مركز سميثونيان لمحمد قائلاً: الرجل الأول هو حاكم ماساتشوستس، والثاني هو ممثل عن الخارجية الأمريكية.

بعد قليل دخل السفير ومعه موظفان من السفارة، وأشار لهم المدير لياخذوا أماكنهم بجانب الحاكم في مقابل ممثل الخارجية. بقي الجميع وقوفاً إلى أن أشار لهم الحاكم بالجلوس.

فيما يبدو أن السفير لم يكن على علم بطبيعة الاجتماع، فما إن دخل ورأى محمداً حتى أخذته الدهشة، فقد كان يعرفه من أيام البكالوريوس. تبادل هو

ومحمد ابتسامات ترحيب مشوبة بالقلق حول ما يدور في ذهن الآخر. لم تطل اللحظات حتى قام ممثل الخارجية، وتكلم قائلاً:

- سيادة الحاكم.. سعادة السفير.. أيها الحضور الكرام.. أرحب بكم في هذا الاجتماع الذي قمنا بالتنسيق له على عجل.

أيها السادة: لقد اجتمعنا هنا لننقل لسعادة سفير المملكة رسالة من الخارجية الأمريكية تُعبّر عن استياء الولايات المتحدة العميق مما قامت به المملكة في التدخّل السافر في الشؤون الداخلية للولايات المتحدة، وذلك بالاعتداء على أحد رعاياها، وهو السيّد محمد علي الجالس هنا- وأشار إلى محمد!!

نكّس محمد رأسه قليلاً، ثم نظر إلى السفير فرأى وجهه قد احمرّ خجلاً مما قاله ممثل الخارجية. ابتسم السفير بتصنّع، ثم رفع يده قليلاً ليستأذن في الحديث، فحرّك ممثل الخارجية رأسه بالإذن له بالكلام. قال السفير بنبرة متلعثمة:

- سيادة الحاكم.. سيادة الممثل.. أيها السادة الحاضرون: لقد طُلب مني الحضور إلى هنا، ولم يُفصّح لي أحد عن أسباب هذا الاستدعاء، وها هو سيادة الممثل ينسب إلى المملكة أمراً يُعدُّ في الأعراف الدولية جريمة دبلوماسية، رغم أنني لا أعلم شيئاً عن هذا الأمر، فهلاً يا سيادة الممثل شرحت لنا تفاصيل هذا التدخّل السافر الذي ذكرته؟!!!

ردّ الممثل قائلاً:

- بكل ترحيب، ولك الحق في ذلك، ولكنني سأترك شرح ذلك إلى العميد إدوارد والتن، رئيس جهاز الأف.بي.أي في مدينة بوسطن.

أشار ممثل الخارجية إلى السيّد إدوارد ليتكلم، فانتصب قائماً، ثم قال:

- شكراً سيدي. سيّدي الحاكم.. سعادة السفير.. أيها السادة الكرام..

ثم بدأ يسرد لهم الواقعة التي جرت لمحمد منذ قدوم سعود وأحمد إلى شقته إلى أن تم اعتقالهما. بعدما سمع السفير هذا الكلام نكّس رأسه خجلاً مما جرى، ثم قال:

- مع احترامي الشديد لما قاله السيّد إدوارد، وقبله السيّد ممثل الخارجية، غير أنني لا أستطيع نقل هذا لحكومتي دون بينة.

هنا، أشار ممثل الخارجية إلى السيّد إدوارد، فقام من مكانه، ثم توجه ناحية بابٍ جانبي في القاعة ففتحها، ولدهشة محمد أُدخل سعود وأحمد وهما لا يزالان مُكبّلين، ووراء كل واحدٍ منهما شرطي. أشار السيّد إدوارد للشرطيين أن يوقفاهما قريباً من الطاولة. عندها، تكلم ممثل الخارجية مخاطباً السفير، فقال:

- هل تعرف هذين يا سعادة السفير؟!!

هزّ السفير رأسه بالنفي، ثم قال:

- لم أرهما من قبل!!

عندها، قام ممثل الخارجية ومدّ يده إلى السفير ببطاقتين وجوازين، ثم قال:
- هذه بطاقة العقيد سعود ناصر، وهذا جواز سفره، وهذه بطاقة الرائد أحمد رائد، وهذا جواز سفره، وهما كما ترى يعملان في الاستخبارات المركزية في المملكة.

تصفّح السفير البطاقتين والجوازين، ورأى أن كل شيء يبدو صحيحاً،

ولكنه لا يزال لديه شكوك فيما قاله السيّد إدوارد، فقال مخاطبًا ممثل الخارجية بنبرة فيها شيءٌ من التحديّ:

– لكن كل هذا لا يُثبِت التهمة التي تقدّمتَ بها ضد المملكة!!

وهنا، قام السيّد إدوارد، وتوجّه إلى شاشة كبيرة على الحائط، وضغط زر التلفاز، ودُهِل محمد والسفير عندما شاهدا تسجيلًا كاملاً لوقائع ما جرى في شقة محمد. انعقد لسان السفير، فلم يدرِ ما يقول، فبقي لوهلة صامتًا منكّسًا رأسه، ثم فجأة انتبه، وكأنه تذكّر أمرًا، فقال:

– ولكنكم تعلمون أن السيّد محمد علي هو من مواطني المملكة، ولا بُدَّ أنه فعل جرمًا عظيمًا جعل استخبارات المملكة تتعقبه!!

ابتسم ممثل الخارجية، وكأنه يسخر من هذه الحجة الواهية التي أتى بها السفير، ثم قال له:

– أولاً: لو سلّمنا أن ما قلته صحيحًا، فهذا لا يُجيز لأيّ دولة مطاردة رعاياها على أرض الولايات المتحدة دون تنسيق مع الجهات المختصة. وثانيًا: فإن السيّد محمد علي قد أصبح من مواطني الولايات المتحدة، ونحن لا نرضى لأحد الاعتداء على مواطنينا!!

عندما سمع السفير أن محمدًا هو من مواطني أمريكا رمقه بنظرة ازدراء وهو يتسّم، ثم علّق:

– ومتى صار السيّد محمد علي من رعاياكم؟!!!

هنا، أشار ممثل الخارجية إلى موظف الجنسية، فقام وقال:

– شكرًا سيادة الممثل. سيادة الحاكم.. سعادة السفير.. أيها السادة الكرام:

انتصارٌ ساحق

لقد تقدّم السيّد محمد علي قبل أكثر من عشرة أيام من الآن بطلب التجنّس، وذلك بعد أن التحق بمركز سميثونيان للفيزياء الفلكية بوظيفة أخصائي أجهزة استشعار. وقد قامت دائرة الهجرة والتجنّس بالإجراءات المطلوبة، وتم الموافقة على منحه الجنسية اعتباراً من اليوم الذي تقدّم فيه بطلبه، والذي سبق الأحداث التي وقعت له منذ أكثر من أسبوع.

فرح محمد بما سمعه من موظف الجنسية، وشعر بارتياح كبير؛ حيث كان يظن أن موضوعها لا يزال عالقاً، وقد يعرفونها لأيّ سبب من الأسباب. أغمض عينيه، وقال في سرّه: اللهم لك الحمد والشكر على ما أنعمت وأوليت وتفضلت.

أما بالنسبة للسفير فإنه - فيما يبدو - لم يقتنع بموضوع الجنسية والوظيفة، ورأى أن ثمة ترتيبات داخلية قد تمت لمنحهما له، ولكن لأنه لا يستطيع التشكيك فيما قاموا به، لم يبق أمامه من حُجّة يتعلّل بها، فلم يرَ بداً من الاعتذار، فقال وهو منكسّ رأسه:

- إنني أعتذر لكم باسم حكومة المملكة عن كل ما قام به هذان - وأشار إلى سعود وأحمد - من أعمال لا تُقرُّهما المملكة عليها.

أحسّ محمد بسعادة لا توصف، فقد حقّق انتصاره الثاني، فتمتم في سرّه بالحمد والثناء لله - سبحانه وتعالى - . أما ممثل الخارجية فإنه لم يقنع باعتذار السفير، فردّ معلقاً:

- يا سعادة السفير: إن الخارجية الأمريكية قد أعدت خطاباً رسمياً موجهاً إلى حكومتكم، وإنها لن تقبل - مع احترامنا الشديد لكم - بالاعتذار الشفهي،

ولا بُدَّ من أن يصلها اعتذارٌ رسمي من خارجية المملكة. ولعلمكم، ولعلم السادة الحاضرين، فإن هناك مطالبًا تقدّم بها السيّد محمد علي تجاه حكومة المملكة، ولا بُدَّ أن يصلنا تعهّد رسمي من حكومتكم بتنفيذها، وإلا فلن يتم الإفراج عن هذين الشخصين - وأشار إلى سعود وأحمد - . والمطالب هي:

أولاً: أن يتم الإفراج الفوري عن جميع أقاربه ومعارفه وأساتذته الذين قامت حكومة المملكة باعتقالهم، وأن يتم الاعتذار إليهم كتابياً بخطابات صادرة من القصر الرئاسي في المملكة.

كان السفير وهو يستمع إلى هذه المطالب يبتسم وهو ينظر إلى محمد، وكأنه يقول له: لقد ارتقيت مرتقى صعباً يا رويحي الغنم. وأما محمد فكان يبادلُه ابتسامة المنتصر على خصمه، وأحياناً ينظر إلى سعود وأحمد فيراهما منكّسي الرأس. تابع الممثل سرد المطالب، فقال:

- وثانياً: أن تتعهّد حكومة المملكة بعدم التعرّض مستقبلاً لهؤلاء أو ذويهم بأيّ شكلٍ من أشكال الاعتقال أو المساءلة أو الاعتداء الجسدي أو النفسي أو ما شابهها، أو الحرمان من أيّ حقٍّ من حقوقهم المدنية والوظيفية.

ثالثاً: أن يتم دفع ما قيمته مئة ألف دولار لكل واحد من هؤلاء المعتقلين، ودفع ما قيمته عشرة آلاف دولار لكل واحدٍ من ذويهم، وذلك كتعويضٍ لهم عن بعض ما لحقهم من الإيذاء الجسدي والنفسي وما شابهها بسبب هذه الاعتقالات.

عندما سمع محمد هذا المطلب قال لنفسه: أنا لم أطلب هذا، ومع ذلك فلم ير فيه بأساً، بل توقع أن أهله وأساتذته سيفرحون بهذا كثيراً. تابع الممثل:

– رابعاً: أن يُمنح هؤلاء وذويهم مطلق الحرية في ممارسة حياتهم داخل أو خارج المملكة، وأن لا يتم حرمانهم أو عرقلتهم بأي شكلٍ من الأشكال عندما يريدون السفر داخل أو خارج المملكة أو العودة إليها، وأن لا يتم مصادرة جوازات سفرهم أو بطاقات هويتهم أو تقليص صلاحياتها أو عرقلتها بتجديدها. خامساً: أن تتعهد حكومة المملكة بعدم التعرُّض للسيد محمد علي بأي شكل من أشكال الملاحقة أو الإيذاء الجسدي أو النفسي أو ما شابهها، سواءً داخل الولايات المتحدة أو خارجها.

سادساً: أن تتعهد حكومة المملكة بمنح السيد محمد علي الحرية المطلقة في دخول المملكة متى ما شاء، والبقاء فيها قدر ما شاء، وأن تُمنح له كافة حقوق رعايا ومواطني المملكة، وأن لا يتم التعرُّض له أثناء بقاءه داخل المملكة بأي شكل من أشكال الملاحقة أو الإيذاء الجسدي أو النفسي أو ما شابهها.

سابعاً: أن تتعهد حكومة المملكة بمنح السيد محمد علي الحق المطلق في الاحتفاظ بجواز المملكة قدر ما شاء، أو تسليمه لها متى ما شاء، وأن تُقدِّم له كافة التسهيلات لتجديد جوازه أو منحه بدل فاقدٍ حال فقدانه.

ثامناً: أن تتعهد حكومة المملكة بالوفاء بهذه المطالب طيلة أيام حياة السيد محمد علي أو بعد مماته، وفي حال الإخلال بأيٍّ منها فإن للولايات المتحدة الحق المطلق في اتخاذ أية إجراءات تراها مناسبة تجاه المملكة.

عندما انتهى ممثل الخارجية من سرد هذه المطالب، قال:

– هذه هي مجمل ما تقدِّم به السيد محمد علي، وإذا كان لديه إضافات فليتفضل ويذكرها.

كان محمد يشعر بنشوة النصر وهو يرى الممثل يسرد هذه المطالب، ويرى السفير منكسًا رأسه، ولا يملك حيلة في الاعتراض على أيّ منها. شاهد الممثل ينظر إليه، وهو يتوجّه إليه بحديثه، فابتسم وقال:

– شكرًا، هذه تكفي.

هنا، ختم الممثل الاجتماع الحاسم قائلاً:

– سعادة السفير: سيتم تسليمكم وثيقة رسمية بهذه المطالب مع الخطاب الموجّه إلى حكومتكم، ومنتظر منكم الردّ الرسمي في خلال ثلاثة أيام. وبعد أن نتأكد من قيام حكومتكم بالإفراج عن جميع المعتقلين، وتسليمهم الاعتذارات الرسمية، وصرّف التعويضات لهم، واستلام تعهّد حكومتكم بالالتزام التام بالمطالب الأخرى، فعندها سنقوم بإجراءات تسليم هذين – وأشار إلى سعود وأحمد – لممثل حكومتكم.

وأريد أن ألفت نظركم إلا أنه سيتم حرمان هذين الشخصين وجميع ذويهم من دخول الولايات المتحدة، أو الحصول على أية تسهيلات أو امتيازات تُقدّمها الولايات المتحدة لحكومة المملكة أو أفراد شعبها.

أشكر لسيادة الحاكم، ولكم يا سعادة السفير، وللسادة الحاضرين تليبتكم حضور هذا الاجتماع، ونتمنى أن نرى سريعًا العمل بما أوردناه هنا.

ابتسم الحاكم، وهو يُحرّك رأسه كردّ على شكر ممثل الخارجية له، وبعدها، قام ليُغادر القاعة، فقام معه السفير وبقية الحضور، ونظر السفير إلى محمد نظرة غضب، فبادله محمد بابتسامة عريضة، ثم نظر إلى سعود وأحمد، ورأهما يُساقان ذليلين منكسّي الرأس، فردّد في سرّه قول الله – سبحانه وتعالى –: [

قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ .[

* * * * *

بعد خروج الحاكم وممثل الخارجية والسفير ومن معه، بقي محمد في القاعة ومعه مندوب مركز سميثونيان والسيد إدوارد وموظف الجنسية. مدَّ كلُّ واحدٍ منهم يده إليه وهم يُهنئونه على هذا الانتصار الساحق الذي أحرزه، ثم خاطبه السيد إدوارد قائلاً:

- يمكنك الآن ممارسة حياتك كيفما تشاء!!

ابتسم وقال له:

- هل يعني أن كل خطرهم قد زال!!؟

- لا أجزم بذلك، ولكن لا أعتقد أنهم سيجرؤون على فعل شيء!!

هنا ابتسم موظف الجنسية، وقال له وهو يناوله بطاقة الجنسية:

- مرحباً بك في أمريكا!! لديك الآن جميع الحقوق المكفولة لكل مواطن

أمريكي!!

شعر بسعادة كبيرة وهو يستلم البطاقة منه، وابتسم له، ثم قال:

- شكراً لكم.

هنا خاطبه مندوب مركز سميثونيان مماًزحاً وهو يبتسم، فقال:

- والآن، هل ستبدأ دوامك في الغد!!؟

ابتسم، ثم قال:

- لا بأس، ولكن اجعلها بداية الأسبوع القادم لأستطيع أن أتهيأ نفسياً لذلك.
- وهو كذلك.

خرج الجميع من القاعة، وأعاد مندوب مركز سميثونيان محمداً إلى شقته. كان بعد عودته إلى أمريكا قد قرر التوقف عن أنشطته الدعوية لانشغال باله بما يجري له ولدويه في المملكة، وأيضاً خوفاً من أن يتخذ موظفو الجنسية هذه الأنشطة ذريعة في عرقلة حصوله على الجنسية. لكنه بعد أن اطمأن لحاله وارتاحت نفسه، عزم على ممارسة حياته بشكل طبيعي. لذا، ما إن وصل إلى شقته حتى غيرَ ملابسه وتوضأ، ثم ذهب إلى المسجد. شاء الله أن يلتقي بصاحبيه عبدالله ومبارك، فسألاه عن سبب انقطاعه عن المسجد، فقصَّ عليهما ما كان يجري له من أحداث، والانتصار الذي أحرزه. هنأه كثيراً على ما امتنَّ به المولى عليه.

في صبيحة اليوم التالي اتصل محمد بوالدته، وسألها عن أحوالهم وأحوال أبيه وسالم وعمه سعيد، فأخبرته بأنهم - بحمد الله - بخير، وأنهم يزورهم كلَّ يومين. كانت أمه - كعادتها - ما إن تسمع كلامه حتى تبدأ في البكاء، فأخبرها محمد بأن عليها بالصبر، وأن الله قادرٌ على أن يُغيِّرَ الأحوال متى ما شاء وكيفما شاء. هدأت نفسها عندما سمعت هذه الكلمات، فسألته عن نفسه وعن الدراسة، فأخبرها بأنه - بحمد الله - في أحسن حال، والدراسة لا يزال أمامها حوالي أسبوعين.

بعد ذلك تكلم مع سمية، وسألها إن كانت هناك تطوُّرات في موضوع المعتقلين، فردَّت بحزن:

انتصارٌ ساحق

- لم يُخبرونا بشيء، وقد أحسنا عند زيارتنا الأخيرة لهم بأنه صاروا يشعرون بالملل، وبدأ عمي سعيد وسالم يُبديان عبارات التذمُّر من وضعيهما. وأما أبي فهو صابِرٌ ومحتسب.

كان يسمع كلامها وبدخله سرورٌ لا يوصف من أن الفرج بات قريباً، ولكنه لم يشأ أن يستبق الأحداث، فعَلَّقَ:
- عسى أن يكون الفرج قريباً بإذن الله.

ثم سأَلها:

- وماذا عن نفسية شيماء؟

- الحمد لله أراها دائماً مبتهجة، ولكنها تُعبرُ - أحياناً - عن قلقها عليك. ثم فاجأته بسؤالها الذي كثيراً ما كرَّرت عليه:

- وماذا عنك؟! ألم يأتِ أو يتواصل أحد معك؟!؟

ردَّ عليها وهو يمازحها، وكأنه يلمِّح إلى الانتصار الذي أحرزه ضدهم، فقال:

- يبدو أنني صرْتُ مستعصياً عليهم!!

- آمين يا رب، عسى أن يكون كلامك صحيحاً.

ودَّعها، وكعادته طلب منها أن تنقل سلامه إلى والده وعمه سعيد وسالم، وأيضاً إلى شيماء.

* * * * *

في صبيحة اليوم التالي فوجئ باتصال أخته له، وأحسَّ من كلامها أنها في

سعادة كبيرة، فقالت له:

- اتصلتُ بك لأخبرك بأنه- بحمد الله ومنتته- تم الإفراج عن أبي وسالم وعمي سعيد البارحة، وأخبرنا أبي بأنه تم الإفراج أيضًا عن أساتذتك.

شعر ببهجة عارمة؛ فهذا هو الانتصار الثالث الذي أحرزه عليهم. علّق قائلاً:

- الحمد لله رب العالمين، هذا من فضل ربي.

- يقول أبي بأنهم أتوهم عند الظهيرة، وجمعوهم في غرفة، ثم أخبروهم بأنه حدث خطأ في اعتقالهم، وأنهم يعتذرون إليهم!!

توقع أن تخبره عن الاعتذار الرسمي الذي يفترض أن يستلموه من القصر الرئاسي، وأيضًا التعويضات المالية ولكنها لم تفعل، فسألها:

- كان من المفترض أن يُسَلِّمُوهم اعتذارًا رسميًا، وكذلك يُقدِّموا لهم تعويضاتٍ عمَّا لحقهم من إيذاء.

لم تفهم قصده فردت:

- الحمد لله أنهم أفرجوا عنهم.

فَصَلَّ أن يُوَجِّل شرح تفاصيل ما جرى له عندما تكتمل فرحتهم بتحقيق هذين الأمرين، فردَّ ببرود:

- الحمد لله على كل حال.

اتصل بوالده مباشرة، وهنأه على الإفراج عنه، فحمد الله، ثم سأله والده:

- وماذا عنك؟! هل حدث لك شيءٌ من المضايقات!!؟

لم يشأ أن يشرح له ما جرى له، فاكتفى بقوله:

- الحمد لله، الأمور طيبة هنا، وما دمتم أتم بخير فهذا يكفي.

ثم سأله:

- وهل تم الإفراج عن الأستاذ أسامة وزميليه؟

- نعم، بحمد الله، تم الإفراج عنهم أيضًا.

ثم تابع:

- فوجئنا بالضابط وهو يدخل علينا بنفسه ويناديننا، ثم أخذنا إلى غرفة، وبدأ يعتذر لنا بحجة أنه وقع خطأً في اعتقالنا، وأنهم بعد علمهم بهذا الخطأ بادروا بالإفراج عنا بسرعة.

قال محمد لنفسه وهو يبتسم: خطأ أم أوامر السيّد المطاع- ويقصد أمريكا-!!؟ قال لوالده:

- الحمد لله أنهم اعترفوا بذلك. وسامحوني أنني كنتُ السبب في كل ما حصل لكم.

- يا ابني، هذه مشيئة الله، ولا رادَّ لأمره.

- ونعم بالله.

استأذنه ليتصل بعمه سعيد وسالم وأساتذته. اتصل بهم جميعًا، وحصلت معهم حوارات مشابهة لما جرى له مع والده، غير أن سالمًا- بدهائه- قال له:

- ما لم أستطع استيعابه إلى الآن هو كيف يعتبرون ما جرى خطأً!!؟ وكيف يتنازلون عن كبريائهم، ويعتذرون إلينا!! والأدهى من ذلك أن كل ما كانوا يتبجحون به من أنهم سيقبضون عليك ويُحضرونك إلى المملكة لم يحدث منه شيء!!

ابتسم محمد وخاطب نفسه: لو تعلم ما جرى لما قلت هذا!! ردّ ممازحًا:

- يبدو عليك أنك متأسفٌ لأنهم لم يأتوا إليّ هنا!! لا تتعجّل فربما لا زالوا يُعدّون لي طبخة متميّزة!!

- لا، على العكس فأنا أحمد الله أنهم إلى الآن لم يؤذوك بشيء، وربما رأوا أن ملاحظتك في أمريكا غير قانونية، فعدّلوا عن ذلك!!

- كل شيءٍ جائز، وأسأل الله أن تكون الأمور قد انتهت بهذه الكيفية.

بقيا يتحادثان لفترة، وكان محمد يحاول صرف الحديث إلى أمورٍ أخرى خشية أن تزلّ لسانه فيُخبره بشيءٍ مما جرى له.

في مساء ذلك اليوم اتصل به شخصٌ، وعرفه بنفسه على أنه من الخارجية الأمريكية، وسأله إن كان تم الإفراج عن ذويه، فردّ عليه:

- الحمد لله، اتصلتُ بأهلي وأخبروني بأنهم تم الإفراج عنهم جميعاً، واتصلتُ وكلمتُ كل واحدٍ منهم واطمأنتُ عليهم.

- مبارك عليك إتمام هذه الخطوة. وماذا عن الاعتذار الرسمي وصرف التعويضات لهم؟

- فيما يبدو أنه لم يحدث شيءٌ من ذلك بعد.

- لا بأس، فلديهم يومٍ آخر.

استأذنه المتصل، فشكره محمد على اهتمامه.

في اليوم التالي، وبعد أن عاد من صلاة الظهر، فوجئ بسمية تتصل به مرة أخرى. وبعد أن سألها عن أحوالهم، قالت له بفرحة عارمة:

- لا تصدق ما حدث!!

- خيرًا إن شاء الله. ماذا حدث؟!!

- طبعًا والدي لم يذهب إلى العمل اليوم، فاتصل به شخصٌ عند الظهيرة، وأخبره بأنه يريد زيارته في البيت. رحَّب به أبي، ولما جاء أدخله المجلس. بادر الشخص فعرَّف بنفسه على أنه من القصر الرئاسي، وأنه يحمل خطاب اعتذارٍ رسميٍّ له من جلالة الملك. ذُهِل والدي عندما رأى الخطاب. ثم لم يكتفِ ذلك الشخص بهذا.

قاطعها محمد، وكأنه مندهشٌ بما يسمع، فقال لها:

- ثم ماذا؟!!

قالت سمية بكلماتٍ متقطَّعة ومفخَّمة تُنبئُ عما بداخلها من سرور:

- لقد سلَّمه شيكًا بمئة ألف دولار!!

قاطعها مرة أخرى قائلاً:

- ماذا؟!! مئة ألف دولار؟! وما المناسبة؟!!

- أخبره بأنها مكرمة من جلالة الملك كتعويضٍ له عما لحقه من إيذاءٍ بسبب الاعتقال.

ردَّ عليها بغضب:

- بعد ماذا؟!! بعد أن ألحقوا بهم من الإيذاء ما ألحقوا جاؤوا لئسكتوهم

بمئة ألف دولار؟!!

قاطعته سمية بفرحة:

- اصبر!! هناك أمرٌ آخر!!

ردّ نبيرة توحى بأنه متشوّق لما ستقوله له مع أنه يعلم بكل هذا:

– وماذا بعد؟!؟

ردّت سمية مرة أخرى بكلمات متقطّعة ومفخّمة:

– لقد سلّموه لكل واحدٍ منا شيئًا بعشرة آلاف دولار، وأخبروه بأنها أيضًا
مكرمة من جلالة الملك عمّا لحقنا من توتُّرٍ وقلق بسبب اعتقال أبي.

– وماذا عن عمي سعيد وسالم؟

– لقد فعلوا معهم الشيء نفسه.

رأى أن سمية قد انتهت من مفاجاتها، وأنه قد آن الأوان له ليَقْصَّ عليها
مفاجاته هو. علّق على كلامها بقوله:

– مكرمة من جلالة الملك أم أمرٌ من سيّدهم المطاع؟!؟

تعجّبت سمية من هذه اللّهجة، فقالت مستوضحة:

– ماذا تقصد؟!؟

– أقصد أنهم فقط يُنفذون أوامر أمّلتها عليهم أمريكا، وهم يجعلونها مكرمة

من الملك!!

ازداد تعجّب سمية، فقالت:

– وما دخل أمريكا بهذا؟!؟

– سأخبرك بالقصة من البداية!!

بدأ يقصُّ عليها كل ما حدث له إلى أن وصل إلى حادثة اعتقال سعود
وأحمد، وكانت سمية تُعبّر بين حينٍ وآخر بعبارةٍ توحى بما في داخلها

انتصارٌ ساحق

من قلقٍ وشفقةٍ عليه. ولما قصَّ عليها كيف تم اعتقال سعود وأحمد، علَّقت بابتهاج:

- الحمد لله رب العالمين.. نجوتَ من هؤلاء الملاحين!!

ثم تابعت:

- وماذا بعد؟!!

قصَّ عليها ما جرى له بعد ذلك من الاجتماع بالسفير، والمطالب التي قدّمت لحكومة المملكة، والتعهد الرسمي الذي فُرض عليها تسليمه للخارجية الأمريكية بالالتزام بما جاء في تلك المطالب. هنا علَّقت سمية بسرورٍ قائلة:

- الحمد لله الذي نصرنا عليهم.

ثم مازحته قائلة:

- لم أكن أعلم أنك داهية إلى هذا الحد!!

أحسَّ بفرحة غامرة وهو يسمع هذا الإطراء من أخته، فعاتب نفسه، ثم علَّق

بانكسار:

- أستغفر الله، هذا ليس مني، ولكنه من فضل ربي.

قالت له معتذرة:

- صحيح، ولكنني كنتُ فقط أمزح معك.

ثم سألته:

- وما هي خطواتك التالية؟

- بحمد الله، بعدما استقرَّ حالي وحالكم، يمكنني أن أشرع فيما جئتُ

لأجله. وبعد استشارة وتفكير، رأيتُ أن ألتحق بالوظيفة، وأواصل الدراسة في الفترة المسائية.

ثم أخبرها بتفاصيل الوظيفة التي حصل عليها، فعَلَّقت بسرور:

- يبدو أنها وظيفة مناسبة، والأنسب من ذلك التنسيق بينها وبين الدراسة. ما إن انتهت المكالمة بين سمية وأخيها، حتى طارت إلى والديها وإخوتها وهي تقصُّ عليهم كل ما أخبرها به أخوها، ثم اتصلت بسالم وشيماء وأخبرتتهما أيضًا بذلك، وكان الجميع متفاعلين مع ما تروييه لهم، وكأنه فيلمٌ دراميٌّ، وفي ختام السرد أبدوا فرحتهم الغامرة مما حقَّقه محمد من انتصار ساحقٍ على هؤلاء. أما شيماء فلم تتمالك نفسها حتى طارت هي الأخرى لتقصَّ على والديها ما جرى لمحمد، فسُرًّا بذلك كثيرًا، حتى إن عفراء علَّقت بانكسار:

- إنه بحقُّ ذكيٌّ، وقد ظلَّمته كثيرًا بما وصفته به في السابق!!

لم تشأ شيماء أن تُرجع أمَّها تلك الذكريات الحزينة في هذه المناسبة التي تعدُّها من أجمل ما مرَّ بها في حياتها، فخاطبتها قائلة:

- ما مضى مضى، وعفى الله عما سلف، وعلينا أن لا نُكدِّر نفوسنا بتلك الذكريات.

أما محمد، فبعد أن أنهى مكالمته مع أخته، اتصل بالأستاذ أسامة، وبعد أن سأله عن أحواله، بادره قائلاً:

- مبارك عليكم يا أستاذي، فقد سمعتُ عنكم أخبارًا سارة.

أخبره الأستاذ باستلامه للاعتذار الرسمي، وأيضًا الشيكات له ولأهله. سأله محمد إن كانوا فعلوا الشيء نفسه مع الأستاذ عارف والأستاذ عماد، فأكد

له ذلك، ثم علّق الأستاذ أسامة:

- كنتُ لا أريد استلام تلك الشيكات منهم، ولكنني رأيتُ أنه نوعٌ من استرجاع بعض ما نهبوه من ثروات بلادنا.

- لا تكن متفائلاً كثيراً يا أستاذي، فلولا الضغوطات التي وصلتهم من أمريكا لما أرجعوا لكم ولا قرشاً واحداً!!
تعجّب الأستاذ أسامة من هذا، فقال:

- وما دخل أمريكا بهذا؟

هنا قصّ عليه محمد تفاصيل ما جرى له، والأستاذ أسامة لا يكاد يُصدّق ما يسمع، وفي الختام علّق قائلاً:

- كنتُ أتعجّب من بقائنا في السجن طيلة تلك الفترة، وفي المقابل لم نسمع أنهم وصلوا إليك أو آذوك بشيء، وها أنتَ تخبرني بأنك كنتَ تخوض معهم معركة قاسية. الحمد لله الذي سلّمك وسلّمنا من شرورهم.
ثم سأله عما ينوي القيام به بعد هذه الأحداث، فأخبره بتفاصيل الوظيفة والدراسة، فوافق الأستاذ على ذلك، ودعى له بالتوفيق والنجاح.

الفصل السابع والعشرون:

مؤتمر صحفي

في اليوم التالي اتصل به الشخص من الخارجية الأمريكية مرة أخرى، وسأله إن كان أهله وذووه قد استلموا الاعتذار الرسمي والتعويضات، فأكد له ذلك. عندها، أخبره الشخص بأنهم استلموا أيضًا التعهد الرسمي من حكومة المملكة، فقاطعه محمد:

- وماذا عن سعود وأحمد؟

- سيأتي غدًا ممثل عن حكومة المملكة، وسيتم تسليمهما إليه، بعد أن يُوقَّعاً على تعهدات بعدم المساس بأمن وسلامة الولايات المتحدة أو أيٍّ أحدٍ من رعاياها، بطريقة مباشرة أو غير مباشرة، سواءً داخل أمريكا أو في أيِّ بقعة على الأرض.

سُرَّ محمد بهذا، وشكر المتصل على ما قاموا به، فسأله الشخص:

- هل لك مطالب أخرى تريدنا تحقيقها لك؟

- شكرًا لكم.

هنا أخبره الشخص بأمرٍ غريبٍ، حيث قال له:

- فيما يبدو أن خبر ما جرى لك في المملكة وهنا قد وصل إلى بعض الصحف ووسائل الإعلام، وقد ألحوا علينا للترتيب لعقد مؤتمرٍ صحفي

معك!!

عندما سمع هذا الخبر أخذته القلق والاضطراب مما يمكن أن يسأله فيه، وماذا عساه أن يقول، وفوق ذلك فهو لم يحضر سابقاً أيّ مؤتمرٍ صحفي، فضلاً عن أن يكون ضيفه. قاطعه قائلاً:

– مؤتمرٌ صحفيٌّ؟! وماذا عسى أن أقول فيه؟!!

– قد يسألونك عما جرى لك في المملكة، ثم الأحداث التي وقعت لك هنا!!

– ولماذا لا تتولوا أنتم وضابط الأف.بي.أي الإجابة على الأسئلة؛ فعندكم كل المعلومات؟!!

– هؤلاء يبحثون عن الحقيقة من مصدرها الأصلي، وأنت الشخص المعني بذلك.

ثم أراد أن يُطمئنهُ ويُهدئهُ من قلقه، فقال له:

– وعلى كل حال، فسُنحَدّد وقت المؤتمر بنصف ساعة فقط.

رأى أن لا ضير من خوض هذه التجربة؛ فقد تُكسبه مهارات جديدة، وقد يفتح الله عليه من خلالها أموراً خافية عنه. ردَّ بعد صمتٍ لوهلة:

– لا بأس، ولكن متى سيكون؟ وأين سينعقد؟

– للتسهيل عليك من عناء السفر، فسنُجعله في بناية حكومة بوسطن التي التقيتُم فيها بسفير المملكة. وما رأيك أن يكون غدًا في الرابعة عصرًا؟

فكَّر قليلاً، ثم أجابه:

– جيّد. وما هو المطلوب مني؟

ردَّ عليه مماًزحاً:

- لا شيء سوى ارتداء بدلة أنيقة.

- اتفقنا.

* * * * *

قضى اليوم التالي في قلق من الأسئلة التي يمكن أن تُلقى عليه، وكيف يمكن أن يجيب عليها بطريقة دبلوماسية. تضرّع إلى المولى - سبحانه - أن يفتح عليه من فصاحة اللسان، وحسن الأسلوب، ورجاحة العقل ما يُمكنه من الإجابة على تساؤلات الحاضرين بطريقة لبقة.

قبيل الثالثة بقليل لبس بدلته، ولمّع حذاءه، ثم أخذ سيارته إلى مقر حكومة الولاية. وصل إلى هناك في الرابعة إلا ربع. عندما دخل المبنى اتجّه إلى الاستقبال، وأخبر الموظف أنه جاء للمؤتمر الصحفي، فسأله الموظف عن اسمه، فأخبره. طلب منه الموظف الانتظار للحظات، ثم تناول السماعرة واتصل بشخصٍ. بعد أقل من دقيقة جاء شخصٌ وبدلة أنيقة، وقال له:

- أنا اسمي دافيد وليامز، وسأخذك إلى القاعة التي سينعقد فيها المؤتمر الصحفي.

ومشى ومحمد يسير بجانبه. لم يستغرقا وقتاً طويلاً حتى أدار دافيد رأسه إليه، وقال له:

- لقد وصلنا.

اتجه صوب باب مفتوح، وتبعه محمد. وما إن دخلا إلى القاعة حتى وجد مفاجأة ما كان يتوقعها. لقد رأى قاعة كبيرة مليئة بحشدٍ من الناس، خَمَن أنهم صحفيون، وشاهد الكثير من الكاميرات موزعة في القاعة، وشاهد منصة وبها العديد من الميكروفونات.

ما إن مشى خطواتٍ حتى جاءه مندوبو مركز سميثونيان وشركة ميكروسوفت ومندوب من جامعة هارفارد، وسلّموا عليه، وهنّأوه بانعقاد هذا المؤتمر الصحفي من أجله. ثم بعد قليل، جاءه شخصٌ وسلّم عليه، وعرّفه بنفسه على أنه من الخارجية الأمريكية، وأنه الشخص الذي اتصل به لِيُنسّق معه حول هذا المؤتمر. قال له محمد بلهجتته الفصيحة وأسلوبه المهذب:

- أشكر لكم سيدي ما قمتم به، ولو أنني لا أستحق كل هذا، وماذا عسى مثلي أن يقول فيه؟
ردّ عليه بابتسامة:

- لا تقلق، فلن تطول مدة المؤتمر لأكثر من نصف ساعة.
حرّك محمد رأسه موافقًا، فأشار إليه ليتّجه صوب المنصة.
جلس على المنصة، وجلس ممثل الخارجية بجانبه، بينما جلس مندوبو مركز سميثونيان وميكروسوفت وهارفارد في الكراسي المخصّصة لهم في الصف الأمامي من القاعة. خاطب ممثل الخارجية الحاضرين، فقال:

- مساء الخير. أشكر لكم حضوركم، وإني أعلم أنكم جميعًا تتوقون لتسمعوا من هذا الفتى النجيب والضيف العزيز السيّد محمد علي، وتتحاوروا معه. وقبل أن أفتح المجال لأسئلتكم، أعطيه مدة عشر دقائق ليُخبرنا عن رحلته إلى بلده وما جرى له هناك، وعن قرار عودته إلى أمريكا، ثم ما جرى له هنا من أحداث، وأخيرًا ما ينوي تحقيقه في المستقبل.

أشار الممثل إلى محمد ليبدأ، فبدأ بتحية الحاضرين، وشكرهم على اهتمامهم به. بعدها، بدأ يسرد بشيءٍ من الإيجاز رحلته إلى بلده، وقد حرص

على عدم الدخول في تفاصيل ما جرى له هناك كي لا تزلّ لسانه، فيسيء إلى أحدٍ. وقد كان مما قاله:

- بعد أن وصلتُ إلى بلدي، حاولتُ البحث عن فرصة عمل مناسبة، فحصلتُ على العديد من العروض، ولكنها جميعاً لم تكن مغرية لي، ولم يكن الأمر يتعلق بالراتب، ولكن بممارسة ما تعلّمتُ في دراستي، وخاصة فيما يتعلّق بعلوم الفضاء. عندها، رأيتُ من الأفضل أن آتي إلى هنا وأكمل دراستي، وفي الوقت نفسه أبحث عن عمل مناسب.

وعندما وصل إلى الأحداث التي وقعت له في أمريكا بعد عودته، لم يشأ أن يدخل في تفاصيلها، فقال:

- وبعد عودتي إلى هنا وقعت لي بعض الأحداث، ولكن بحمد الله قام المسؤولون بمساعدتي لتجاوزها، فلهم مني جزيل الشكر.

أما عن طموحاته وخططه المستقبلية، فلم يرغب أن ييوح بما في قلبه من طموحات وأحلام، ولذا كان حديثه في هذا الجانب مقتضباً أيضاً. قال لهم:

- أما فيما يخصُّ خططي المستقبلية، فإني أشعر أنني بحاجة إلى مزيد تعمّق في دراسة علوم الفضاء، ولذا فإني أنوي مواصلة الماجستير والدكتوراة. كذلك، رأيتُ من الضروري الحصول على عمل أستطيع من خلاله ممارسة وتطبيق ما أتعلّمه. وبعد الانتهاء من الدكتوراة، سأكون حينها في وضعٍ أفضل لتحديد خطتي التالية.

لم تطل كلمته كثيراً، وإنما أوجز في إجابته على ما اقترحه المقدم، لكنه لم ينسَ في نهاية حديثه أن يشكر إدارة الأف.بي.آي في مدينة بوسطن، ومكتب

الهجرة والتجنُّس في الولاية، ومركز سميثونيان وشركة ميكروسوفت وجامعة هارفارد، وأيضًا وكالات الأنباء والصحفيين، على حفاوتهم البالغة به، واهتمامهم الذي فاق التخيل، على حدِّ تعبيره.

بعد أن أكمل كلمته، أمسك المقدّم بالميكروفون، وقال:

- نشكر السيّد محمد علي على هذه الكلمة الموجزة والمحشوّّة بالمعاني المثيرة. والآن نفتح المجال لأسئلتكم، ونأمل أن تكون مقتضبة، وتعلق بما تطرق إليه السيّد محمد في مقدمته. وأرجو كذلك أن يُعرّف الشخص بنفسه، ثم يُلقي سؤاله بصوتٍ مسموعٍ وواضح.

رفع الجميع أياديهم وهم يستأذنون في طرح أسئلتهم، فأشار المقدّم إلى امرأة تجلس في الصف الثاني في القاعة. أمسكت بالميكروفون، ثم قالت:

- تريسا وايت، مراسلة سي. أن. أن. عزيزي الشاب: قليلٌ من الناس في مثل سنّك من يحظى بمثل هذا التقدير والاهتمام من أكبر دول العالم.

عندما سمع هذا الإطراء أطرق رأسه حياءً. تابعت الصحفية سؤالها، فقالت:

- وسؤالي هو: إذا كنتَ بمثل هذه المنزلة، فلماذا فرطَ فيك مسؤولو

الحكومة وكبار الشركات والمؤسسات في بلدك؟

نزل هذا السؤال عليه كالصاعقة، فماذا عساه أن يقول؟ أيُفَرِّجَ عمّا هو مكنون في نفسه من تأوّهات، ويُفضي للحاضرين بكل ما في قلبه، حتى وإن كان فيه تصريحٌ بما جرى له مع وزير الخدمة المدنية والملك؟ فكّر قليلًا، ثم رأى أنه ليس من المناسب أن يفعل ذلك. بعد صمتٍ قليل، أجاب:

- لقد ذكرتُ في كلمتي السابقة أنني حصلتُ على العديد من العروض من

مؤسسات حكومية وخاصة، ولكنها لم تناسبني لعدم ملاءمة بيئة العمل في تلك المؤسسات لطبيعة تخصصي ورغباتي الخاصة.

عندما صممتَ عرف الصحفيون أنه قد انتهى من إجابته، فرفعوا أيديهم مرة أخرى. أشار المقدم هذه المرة إلى رجل يجلس في الصف الثاني أيضًا. أمسك الرجل بالميكروفون، ثم قال:

- ستيف بوس، إي.بي.سي. سيدي، نحن نعلم أن دُوكم تمتلك من الثروات الشيء الكثير، وسؤالي: إذا كانت الظروف ما زالت غير مهيئة في بلدك لممارسة تخصصك، والذي هو علوم الفضاء، فهل حاولت إقناع المسؤولين عندكم للاهتمام بهذا الجانب؟

لم يكن هذا السؤال بأهون من سابقه، فقال في نفسه: يبدو أن هؤلاء لن يتركونني حتى أسبّ بلدي وحكومتي. لكنه بلباقته استطاع أن يُحوّر إجابته بحيث لا يخالطها شيءٌ مما تخوّف من الإفصاح عنه، فأجاب:

- الحقيقة، أنني قصرتُ في هذا الجانب، رغم علمي بأن بلدي قد بدأت فعلاً خطوات حثيثة في الحقوق بالدول المتقدمة. وأظنُّ أنني ما زلتُ - علمياً ووظيفياً - دون المستوى الذي يُمكنني من البدء في إيجاد مشاريع تنموية تخدم هذا الجانب.

صممتَ مجددًا، فارتفعت أيادي الصحفيين من جديد، فأشار المقدم إلى شخصٍ يجلس في الصف الخلفي، وتبدو عليه ملامح عربية. أمسك الرجل بالميكروفون، ثم قال:

- محمد طلال، قناة الجزيرة. الأستاذ محمد: كم نحن العرب والمسلمون فخورون بك وبأمثالك، وسؤالي: إذا كنتَ لم تحصل على فرصة عمل مناسبة

في بلدك، فلماذا لم تذهب إلى أيِّ بلدٍ إسلاميٍّ آخر، ولماذا فضَّلتَ المجيء إلى أمريكا؟

أثار هذا السؤال في نفس محمد الكثير من التأوّهات، فإلى أيِّ بلدٍ سيذهب؟ وما هي البلدان الإسلامية التي تهتم بعلم الفضا، أو باحتضان المواهب والكوادر الناشئة ورعايتها؟ أطرق رأسه قليلاً، ثم قال بلباقته المعهودة:

– الحقيقة، أني لم أزرُ أيّاً من البلدان الإسلامية الأخرى، ولا أعرف عن الفرص المتوفرة فيها، وخاصة المتعلقة بعلم الفضا، وإني آمل أن تسنح لي الفرصة أثناء دراستي هنا في أمريكا لأن أقوم ببعض الدراسات عن وضع علوم الفضا في الدول الإسلامية.

عندما صمّتْ أمسك المقدّم الميكروفون، وقال:

– لم تبقَ عندنا إلا حوالي عشر دقائق، وسنكتفي بسؤالين فقط، وأرجو من السائلين ومن السيّد محمد أن يوجزوا في حديثهم.

ارتفعت أيادي الصحفيين من جديد، فأشار المقدّم إلى امرأة تجلس في منتصف القاعة. قامت المرأة وأمسكت بالميكروفون، ثم قالت:

– ياراصن شاين، مجلة تايم. عزيزي محمد: تسرّبت إلينا أخبار أن حكومتك قد قامت باعتقال مجموعة من ذويك بعد مفارقتك، وأنه بعد وصولك إلى هنا أرسلت لك مَنْ يُحاول إرغامك على الرجوع إلى المملكة، فهلاًّ حدّثتنا عما جرى لك؛ فإننا نريد سماعها من مصدرها الأصلي؟!!

كان يخشى من مثل هذه الأسئلة التي تطالبه بالتفاصيل، والتي من خلال الإجابة عليها قد يتفوّه عن بلده بعباراتٍ تُحتسب ضده. أجابها باقتضاب:

- ما قالته السيّدة- وأشار إلى المرأة صاحبة السؤال- صحيح، ولكن الإجابة عليه لا يتّسع لها المقام، ولذا أحيل السيّدة إلى إدارة الأف.بي.آي في مدينة بوسطن، أو السيّد ممثل الخارجية- وأشار إلى المقدم الذي يجلس بجانبه- فلديهم القصة بأكملها.

عندما صمت قال المقدم:

- السؤال الأخير، ونكتفي به.

ارتفعت أيادي الصحفيين، فأشار المقدم- بعد تردد- إلى رجل يجلس في آخر الصف، في منتصف القاعة. أمسك الرجل بالميكروفون، ثم قال:

- وليام هوفمان، الواشنطن بوست. سيّدي: أنت تعلم أن العلاقات بين أمريكا والدول الإسلامية قد ساءت أخيراً، وخاصة بعد أن تأكّد دعم الكثير منها للإرهاب. وسؤالي: ماذا يضمن لأمريكا من أنك لن تكون أحد زعماء الإرهاب هنا في أمريكا وبالمقابل ما يضمن لك من أن أمريكا لن تعاملك كإرهابي؟

أثار السؤال ضجة في القاعة، وأحسّ محمد بخبت هذا السائل، وخبث الأسئلة التي طرحها، ولكن المخرّج من مثل هذه الأسئلة لم يكن صعباً عليه. قال بابتسامة:

- أنا جئتُ لأمريكا بنفسني، وقد فوّضتُ للمسؤولين هنا أن يعاملوني بالمعاملة التي يروني أستحقها. هذه إجابتي على الشرط الثاني من سؤالك. أما بالنسبة للشرط الأول، فلا أظنُّ أن المسؤولين هنا بالسذاجة التي تجعلهم يغفلون عن متابعتي حتى أصبح من قادة الإرهاب، وأوراقها كلها مكشوفة بين أيديهم.

أثارت إجابة محمد ضجة في القاعة مرة أخرى، واتَّجَهَتْ بعض الأنظار إلى السائل، وكأنها تُعيب عليه سؤاله، وتشمت به بما تلقاه من إجابة. أمسك المقدّم الميكروفون، ثم قال وهو يحاول أن يُعيد الهدوء إلى القاعة:

- سيداتي وسادتي: نشكر لكم حضوركم ونشكر للسيد محمد علي إجابته على أسئلتكم، ونتمنى أن نلتقي بكم في مؤتمر صحفي آخر.

بعد هذا، قام العديد من الصحفيين وحاولوا أن يلتقوا بمحمد مباشرة، ويطرحوا عليه مزيداً من الأسئلة، لكن المقدّم حجزهم، وأوماً إليه بعدم الإجابة على أسئلتهم.

بعد بدء انفضاض الصحفيين من القاعة، طلب ممثل الخارجية منه أن يتوجّه معه لشرب بعض العصائر. كذلك، أشار الممثل إلى مندوبي مركز سميثونيان وميكروسوفت وهارفارد ليتبعوهم. توجّه الجميع صوب غرفة صغيرة على يسار القاعة. لما دخل الغرفة وجد مائدة مفتوحة مليئة بأنواع الفواكه والحلويات والعصائر.

شعر بشيءٍ من الفخر والاعتداد بالنفس لما حظي به من تقدير واحترام، ثم تذكّر أن كل ذلك ما كان ليكون لولا توفيق الله له. استغفر الله من هذه الهواجس، وبقي في طريق عودته إلى شقته وهو يسترجع أحداث ذلك المؤتمر الصحفي، ويُحاسب نفسه إن كانت قد زلّت لسانه بشيءٍ في حقّ الله أو حقّ الناس.

عندما وصل، توضأ ثم توجّه إلى المسجد. وجد أن أخبار ما جرى له قد انتشرت، فاستقبله العديد من أصدقائه الطلبة وبعض أصحابه من رؤود المسجد

وهم يُهنّؤوه على سلامته، ويسألوه أن يقصّ عليهم تفاصيل ما جرى. رأى أنه من الأنسب أن يُقدّم للجميع شرحًا لتفاصيل ما جرى له، فاتفق مع الإمام على عقد جلسة لهذا الغرض بعد صلاة العشاء. وفعلاً، أعلن الإمام بعد انتهاء الصلاة عن هذه الجلسة، وحضرها معظم المصلين، وقدمّ لهم شرحًا وافياً عن كل الأحداث التي مرّت به. أثارت قصته دهشة كبيرة في نفوسهم، ثم إجلالاً له وتعظيمًا لشأنه لما سمعوه من صدق حديثه، وكبر في نفوسهم كثيرًا.

الفصل الثامن والعشرون: بداية الاستقرار

اطمأنت نفسه كثيرًا، وشعر بحرية في التنقل والحديث لم يعهدها حتى أيام دراسته البكالوريوس. أمضى بقية الأسبوع في الإعداد للوظيفة الجديدة. كذلك، تردّد عدة مرات على الجامعة ليُكمل إجراءات الالتحاق ببرنامج الماجستير، وتم تعيين مرشدٍ أكاديميٍّ جديد له، وبالتنسيق معه استطاع اختيار جدولهِ الدراسي لفصل الصيف ليكون في فترة المساء.

عندما اتصلت بسمية في ذلك الأسبوع، أخبرها بالترتيبات التي قام بها للبدء في الوظيفة والدراسة، ففاجأته بقولها:

– سيكون حفل تخرّجي أنا وشيما بعد حوالي شهر ونصف من الآن، فهل يمكن أن تحضر وتشاركنا فرحتنا؟!!

كان سؤالاً عقد لسانه عن الكلام، وأثار في نفسه الشجون؛ إذ إنه يعتبر حضور هذا الحفل ذا أهمية بالغة في حياته، ولكنه – بالمقابل – يكون حينها قد بدأ حديثاً في وظيفته، وهو أيضًا ملتزمٌ بدراسته الصيفية، ولا يريد أن يُتيح لنفسه التسيّب عنهما، حتى ولو كان لحديثٍ عائلي له مثل هذه الأهمية. ردّ عليها بعد صمتٍ وبنبرة متلعثمة:

– الحقيقة إن مشاركتي لفرحتكما هذه سيكون لها أثرٌ بالغٌ في حياتي،

ولكنك تعلمين أنني ما زلتُ لا أدري عن ظروف الدراسة والعمل شيئاً، وعسى أن تنهياً لي الظروف في ذلك الوقت.

تأثرت سمية من هذه الإجابة قليلاً، ولكنها - في الوقت نفسه - تعلم صدق ما قاله أخوها، وتعلم أنه من النوع الذي يُخطط لحياته بعيداً عن العشوائية والعواطف. علّقت بنبرة متأثرة:

- عسى الله أن يهيئ لك الظروف، فنراك بيننا.

- آمين يا رب العالمين.

أما اتصاله بأمه فكان دائماً بمثابة التذكير له بموضوع الزواج. أخبرته بأن الأجواء الآن مهيأة في عائلة عمه سعيد ليُعاود خطبة شيماء. ردّ عليها بسرور وابتهاج دون أن يُعطيها وعوداً بمتى سيكون ذلك. قال لها:

- أنتِ يا أمي دوماً تبعثين في نفسي الأمل، وياذن الله ستتحقق آمالك قريباً.

- آمين يا رب العالمين.

ثم سألته:

- ألا تعزم على الرجوع إلى هنا؟!!!

لم يدر هل تقصد من سؤالها أنها فقدت الأمل في عودته إليهم، أم أنه سؤال حول توقيت الرجوع. أجابها قائلاً:

- ياذن الله بعد أن تستقرّ أموري هنا، ستجدونني بينكم.

فرحت أمه كثيراً، وجأرت إلى الله بالدعاء له، وهو يؤمّن عليه.



بداية الاستقرار

في صبيحة الأحد من الأسبوع التالي بدأ دوامه في مركز سميثونيان. التقى بالمسؤولين هناك، ورحبوا به، وهنّأوه على مواصلة العمل معهم، ثم شرحوا له طبيعة وظيفته الجديدة. كان دوامه من الثامنة صباحًا إلى الخامسة عصرًا، تتخلّلها ساعة استراحة من الثانية عشرة إلى الواحدة ظهرًا، وكان يقضيها أولاً في تناول وجبة الغداء، ثم يذهب إلى المصلى الموجود في اتحاد الطلبة المسلمين، فيؤدي صلاة الظهر، ثم يعود بسرعة لكي لا يتأخر عن عمله. ورغم أنه كان يعمل في هذا المركز سابقًا، غير أن عمله آنذاك كان جزئيًا، فلم يَحْتَجِّ لقضاء ثمان ساعاتٍ من يومه في عمله. بدأ يشعر بأن تأديته لصلاتي الظهر والعصر يكون على عجل، وخاف أن تؤثر الوظيفة على عباداته، ومن ثمّ علاقته بربه.

في هذا الأسبوع كان لا يزال يجد بعض الوقت للذهاب إلى المركز الإسلامي بعد انتهاء الدوام، والمشاركة في الفعاليات التي تُقام هناك، رغم أنه كان يصل إلى هناك منهكًا. تذكّر أنه في السابق كان - أحيانًا - يلوم بعض المسلمين على عدم مواظبتهم على أداء الصلوات في المركز، وأيضًا عدم حضورهم الفعاليات التي تقام فيه، ولكنه أدرك الآن ما قد يعاني منه هؤلاء من عناء ونصب من جراء الوظيفة، وخاصة أن بعضهم هم ممن جاوزوا الأربعينات والخمسينات، وقد يكونون يعانون من أمراضٍ يتضاعف أوارها بسبب ما يمرّون عليه طيلة يومهم من إنهاكٍ وضغوطاتٍ في العمل.

بدأ يتعلم من الوظيفة كيف يتعامل مع أنواعٍ شتى من الناس رغم تعدّد أجناسهم ومستوياتهم وطبائعهم، وكيف يُخَطِّط لإنجاز المهام الموكلة إليه، وكيف يمكنه توظيف الموارد البشرية والعلمية المتوفرة في المركز لتنمية

قدراته ومواهبه. ورغم أن هذا هو الأسبوع الأول في وظيفته، إلا أنه بدأ فعلاً يحظى باحترام وتقدير مسؤوليه وزملاء عمله.

وكان موضوع دعوة الناس - وخاصة غير المسلمين - الشيء الذي يشغل باله كثيراً، ولكنه يعلم أن ترسيخ أقدامه في الوظيفة، وبناء قاعدة صلبة من العلاقات الحميمة مع زملاء عمله هي من أساسيات الدعوة الفردية، ولذلك ما كان يتعجّل في الشروع في هذا الأمر، رغم أنه كان - أحياناً - ينتقي ألفاظاً وعبارات لها من المغزى والمعنى ما تخدم توجّهه هذا.

* * * * *

مرّ الأسبوع الأول عليه بسلام رغم أنه احتاج إلى جهد كبير لبدأ في التأقلم مع توقيت الوظيفة وفترات الراحة وأوقات الصلوات. شعر براحة نفسية كبيرة لأنه حقّق إنجازاً عظيماً في التحاقه بمركز سميثونيان الذي استشرّف مستقبله من خلاله أن يكون - بإذن الله - مشرقاً ويخدم أهدافه الكبرى التي عاش من أجلها.

لكن تأقلمه الجزئي مع الوظيفة في الأسبوع الأول ما كان ليستمر في الأسبوع التالي الذي بدأ فيه دراسة الماجستير. بعد قضاء تسع ساعات شبه متواصلة في الوظيفة، كان يشعر في آخر اليوم بأن جسمه يحتاج إلى راحة لتحمله، وصار ذهنه مثقلاً بالأعمال التي يجتهد في أدائها على أكمل وجه خلال تلك الساعات. ورغم كل ذلك، كان يُحفّز نفسه للذهاب إلى المحاضرات، ويُجهد ذهنه في التركيز لما يقوله المحاضرون.

تضاعف جهده البدني والذهني، وكانت بعض محاضراته تنتهي عند العاشرة ليلاً، فيعود إلى شقته جثة هامدة، ومع ذلك يتحامل فيتوضأ ويقرأ وردّه

بداية الاستقرار

من القرآن، ثم يجلس لفترة للدعاء والذكر، ثم يُلقي بجسده على السرير، وكأنه قطعة صخر. لكن تعودته على قيام الليل منذ صباه صار مبرمجاً في ذهنه، وما إن يحين وقت استيقاظه حتى يصحو نسيطاً طيباً النفس.

وجد أن حصوله على جرات من العلم النظري من خلال المحاضرات، ثم توفر البيئة المناسبة والموارد الكثيرة التي تساعده على تطبيق ما يتعلم كانا مزيجاً رائعاً للترقي في سُلّم الفهم النظري والعملي لتخصّصه، وبدأت تتفتح أمامه فرصٌ عظيمة ما كان يوماً ليحلم أنه سيحصل عليها.

ومنذ البداية، قام مسؤولو المركز بإلحاقه بمشاريع كبرى ومتقدمة في علم الفضاء والفيزياء الفلكية، وحصل من خلال الحوارات والاجتماعات وورش العمل التي تقام بين فترة وأخرى على كمٍّ هائلٍ من المعرفة والخبرات التي يُقدّمها علماء ومتخصّصون في هذا المجال.

لقد أهله هذا التزاوج بين الدراسة والوظيفة - رغم قساوته عليه بدنياً وذهنياً - إلى العيش في عالمٍ من الواقع، وليس خيالات وأحلام كما كان حاله في الماضي، واستطاع في فترة وجيزة أن يحظى باهتمام واحترام مسؤوليه وزملائه على السواء، وكذلك في إعجابٍ كبيرٍ بقدراته وذكائه بين أساتذته وزملائه في الدراسة.

كان التحديّ الكبير الذي واجهه هو التوفيق بين الوظيفة والدراسة من جهة، وبين الالتزام بأداء ما افترضه الله عليه من فرائض ونوافل والمشاركة الفعلية والجدادة في الأنشطة الدعوية من جهة أخرى. وجد أنه يكاد من المستحيل عليه خلال أيام الأسبوع المشاركة في هذه الأنشطة، فضلاً أن يكون المحرّك لها، ولكنه ربّب جدوله ليُرَكِّز على هذه الأنشطة خلال عطلة نهاية

الأسبوع، رغم أنه كان لزامًا عليه - أحيانًا - أن يستقطع جزءًا منها للمذاكرة وإعداد البحوث الدراسية.

كان برنامج مشاركته في الأنشطة الدعوية يبدأ بعد خروجه من العمل يوم الجمعة، إذ إنه من توفيق الله له أنه لم تكن عنده محاضرات في الجامعة مساء هذا اليوم. أحسَّ إخوانه في المركز الإسلامي واتحاد الطلبة المسلمين بتقلُّص مشاركاته وأنشطته الدعوية، ولكنهم كانوا يُقدِّرون الظروف الحرجة التي يمرُّ بها، والتي - غالبًا - ما تُقعد الناس عن أيِّ ظهورٍ لهم في الساحة الدعوية.

الفصل التاسع والعشرون: مفاجآت سارة

بعد انتهاء الفصل الدراسي في جامعة البيان، وتخرُّج سمية وشيماء، اتصل بأخته، وهنأها على تخرُّجها هي وشيماء، فسألته مباشرة عما وعدّها به من قبل من أن يُخبرها بقراره بخصوص العودة إلى المملكة للمشاركة في حفل تخرُّجها. قالت له:

- سيكون حفل التخرُّج بعد حوالي شهر من الآن، فماذا قررت بشأن مشاركتنا فرحتنا؟!!

- لقد وعدتكَ من قبل أنني سأنظر إن كانت ظروفني تساعدني على ذلك، وما زلتُ أقول الشيء نفسه، ولكنه - فيما يبدو - أن ضغط العمل والدراسة عليّ لن يُتيح لي حضور الحفل.

أحسّت بخيبة أمل، فردّدت عليه:

- لا بأس. أسأل الله أن يوفقك في دراستك وعملك.

أراد أن يدخل عليها بعض السرور، فقال لها مداعبًا:

- ولكنني أفكر في زيارتك حال انتهاء الفصل الصيفي في بداية أغسطس.

سُرّت بذلك قليلًا، فسألته:

- وهل ستبقى هنا طويلًا؟

- لا أظن ذلك؛ فالدراسة ستبدأ بعد أسبوعين من انقضاء الفصل الصيفي، وأيضاً فأنا لا أريد أن أعطي المسؤولين في العمل انطباعاً عني بأنني أتملّص من العمل، وخاصة أنني لا زلتُ حديث عهد بالوظيفة.

فاجأته سمية بسؤال أثار في عواطفه كثيراً، حيث قالت له:

- لماذا لا تجعلها رحلة زواج أيضاً؟!!

الزواج؟! نعم، لقد حان أوانه، بل إنه - حسب الأعراف التقليدية في القرية - قد جاوز أوانه. إن كل العوائق التي كانت تتذرع بها عفراء في السابق قد زالت؛ فشيماء قد تخرجت، وهو لديه وظيفة مرموقة، ويحصل على راتبٍ يفوق أضعاف ما يحصل عليه أبناء بلده. لكن، هل ستتفهّم عفراء وعمه سعيد ظروفه، أم إنهما سيُعارضان بحجة هجرته لأمريكا؟! وإن وافقا على الزواج، فهل سيوافقان على أخذ ابنتهما معه إلى أمريكا؟! بقي في صمتٍ وهو يُحلّل هذا الموضوع في ذهنه، حتى إن سمية علّقت:

- يبدو أنك بدأتَ تصرف النظر عن موضوع الزواج!!

ردّ عليها بتأوّه قائلاً:

- لا، ليس الأمر كذلك، ولكنني كنتُ أحلّل في ذهني إمكانية موافقة عمي سعيد وخالتي عفراء.

أجابته بأسلوبٍ فيه دعابة، فقالت:

- وما لهما لا يوافقان، وقد صرتَ الآن شخصاً ذا مكانة وأهمية كبيرة في المملكة وفي أمريكا؟!!

- لا أظن أنهما سينظران إلى هذا الموضوع بهذا المنظار، ولكنهما قد يتحجّجان بكوني مستقراً في أمريكا.

- أنا لا أعتقد ذلك؛ لأنهما الآن يُعزّانك كثيرًا.

- إذن، سأرتب- بإذن الله- هذا الأمر معك ومع سالم قبيل رجوعي بفترة.

* * * * *

حضر حفل تخرُّج سمية والداها وزوجها وإخوتها. أما شيماء، فحضر الحفل والداها وأختها هدى وسارة. اتصل محمد في مساء ذلك اليوم بأخته، وهنأها على التخرُّج، فعادت سؤاله عن موضوع عودته إلى المملكة، وأيضًا موضوع الزواج. أخبرته بأن شيماء تنتظر رجوعه بفارغ الصبر لكي تكتمل فرحتها بالزواج. أخبرها بأنه سيتصل بها على نهاية الشهر ليُخبرها بقراره، ويتفقا على التفاصيل.

في نهاية شهر يوليو اتصل بسمية، وأخبرها بأن الامتحانات ستبدأ في بداية الأسبوع المقبل، وأن الإجازة بين الفصلين ستكون في حدود عشرة أيام فقط، وأنه قدّم لإجازة قصيرة من العمل، فوافق مسؤولوه فورًا عندما أخبرهم بأنه ينوي الرجوع إلى المملكة والزواج. قالت له سمية:

- لقد ناقشتُ مع سالم وشيماء هذا الأمر، واقترح سالم أن يكون عقد القران والزفاف في نفس اليوم، وذلك لتخفيف المصاريف عليك، وأيضًا لاستغلال فترة الإجازة القصيرة، وأخبرتُ شيماء بهذا المقترح فوافقت عليه.

- وهل تناقشتِ معها عن رأيها في الإتيان معي إلى أمريكا؟! -

- قد سبق أن تناقشتُ معها هذا الأمر بعد رحيلك إلى أمريكا، وكان رأيها آنذاك هو أنها ستذهب معك أينما تكون.

- وماذا عن سالم؟

– ناقشتُ هذا الأمر معه، ولم يُعارض، ولكنه أبدى تخوُّفه من معارضة والديه.

– وهذا ما يجعلني أيضًا في قلق.

– بإذن الله ستسهِّل لك الأمور، ويشرح الله قلبي عمي سعيد وخالتي عفراء.

– أسأل الله ذلك.

ثم استدرك قائلاً:

– وهل يعلم أبي وأمي عن هذا الموضوع شيئاً؟!!

– عندما كنتُ أجلس مع أمي ونأتي بسيرتك، كانت تأتي بموضوع زواجك. وفي الفترة الأخيرة كنتُ ألمِّح لها بمجيئك وربما محاولة الزواج من شيماء، فكانت تُسرُّ بذلك كثيرًا.

قاطعها قائلاً:

– وماذا عن أبي؟!!

– بصراحة أنا لم أفتح الموضوع معه، ولا أدري إن كانت أمي قد ناقشت هذا الأمر معه، ولكني لا أظنه سيعارض، ويمكنك أن تفتح الموضوع معه بنفسك.

– بإذن الله سأتصل بهما غدًا، وأخبرهما بقرار رجوعي.

– لا شك أنهما سيفرحان بذلك كثيرًا.

في اليوم التالي، اتصل بهاتف والده، وكان حينها قد عاد من صلاة العشاء.

سأله عن أحواله، فطمأنه عليها، ثم قال:

- بقي على انتهاء الفصل الصيفي حوالي أسبوع، وأفكر أن آتي لزيارتكم عدة أيام.

- ما شاء الله، هذه أخبار سارة، ولكن لماذا فقط عدة أيام؟ لماذا لا تبقى هنا ولو شهرًا واحدًا؟!!

- فصل الخريف سيبدأ بعد أسبوعين فقط من انتهاء فصل الصيف، ولذلك رأيتُ أن أفضي تلك الفترة عندكم.

ردَّ عليه ممازحًا:

- يا أهلاً وسهلاً بك، وها هي أمك تتصنَّت على كلامك، فهياً كلمها قبل أن تهجم عليّ.

ما إن أمسكت خديجة بالهاتف حتى بدأت في البكاء، ثم قالت له:

- كأني أشمُّ أخبارًا تُفرحني!!

- نعم يا أمي، كنتُ أخبر أبي بأني - بإذن الله - سأزورك في نهاية الأسبوع القادم.

ردَّت بفرحة يخالطها البكاء:

- الحمد لله. وكم ستبقى؟

- عدة أيام.

ما إن سمعت ذلك حتى تأثرت كثيراً، ولزمت الصمت وهي تبكي، فلما

طال سكوتها، خاطبها:

- ما لك يا أمي؟! لو كان الأمر بيدي لبقيتُ معكم أكثر من ذلك، ولكن الدراسة ستبدأ بعد أسبوعين فقط من انتهاء الدراسة في هذا الفصل.

بقيت على صمتها لفترة، ثم تكلمت بحسرة شديدة:

- كنتُ أعدُّ الأيام عدداً لرجوعك إلينا، وما إن بشرتني بذلك حتى كدَّرت عليّ فرحتي.

ردَّ بنبرة حزينة:

- وماذا أفعل يا أمي، وأنا أتصارع هنا بين الدراسة والعمل؟!!

- كنتُ أمني نفسي أن تعود إلينا وتزوِّج، وتستقرَّ بيننا، ولكن - فيما يبدو - أنني صرْتُ أحرِّف حتى في آمالي!!

- حاشاك يا أمي!! لا تقولي ذلك.

رأى أنه من المناسب أن يُدخل عليها بعض السرور بعد تكدر خاطرها، فقال لها مداعباً:

- أظنُّ أن فترة زيارتي القصيرة ستكون كافية للزواج، أليس كذلك يا أمي؟! ما إن سمعت تلك الكلمات حتى كاد أن يُغشى عليها من الفرحه، ثم ردَّت عليه بصوتٍ يختلط فيه الضحك والبكاء:

- الحمد لله رب العالمين. يا حبيبي توكل على الله، وسيتمَّ الله أمرك.

ثم تابعت بفرحة عارمة:

- ياذن الله سأبدأ من الغد في ترتيب البيت وتزيين غرفتك.

- بذلك ستتعبين كثيراً، ولكن اتركي الأمر لسمية.

قاطعته بنبرة سرور:

- لن أسمح لأحدٍ أن يتدخل في هذه الترتيبات؛ فأنا قد خطّطتُ هذا الأمر في ذهني منذ سنوات.

- بارك الله فيك يا أمي، وزادك قوة ونشاطاً.

أراد أن يستأذنها في إنهاء المكالمة، فقاطعته:

- إياك أن تعيّر رأيك، وإلا فسأزعل عليك كثيراً.

ابتسم، ثم قال:

- ياذن الله يا أمي، ولكن ادع الله لي بالتيسير.

* * * * *

في الأسبوع التالي بدأت امتحانات الفصل الصيفي، وساعده مدير مركز سميثونيان فجعل دوامه خلال هذا الأسبوع فقط إلى الثانية عشر ظهراً، مما أتاح له فرصة كبيرة لمذاكرة دروسه. كان آخر امتحان لديه ينتهي يوم الأربعاء في السادسة مساءً، وبتوفيق الله له وجد رحلة تُقلع من بوسطن إلى واشنطن في الثامنة، فجاء إلى الامتحان بحقائب سفره، وما إن انتهى منه حتى اتجه مباشرة إلى المطار، وأوقف سيارته في المواقف طويلة الأجل. وصل إلى مطار رونالد ريجان الداخلي في واشنطن في التاسعة، فأسرع مباشرة إلى بوابة الطائرة التي ستُقلُّه في رحلة مباشرة إلى المملكة والتي ستُقلع في العاشرة مساءً.

وصلت رحلته إلى مطار المملكة في الحادية عشرة مساءً من يوم الخميس، وكان قد أخبر سالمًا أن ينتظره ذلك اليوم في العاصمة، ثم يعودان إلى القرية معاً، وذلك كي لا يشقُّ على والديه بالحضور إلى المطار والانتظار إلى ذلك الوقت.

عندما وصلت الطائرة إلى المطار ساوره قلق من أن المسؤولين في المملكة قد لا يوفون بالوعد التي وقَّعوا عليها من تسهيل إجراءات دخوله إلى المملكة، وعدم مضايقته بأي شكلٍ من الأشكال. بقي في قلقٍ شديد، وخاصة عندما اقترب من مكتب تخليص إجراءات الدخول.

ناول جوازه لموظف الجوازات، وقلقه واضطرابه باديان على وجهه. أدخل الموظف رقم جوازه في الجهاز، ثم بدأ ينظر إلى الشاشة، وأحياناً ينظر إليه. ارتاب من الأمر كثيراً، وترقَّب اعتقاله في أيِّ لحظة. شاهد الموظف يرفع السماعه ويكلِّم شخصاً بصوتٍ خافت، وأحياناً يُقَلِّب صفحات الجواز، وأحياناً أخرى يطالع في وجه محمد.

صار شبه متأكد من أنهم سيعتقلونه لا محالة، وبدأ يتلو آيات التثبيت، ويدعو الله أن يطمس على أعينهم. وفجأة، لاحظ الموظف يضع السماعه، ويختم جوازه، ثم يسلمه له، ويقول له بابتسامة:

– مرحباً بك في المملكة.

ابتسم وشكر الموظف، وبدأ قلقه يهدأ قليلاً، ولكنه خاف أن تكون تلك مجرد حيلة لاعتقاله في مكان آخر. اتجه صوب مكان الحقائب، وأخذ حقائبه، ثم خرج من بوابة المطار، ولم يتعرَّض له أحدٌ بشيء. سكن قلبه، وهدأت نفسه، ولكن القلق لا يزال يساوره. وجد سالمًا ينتظره، فتعانقا لفترة، ثم أخذ سالم يعرِّب عربة حقائبه حتى وصلوا إلى مواقف السيارات.

كان سالم قد لاحظ تمعُّر وجه محمد عند خروجه من المطار، فسأله:

– رأيتُ في وجهك القلق والاضطراب عندما خرجت من المطار، فهل

حدث لك شيء في رحلتك؟!!!

- لا، بحمد الله لم يحدث شيء، ولكني كنت قلقاً من ذلك، ولا زلت!!
- لا زلت تتوقع أن يعتقلوك!!؟
- نعم، لم يطمئن قلبي من أن يغدروا بي في أي لحظة، حتى وإن وقّعوا تعهدات لأمريكا بعدم الإساءة إليّ.
- ابتسم سالم، ثم قال مداعباً له:
- لا أظنهم يفعلون ذلك، وقد صرت من أسيادهم!!
- أسأل الله ذلك.

قضايا جزءاً كبيراً من الطريق وهما يتذاكران ما جرى لسالم والباقيين من اعتقال، وما جرى لمحمد من أحداث. وعندما بقي على وصولهم حوالي نصف ساعة، فتح محمد موضوع الزواج، فقال:

- كما أخبرتك فإن بقائي هنا لن يزيد على أسبوع، وقد خطّطت لأمر الزواج، وأظن أن سمية قد ناقشت هذا الأمر معك.

- نعم، وأخبرتها بأني سعيد جداً في أن الله قد هيا تلك الأحداث لتتصافي النفوس.

قاطعته محمد، فقال:

- وهل تظن والديك سيعارضان!!؟
 - لا أظن ذلك؛ فهما الآن يُثنيان عليك كثيراً، وخاصة أُمي.
 - الحمد لله، أسأل الله أن يُتمم الأمور بخير.
- تناقشا ترتيبات الزواج، فرأيا أن يتم عقد القران في بيت محمد في صباح الاثنين، ثم بعد صلاة العشاء يتم زفاف شيماء. كان همُّ محمد ليس مجرد

تحقيق الزواج، وإنما أن يكون أنموذجًا للزواج الشرعي الذي تُتجنب فيه المخالفات الشرعية الكثيرة التي صارت منتشرة بين أبناء المملكة. دخل مع سالم في نقاشات كثيرة حول هذه القضايا، وفي النهاية استطاع أن يُقنعه بأنه يعيش من أجل مرضاة ربه، ولا يُريد في غمرة هذه الفرحة أن يعصيه.

عندما وصلا إلى البيت في حوالي الواحدة والنصف بعد منتصف الليل، وجد محمد والديه وإخوته ومعهم سمية ينتظرونه. عانق والديه وإخوته، وصافح سمية، ثم احتضن أروى إلى صدره. بقي سالم معهم لحوالي ربع ساعة، ثم استأذن هو وسمية للذهاب إلى بيت والده. بقي محمد يتحدث مع أهله لحوالي ربع ساعة أخرى، ثم دخلوا إلى غرفهم.

* * * * *

استيقظ لصلاة الفجر، وأيقظ أخويه، ووجد أن والده قد سبقه إلى المسجد. استقبله جماعة المسجد بترحيب كبير، وهنّأوه على سلامته ونجاته مما كاد أن يصيبه، فعرف أن أخبار ما جرى له ولأهله قد انتشرت في القرية، وربما في سائر المدينة أيضًا.

كان من أكثر الناس استبشارًا به عمه سعيد، فقد احتظنه وهنّأه على سلامته، وبقي يتحدثان لفترة. لم يشعر محمد بأي إحراج عندما كان الناس يطرحون عليه الأسئلة، وهم يبحثون منه عن تفاصيل ما جرى له، وكانت نفسه قد اطمأنت إلى أن الله سيحفظه من شرور استخبارات المملكة ومن يُريد به سوءًا.

في حوالي التاسعة فوجئ بقدوم عمه سعيد وخالته عفراء ليُسلموا عليه. رأى البشر في وجه عفراء، وهي تقول له:

- الحمد لله على سلامتكم يا ولدي. لقد قلقتنا عليك كثيرًا مما حدث لك.

نكس رأسه وهو يقول:

- أشكر لكم يا خالة وقوفكم معي أنت وعمي سعيد، وإني أعتذر لكم عما

أوقعتم فيه من مشاكل أنتم في غنى عنها.

رد سعيدًا بابتسامة:

- لا تقل هذا يا ولدي، فنحن أسرة واحدة، وما يؤذيكم يؤذينا.

رد بتواضع:

جزاكم الله خيرًا، فهذا من طيب نفوسكم.

استبشر خيرًا بهذا اللقاء، وتمنى لو يملك الجرأة فيفاتحهما بموضوع

الزواج، ولكنه رأى أن تسير الأمور وفق العادات والتقاليد.

جاء أهله وجيرانه للتسليم عليه، وتهنئته على خروج والده ونجاته هو مما

وقع له. كان من أهم من جاء للسلام عليه أساتذته والشيخ مصطفى نادر،

وكلهم عانقوه بحرارة، وهنؤوه وباركوا له على ما حصل عليه من وظيفة

ودراسة. مازحه الأستاذ أسامة، فقال:

- يا ابني، قد جعل الله زيارتك لنا رسولاً يبعث في نفوسنا البهجة والتفاؤل،

ويجدد في حياتنا الهمة والنشاط.

نكس رأسه تواضعًا، وهو يقول:

- أستغفر الله يا أستاذي، فلا زلتُ بينكم طفلًا صغيرًا متعطفًا إلى علمكم

ونبل أخلاقكم وهمتكم العالية.

علق الأستاذ عارف قائلاً:

– خير الناس من ذكرك بالله، ومحمد– بارك الله فيه– عندما نلقاه يُذكرنا
بالدنيا والآخرة.

ردّ عليهم بتواضع:

– جزاكم الله خيرًا، فهذا إطراءٌ لا أستحقه، ولكنكم أنتم أصحاب النفوس
العظيمة.

دار الحديث حول الأيام التي سيقضيها بينهم، وما ينوي إنجازها في هذه
الفترة القصيرة. أخبرهم بأنه ينوي– بإذن الله– الزواج. استبشروا بذلك كثيرًا،
ودعوا الله أن يُتمّ أموره بالخير. سأله الأستاذ أسامة إن كان سيتمكن من
حضور بعض اجتماعاتهم وأنشطتهم، فردّ عليه:

– كما تعلم فإنني سأكون مشغول البال طيلة هذه الفترة، وإن رأيتُ فرصة
لمشارككم فسأتواصل معك بإذن الله.

الفصل الثالثون:

زواج ميمون

عندما اجتمعت الأسرة للغداء بعد صلاة الجمعة، طرح محمد عليهم موضوع الزواج، وأخبرهم بما اتفق عليه مع سالم من جعل عقد القران والزفاف في يوم الاثنين، ثم قال:

- وعلى هذا، فينبغي أن نَعْجَل بالخطبة لیتسنى لنا ترتيب الأمور.

كادت خديجة أن تطير من الفرحة، فقالت بابتسامة عريضة:

- أنا مستعدة حتى من الآن!!

علّق خالد، وهو يمازح أمه:

- نعم، أنتِ مستعدة لتخطبي لمحمد من هذه اللحظة، وأنا المسكين أهيم

كالمجنون، ولم تبادري بخطبة بنت الحلال لي، ليعود إليّ عقلي.

ردّت عليه مداعبة له:

- أنت لو تزوجت عشر بنات فلن يعود إليك عقلك.

ضحك الجميع، ثم واصل محمد حديثه، فقال:

- على كل حال، كما ذكرتُ فعلينا أن نَعْجَل بالخطبة، وأقترح أن نذهب

إليهم الليلة بعد صلاة العشاء.

ردَّ أبوه، فقال:

- اقترح طيب، وأنا جاهز.

علَّقت خديجة:

- هذه المرة سأتي معكم!!

فرح محمد كثيرًا، فقال:

- إذن، يبارك الله لنا بسبب مجيئك معنا.

قاطعته خالد، فقال مماًزحًا:

- وأنا سأتي أيضًا معكم، لتحلَّ عليكم البركة.

وهنا، قال يوسف وأروى بصوتٍ واحد:

- وأنا أيضًا.

سُرَّ كثيرًا بفرحة أسرته وتضامنها معه، فقال:

- بإذن الله، سنذهب جميعًا.

اتصل بأخته وسالم فأخبرهما بما اقترحه على أسرته، فرحباً بذلك، ورأى

سالم أنه من الأفضل إخبار والديه. دخل عليهما في غرفتهما، وكان قلقًا من أن

يعارضا، فسلم عليهما، ثم قال:

- اتصل بي محمد قبل قليل، وأخبرني بأنه ينوي المعجى مع والده الليلة بعد

صلاة العشاء لخطبة شيماء، فما رأيكما!!؟

استبشرت عفراء بهذا الخبر، فنظرت إلى زوجها وكأنها تستحثُّه على

الإجابة، فنكس رأسه قليلاً، ثم قال:

- أليس من الأفضل أن يُؤخَّرَ الزيارة إلى وقتٍ آخر ليتسنى لنا مناقشة هذا الأمر؟!!!

ردَّت عفراء بنبرة توحى بالفرحة والرغبة في إتمام هذا الأمر في أسرع وقت، فقالت:

- مع مَنْ تريد أن تناقش هذا الأمر؟!!! سالم أمامك ولا أظنه يمانع، وأنا موافقة.

فرح سالم كثيرًا بما قالته أمه، فنظر إلى أبيه وهو ينتظر ردّه. قال سعيد بعد صمتٍ قليل:

- وشيماء؟!!!

ضحكت عفراء، ثم علّقت وهي تضحك:

- وهل تُراها سترفض؟!!! وعلى كل حال، سأذهب إليها الآن وأكلمها.

ردَّ سعيد بعد صمتٍ:

- إذن، على بركة الله.

شكر سالم والديه، ثم عاد إلى غرفته، واتصل بمحمد، وأخبره بموافقة والديه مبدئيًّا. أما عفراء فإنها توجَّهت مباشرة إلى غرفة شيماء، ووجدتها مستلقية على فراشها، وكانت سمية قد سبقتها إليها وأخبرتها بالأمر. عندما شاهدت أمها قادمة، بدأ القلق يُساورها من أنها غير راضية، وقد جاءت لتُقنعها بعدم الموافقة على الزواج منه. جلست شيماء على السرير، وجلست عفراء أمامها، فقالت بنبرة توحى بالسرور:

- أخبرنا أخوكِ قبل قليل بأنهم سيأتون بعد صلاة العشاء لخطبتك.

نكّست رأسها حياءً من أمها، ثم قالت بصوتٍ خافتٍ وكأنها لم تفهم قصد أمها:

- ومن هم؟!؟

علّقت أمها بنبرة فيها مزاح، فقالت:

- يا خبيثة!! تتصنّعين أنك لم تفهمي قصدي؟!؟ من غيرهم؟ إنه محمد وأبوه.

كادت شيماء أن تطير من الفرح وهي ترى استبشار أمها، فردّت بابتسامة ورأسها لا يزال منكّساً:

- ولماذا تخبريني أنا؟!؟

مازحتها أمها قائلة:

- وهل جاؤوا لخطبتي أنا أم لخطبتك أنت؟!؟

ثم تابعت:

- وعل كل حال، نامي الآن، وبعد صلاة العصر ستعاون لترتيب المجلس، وتجهيز الفواكه والعصائر.

صمتت عفراء قليلاً، ثم استدركت قائلة:

- ولماذا لا نجعله عشاءً، فلا بُدَّ أن نُضيّفهم؟!؟

كانت شيماء لا تُصدّق ما تسمعه من أمها، فحمدت الله أن غير قلبها.

* * * * *

بقيت شيماء تتقلب في فراشها من شدة الفرح، ولم تستطع النوم إلا قبيل أذان العصر بحوالي ربع ساعة. وأما عفراء، فعادت هي الأخرى إلى فراشها،

وبدأت تفكر في هذه المناسبة السعيدة، وكيف يمكنها أن تُحدث انطباعاً في نفس محمد وأبيه يرضيان عنها. نامت قليلاً، ثم صلت العصر ودخلت المطبخ وبدأت تُجهِّز العشاء. وما إن جاءت سمية، ورأت خالتها تُجهِّز العشاء حتى سألتها:

- خيرًا يا خالة، أراك تُجهِّزين العشاء من الآن!!

ردَّت عليها بفرحة وابتهاج:

- ألم يُخبرك سالم بأن أباك وأحاك محمدًا سيأتيان الليلة لخطبة شيماء!!؟

تعجَّبت سمية من تصرُّف عفراء، فقالت لنفسها: يا سبحان مقلِّب القلوب.

لورضيت بهذا الأمر من قبل لكانا قد رزقا الآن بمولود. ردَّت على خالتها:

- نعم أخبرني، ولكنني لم أفكر في تجهيز عشاء لهم.

خرجت شيماء من غرفتها، وتعاونت الثلاث على تجهيز العشاء والفواكه،

وترتيب المجلس.

* * * * *

بعد صلاة العشاء مرَّ عليٌّ وأولاده على خديجة وأروى، ثم ذهبوا جميعاً

إلى بيت سعيد. استقبلهم سعيد وسالم بالبشر، ودخلوا المجلس، بينما دخلت

خديجة وأروى إلى صالة البيت. بعد أن أخذوا أماكنهم، وشكرهم سعيد على

زيارتهم، فتح عليٌّ موضوع الخطبة مباشرة، فقال:

- كما تعلم، فإن محمدًا قد جاء هنا لعدة أيام، وأراد أن يتزوج خلالها، فقلنا

نُعجِّل بالخطبة ليتسنى لهم ترتيب الأمور، فما رأيك يا أبا سالم؟

ابتسم سعيد، ثم قال:

– لنا الشرف في مصاهرتمكم يا أبا محمد، وأنا وسالم وأمه موافقون، ولكن يبقى أن نأخذ رأي البنت.

كان محمد في غاية الابتهاج والسرور، ورأى أن سالمًا وأخاه خالدًا ينظران إليه وهما يبتسمان، وكأنهما يُهنئانه على ما قاله سعيد. ردَّ عليٌّ:

– بارك الله فيكم، ونحن أيضًا سعداء بالقرب منكم.

نهض سعيد وهو يقول:

– سأدخل لأسأل البنت.

تمنى محمد لو يصاحب عمه سعيد وهو يدخل على شيماء، ليرى كيف تتصرّف أمام أبيها. أثناء تلك الفترة القصيرة، انشغل عليٌّ في سؤال سالم عن أحواله، وما هي إلا لحظات حتى أطلَّ سعيد من الباب، وهو ينادي على محمد:

– تعال يا محمد لتنظر إليها؛ فهذا حقُّك الشرعي.

ارتجف محمد فرحًا، وكاد أن يُغشى عليه؛ فهو رغم أنه عاش معها في صباه، ورغم أنه يعرف كل أخبارها، غير أن رؤية وجهها أمرٌ يفوق الوصف. قام بنشاطٍ، وتوجّه صوب الباب، وسالم وخالد يرمقانه ويبتسمان. وجدها تنتظر، وهي حاسرة الخمار عن وجهها، غير أن وجهها كان منكسًا.

خفق قلبه عندما رأى وجهها يتلألأ كالبدر. خاطبها أبوها قائلاً:

– هذا محمد قد جاء لخطبتك، فماذا تقولين؟

ازداد تنكيس رأسها، ولم تستطع النطق بكلمة، وكان محمد ينظر إليها وابتسم. بعد صمتٍ قليل، قال سعيد:

– السكوت علامة الرضى. بارك الله لكما، وبارك عليكما، وجمع بينكما

في خير.

ما إن عادا إلى المجلس، حتى نهض سالم وخالد فاعتنقه وهنأه، ثم التفت إلى والده، فقام والده وعانقه وهنأه. أما في داخل البيت، فما إن عادت شيماء وهي منكسة رأسها، حتى قامت سمية واحتظنتها وقبلتها وهي تهنئها وتبارك لها، ثم قامت عفراء وخديجة وعانقتاها، وهنأتاها. كانت شيماء لا تستطيع الوقوف من شدة ما أصابها من ذلك الموقف الذي أوقعها أبوها فيه، وكانت تخالطه فرحة عارمة تغمر حناياها. انتهت عفراء، فقالت لسمية بصوتٍ خافتٍ:
- العشاء.

توجّهتا إلى المطبخ، فتبعتهما شيماء، فقالت لها سمية بابتسامة:

- استريحي أنتِ ونحن نكفيك تجهيز وإحضار العشاء.

بقيت تعينهما، ولكنها لا تكاد تستطيع حمل شيء؛ فذهنها يُفكر في محمد، وقبلها يرجف من شدة الفرح. أُحضِر العشاء، ثم الفواكه والعصائر، وكانت ليلة سعيدة ليست لمحمد وشيماء فقط، وإنما للأسرتين معًا.

كان سالم قد أخبر والده وعمه عليٌّ بأنه اتفق مع محمد على أن يكون عقد القران والزفاف يوم الاثنين؛ بحيث يكون عقد القران في بيت محمد في الصباح، ثم الزفاف بعد صلاة العشاء. لم يعترض سعيد على ذلك، فطرح عليٌّ موضوع المهر والاشترطات الأخرى. عندما سمع محمد هذا بدأه القلق والاضطراب خشية أن يطلب عمه سعيد مهرًا فوق طاقته، كما يفعل كثيرٌ من الآباء في المملكة، وكذلك من أن يشترط عليه عدم أخذ شيماء معه إلى أمريكا. لكن سعيدًا كان متجاوبًا كثيرًا؛ حيث طلب مهرًا رمزيًا فقط، ثم قال:

- وأما بخصوص الحلي والتجهيزات الأخرى، فأترك الأمر لمحمد

وشيماء ليتفقا عليها.

عندما عاد إلى بيته، اتصل بأخته، وشكرها على حفاوة التكريم، ثم سألها عن مشاعر شيماء، فعلقت بمزاح:

- المسكينة، ماذا ستكون مشاعرها، وقد صار قلبها أسيّرًا للشخصِ آخر؟!!

- وماذا عن خالتي عفراء؟!!

- إنها أكثر سعادة مني بهذا الزواج!!

مازحها قائلاً:

- هل يعني هذا أنك غير سعيدة؟!!

- صدّقني، تمنيتُ لو عقدتَ القران عليها في تلك اللحظة، ليتسنى لك ولها الاجتماع والحديث.

- والله، إنها فكرة جميلة.

ثم استدرك قائلاً:

- ولكن تعلمين أن عقد القران سيحتاج إلى بعض التجهيزات، ولن يكون هناك متسعٌ لذلك لو أردناه في هذه الليلة.

- على كل حال، بقي عندكما يومان لتستمتعا بحياة العزوبية.

- نستمتع بحياة العزوبية؟! كفانا منها، وأن لنا الولوج إلى حياة الاطمئنان

وراحة البال.

- أسأل الله لكما التوفيق.

قضى محمد وشيماء ليلتهما تلك وهما في غمرة من البهجة والخيالات الحالمة التي يرسمان من خلالها ما يتصوران من حياةٍ ملؤها المحبة والألفة

زواج ميمون

والأبناء الصالحون، والعمل سويًا لمرضاة الله وخدمة دينه. حان وقت استيقاظهما لقيام الليل وهما لا يزالان مستيقظان، فتوضأ وصليًا إلى أن أذن لصلاة الفجر، ثم صليًا الفجر وناما.

* * * * *

في صباح السبت، لم يذهب سالم إلى عمله، وإنما اتصل بمسؤوله وأخبره بزواج أخته، وأنه سيأخذ الأسبوع إجازة لتجهيز الأمور. في التاسعة اتصل بمحمد، وكان لا يزال نائمًا، فأخبره بأنه أخذ الأسبوع إجازة، وبأنه سيمر عليه ليناقشا تجهيز الأمور.

بعد قليل وصل سالم، وبقيا يتناقشان حول شراء مستلزمات العرس، والتجهيز لحفلة عقد القران. كان سالم يرغب - أحيانًا - في شراء أغراض ذات جودة وكلفة عالية، فيرفض محمد ذلك؛ فهو يريد عرسًا متواضعًا. أراد علي أن يعين ولده بشيء من المال لتغطية المهر والمصاريف الأخرى، فرفض محمد ذلك، وأخبره بأنه استلم إلى الآن راتبين، وأنهما يكفيان لتغطية تلك النفقات. عندها، قال أبوه:

- إذن عليّ تجهيز الغرفة.

حاول أن يثنيه فرفض، فشكره على ذلك. أما سالم فأهدى إليه شماغًا فاخرًا، وأخبره بأن جميع مصاريف عقد القران عليه. وأهدت إليه أمه وإخوته بعض المزهريات والعطورات الجميلة.

وفي بيت شيماء، أهدت أمها إليها عقدًا من الذهب مرصعًا بالجواهر الثمينة، وأهدى إليها أبوها عقدًا آخر، وأهدت إليها أختها هدى ثلاثة صغيرة،

وأهدت إليها أختها سارة ثوب زفاف جميلًا جدًّا وغالي الثمن، وأهدت إليها سمية خاتمين من ذهب، وأهدى إليها أخوها سالم سجادة إيرانية فاخرة وطقمًا من الأكواب والفناجين الثمينة.

تعاونت شيماء وسمية على تزيين البيت وشراء مستلزمات الحفلة التي ستقام في بيتهما لعقد القران والزفاف، ورغم أن محمدًا قد أعطى أخته مبلغًا كبيرًا لشراء تلك المستلزمات، إلا أنهما كانتا يقتصدان في الإنفاق، وكانت شيماء أحرص على ذلك من سمية.

قام بطباعة مجموعة من بطاقات الدعوة، ووزَّعها على الجيران والأهل والأصدقاء، وفعلت شيماء الشيء نفسه. في ذلك اليوم، اشترى والده غرفة نومٍ متكاملة، وبدأ عمال المحل في تركيبها، ولم ينتهوا من ذلك إلا ظهيرة الأحد. في هذا اليوم أيضًا ذهب إلى بيت عمه سعيد، ودفع له المهر الذي طلبه.

* * * * *

بعد صلاة الفجر من يوم الاثنين لم ينم أحدٌ في بيت عليٍّ ولا في بيت سعيد؛ حيث كان الجميع يُجهِّزون الأمور لعقد القران. ورغم ضيق الوقت وكثرة الأعمال، إلا أن محمدًا لم يُمرِّط في برنامجهِ الذي تعود عليه منذ أيام الثانوية، وهو البقاء في المسجد لتلاوة القرآن والذكر إلى أن يصلي الشروق.

أما سالم، فبعد أن أفطر توجَّه إلى السوق، واشترى كميات من الفواكه والحلويات والعصائر لبيته وبيت عمه علي، ثم عاد ووزَّعها على البيتين.

في حوالي الساعة السابعة، بدأ الأهل والجيران - وخاصة النساء - يتقاطرون إلى بيت عليٍّ وسعيد، وذلك للمساعدة في ترتيب الأمور وتجهيزها. كان كثيرٌ

من أقارب محمد وأساتذته وأصدقائه يُحضرون له الهدايا، وكان يستلمها منهم، ويشكرهم عليها، ثم يُسلمها لأخيه يوسف ليُدخلها إلى غرفته. وكانت أصوات الأناشيد الإسلامية المعبرة عن هذه المناسبة تُسمع في البيتين، خلافاً لما تعودّه غالبية الناس في المملكة من إذاعة الأغاني والموسيقى.

اتصل بالشيخ مصطفى نادر، وطلب منه أن يعقد له القران، فحضر البارحة وأخذ محمد إلى بيت عمه سعيد ليُعطيه الإذن بتزويج ابنته لمحمد، وأيضاً ليسأل شيماء إن كانت فعلاً موافقة على هذا الزواج. واليوم حضر الشيخ مصطفى في العاشرة لإل ربيع، واجتمع الرجال في بيت علي، وبعد أن أخذوا أماكنهم جلس محمد أمام الشيخ مصطفى، وأملكه عصمة نكاح شيماء على سنة الله ورسوله، وأشهد الحاضرين على ذلك.

وبعد أن فرغ الشيخ مصطفى، ودعا لمحمد بالحياة السعيدة والذرية الصالحة، قاما واعتقنا، ثم التفت محمد إلى والده الذي كان يجلس على يمين الشيخ مصطفى واعتنقه، وهنأ والده ودعا له، ثم اعتنق عمه سعيد الذي جلس على يسار الشيخ مصطفى، وهنأ أيضاً ودعا له، ثم عانق سالمًا وأخاه خالدًا، ثم احتظن أخاه يوسف، ثم توجه إلى أساتذته وأقاربه فعانقهم، وهنؤوه وباركوا له.

بعدها، جلس محمد بين والده والشيخ مصطفى، بينما قام سالم وخالد ويوسف وبعض أولاد الجيران في تقديم الفواكه والحلويات والعصائر. أعلن عليٌ للحاضرين بأن الزفاف سيكون - بإذن الله - هذه الليلة، وأن وليمة العرس ستكون غدًا في بيته بعد صلاة الظهر مباشرة. بعد أن فرغ الحاضرون من تناول الفواكه والحلويات والعصائر، بدؤوا في الانصراف، بينما يأتي آخرون من الأقارب وأهل القرية. استمر الحال إلى صلاة الظهر.

أما في بيت سعيد، فكانت النساء تتقاطر إلى هناك، وتهنئ شيماء وأمها وأختيها على زواج شيماء، ويهنئن أيضًا خديجة وسمية، وكان بعضهن يحضرن الهدايا لشيماء. وكُنَّ بعد أن تُقدِّم لهنَّ الفواكه والحلويات والعصائر ينصرفن لإتاحة الفرصة للنساء الأخريات اللاتي يأتين تباعًا.

بعد صلاة الظهر، اجتمع سعيد وسالم وبعض الأقارب في بيت علي وتناولوا وجبة الغداء سويًا، وكذلك فعلت النساء في بيت سعيد. بعدها، انصرف الجميع إلى بيوتهم، وأخذ محمد ووالده وإخوته قسطًا من الراحة إلى صلاة العصر. وبعد الصلاة، عاد سالم لِيُساعد محمدًا في التجهيز للعرس، وبدأت سمية وهدى وسارة يُجهِّزن شيماء للزفاف. كذلك، نقلن إلى غرفة شيماء في بيت محمد كل أمتعتها وملابسها وأدواتها الخاصة والهدايا التي حصلت عليها، وقُمنَ بتزيين الغرفة، وترتيب ما نقلنه إليها، وكانت خديجة تشاركهن في ذلك.

كُنَّ يعلمنَّ أنهنَّ- بتجهيز شيماء في البيت- يكسرنَّ عادة انتشرت في أرجاء المملكة، وهي ذهاب العروس إلى صالونات التجميل، بحيث يبيقنَّ هناك معظم النهار، ونساء الصالون يُصِفِّفنَّ شعر العروس، ويصبغنَّ وجهها بالمساحيق، وينقشنَّ الحناء في يديها وقدميها. لكن هذه العادة السيئة التي تُكلِّف المبالغ الباهظة كثيرًا ما توقع النساء في مخالفات شرعية خطيرة، من أهمها التعرِّي أمام النساء الأجنبية، وتفويت الصلوات، أو أدائها بما عليهنَّ من أصباغٍ ومساحيق.

كذلك، فبسبب الحشمة الموجودة في بيت علي وسعيد، وبسبب تمسك محمد وشيماء بتعاليم دينهما، لم ترتضِ شيماء ارتداء فستان الزفاف، رغم أن

أختها سارة أهدتها واحدًا من أجمل وأغلى الفساتين، وارتضتْ بارتداء لباسها المحتشم والجميل، ولكن مع ستره بالحجاب الشرعي الكامل، ونقشت في كَفَّيْها الحناء، ولكن غَطَّتْهُ بالقفازات كي لا تقع عليه عين أجنبي؛ فهي تعلم أن الإسلام لم يُحرِّم تزئِين المرأة لزوجها، بل على العكس من ذلك، فقد حظَّ عليه كثيرًا.

لبست العقدین اللذین أهداهما لها والداها، والخاتمين اللذين أهدتهما لها سمية. لم تضع على جسدها وثيابها أيَّ عطرٍ مخافة أن يصل شيءٌ من رائحته إلى الرجال فتقع في المعصية التي حذَّرَ منها رسول الله - صلى الله عليه وسلم -، وإنما وضعت في حقيبة اليد قنينة عطر خاص أهدتها لها إحدى صديقاتها، وكانت تنوي استخدامه عندما تصل إلى غرفتها في بيت زوجها.

وبالنسبة لمحمد فكان الأمر أيضًا يختلف عمدًا تعودُّ عليه شباب المملكة من الذهاب إلى صوالين الحلاقة منذ الصباح، وتجميل الوجه بنزع الشعر منه، ووضع المساحيق عليه، وكذلك بغمر جسد العروس في حمامات ساخنة لتليين البشرة، كما يزعمون. اكتفى محمد بالاستحمام وترجيل شعر لحيته ورأسه، ووضع بعض العطورات الزكية عليه. لبس أحد أثوابه النظيفة، ووضع على رأسه الشماغ الذي أهداه له سالم.

ونظرًا لمجاورة بيت سعيد لبيت عليٍّ، فلم تكن هناك حاجة لأخذ شيماء في زفَّة بالسيارات، كما تعودُّ الناس، والتي كثيرًا ما تقع فيها الحوادث بسبب ما يقوم به الشباب المتهوِّرون الذين يشاركون في الزفة من تفحيط لفرامل سياراتهم، ومن تجاوزِ للسرعات المحددة، ومن توقيفٍ متعمَّدٍ لحركة المرور. كان الاتفاق بين محمد وأسرته وسالم وأسرته أن تقوم النساء بزفَّ شيماء إلى

بيت عليٍّ سيرًا على الأقدام، بينما ينتظر الرجال في بيت علي.

بعد أن عادوا من المسجد من صلاة العشاء، اجتمع الرجال في بيت علي، بينما كانت النساء يتجهَّزنَ لزفِّ شيماء. قبل خروجها من بيتها، عانقت أمها وأختيها، وأخذت أمها تبكي بحرقه حزنًا على فراقها، ولعلمها بأن البيت سيخلو بدونها.

سار موكب الزفة تتوسَّطه شيماء وعليها كامل خمارها، وتُمسك بيدها اليمين أختها هدى، وبيدها اليسار سمية، وحملت سارة حقيبة اليد الخاصة بشيماء، بينما سارت النساء خلفهنَّ. سار الموكب في صمتٍ، رغم أنه - أحيانًا - كانت تُسمع في الخلف زغردات من بعض النساء اللواتي تعودنَّ على الغناء والرقص والطرب في زفات الأعراس.

كان الرجال ينتظرون في المجلس، بينما بقي محمد ينتظر قدوم العروس في صالة البيت. وعندما وصل موكب الزفة عند باب بيت علي، طلبت عفراء وسمية من جميع النساء الانتظار قليلاً خارج البيت، وأن لا تدخل مع العروس إلا محارم محمد وهنَّ عمَّاته وخالاته، بالإضافة إلى خالته عفراء.

لم يُعجِب هذا التصرُّف الكثير من النساء، بما فيهنَّ هدى وسارة، واللاتي تعودنَّ أن يدخلنَ مع العروس، ثم يشاهدنها وهي تجلس مع عروسها وهما يأتیان ببعض الطقوس التي جُلبت للمسلمين من بلاد الكفر، أو اخترعتها العقول الفاسدة من المسلمين أنفسهم. وكان من بين تلك الطقوس إلباس الزوج لعروسه خاتم الزفاف، أو ما يُعرَف بالدبلة، ومنها التقاط صورٍ لهما بأوضاعٍ غير محتشمة، والنساء ينظرنَ إليهما.

أمسك محمد بيد شيماء، وأدخلها فورًا إلى غرفته لإفراح المجال للنساء

زواج ميمون

للجلوس في صالة البيت. أجلسها على أحد كرسيين أُعدَّا لهما، ثم رفع الخمار عن وجهها، فبدت تتلألأ كأنها قطعة من نور، وما إن رآته حتى ابتسمت له، فكاد أن يُغشى عليه من شدة الفرح. قامت سمية بالتقاط بعض الصور لهما، وصوّرت خديجة وعفراء وأروى معهما. بعدها، هنأتهما ثم خرجن إلى الصالة لتقديم العصائر والحلويات للنساء.

أغلق الباب، وأمسك بيد شيما، وأجلسها بجانبه على السرير، ونظر إلى وجهها المتلألئ وهو يبتسم، ثم طبع قبلة على وجتها. في تلك اللحظات السعيدة تذكّر ربه الذي امتنّ عليه بهذه النعمة العظيمة، فقال لها بابتسامة:

- أستأذنك للحظات لأصلي ركعتين شكرًا لله على أن جمعني بك بعد كل الظروف التي حالت بيني وبينك.

ابتسمت له، ثم خاطبته بصوتٍ عذبٍ رقيق:

- أنا أحقُّ بشكر الله منك على هذه النعمة.

قاما وصليًا على انفراد ركعتين شكرًا لله، ثم عادت شيما وجلست على السرير، بينما أخرج هو من حقيبته هدية جميلة مغلفة، وقدمها لها. تناولتها، ثم بهدوء وبطءٍ شديد فتحتها، والابتسامة تملؤ ثغرها، فإذا بداخلها عقدٌ جميلٌ من أروع ما رأت عينيها. أخذ العقد، وألبسها إياه، فبدت أجمل من ذي قبل.

تناول الرجال والنساء الحلويات والعصائر، ثم انصرفوا إلى بيوتهم. وبعد أن انفصّ الناس عادت أسرة سعيد إلى بيتها، ودخلت خديجة وزوجها وأولادها إلى غرفهم ليستريحوا قليلاً من عناء هذا اليوم السعيد رغم طوله وكثرة الأعباء فيه.

عندما حان استيقاظ محمد لقيام الليل، قام من فراشه وتجهَّز للصلاة، وأحسَّت به شيماء ففعلت مثله، ثم صفَّ وصفَّت هي بجانبه، وصلى بها جماعة إلى أن قارب وقت أذان الفجر، فكانت هذه اللحظات من أسعد أيام حياتهما. وبعد صلاة الفجر بقي محمد - كعادته - في المسجد إلى أن صلى الشروق، وأما شيماء فقد صلَّت في غرفتها، ثم بقيت تقرأ القرآن وتذكر الله إلى أن حان وقت صلاة الشروق، فصلَّتها ثم انتظرت مجيء محمد. عاد وسلَّم على والدته وقبَّل يدها، فهنَّأته على ليلته السعيدة. دخل غرفته، وقبل شيماء، ثم بقيا يتحادثان قليلاً، ثم ناما إلى التاسعة، ثم خرجا ليفطر مع أسرتهما.

عندما رأت شيماء عمَّها عليًّا أسرع إلىه، وقبَّلت رأسه، ثم أسرعت إلى خديجة وقبَّلت يدها. وبعد أن أفطروا بقليل جاءت أسرة سعيد ليُسلِّموا على محمد وشيماء، وباركوا لهما ليلتهما السعيدة. ما إن علم محمد بوصولهم حتى سلَّم على أخته وخالته عفراء، ثم توجَّه إلى المجلس مع أبيه وإخوته ليستقبلوا سعيداً وسالماً. دخلت شيماء المجلس، فسلمت على أبيها وقبَّلت يده، ثم صافحت أختها. هناها ثم خرجت. بعد قليل بدأت بعض نساء الأهل والجيران يأتين ليُسلِّمن عليها ويهنئنَّها بالزفاف.

انشغل سعيد وعلي في الحديث عن قضايا العمل والمجتمع وما يدور الحديث عنه في التلفاز، بينما بقي محمد وسالم وخالد يتناقشون وليمة العرس؛ حيث كان سالم قد اتفق مع أحد مطاعم الولايم والأعراس في المدينة لتجهيز غداء وليمة العرس. تحدَّثوا أيضاً عن شراء المستلزمات الأخرى وتجهيزها، وتكفَّل خالد بالذهاب لشرائها، فأعطاه محمد مبلغاً من النقود لذلك. كذلك، سلَّم سالمًا مبلغاً آخر لتكاليف المطعم، فرفض سالم في البداية أخذها، ولكن محمداً ألحَّ عليه بذلك.

زواج ميمون

بعد صلاة الظهر، تجمّع الرجال والنساء في بيت علي لتناول وجبة الغداء، وانشغل سالم وخالد ومعهم مجموعة من أصدقائهم وأقاربهم في تقديم الغداء للقدامين، بينما كان محمد يستقبل الضيوف وهم يُهنئونه ويباركون له. كذلك، انشغلت خديجة وسمية وعفراء وابتيتها وبعض نساء الأهل والجيران في تقديم الغداء للنساء.

* * * * *

بينما كان محمد مشغولاً باستقبال الناس، إذا به يفاجأ بقدم رئيس المراسم في القصر الرئاسي الذي التقى به عندما ذهب لمقابلة الملك. خفق قلبه، وبدأ الخوف والشكوك تساوره من أن يكون هذا قد جاء لِيُنْغِصَ عليه فرحته باعتقاله بين أهله وذويه. سلّم عليه بابتسامة مصطنعة، ويده ترتجف من الارتباك الذي أصابه. بادره رئيس المراسم قائلاً:

- مبارك عليك هذا العرس السعيد.

ردّ عليه بتلثم:

- اللّهُ يبارك في حياتك.

سأله رئيس المراسم بابتسامة:

- هل عرفتني؟!!!

لم يشأ أن يفصح عن اسمه وهويته فينتبه لذلك والده الذي كان يقف بجانبه،

فقال له بابتسامته المصطنعة:

- نعم، وهل أنساك؟!!!

- جئتُ فقط لأُهنِّئك بهذه المناسبة، وهذه هدية متواضعة لك!!

مدَّ رئيس المراسم بظرفٍ صغيرٍ، فاستلمه محمد منه ويده ترتجف، ثم قال له:

- شكرًا.

ثم أراد أن يُداري ما به من خوفٍ واضطراب، فقال له وهو يُشير إليه بالجلوس لتناول الغداء:

- تفضل.

- أعتذر لك، فعندي أعمالٌ أخرى أريد القيام بها.

تحركَ رئيس المراسم، ثم اختفى. وضع محمد الظرف في جيبه، ولم يهدأ باله حتى خرج من المجلس وأجال ببصره ليرى آثاره، فلم يره. ذهب فورًا إلى سالم، وكان مشغولًا بتقديم الصحون للضيوف، فناداه. عندما وصل بجانبه، قال له بنبرة لا يزال فيها شيءٌ من القلق والارتباك:

- هل رأيته؟!؟

تعجَّب سالم من هذا السؤال، فردَّ بدهشة:

- مَنْ؟!؟

- رئيس المراسم!!

صرخ سالم بصوتٍ لفت انتباه بعض الناس حولهم، فقال:

- ماذا؟!؟

- نعم هو. لقد جاء- حسب زعمه- ليُبارك لي، وسلَّمني هذا الظرف كهدية.

- وأين هو الآن؟!؟

- لا أدري !! لقد طلبتُ منه الجلوس لتناول الغداء، فاعتذر.

- وماذا بالظرف؟!؟

- لا أدري، فلم أفتحه بعد.

هنا ابتسم سالم وخاطبه بمزاح:

- أظنهم أرادوا فقط أن يُكفِّروا عن خطئهم، ويعتذروا إليك.

ابتسم محمد، ثم قال وقد بدأ قلبه يهدأ:

- واللَّه، لقد كادوا أن يُطيروا قلبي من شدة الخوف.

استمرَّ تقديم الغداء لحوالي ساعة، ثم انفضَّ الناس، وعادت أسرة سعيد إلى بيتها، بينما دخل أفراد أسرة عليٍّ إلى غرفهم ليأخذوا قسطاً من الراحة إلى وقت صلاة العصر. عندما دخل غرفته أخرج الظرف من جيبه، وقال لشيماء وهو يبتسم:

- جاءني زائرٌ خاصٌّ، وأهدى إليَّ هذا الظرف!!

سألته بفضول:

- مَنْ هو؟!؟ وماذا بالظرف؟!؟

- رئيس المراسم بالقصر الرئاسي!!

بدأ القلق يُساور شيماء، وخافت على حبيبها أن يصيبه مكروهٌ من قبلهم، فقالت:

- وماذا يريدون منك؟!؟ ألا يكفي ما فعلوه بك؟!؟

ردَّ عليها وهو يفتح الظرف:

- حسبما قال فإنه جاء فقط ليُبارك لي.

أخرج من الظرف قصاصة مكتوب عليها: «هذه هدية متواضعة من جلالة الملك بمناسبة عرسك الميمون». أدخل يده في الظرف مرة أخرى فأخرج شيئًا بقيمة مئة ألف دولار. أبت نفسه أن تقبل ذلك الشيك، فأعطى الظرف وبه القصاصة والشيك لشيما، وهو يقول لها بابتسامة:

- خذيه أنتِ؛ فقد تحتاجين لهذا المبلغ في المستقبل.

لم ترفض هديته، فأخذته بابتسامة.

* * * * *

كان قد اتفق مع سالم على الذهاب في يوم غدٍ الأربعاء إلى العاصمة لشراء تذكرة سفر لشيما، وأيضًا للحصول لها على تأشيرة من السفارة الأمريكية. خاف من معارضة عمه سعيد وخالته عفراء من أخذ شيما معه إلى أمريكا، فاقترح على سالم أن يفاتحهما بذلك. بعد عودتهم إلى البيت، جلس سالم مع والديه وأخبرهما بذلك. في البداية أبديا - وخاصة عفراء - قلقهما من غياب ابنتهما عنها لفترة طويلة، ولكن سالمًا طمأنهما بسهولة التواصل معهما، فوافقا على مضمض.

في اليوم التالي ذهب بعد صلاة الفجر والإفطار إلى العاصمة، ووصل في الثامنة صباحًا. توجهًا أولًا إلى السفارة الأمريكية، ولما أخبرهم محمد في الاستقبال بما جاء لأجله، أخبره الموظف بأن استخراج تأشيرة لأمريكا تستغرق أسابيع، وربما أشهرًا. قلق كثيرًا؛ فإن ذلك يعني أنه سيذهب بدونها. عندها، لم يجد بدءًا من أن يُظهر بطاقة الجنسية الأمريكية، وما إن رآه الموظف

حتى ابتسم له، ثم قال:

- اعذرني يا سيدي، فلم أكن أعرف أنك تحمل الجنسية الأمريكية. وبهذا يحقُّ لزوجتك مرافقتك بدون تأشيرة. فقط أعطني جوازك وجوازها وصورتين شخصيَّتين لها، وخلال يومين ستكون الأوراق جاهزة.

سُرَّ كثيرًا بهذا، فقدَّم له ما طلب، وشكره على تعاونه. بعدها، توجهنا إلى أحد مكاتب السفريات وحجز للمغادرة مساء الجمعة. بعد ذلك، مرًّا على أحد المراكز التجارية، واشترينا حقيبة سفر كبيرة لشيما، وحقيبة يد لأخذها معه في الطائرة. في العاشرة قفلاً راجعَيْن، وصلنا الظهر في القرية.

قضى هو وشيما اليومين المتبقيين في تجهيز أمور السفر، وزيارة بعض الأرحام والأصدقاء. لم ينسَ أيضًا أن يخصَّ الأستاذ أسامة بزيارة تناقش فيها معه ظروف عمله ودراسته، وخطته التالية بعد الزواج والاستقرار في أمريكا. أخبره بأن همَّه الأكبر الآن هو بناء أساسيات علم الفضاء في الدول الإسلامية، وحسب نظره فلن يتأتَّى له ذلك إلا بالوصول إلى مراكز مرموقة في العمل يصاحبها تميُّز في الدراسة. قال لأستاذه:

- ناسا تضحُّ سنويًّا مئات الملايين من الدولارات في البحث العلمي، وإقامة الجسور مع الدول الأخرى، وإذا استطعتُ أن أقنع المسؤولين فيها بتوجيه مقدارٍ من تلك الأموال لصالح الدول الإسلامية فإنني أكون بذلك - بإذن الله - قد وضعتُ حجر الأساس لنهضة علمية واسعة.

كان الأستاذ أسامة يستمع إلى هذه الطموحات المتوقَّدة وهو في غاية

السرور. قال له بابتسامة:

- أسأل الله لك يا ولدي أن يفتح لك الأبواب ويُيسر لك السُّبُل، ولكن - لا شك - أنك ستواجه تحدّيات وعقبات كثيرة عند التعامل مع المسؤولين في البلدان الإسلامية.

قاطعه بابتسامة:

- من أجل هذا أخبرتك بأني سأسعى جاهداً للوصول إلى مركز مرموق يؤهني للتواصل مع أصحاب القرار في الدول الإسلامية، وإنني سأجتهد لأن يكون تواصلهم معهم باعتباري مسؤولاً أمريكي وليس فرداً من أفراد المسلمين، وليس هذا لعدم اعتزازي بإسلامي وهويتي العربية، ولكن الواقع - للأسف - كما لا يخفى عليك فإن هؤلاء يحترمون - بل يهابون - الأمريكي أكثر من احترامهم لأبناء جلدتهم.

- صدقت يا ابني. وماذا عن مشاريعك الدعوية؟

- أتوقع - بإذن الله - أن أكون أكثر فعالية وتأثيراً عندما أتسلحّ بالمركز العلمي والوظيفي.

شعر الأستاذ أسامة وكان محمداً يُركّز كثيراً على هذين الجانبين، فخاف أن يأتيه الشيطان من قبلهما، فذكره قائلاً:

- يا ابني، أنت بدأت تخوض معارك ضارية مع نفسك والشيطان، فاحذر أن يغلبك أحدهما.

ابتسم له، ثم قال:

- أدرك هذا يا أستاذي، وإنني لا أبوح بمثل هذا إلا مع الخاصة من الناس لأن الآخرين - بلا ريب - سيشكّون في نياتي. وأدرك أيضاً - كما تفضّلت - أن

زواج ميمون

معركتي القادمة هي مع نفسي والشيطان، ولذلك فزادي هو تقوية صلتي بالله،
والتضرُّع إليه - سبحانه - أن يمدَّني بعونه، ويحفظني من شرورهما.

سُرَّ الأستاذ أسامة بهذا الرد كثيرًا، ودعا له بأن يُبلِّغه ربه أمانيه، ويجعله -
بحق - القائد الربَّاني الذي يُعيد لهذه الأمة مجدها وعزتها.

* * * * *

منذ أن أخبر سالم والديه بقرار محمد أخذ شيماء معه، وعفراء في حزنٍ
شديد، ولم تكن خديجة بأحسن حالٍ منها. كانتا عندما تلتقيان تتذاكران هذا
الأمر، ويشتد - أحيانًا - بهما الكرب فتدمع أعينهما. ومع ذلك، فقد اجتهدتا
وصنعتا لهما الكثير من الحلويات ليأخذاها معهما إلى أمريكا.

أما شيماء فكانت مشاعرها يمتزج فيها القلق والرغبة من السفر والغربة مع
فضولها ورغبتها في رؤية أمريكا، تلك البلاد التي كثيرًا ما سمعت عنها من
خلال أخبار محمد التي كانت تنقلها لها سمية، أو تلك التي صار يقصُّ عليها
كثيرًا منها بعد زواجهما.

في يوم الجمعة قررت الأُسرتان مصاحبة محمد وشيماء إلى المطار،
رغم محاولات محمد وسالم في ثنيهما عن ذلك. كان سالم قد طلب من
أحد زملائه الذين يعيشون في العاصمة الذهاب إلى السفارة الأمريكية صبيحة
الجمعة، واستلام أوراق شيماء، وأن يحضرها إليه في المطار.

ركبت شيماء مع والديها وأخيها، بينما ركبت سمية مع محمد ووالديه
وإخوته، ما عدا خالدًا الذي ودَّعهما في البيت. وبعد أن وصلا المطار، وأنها
إجراءات المغادرة، كان وداع الأُسرتين يتَّسم بالحزن والبكاء، وخاصة مع

خديجة وعفراء وشيماء. أما محمد، فرغم ما يشعر به من حزن لمفارقة أهله، إلا أنه كان يشعر بسعادة كبيرة لسفر شيماء معه. وأما شيماء فحزنها لمفارقة أهلها وبلدها كان شديداً، رغم شعورها بالأنس والاعتزاز لمرافقة حبيبها.

بعد أن ودَّعا أهلها، حاول محمد أن يُخفِّف عنها بعض ما تجد من حزن، فكان يشرح لها أقسام المطار وأنظمة الطيران، وكان - بين حينٍ وآخر - يأتي لها بدعابات تجعلها تبتسم. بدأ الحزن يتلاشى تدريجياً، ولكن قلقها المصاحب بالفضول مما ستجده وتشاهده في الطائرة ثم في أمريكا كان لا يزال في تزايد.

بعد أن استقرَّ بهما الحال في الطائرة، بدأت نفسها تهدأ قليلاً، وخاصة بعد تناول وجبة العشاء، ثم إطفاء الأنوار لمن أراد النوم. كانا مرهقين جداً، ورغم صعوبة النوم على كرسيِّ الطائرة، غير أنهما غطَّا في نوم عميق. استيقظ محمد في موعد نهوضه لقيام الليل، فأطلَّ بوجهه من النافذة، فلم يرَ أثراً لبزوغ الفجر.

سحب نفسه قليلاً من الكرسي كي لا يوقظ شيماء، ثم ذهب إلى دورة المياه وتوضأ، ثم عاد إلى كرسيه، وبقي يُصلي ويدعو الله لفترة طويلة إلى أن شعر بالنعاس فنام، ولم يستيقظ إلا عندما أيقظته شيماء لرغبتها في الذهاب إلى دورة المياه. توضأ ثم عاد إلى كرسيه، فسألته شيماء إن كان قد حان وقت الفجر، فأخبرها بأنه - نظراً لفارق التوقيت - فلا يزال هناك أكثر من ثمان ساعات إلى أن يينغ الفجر. بقيا يقرآن القرآن إلى أن بدأ طاقم الطائرة بتوزيع وجبة خفيفة.

قضايا ما تبقى من الساعات الطويلة للرحلة في تذكُّر أيامهما منذ أن كانا صغيرين، ثم المشاعر الجياشة التي كان يشعر كلُّ منهما تجاه الآخر بعد أن بلغا الحُلُم وانقطع التواصل بينهما. عرَّجا أيضاً على دراسة محمد في أمريكا ومعاناتهما سوياً طيلة تلك الفترة، ثم الأحداث التي مرَّت عليه وعلى أسرتهما

في الآونة الأخيرة، ثم سبِح بها في عالم الأحلام والطموحات وما ينوي تحقيقه، وخاصة أنها صارت بجانبه، وتشدُّ من أزره.

قضايا عدة ساعات في قراءة بعض الكتب التي اصطحبها معها، وكانا عندما يشعران بالتعب والملل يخلدان إلى نومة خاطفة. بقيا على تلك الحال إلى أن رأى محمد آثار الفجر قد بزغت، فأيقظ شيماء، ثم صاحبها إلى دورة المياه، ثم عادا وصليا الفجر. بقيا لفترة في الذكر والدعاء، ثم عاودا النوم إلى أن حان وقت الإفطار. كانت الشمس حينها قد سطعت، فصليا الشروق. وصلت طائرتهما إلى مطار دالاس في واشنطن في السادسة صباحا من يوم السبت.

أراد أن يرى الفارق في المعاملة بين كونه مواطنا من المملكة، وبين كونه يحمل الجنسية الأمريكية. أخرج لموظف الجوازات بطاقة الجنسية، وقدم جواز شيماء والأوراق التي حصل عليها من السفارة الأمريكية. تصفح الموظف البطاقة ثم وضعها جانبا، وبقي يُقلِّب في أوراق شيماء وجوازها. لم يطل بهما الانتظار إلا لدقائق، بينما كان في السابق يقضي وقتا طويلا والموظف يُقلِّب أوراقه، ويُطالع ما هو مكتوب عنه في جهاز الكمبيوتر.

بعد أن أنها إجراءات الدخول، انتقلا فوراً إلى مطار رونالد ريغن الداخلي، ثم انتظر لعدة ساعات إلى أن حان وقت إقلاع طائرتهما إلى مطار بوسطن. في تلك الأثناء عبّرت شيماء عن إعجابها بما رأتها من ضخامة مطار دالاس وحسن تنظيمه، والخدمات المتميّزة المتوفرة فيه.

الفصل الحادي والثلاثون:

شيماء الداعية

عندما وصلا إلى مطار بوسطن، واستلما حقائبهما، توجهتا مباشرة إلى سيارة محمد التي أوقفها في مواقف المطار. أبدت شيماء إعجابها بهذا الترتيب، ثم أبدت سعادتها وهما يجوبان شوارع بوسطن متوجهتين إلى شقة محمد. في الطريق توقف عند إحدى البقالات لشراء بعض المستلزمات الضرورية للشقة. عندما وصلا إلى الشقة أعجبت شيماء كثيراً بها رغم صغرها، فعلمت قائلة:

- صدقني يا محمد، هذه أول مرة أشعر فيها بأني في مكان أستطيع إدارته

بنفسي.

علق محمد مبتسماً:

- أنت الآن سيدة هذا المكان وربته.

استراحا قليلاً إلى وقت صلاة الظهر، ثم ذهبا إلى المركز الإسلامي ليؤديا صلاة الظهر. وكم كانت فرحة إخوانه وأصدقائه عندما علموا بعودته متزوجاً. بعد عودتهم من الصلاة اتصلوا بأهلهم وطمانوهم على وصولهم سالمين.

* * * * *

تناقش مع شيماء كيف يمكنها قضاء وقت النهار التي عادة ما يقضيه في العمل والدراسة، وتناقش الأمر أيضاً مع إمام المركز الإسلامي وأخويه عبد الله

ومبارك. من توفيق الله له أن مدرسة القرآن في المركز الإسلامي كانت تبحث عن معلّمة لمادة اللغة العربية، فأخبره إمام المركز بذلك، فتقابلت شيماء مع إدارة المدرسة، فوافقوا على تعيينها معلّمة فيها.

كانت رغبة محمد أن تواصل شيماء دراساتها العليا في علوم الحاسوب، ولكن رغبته كانت في التفرغ للدعوة إلى الله، وتربية أبنائهما على حبّ الله وطاعة رسوله، والتفاني لخدمة دينه. سرّ بهذه الرغبة الصادقة منها، فوعدها أن يكون بجانبها، وأن يُهيّئ لها السبل والوسائل لذلك. وجدت ضالتها في الكتب الدعوية الكثيرة التي يمتلكها محمد في شقته، وغيرها المتوفرة في المركز الإسلامي، فكانت تقضي عدة ساعات في اليوم في القراءة.

أما هو فكان يقضي نهاره متنقلاً بين مركز سميثونيان للفيزياء الفلكية وجامعة هارفارد، ولذلك وجدت شيماء الفرصة سانحة لقضاء وقت طويل في المركز الإسلامي للحديث مع نساء الجاليات الإسلامية حول أمور الدين والدعوة. بدأ نجمها يسطع بين النساء في المركز، كما سطع نجم زوجها بين الرجال من قبل. كان محمد يتوجه إلى المركز بعد انتهاء محاضراته في الجامعة، ويصلي العشاء، ثم يعودان إلى الشقة.

ورغم أنه بدأ يتأقلم مع الوظيفة والعمل، غير أن الأمر لم يكن سهلاً على شيماء، فبدأت تشعر بالغبرة وفقدان الأهل، وكانا يقضيان كل ليلة قرابة ساعة قبل النوم، وهما يتحاثان عن دور المسلم في الحياة، والتضحيات التي ينبغي عليه تقديمها لخدمة دينه وأمه. كان يعلم أن شيماء لم تحظْ بتربية دعوية راسخة في سنّ حياتها السابقة، كما امتنّ الله عليه، ولذلك كانت جلساته معها محفّزة لها على البذل والعطاء، ومصبرّة لها على تحمّل الشدائد. وجدت

تسلّيتها في هذه الغربة بوجوده بجانبها، والمستقبل الذي يحلمان ببنائه. صارت إجازة نهاية الأسبوع فرصتهما الكبيرة للعمل الدعوي، فكانا يقضيان معظم الوقت في المركز الإسلامي، وهما يُخططان ويوجّهان ويُعلّمان. شرح للأستاذ أسامة في إحدى رسائله البريدية ما ينوي القيام به، فقال:

- أحاول تركيز همّي الآن في بناء مؤسسات دعوية قادرة على الوفاء باحتياجات المسلمين وغير المسلمين لكل ما يتعلّق بفهم الإسلام ونشره، وفي الوقت نفسه قادرة على البقاء والاستمرارية. وقد وجدتُ أن تربية النشء منذ نعومة أظفارهم على العيش مع الإسلام ومن أجل الإسلام هو السبيل الأمثل لتحقيق ذلك، ولهذا فإنني أحاول حالياً- بالتعاون مع زوجتي وإخواني هنا في أمريكا- أن نُركّز جهودنا في احتضان الطفل المسلم أينما كان، وإيجاد البيئة الإسلامية النقية القادرة على تربيته على الولاء المطلق لربه ودينه.

تناقش مع شيماء إصدار مجلة متخصصة لأطفال المسلمين تكون لهم بديلاً عن مجلات الأطفال والكرتون المنتشرة، واستطاعت هي- بفضل الله- أن تُقنع العديد من الأخوات لتبني مشروع هذه المجلة، التي أطلقنَ عليها اسم «أسامة»، تيمناً بالصحابي الجليل أسامة بن زيد- رضي الله عنه- الذي ولّاه رسول الله- صلى الله عليه وآله وسلم- قيادة الجيش المُتّجه لغز الروم في الشام وعمره ست عشرة سنة.



في زحمة الأعمال والدراسة عليه، وتكريس شيماء لغالب أوقاتها للمدرسة والمجلة، مرّ فصل الخريف عليهما بسرعة رهيبه، ولم ينتبها إلا وإجازة عيد

الميلاد على الأبواب. قسّم إجازته السنوية على فترتين؛ بحيث يأخذ الأولى في إجازة عيد الميلاد ويقضيها في أمريكا، بينما يأخذ الفترة الثانية في نهاية فصل الربيع ويعودان فيها إلى المملكة.

قضايا الجزء الأول من إجازة عيد الميلاد في حضور مؤتمر رابطة الشباب المسلم العربي، الذي كان فرصة لهما لاكتساب المزيد من العلم والفهم لدينهما، بالإضافة إلى التعرّف على العديد من الدعاة. وفي الجزء الثاني استقبلا أسرتهما اللتين رتبا لزيارتهما لهما منذ أكثر من شهرين. عندما وصلت أسرة علي وسعيد، كانت فرحة خديجة وهي ترى ابنها، وعفراء وهي تلتقي بشيما لا توصف.

استأجر لهما شقتين في أحد الفنادق القريبة من الجامعة، ورَتَّب لهما زيارة للعديد من المعالم السياحية في بوسطن والمدن المجاورة، وعرّفهما على المركز الإسلامي وجامعة هارفارد. بقيت الأسرتان في أمريكا حوالي أسبوع، وكان سالم وخالد وسمية ويوسف وأروى من أكثرهم استمتاعاً بهذه الرحلة. سرّت خديجة وعفراء بما رأته من سعادة محمد وشيما، رغم صغر الشقة التي يسكنان فيها.

في نهاية العام عادا إلى المملكة، وكانت فرحة خديجة وعفراء بعودتهما لا توصف. قضايا في المملكة أسبوعين فقط، ولكنها كانت كافية لمحمد لمناقشة أحوال الدعوة مع أساتذته، ووضع خطط وتصوّرات لمشاريع دعوية جديدة ابتكرها وبدأ بتطبيقها في أمريكا. أما شيما فبالرغم من صعوبة تحرّكها بسبب الحمل، غير أنها حاولت هي الأخرى أن توجد قاعدة للدعوة النسائية في القرية، وعاونها محمد في ذلك بالتنسيق مع أساتذته والشيخ مصطفى نادر.

شيماء الداعية

عندما عاد إلى أمريكا كان قد بقي أكثر من شهر عن انتهاء الإجازة الصيفية، فكانت فرصة لمحمد أن يكتف نشاطه الدعوي. كذلك، ولأنه قد أنهى المقررات المطلوبة في مرحلة الماجستير، ولم يتبقَّ عليه إلا الرسالة، تردّد خلال هذه الفترة كثيرًا على مشرفه الأكاديمي لمناقشة خطة الرسالة. رأى أن يوجه رسالته لخدمة أهدافه الكبرى، فاقترح على مشرفه أن يجعلها عبارة عن دراسة ميدانية حول واقع تقنيات الفضاء وعلومها في العالم الإسلامي، فأعجب مشرفه بالفكرة كثيرًا.

أخبر مدير مركز سميثونيان بتوجهه هذا، فرحّب بذلك، ووعده بالتنسيق مع وكالة ناسا. وفعلاً، جاءت الموافقة من ناسا على شكل منحة مالية كبيرة لتغطية نفقات الدراسة. كل ذلك جعله - وبالتعاون مع مشرفه الأكاديمي ومدير مركز سميثونيان - يضع خطة لزيارة البلدان الإسلامية خلال فصل الخريف، ثم يقوم بصياغة النتائج وكتابة الرسالة في فصل الربيع.

قضى الأسبوعين الأوّلين من فصل الخريف في الإعداد للدراسة التي سيقوم بها، وخاصة في حجز التذاكر والفنادق له ولشيماء، وأيضًا في التنسيق مع المختصين بعلوم التكنولوجيا والفضاء في حكومات الدول الإسلامية من خلال وكالة ناسا. فرحت شيماء كثيرًا بمصاحبتها في زيارة هذه الدول، وكانت فرحته هو أكبر؛ فلأول مرة في حياته سيزور بلدانًا إسلامية، ويتعرّف على شعوبها. لم تكن الدراسة هي همّه الأكبر، بقدر ما سيتعرف عن قرب على إخوانه المسلمين، وأحوالهم وظروفهم التي يعيشون فيها.

أعدت وكالة ناسا له كافة الترتيبات، وخاصة تأشيرات الدخول إلى تلك الدول، والرسائل التي تشرح المهمة التي ذهب لأجلها. ونظرًا للرحلات

الجوية التي عليه أن يستقلها من بلد لآخر، فقد وضع في الحسبان الإرهاق الكبير الذي سيعانيان منه، وخاصة شيماء، ولذلك جعل أوقاتاً للراحة، وأوقاتاً للاجتماع بالمسؤولين في تلك الدول، وأوقاتاً أخرى للاستجمام والسياحة.

بدأت رحلتها في أوائل سبتمبر وانتهت على نهاية نوفمبر، زارا خلالها أكثر من عشرين دولة، كان قد اختارها محمد كعينة مناسبة للدراسة تشمل المتقدم منها صناعياً وعلمياً والأخرى التي ما زالت تتصدّر ذيل قائمة الدول النامية، وتشمل كذلك الغنية بمواردها واقتصادها وبعضها الشحيحة في مواردها أو التي يعيش أهلها في مستويات عالية من الفقر والجهل والبطالة.

لم تصاحبه شيماء بدون هدف، وإنما قامت بدورٍ كبيرٍ لخدمة الدراسة من عدة نواحي؛ من أهمها إدخال المعلومات والبيانات في حاسوبه المحمول وفهرستها، ومنها التقاط الصور للمنشآت التي تُعنى بها الدراسة، وأحياناً صوراً تذكارية لأماكن وأشخاص يمكن أن يستفاد منها لاحقاً في وضع تصوّرات لمشاريع تخدم الدعوة، ومنها البحث على الإنترنت عن معلومات عن الدول التي يزورانها، والتي تُسهّل على محمد الحوار والنقاش مع المسؤولين في تلك الدول.

عندما عاد بادر أولاً بالكتابة إلى الأستاذ أسامة، لخص له فيها الدروس التي استفادها من هذه الرحلة، فقال له:

- كانت رحلة مفيدة جداً وممتعة، وفي الوقت نفسه مثقلة بالهموم. ورغم أنني - بحمد الله - استطعتُ أن أحصل على مادة علمية غزيرة وبيانات مهمة جداً تتعلق بدراستي، لكن ما أمني كثيراً هو أحوال غالبية الدول التي زرتها. لقد وجدنا أن معظمها لا تزال تعيش في مستويات متدنية من العلم

والتكنولوجيا، وغالبية شعوبها تعيش في جهل وفقر وتخلّف. كذلك، فإنه في غالبية هذه الدول يعيش المواطن وكأنه لا همّ له إلا كسب قوت يومه، وأما التمسك بالإسلام- فضلاً عن خدمته- فنادرٌ جداً.

لكن الأمر المثير للدهشة لنا هو أن الدول التي زرناها كانت لدى معظمها موارد طبيعية وبشرية قادرة على الارتقاء بشعوبها إلى مستويات أفضل من المعيشة والعلم والتكنولوجيا، غير أن حكوماتها غارقة في الفساد الإداري؛ فينهبون ثروات بلادهم بشتى الوسائل والسبل. لقد وجدنا الشعوب تعاني من البطالة والفقر، وفي الوقت نفسه تتفشى الرشاوى والمحسوبيات بين العاملين في الحكومة؛ حتى صار همُّ غالبية المسؤولين تجميع الثروات وملء الجيوب بابتزاز الجماهير المسكينة التي تضطرُّ- أحياناً- إلى البحث عن وسائل غير مشروعة لتحسين مستواها المعيشي والوظيفي.

وجدنا أيضاً أن كثيراً من البلدان التي زرناها غارقة في الدماء، قد دمّرتها الحروب القبلية والعرقية، أو حروب السادة الغربيين الذين جاؤوا- كما يزعمون- لإنقاذ تلك البلدان، ونشر الديمقراطية والحرية بين شعوبها. لقد شاهدنا أطفالاً صغاراً لا همّ لهم بالتعليم ولا حتى مساعدة أسرهم في تحصيل لقمة العيش، وإنما صاروا جنوداً مرتزقة يحملون السلاح ضدّ عشائر وقبائل أخرى.

ومع كل هذه المشاهد المشينة في صفحات الأمة إلا أنا وجدنا نماذج تُبشّر بالخير؛ فقد وجدنا في بعض الدول اهتماماً كبيراً بتنشئة الأجيال على القرآن، وشاهدنا جماعاتٍ وأفراداً نذروا أنفسهم لخدمة دين الله. وعندما رأينا تلك النماذج الجميلة صار همُّنا هو في كيف يمكن الإكثار منها، وتوسعة دائرتها

لتشمل كافة نواحي تلك البلدان، وغيرها من البلدان المجاورة.

أما فيما يخص التكنولوجيا، فقد وجدنا في بعض الدول مبشراتٍ بنهضة علمية رائدة، غير أن الاهتمام بعلم الفضاء كان نادرًا في الدول التي زرتها. والعجيب أن المسؤولين الذين التقينا بهم، رغم شهاداتهم العلمية العالية، إلا إنهم منهزمون نفسيًا، ولا يرون لأنفسهم حظًا في الوصول إلى ما وصلت إليه الدول الصناعية. وقد حاولتُ - من خلال الحوارات التي كانت تجري في جلسات العشاء التي يستضيفوننا فيها - أن نُقنع بعضًا منهم بضرورة التغيير من خلال العمل الجاد والتخطيط السليم، ولكنني وجدتُ أن هذا الهمَّ شبه معدوم عند كثيرٍ منهم.

أُعجب الأستاذ بهذا التقرير، وطلب منه أن يُرتب لزيارة مشتركة معه لبعض هذه الدول عندما يعود إلى المملكة، فسُرَّ محمد برغبة أستاذه، ووعده أن يقوم بذلك في أقرب وقت.

بعد عودتهما إلى أمريكا انشغل أولاً بتجميع ما حصل عليه في زيارته، ثم قام بعرضه على مرشده الأكاديمي الذي سُرَّ كثيرًا بحجم المادة العلمية التي حصل عليها. كذلك، كتب تقريرًا وافيًا لوكالة ناسا فصلَّ فيه ما قام به في تلك الرحلة، والمعلومات التي حصل عليها، ولم يفته أن يختم تقريره بتصوُّرٍ طويلٍ ومفصَّلٍ لما يمكن القيام به لمساعدة تلك الدول، ونقل علوم التكنولوجيا والفضاء إليها، وما فعل ذلك إلا كتمهيد لما ينوي القيام به في مرحلة الدكتوراة وما بعدها من مشاريع في هذين الجانبين تستهدف الدول التي زارها بشكلٍ مبدئي، ثم بقية الدول الإسلامية.

شيماء الداعية

أما شيماء فقد اجتهدت في ترتيب الصور والمشاهدات التي حصلنا عليها في تلك الرحلة في عروض مرئية لغرض تقديمها للمسلمين، سواءً من جانبها أم من خلال محمد. كذلك، اجتهدت بالتعاون مع محمد في صياغة تصوّرٍ طويل للمشاريع الدعوية التي يطمحان للقيام بها، سواءً أكان في أمريكا أم الدول الإسلامية، لتحسين مستوى تلك الشعوب في فهم دينها والسعي لخدمته.

ونظرًا لأن شيماء في شهرها الأخير، قررا عدم الذهاب هذا العام لحضور شيء من المؤتمرات الإسلامية، وإنما رتبا لزيارة أهلها لهما ليشهدوا ولادة حفيدهم. في نهاية شهر ديسمبر رزقهما الله بمولود وسيم الخليفة، ذكي الملامح، أسمياه عبدالله، فكانت فرحتهما وفرحة أسرتهما تفوق الوصف. في اليوم السابع لميلاده أقام محمد في المركز الإسلامي له عقيقة، وهي النسيكة الشرعية المعروفة، حضرها والده وإخوته وعمه سعيد وسالم، بالإضافة إلى العديد من إخوانه المسلمين.



في فصل الربيع كرّس جهوده لكتابة الرسالة، بينما قضت شيماء معظم وقتها مع طفلها، ولكنها أيضًا لم تنسَ المركز الإسلامي ومدرسة القرآن الكريم؛ فكانت تشارك في الفعاليات التي تقام فيهما، وتقدّم - أحيانًا - بعض الدروس والمحاضرات، وبقيت على تواصلٍ مستمرٍّ مع أخواتها في مجلة «أسامة».

أما هو، فبالرغم من ضغط العمل وكتابة الرسالة غير أنه كان يُكرّس أوقاتًا طويلة في عطلة نهاية الأسبوع في الاجتماع برؤاد الدعوة والإصلاح في اتحاد الطلبة المسلمين والمركز الإسلامي. ومن ضمن مشاريعه المستقبلية التي

حاول جاهداً بلورتها معهم إقامة جامعات ومدارس إسلامية في بعض الدول الإسلامية التي تسمح قوانينها بذلك.

لقد كان هدفه الكبير من هذه الخطوة تخريج جيل من الشباب المسلم المتسلح نظرياً وتطبيقياً بأحدث ما توصل إليه العلم، وفي الوقت نفسه يحمل همّ هذه الأمة، ويكون من الدعاة الذين يبيعون أنفسهم وأموالهم لخدمة دين الله. كانت غايته من ذلك بناء هؤلاء الشباب والفتيات دينياً وفكرياً وعلمياً وعملياً منذ نعومة أظفارهم؛ بحيث يصلون إلى مرحلة الثانوية وهم قادرون على العطاء والإنتاج. كان يعلم أن ذلك الأمر سيتطلب تحصينهم من الأوباء السلوكية والفكرية وحتى العقديّة المنتشرة في مجتمعاتهم، ولم يكن سبيله إلى ذلك عزل هؤلاء عن مجتمعاتهم، وإنما من خلال البناء السليم لهم إيمانياً وفكرياً وسلوكياً.

اجتهد في فصل الربيع في عمله كثيراً، وضغط على نفسه لإنهاء رسالة الماجستير. لكن ذلك لم يشغله عما كان يقوم به من قبل من أنشطة دعوية وعلمية؛ فبقي على تواصل مع المراكز الإسلامية في ولاية ماساتشوستس والولايات المجاورة. وصار يحفز أئمة تلك المراكز والفاعلين فيها على تنشيط برامجهم الدعوية، وقدم لهم الاقتراحات والتصوّرات التي قوبلت بالترحيب الكبير. كذلك، قام بالتواصل مع الهيئات الإسلامية الأخرى الموجودة في أمريكا، وخاصة تلك التي لها فروع في بعض الدول الإسلامية. اجتهد في أن يُقنعهم بتصوّراته لخدمة شعوب تلك الدول من الناحيتين الدعوية والعلمية، مما جعل بعض تلك الهيئات تتبنى مشاريع خاصة لخدمة هذين الجانبين.

كل ذلك حفزه على البدء في نقل بعض تقنيات علوم التكنولوجيا والفضاء

شيماء الداعية

إلى العالم الإسلامي، فاقترح على وكالة ناسا وشركة ميكروسوفت وغيرهما من الوكالات العلمية إقامة حملات توعوية وبرامج تثقيفية حول أهمية علوم التكنولوجيا والفضاء. وفعلاً، رحّبت تلك الهيئات باقتراحه، ورشحته لأن يتّأس مشروعاً لإنتاج برامج إعلامية تخدم هذا الجانب بالعديد من اللغات.

على مشارف نهاية فصل الربيع استطاع أن يُكْمِل رسالة الماجستير، وتم مناقشتها من قِبَل اللجنة المشكلة لذلك، واجتازها بامتياز مع مرتبة الشرف الأولى. حضر حفل التخرُّج مع شيماء وبعض أصدقائه. وفور تسليمه نسخ الرسالة للجامعة، وإنهاء كافة إجراءات التخرُّج، قرر استغلال فترة الإجازة الصيفية لزيارة المملكة. ونظراً لبقاء شيماء في المملكة مع أهلها لصعوبة تنقلها بطفلها، تصاحَبَ مع الأستاذ أسامة لزيارة العديد من الدول الإسلامية، كما طلب منه الأستاذ ذلك، وحملا معهما الكثير من المواد التوعوية التي تم إنتاجها.

لقد استطاع من خلال اصطحابه للأستاذ أسامة أن يستفيد من فكره النيِّر، وخبراته في مجال الدعوة، وفي الوقت نفسه تحفيزه للأستاذ أسامة ليخرج بالأنشطة الدعوية من حيزِّ المملكة إلى الدول الإسلامية الأخرى. عادا بعد أكثر من شهر وهما يحملان العديد من التصوُّرات لمشاريع دعوية أخرى، كان من ضمنها إقامة ما يُعرف بالرحلة العلمية؛ حيث يتم تشجيع العديد من مشائخ العلم وطلبته للقيام في فترة الإجازة الصيفية بزيارة لبعض الدول الإسلامية وفق برنامج دعوي متكامل أعدَّ له تصوُّراً واضحاً. وقد تطوَّع الأستاذ أسامة للإعداد للرحلة العلمية القادمة بحكم تواصله مع العديد من مشائخ العلم، على أن يقوم محمد بالتنسيق مع الجهات الدعوية العاملة في الدول التي تستهدف الرحلة العلمية زيارتها.

الفصل الثاني والثلاثون: البدلة العجبية

بنهاية شهر يوليو عاد إلى أمريكا مع زوجته وطفله وهو يحمل بين حناياه من الآمال والطموحات التي تفتّحت من خلال ما حقّقه مع الأستاذ أسامة في رحلتها الدعوية. ومع بداية فصل الخريف بدأ دراسة الدكتوراة، وكرّس جهده في مركز سميثونيان، بالإضافة إلى متابعته المستمرة لمشاريعه الدعوية التي بدأها في أمريكا ودول العالم الإسلامي.

كان عليه أن يتميّز في دراسة الدكتوراة كما تميّز في فترة الماجستير، ولذلك كان همّه الكبير في هذه المرحلة هو اختيار مشروع لرسالة الدكتوراة يُغيّر مسار علم الفضاء. كرّس أوقاته في السنتين الأوليين للمقررات الدراسية الإلزامية التي عليه أن يجتازها بامتياز. ولكنه - في الوقت نفسه - كان يُضني نفسه في قراءة البحوث العلمية لاكتشاف فكرة علمية جديدة ومثيرة تكون مجالاً لبحثه العلمي في رسالة الدكتوراة.

أطلع على المئات من البحوث العلمية، وتناقش مع مرشده الأكاديمي وأساتذة قسم علوم الفضاء فيما يمكن أن يُركّز عليه في رسالته. وبعد أيامٍ عصبية مرّت به وهو يُنقّب في المجلات العلمية المُحكّمة والدوريات المتعلقة بعلم الفضاء أو قريباً منه، وبعد تواصلٍ مكثّفٍ ومناقشاتٍ مستفيضة مع العلماء

والباحثين في علم الفضاء وغيرها من العلوم، وخاصة في مركز سميثونيان ووكالة ناسا، هداه الله إلى فكرة رأى أنها- بتوفيق الله- ستُغيّر مجرى علم الفضاء لعقودٍ طويلة.

كانت فكرته تتلخص في إرسال كائنات حية كالطيور والزواحف والحشرات وحتى الثدييات إلى الفضاء الخارجي في كبسولات مهيئة لذلك، ثم يتم إنزالها في الفضاء أو الأجرام المختلفة، وخاصة القريبة من الأرض كالقمر والزهرة والمريخ، ثم تُترك هناك لتعيش في بدلات خاصة تحميها من الأشعة الكونية والظروف المناخية غير الملائمة للحياة على تلك الأجرام.

لقد كان يهدف من ذلك تجربة الحياة على تلك الأجرام، ومحاولة جعل هذه الكائنات تتأقلم للعيش عليها من خلال برامج تأهيلية مخصصة لهذا الغرض. نبعت عنده هذه الفكرة من ملاحظته للإعجاز الربّاني الذي حبى به المولى- سبحانه- الكائنات المختلفة في تمكينها على التأقلم مع الظروف المناخية على الأرض.

لم يكن تقبُّل هذه الفكرة في الأوساط العلمية بالأمر الهين، وخاصة من قِبَل مرشده الأكاديمي وأساتذته في قسم علوم الفضاء. كانت هذه الفكرة بالنسبة لغالبية هؤلاء فكرة جنونية- أو على الأقل- غير واقعية. لكنه أصرَّ على فكرته، وبذل جهداً كبيراً في إقناع هؤلاء من خلال المحاورات الشخصية والمحاضرات التي ألقاها في القسم وما يتبعها من نقاشات علمية مستفيضة. وتدرجياً، بدأ مرشده الأكاديمي يسانده فيها، ثم استطاع تدرجياً إقناع بقية أساتذته.

ومع الإنهاك الجسدي والذهني الذي عاشه خلال هاتين السنتين، كان عليه أن يهتم بأسرته التي بدأت في النمو؛ حيث رزقه الله في السنة الثانية بطفلة

البدلة العجيبة

جميلة أسمياها نُسِيْبِيَّة، تيمُّناً بالصحابية الجليلة نُسَيْبِيَّة بنت كعب التي نذرت حياتها لخدمة دين الله.

كذلك، فبالرغم من أن فكره صار مزحوماً بما يقرؤه في المقالات والبحوث العلمية، وما يسمعه من أساتذته من حقائق وأرقام، إلا أنه اجتهد لتبقى مسيرة الدعوة- التي عشقها وصارت جزءاً من كيانه- تسير بخطى حثيثة، وخاصة في بناء المؤسسات الدعوية، وفي إيقاظ همم العلماء وذوي الصلاح ليحملوا همَّ هذا الدين على عواتقهم.

اقتصر خلال فترة الدكتوراة على زيارات قصيرة إلى المملكة لا تتجاوز شهراً في كل عام. وكانت هذه الفترات- رغم قصرها- فرصة له لإراحة ذهنه وجسده مما يتحمّله في أمريكا من هموم الدراسة والدعوة. لكن علو همته وسمو غاياته واستشعاره للأمانة العظمى الملقاة على عاتقه ما كانت لتجعله يقرّر له قرار بين أهله وأصدقائه؛ فما إن يقترب وقت الإجازة الصيفية حتى يبدأ اتصالاته بأساتذته في المملكة وإخوانه في الدول الإسلامية لوضع الترتيبات لأعمال دعوية تستنفذ منه غالبية فترة إجازته.

أما شيماء فكانت تبقى مع أهلها وترعى طفلها، وفي الوقت نفسه تواصل هي الأخرى التزاماتها الدعوية، سواءً في المملكة أم خارجها. ومن أهم الإنجازات التي حققتها خلال هذه الإجازات القصيرة تكوين جيل نسائي يحمل همّ الدعوة في المملكة، وبناء قاعدة صلبة من المربيّات القادرات على احتضان الفتيات الصغيرات، وغرس قيم الإسلام ومبادئه في نفوسهنّ منذ نعومة أظفارهنّ، وتربيتهم على التضحية لخدمة هذا الدين بكل غالٍ ونفيس.

لقد بزغ في المملكة جيلٌ جديد من الشباب والفتيات من الذين تفقّهُوا في دينهم، وتربّوا على أسس الدعوة الصحيحة، وصارت اهتماماتهم في نشر دين

اللَّه، والتفاني في خدمته. واستطاعت شيماء بالتنسيق مع زوجها جعل النساء الداعيات في المملكة يشاركن إخوانهنَّ في حمل همِّ الدعوة، سواءً داخل المملكة أم خارجها، وفقاً للضوابط الشرعية.

وعندما بدأ محمد العمل الجاد والمضني في مشروع الدكتوراة، هيأت شيماء له المناخ الأسري الذي يسوده الحب والهدوء والسكينة، وكانت الجلسات الإيمانية التي ابتدأها في البيت لتعويد أطفالهم عليها ذات أثرٍ عظيم في تحفيزهمهما على البذل والعطاء، ورفع معنوياتهما، واستبشارهما بالمستقبل المزهر لهذا الدين، والذي يريانه يلوح في الأفق من خلال النتائج الطيبة للمشاريع الدعوية التي هما على تواصلٍ معها.

كان لزاماً على محمد أن يقضي ساعاتٍ طويلة في المختبرات، ولذلك تفهَّم مسؤولوه في مركز سميثونيان فحفظوا عنه ساعات العمل إلى النصف، مما أتاح له التفرُّغ شبه الكامل لمشروع الدكتوراة. وما إن دخلت السنة الرابعة حتى صار موضوع بحثه حديث المجالس في الأوساط العلمية والأكاديمية من خلال البحوث العلمية المستفيضة التي يكتبها ويلقيها في المؤتمرات العلمية أو ينشرها في المجلات العلمية المُحكَّمة المرموقة.

وأما عن التجارب العملية فاستطاع تصميم بدلاتٍ كتلك التي يرتديها رواد الفضاء ولكنها مخصَّصة لأنواعٍ معينة من الحشرات والطيور، وكانت تلك البدلات من الخفة والملاءمة بحيث لا يُميِّزها الناظر إلى جسد اللابس لها، وبحيث تتيح للحشرات والطيور حرية الحركة وال الطيران بشكل طبيعي. أيضاً، كانت مجهزة بكاميرات وأدوات استشعار وأجهزة إلكترونية دقيقة تتيح رصد حركة الحشرات والطيور التي ترتديها والبيئة المحيطة بها بدقة فائقة، ثم نقلها

البدلة العجيبة

إلى أجهزة استقبال متطورة على الأرض تتيح تخزين وتحليل البيانات في الحال.

لكن الشيء المثير للدهشة - حتى بين علماء الفضاء أنفسهم - هو قدرة تلك البدلات على تهيئة بيئة مناخية مطابقة للتي تعيش عليها تلك الحشرات والطيور على سطح الأرض، وفوق ذلك مزودة بأجهزة متقدمة تستطيع التقاط الذرات الكونية المتناثرة في الفضاء الخارجي وتحويلها إلى مواد مغذية عبر تحولات كيميائية معقدة. والهدف من ذلك هو توفير الغذاء والماء لها دون الحاجة إلى شحن البدلات بالمواد الغذائية الطبيعية، والتي حتمًا ستزيد من وزنها، مما سيُعرقل حركة الحشرات والطيور.

استمرت محاولات محمد في إنجاح بدلته العجيبة لأكثر من عامين إلى أن نجح أخيرًا في جعل أنواع معينة من الحشرات والطيور تتأقلم معها بشكل مُرضٍ في ظروف خاصة شبيهة بتلك الموجودة في الفضاء الخارجي. وبعد نجاح هذه الخطوة المهمة علميًا، أطلق - وبالتعاون مع وكالة ناسا - أول تجربة له لنقل عينات من تلك الحشرات والطيور إلى مسافات تبعد آلاف الكيلومترات عن الأرض.

لم تكن تلك التجربة لتُجرى بعيدًا عن الأضواء الإعلامية؛ فقد تكفّلت وكالة ناسا بالإعلان عنها وعن موعد إقلاع المركبة التي ستُقلُّ العينات المختارة من الحشرات والطيور، وتسابقت وسائل الإعلام لرصد هذا الحدث العظيم. أما العلماء والباحثون فقد تراحموا على مركز تقنيات الفضاء في وكالة ناسا في ولاية فلوريدا ليرقبوا الحشرات والطيور وهي تغادر كبسولة الفضاء. استطاع العديد من تلك الكائنات البقاء لعدة ساعات قبل أن تتلاشى في الفضاء

السحيق لظروف عكف محمد والعديد من المتحمسين لمشروعه الرائد على دراستها وتحليل البيانات التي وصلتهم.

لقد كانت هذه التجربة الأولى كافية لإنجاح فكرته التي بهرت العالم بما تحمله من مضامين سامية ليس بين الأوساط العلمية فحسب، وإنما حازت اهتمام قطاعات عديدة، وخاصة الإعلام والسياحة. أما له هو ولمرشد الأكاديمي ولقسم علوم الفضاء في جامعة هارفارد فقد كانت بمثابة إحدى النجاحات العلمية التاريخية، مما حدا بالجامعة أن تحتفل بهذا الإنجاز العظيم، وتكرّم أساتذة قسم علوم الفضاء، وقبلهم محمد صاحب الفكرة ورائد المشروع. كان هذا الحفل من الأيام المشهودة في حياته؛ فقد تناقلته وسائل الإعلام الأمريكية والعالمية، وذاع صيته وخاصة عندما كان يُلقى كلمته، وهو يشرح تفاصيل مشروعه التاريخي.

وبعد هذا النجاح الباهر ارتاحت نفسه، وارتاح جسده وذهنه من العناء المضني، والجهد المتواصل لأكثر من أربعة أعوام. كل ذلك دعاه لأن يقضي إجازته الصيفية بأكملها في المملكة. واستغلّ بقاءه بين أهله للبدء في جمع ما توصل إليه من نتائج، وما حصل عليه من أرقام ومعلومات، وساعده شيماء في ترتيب ذلك في جداول ورسومات بيانية. كذلك، بدأ في تنسيق النصوص البحثية التي كتبها في السنوات الماضية كتوطئة لرسالة الدكتوراة. ورغم تمكنه اللغوي وضلوعه في صياغة الكتابات العلمية إلا أن تجميع مادة الرسالة، وبما تحويه من كثافة وتفريع، لم يكن بالأمر اليسير.

وبعد عودتهما إلى أمريكا، كرّس معظم وقته للانتهاء من كتابة الرسالة، وبنهاية شهر ديسمبر تم مناقشتها، واجتازها بامتياز مع بعض التعديلات

البدلة العجيبة

الطيفة. استغلَّ فصل الربيع لطباعة الرسالة وإنهاء إجراءات تسليمها إلى الجامعة، وفي نهاية شهر مايو حضر مع شيماء حفل التخرج، وشاركهما فيه أسرتيهما اللتان رتَّب محمد لهما زيارة خاصة على نفقته. وأقام له قسم علوم الفضاء ومركز سميثونيان وشركة ميكروسوفت حفلاً مشهوداً حضرته العديد من وسائل الإعلام الأمريكية، وقُدِّمت له فيه الهدايا التذكارية القيمة.



صار تحقيق حلمه قاب قوسين أو أدنى؛ فقد تلقى بعد اجتيازه امتحان الدكتوراة عرضاً من وكالة ناسا لم يحلم بمثله أبداً. لقد عرضت عليه الوكالة ترأس مركز تقنيات الفضاء في مركز كينيدي لأبحاث الفضاء في ولاية فلوريدا، والذي يُعدُّ بمثابة ورشة العمل لكل ما يتعلق بتقنيات الفضاء، وعرضت عليه مئة ألف دولار في العام كراتب أساسي، بالإضافة إلى العديد من الحوافز المغربية، ومنها شقة بكامل أثاثها وتجهيزاتها وسيارة فخمة لاستخدامه الشخصي.

لم يكن يُفِرِّط في هذا العرض، ولكنه بطبيعته المتأنية استشار مرشده الأكاديمي ومدير مركز سميثونيان وبعض إخوانه في اتحاد الطلبة المسلمين والمركز الإسلامي، واستشار أيضاً والديه وأساتذته في المملكة. وقد شجَّعه الجميع على قبول هذا العرض.

تجهزت الأسرة للانتقال إلى عالم جديد ملئ بالمفاجآت السارة، ولم يتركه إخوانه في اتحاد الطلبة المسلمين والمركز الإسلامي ليرحل دون توديع؛ فأقاموا له حفلاً مشتركاً قُدِّمت فيه الكلمات المعبرة عن الشكر والامتنان لجهوده المضيئة في الارتقاء بهاتين المؤسستين، ثم كرَّموه بالهدايا التذكارية.

انتقلت الأسرة الصغيرة إلى ولاية فلوريدا، وكان على محمد وشيما أن يتأقلا مع البيئة الجديدة، وخاصة في ارتباطهما بالمراكز الإسلامية، ولكن هذا لم يكن أمراً صعباً عليهما. بقي محمد عدة أيام قبل بدء عمله في مركز كينيدي وذلك لشراء المستلزمات المعيشية، وفي التعرّف على المراكز الإسلامية القريبة والتواصل مع القائمين عليها.

بعد بدء عمله في وكالة ناسا تفتّحت له آفاق جديدة لتطوير ذاته والارتقاء بأتمته، واستطاع في فترة وجيزة أن يكسب قلوب مسؤوليه والموظفين تحت إمرته؛ ووجدوا فيه نعم القائد المحفّز والعالم الماهر والأخ المتفهم لمشاعرهم والحريص على تطويرهم والارتقاء بهم. كذلك، اجتهد من أول يوم عمل في مركز تقنيات الفضاء لجعله حديث الساعة إعلامياً وأكاديمياً.

بعد حوالي شهر من بدء عمله في المركز أرسل بريدًا إلكترونيًا إلى المدير التنفيذي للوكالة، قال فيه:

– أقدم لكم فيما يلي خطتي للارتقاء بمركز تقنيات الفضاء، وأرجو منكم التكرم بإفادتي بملاحظاتكم حولها.

إننا ننوي القيام بحملة إعلامية واسعة للفت نظر الناس إلى أهمية علوم الفضاء والتقنيات الحديثة التي صارت تُستخدم لسبر أغوار الفضاء. كذلك، فإننا ننوي وضع برامج مخصصة لزيارة طلاب المدارس والجامعات للتعرّف على ناسا بشكل عام ومركز تقنيات الفضاء بشكل خاص.

وأما أكاديمياً فإني أنوي تشكيل فريقٍ من العاملين لديّ ليجوب الجامعات الأمريكية، بدءاً بجامعات فلوريدا، ليُعرّفوا الأساتذة وصناع القرار فيها بما

البدلة العجيبة

يقوم به المركز من بحوث ودراسات، وما توصل إليه من اكتشافات علمية مذهلة في الفضاء الخارجي. ويكون من أهداف هذا الفريق أيضًا استقطاب العلماء والباحثين للإسهام في دراسات مشتركة مع وكالة ناسا، راجين منكم تقديم الحوافز المغربية لاستقطاب هؤلاء.

لم ينتظر طويلاً حتى جاءه الردُّ سريعاً من المدير التنفيذي، قائلاً فيه:

- السيد المحترم محمد علي:

تأكد أننا نضع ثقة تامة فيما تقوم به، وقد وضعنا موارد الوكالة تحت تصرفك في كل ما من شأنه أن يرتقي بالوكالة بشكل عام ومركز تقنيات الفضاء بشكل خاص.

اطمأن من وقوف المدير التنفيذي بجانبه، وكرّس وقته وجهده لإنجاح خطته، ولم يمر عام على عمله في هذا المركز حتى ذاع صيته مقروناً بوكالة ناسا الشهيرة ومركز تقنيات الفضاء الذي بزغ نجمه بقدمه إليه.

كذلك، فقد طار صيتُ الوكالة ومركز تقنيات الفضاء إلى الدول الإسلامية، مما حفّز العديد من العلماء والباحثين فيها للتواصل مع الوكالة بشكل عام ومركز تقنيات الفضاء بشكل خاص طالبين العون لتوجيه شيءٍ مما يجري في الوكالة إلى البلدان الإسلامية. هنا وجد الفرصة سانحة؛ فتقدّم إلى رئاسة الوكالة بمشروعه الحضاري الذي طالما حلم بتحقيقه، وما كان مدراء الوكالة ليرفضوا له طلباً وقد شاهدوا بأأم أعينهم ما حققه لهم خلال عام واحد.

تلخص مشروعه في فتح مراكز أخرى لتقنيات علوم الفضاء في جامعات بعض الدول الإسلامية؛ بحيث تكون روافد لمركز تقنيات علوم الفضاء في

مركز كينيدي، سواءً من حيث الدراسات والأبحاث التي تقام، أم من حيث تخريج العلماء والباحثين. اجتهد في هذا المشروع لنقل تقنيات الفضاء إلى الدول الإسلامية، وفي الوقت نفسه فتح آفاق جديدة لبزوغ علماء مسلمين يهتمون بعلم الفضاء وتقنياته.

عرضت عليه الوكالة تشكيل فريق رفيع المستوى يضم نخبة من العلماء والمتخصصين في علم الفضاء، بالإضافة إلى مسؤولين كبار في الوكالة، وذلك لزيارة بعض الدول الإسلامية، ومحاولة إقناع المسؤولين فيها لتبني هذا المشروع، ووضع الترتيبات اللازمة له.

سُرَّ كثيرًا بهذا، فقد وجد أنه قد تحققت له واحدة من الأحلام التي كانت كثيرًا ما تسيطر على فكره. وفعلاً، قام الفريق بزيارة الدول الإسلامية، الواحدة تلو الأخرى. وبصفته رئيسًا للفريق، ولكونه مسلمًا، فقد كان يتحدث باسم الفريق وباسم وكالة ناسا، وكان يستقبله في كل دولة كبار المسؤولين من وزراء ووكلاء وزارات وغيرهم. وكان في بعض الدول يُدعى الفريق بأكمله للالتقاء بالرئيس أو الأمير أو الحاكم، وكثيرًا ما كانت تقام على شرفهم مأدبات الغداء أو العشاء، وكان الفريق يقضي بضعة أيام في كل دولة، ثم ينتقل إلى دولة أخرى. اصطحب معه شيماء وطفليه عبدالله ونسيبة، وكانت فرصة جديدة لشيماء لتروي ضماًها بالعديد من المعلومات التي كانت تبحث عنها. عندما قَدِمَ الفريق إلى المملكة، كان محمد قد أخبر أعضاء الفريق بأن هذا هو موطنه الأصلي، وأن أهله يعيشون فيه. لذا، فقد وضعوا في برنامج زيارتهم للملكة أن يزوروا البلدة التي يسكن فيها أهله. استقبلوا في المملكة من قِبَل وفد رسمي يتكون من بعض الوزراء والوكلاء ورؤساء بعض الجامعات والمؤسسات المعروفة.

البدلة العجيبة

كان بعض هؤلاء يُدرك ملامح محمد العربية، وخاصة من خلال لهجته، ولذا كانوا يسألونه عن بلده. وكم كان تعجب الكثيرين منهم، وفي أحيانٍ الشعور بالفخر والابتهاج، عندما يعلمون أنه من أبناء المملكة. وكثيرًا ما كان يقضي جزءًا كبيرًا من وقت مآدبات الغداء والعشاء ليُقصَّ عليهم رحلته من بلده، وتفوقه، وأحواله في أمريكا.

قضى الفريق ثلاثة أيام وهم في اجتماعات متواصلة مع المسؤولين في المملكة، وفي زيارات للجامعات والكليات العلمية، والاجتماع برؤسائها والمسؤولين فيها. وفي اليوم الثالث تلقى الفريق دعوة من جلالة الملك لتناول وجبة عشاء على شرفه. لبي الفريق الدعوة، وكان العشاء في أحد القصور الملكية. حضر مأدبة العشاء العديد من الوزراء والوكلاء والدبلوماسيين ورؤساء الجامعات والكليات وممثلين عن بعض المنظمات الدولية.

عندما وصل الفريق إلى القصر الرئاسي قام أعضاء الفريق، يتقدمهم محمد، بمصافحة الملك ومَن حضر من المدعوين، ثم أُجِلس محمد بجانب الملك، وأُجِلس بقية أعضاء الفريق بجانب محمد، وجلس الوزراء في الجهة الأخرى من الملك. التفت الملك إلى محمد، وقال له:

– نحن سعداء بزيارتكم للمملكة، وقد علمنا أنكم تقومون بدراسات حول علوم الفضاء تُمكن أمريكا من مدِّ جسور التواصل مع الدول الإسلامية في هذا الجانب.

– هذا صحيح يا جلالة الملك، وبإذن الله ستتبع هذه الزيارات والدراسات خطوات عملية نرمي من خلالها إلى نقل تكنولوجيا علوم الفضاء إلى الدول الإسلامية.

– يبدو من اسمك وهيئتك أنك مسلم، فمن أيِّ بلد أنت؟

نكسَّ محمد رأسه قليلاً، ثم رفعه وقال للملك وهو يبتسم:

– أنا من أبناء المملكة يا جلالة الملك!!

ظن الملك أن محمداً يمازحه، فعلق مماًزحاً:

– أهلاً بكم جميعاً في المملكة، وإذا كنتم توافقون فسنعطيكم جنسيات في

الحال!!

نكسَّ رأسه مرة أخرى، وهو يرى أن الملك لم يعرفه، رغم أنه التقى به من

قبل، ولم يفهم مقولته، فقال له:

– يا جلالة الملك، أقصد أنني وُلدتُ وترعرعتُ في المملكة!!

نظر الملك إليه مندهشاً، وقال له:

– أحقاً ما تقول!!؟

– نعم يا جلالة الملك.

– فلماذا إذن أنت في أمريكا؟! ولماذا ترأس وفدًا يمثل أمريكا؟!!

نكسَّ رأسه مجدداً، وصمت قليلاً وكأنه يسترجع الماضي المؤلم والمعاناة

التي مر بها، ولكنه لم يشأ أن يُحرج الملك، فقال له:

– لقد تخرجتُ من أمريكا يا جلالة الملك، وطمعتُ بأن أحصل على وظيفة

هنا في المملكة، ولكنني ما وُفِّقتُ لذلك، فعدتُ إلى أمريكا وواصلتُ دراستي.

وأعمل حالياً مديراً لمركز تقنيات الفضاء في وكالة ناسا.

لم يقابل الملك ما قاله محمد بتأسُّفٍ لأنه – أي الملك – والمملكة لم

البدلة العجيبة

يستطيعا أن يوفِّرا له أبسط حقوقه، وهو الحصول على وظيفة مناسبة. لكن على العكس من ذلك، أحسَّ الملك أن محمداً قد تجاوز حقوقه، وقصَّر في واجباته تجاه الملك والمملكة. قال له بنبرة الكبرياء المعهودة:

- ولكن هذا لا ينبغي أن يحدث؛ إنك من أبناء المملكة، ومن حقنا عليك أن تخدم هذا البلد الذي ربك ونشأت فيه!!

لم يشأ أن يدخل معه في مشادات كلامية، فهو يعلم أنه الآن يمثل فريقه، ويمثل وكالة ناسا، ويمثل أمريكا، وأيُّ خطأٍ أو زلة لسان قد تسيء إلى سمعته كثيراً. لذا، ردَّ عليه بابتسامة حزينة تخفي وراءها أحداً لا يعرفها غيره هو، وقال له:

- كما أخبرتكم يا جلالة الملك، فإني ما كنت سأتخير على بلدي بلداً آخر، ولكنني عندما لم أحصل على وظيفة تناسبني، ما كان لي من خيار إلا ترك بلادتي والهجرة إلى أمريكا.

هنا ردَّ عليه بنبرة فيها شيءٌ من الغضب:

- ولماذا لم تأتِ إلينا حتى نعطيك الوظيفة التي تطلبها؟

نكسَّ رأسه، وكأنه يتسم في داخله ويقول: أظنك لا تملك لنفسك أمراً، فكيف تستطيع أن تهيء لي الوظيفة التي أنشدها؟! رفع رأسه، وقال له:

- يا جلالة الملك، أنت لم تتذكرني، ولكنني جئتُ لمقابلتكم، وعرضتُ عليَّ وظيفةً لم تناسبني.

اشتاط غضبه، فردَّ عليه بصوتٍ سمعه من بجانبه:

- أية وظيفة؟!!!

- لقد عرضتُم عليَّ أن أكون أحد مرافقيكم.
ردَّ بكبرياء:
- إنني لا أتذكر، فمتى جئت لمقابلتنا؟
- لقد نشر الديوان الملكي لي كتابًا بعنوان (دور النهضة المباركة في إثراء البحث العلمي).
عندها استرجع ذاكرته، فقال:
- نعم أتذكر ذلك، ولكن لم نخبرنا حينها أن الوظيفة التي عرضناها عليك لم تكن تناسبك.
ردَّ عليه بتهكُّم:
- ولو فعلتُ ذلك، فماذا سيحدث يا جلالة الملك؟
ردَّ الملك بسرعة:
- كنا سنعطيك أية وظيفة تطلبها!!
- كنتُ أطلب وظيفة في تخصُّصي، أي في علوم الفضاء.
ردَّ عليه ممازحًا:
- إذن، كنا سنجعلك مديرًا لمركز أبحاث الفضاء.
رأى أن الملك ليس عنده ما يقوله، فأراد أن يقطع الحديث، فقال له:
- أظن أنني مرتاحٌ حاليًا في الوظيفة التي أنا فيها!!
- وإلى متى ستبقى هنالك؟
- إلى أن يشاء الله.

البلدة العجيبة

أدرك الملك عزة نفس محمد، وأنه لا يريد أن يتذلل له، فشاط غضبه، ولكنه تصرّف بحكمة؛ فطلب من الجميع أن يقوموا لتناول العشاء. قام الجميع، ثم خرج هو دون عشاءٍ ودون أن يُسلم على الوفد.

في اليوم التالي ذهب محمد والوفد لزيارة بلدته، والتقى بوالديه، والتقى أيضًا ببعض معلميه، وكانت والدته قد أعدت غداءً للجميع في بيتهم. عاد الوفد إلى العاصمة، بينما بقي محمد وشيماء في البلدة. وفي اليوم التالي، ودّعا أهلهما، ثم عادا إلى العاصمة والتحقا بالوفد، وقضوا ذلك اليوم في إنجاز بعض المهمات المتبقية.



بعد أن عاد الوفد إلى أمريكا قاموا بتلخيص النتائج التي توصلوا إليها، ووجدوا أن غالبية الدول الإسلامية تخلو من أية اهتمام بعلم الفضاء، وبعضها كان اهتمامها طفيفًا جدًا. لذلك، قام بوضع برنامج عملي للبدء في تعريف دول العالم الإسلامي بتكنولوجيا الفضاء، واستطاع أن يقنع وكالة ناسا بدعم ذلك البرنامج. وفعلاً، أبدت الوكالة دعمًا كبيرًا له ولبرنامجها، ورصدت له ميزانية ضخمة، ودعت الكثير من الهيئات والمنظمات إلى مشاركتها في تفعيله.

واستطاع أيضًا أن يقنع مسؤولي الوكالة بتقديم منح سنوية لدول العالم الإسلامي لدراسة علوم الفضاء في أمريكا، فصارت هذه المنح تُقدّم إلى بعض الدول كل عام، ومن كانت تفوتها هذه الفرصة، كان محمد يرتب لوفدٍ منها لزيارة أمريكا، وبالأخص وكالة ناسا، والتعرّف على ما يجري في مجال علوم الفضاء.

رأى أن المِنَح التي تقدمها وكالة ناسا في كل عام لا تكفي أن تُغيّر من واقع العالم الإسلامي في هذا المجال، ولذلك اتصل بالجامعة الإسلامية الأمريكية وأقنعهم بأن يفتحوا قسمًا لعلوم الفضاء، ودعا الجامعة والموسرين ممن يعيشون في أمريكا أو خارجها إلى دعم هذا القسم وتقديم مَنَح لطلاب العالم الإسلامي لدراسة علوم الفضاء في هذه الجامعة، على أن يتم انتقاء المتقدمين انتقاءً خاصًا أشرف عليه بنفسه.

كذلك، فقد أنشأ بنفسه هيئةً علمية غير ربحية تُعنى برصد واقع علوم الفضاء في الدول الإسلامية، وبدأ بفتح مكاتب لهذه الجمعية في بعض الدول الإسلامية. وكان من أنشطة الجمعية حث المسؤولين في تلك الدول للاهتمام بعلوم الفضاء من خلال تدريسه في الكليات والجامعات، ومن خلال تشريب المناهج الدراسية به. كذلك، كان من أنشطة مكاتب هذه الجمعية التواصل مع دوائر البعثات في تلك الدول والمؤسسات الكبرى التي تقدم مَنَحًا للدراسة، وتشجيعهم على إدراج قسم علوم الفضاء في الجامعة الإسلامية الأمريكية كأحد الخيارات المتاحة لخريجي الثانوية.



كان يحصل في كل عام على إجازة سنوية لمدة ستين يومًا، كان يقضي الثلاثين يومًا الأولى منها في المملكة، وهو يواصل مع أساتذته المشاريع الدعوية التي بدؤوها، ويقضي بقية الإجازة داخل أمريكا وفي بعض الدول الإسلامية وهو يتابع سير الجمعية، ويلتقي بالدعاة والمفكرين ويحثهم على الارتقاء بعلوم الفضاء والعلوم الأخرى.

كان في سائر رحلاته يصطحب شيماء معه، وكانا في ترحالهما ومكثهما لا يفتآن يتحدّثان عن الدعوة ومناقشة قضايا الأمة، وكان لها دورٌ رائدٌ في

البدلة العجيبة

الاهتمام بالنشء، وتعاون محمد معها في إقامة روضات إسلامية للأطفال، لا تهتم بالترويج عن الأطفال فحسب، وإنما بتربيتهم تربية إيمانية وفكرية صادقة. أما في المملكة، فقد أقام فيها مشاريع خيرية ومؤسسات دعوية استطاعت أن تهتم بالنشء، وترتقي بمستوياتهم العلمية والإيمانية والسلوكية.

* * * * *

لم تصبح اهتماماته مُنصَّبةً فقط على التميُّز في وظيفته والدعوة في أمريكا، وإنما توسَّع إلى أنحاء العالم الإسلامي، وبدأ يلتقي بالدعاة والعاملين في الحقل الإسلامي، ورشحته رابطة العالم الإسلامي لرئاسة لجنة علوم الفلك في الرابطة، وتلقى دعوات من دول إسلامية عديدة لزيارتها وإلقاء المحاضرات بها.

كل تلك الشهرة دعت الأمم المتحدة لأن تُعيَّنه مبعوثاً لها للدول الإسلامية فيما يتعلق بقضايا العلوم والتكنولوجيا، وكان يستغل تلك الفرص للالتقاء بالمسؤولين وأعيان البلدان والدعاة والعلماء، وكان في كل أحواله يحفزهم على البذل والعطاء، وعلى الارتقاء بالأمة، وعلى وحدة الأمة ونبد الخلافات، وتربية الأجيال على ما يُرضي الله - سبحانه وتعالى -، وفيما يرفع من شأن بلدانهم.

بدأ يخطط لإقامة المؤسسات العلمية والدعوية في بلدان العالم الإسلامي، واستغل علاقاته وروابطه بالمسؤولين وصناع القرار والعلماء والدعاة في كل بلد لتحقيق الطموحات التي طالما حلم بها. وقام كذلك بإنشاء مراكز للدعوة، وفتح فروعاً لروضات الأطفال الإسلامية التي بدأتها زوجته، وقام بنشر العديد من البحوث والدراسات حول نهضة الأمة، وسبل الارتقاء بها، وكيفية الاستفادة من وسائل العصر في هذا الجانب.

بدأت أسرته في النمو، ومع تقدُّم التكنولوجيا الحديثة صارت شيماء تدير روضات الأطفال وتتابع العمل في مجلات الأطفال التي أصدرتها وهي في بيتها في مدينة أورلاندو بولاية فلوريدا. أما هو فقد توزَّع جهده بين مواصلة الارتقاء بمركز تقنيات الفضاء وبين متابعة سير الهيئات والجمعيات العديدة التي أنشأها في الدول الإسلامية بصفة مباشرة أو بالتنسيق مع العلماء والدعاة فيها، وكان على تواصلٍ مباشرٍ بها، وكثيرًا ما كان يُنظِّم اجتماعات عن بُعد مع المسؤولين فيها.

لكن أكثر ما كان يشغل فكره هو الارتقاء بمراكز تقنيات علوم الفضاء التي قام بافتتاحها في بعض الدول الإسلامية بتمويل وكالة ناسا وإشرافها. لقد استطاع أن يُوجِّه إلى تلك المراكز خيرة العلماء والباحثين، ورَتَّب لهم برامج للتدريس في جامعات وكليات تلك الدول، وجعل لهم برامج لتوعية الناس و تثقيفهم للارتقاء بالعلوم والتكنولوجيا في تلك البلدان.

وكم كانت فرحته الغامرة عندما كان يرصد في واحد من تلك المراكز أحد الأجرام السماوية مع عالم مسلمٍ آخر - والذي كان أيضًا يرأس في بلاده جمعية الدعاة والمفكرين-، واستطاعوا اكتشاف أول جرم سماوي يحمل خصائص كرتنا الأرضية بما لا يدع مجالاً للشك من إمكانية العيش عليه كما هو الحال في الأرض.

كانت شيماء حينها ترقد في سريرها في المملكة، فلم يصبر حتى اتصل بها، وبشَّرها بهذا الخبر الذي سيهزُّ العالم لسنوات قادمة. لم تملك نفسها فقفزت من سريرها وهي تصرخ بأعلى صوتها: الله أكبر.. الله أكبر. استيقظ مَنْ في البيت لهذا التكبير، وجاؤوا يهرعون إليها، وما هي إلا لحظاتٍ حتى علت

البدلة العجيبة

أصوات الجميع بالتكبير والحمد والثناء لله عندما أخبرتهم بذلك الاكتشاف. في صبيحة اليوم التالي التقى ببقية إخوانه في ذلك المركز، وتأكدوا من صحة ما توصلوا إليه، وما هي إلا ساعات حتى طار الخبر إلى وكالات الأنباء في العالم، وتقاطر الصحفيون والإعلاميون، وترأس محمد مؤتمراً صحفياً لينقل هذا الخبر المذهل إلى جميع أرجاء العالم.

بعد شهر من هذا الحدث الكبير، دعت الولايات المتحدة زعماء الدول إلى اجتماع في مقر الأمم المتحدة، وكان لحاجة في نفس يعقوب، ألا وهي لثبّت هيمنتها على العالم ليس فقط عسكرياً واقتصادياً، ولكن حتى في مجال الفضاء. بقي ملك المملكة والرؤساء والوفود المرافقة لهم يرقبون ظهور فارس الميدان، والذي كان ملك المملكة لا يشك أنه رئيس الولايات المتحدة. وكم كانت مفاجأة غير متوقّعة له عندما رأى محمداً وهو يمتطي منصة الأمم المتحدة بلباسه العربي وطاقيته العربية ولحيته الكثّة. لم يجد الرؤساء بدءاً إلا الوقوف احتراماً لهذا الفارس، وعلت أصوات الأُكف وهي تُصَفّق لمحمد علي الذي - بلا شك - سيُغيّر اكتشافه مجرى التاريخ على هذه الأرض.

حاول ملك المملكة أن يجد عذراً لعدم الوقوف له، ولكنه في النهاية قام صاغراً وهو يُصَفّق بيديه تصفيق نفاق، وهو يُردّد في سرّه مقولة أبي جهل لعبدالله بن مسعود - رضي الله عنه - عندما اعتلى صدر أبي جهل وغرس سيفه فيه، فقال له: لقد ارتقيت مرتقاً صعباً يا رويعي الغنم.

نظر محمد إلى هذه الجموع الغفيرة من الرؤساء والوزراء وقادة الأمم وهم يقفون صاغرين بين يديه، وتذكّر رؤيا الأسد الذي كان يمتطيه عندما أنزله على

صخرة عالية، ورأى الحيوانات وهي تجشوا على ركبها ساجدة له. أيقن حينها أن هذا أوان تحقُّق رؤياه، فلم يتمالك نفسه حتى اغرورقت عيناه بالدموع وهو يتذكر فضل الله عليه ونعمه.

أشار إلى الحضور بالجلوس ثم بدأ - كعادته باللغة العربية - بالحمد والثناء لله سبحانه، ثم الصلاة على النبي الخاتم - عليه أفضل الصلاة والسلام -، ثم استعاذ وتلى قوله تعالى: [رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحَقْنِي بِالصَّالِحِينَ].

صمت قليلاً، ثم بدأ يشرح للزعماء والقادة تفاصيل الاكتشاف العظيم الذي امتنَّ الله به عليه، ويعرض الصور التي التقطتها مجسَّات الفضاء. وبعد أن انتهى، قام الزعماء من جديد وهم يُصنِّقون احتراماً له وإجلالاً لهذا الاكتشاف المذهل الذي توصَّل إليه.

د. صالح بن مطر الهطالي



رواية المهاجر

روى